حضارة وتاريخ إسلامى (٢)

كلية التربية
قسم اللغة العربية
الفرقة الثانية

الدكتور
محمد عكاشة
كلية الآثار جامعة جنوب الوادى
الدكتور
مدحت محمد عبد الحارث
كلية الآداب – جامعة جنوب الوادى

الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور
محمد عكاشة
كلية الآثار جامعة جنوب الوادى

الدكتور
مدحت محمد
كلية الآداب ـ جامعة جنوب الوادى

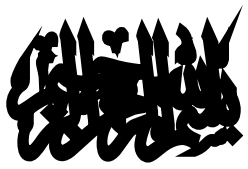

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

(البقرة:٣٢)

مقدمة

الأمم بحضارتها ، وبمقدار ما يكون للأمة من يد على الحضارة بمقدار ما يكون لها من عظمة التاريخ ، وكل أمة لا حضارة لها ولا تاريخ ٠

وما كان للعرب والمسلمين كان منهم للحضارات خلاصة وكان منه التفوق والنبوغ وحين يكون التفوق هو فى الشأن العقلى والعلمى فإن ذلك ينعكس أثره على مناحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتقاس حضارة الأمم بمقدار عطائها لا بقدر أخذها ومن جانب العطاء نجد أن العرب والمسلمين " خير أمة اخرجت للناس " ٠

فالحضارة العربية الإسلامية استلهمت الإسلام وتفاعلت معه ولم يكن بينهما انفصال والفروق الجزرية بينهم لم تمنع من لقاءات حضارية خلت من السلاح والحقد والصراع وكانت غنية بالعطاء والخير ٠

والحضارة العربية الإسلامية سجل تاريخى يوضح تطور العقل البشرى فهى فى الحقيقة امتداد للحضارات السابقة لها ولكنها ذات شخصية متميزة ومفتوحة ، وليست كالحضارة الغربية خلال العصور الوسطى مغلقة على نفسها ، فهذه الحضارة ترجع أولا إلى العرب وثانيا إلى سكان البلاد التى فتحها العرب ودخلوا فى الإسلام ، ولذلك تسمى بالحضارة العربية والإسلامية ٠

ودراستنا للحضارة الإسلامية بدأت ببداية الإسلام لأنهما لا ينفصلان عن بعضهما ، وكان اهتمامنا بمعالمها فى عصرها الذهبى منذ مطلع العصر العباسى حتى أغار التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وحولها التتار إلى كومة من الرماد ، فكان العصر الذهبى للحضارة الإسلامية قد استمر نحو خمسة قرون من الزمان ٠

ولكل حضارة عبر عصور التاريخ صفتها المميزة التى تكسبها طابعا خاصا يميزها عن غيرها من الحضارات السابقة عليها أو اللاحقة لها ، وإذا كانت الحضارة الإسلامية باعتراف كافة الباحثين فى الشرق والغرب هى أعظم حضارة عرفها العالم أجمع فى حقبة العصور الوسطى فإن من أبرز الصفات المميزة لهذه الحضارة أنها حضارة إنسانية استهدفت خير الإنسان والرحمة به وتحقيق أكبر قدر من النفع له والعمل على السمو به إلى أعلى المستويات روحيا وفكريا ومعيشيا ٠

والحضارة العربية الإسلامية يدين لها العالم بالكثير ليس فقط لحفظها التراث القديم الذى ورثته ، ولكن الابتكارات والشروح الجليلة التى قام بها علماء العرب والمسلمين فى العلوم ٠

إن فضل العرب والمسلمين على الحضارة الإنسانية لا يستطيع إنسان وصفه والتعبير عنه حيث أنهم بفتوحاتهم العظيمة اتصلوا بالحضارات المختلفة فجمعوا هذه الحضارات وصهروها ، وقدموا

حضـارة عربيـة وإسـلامية تفـوق الحضـارات التـى سـبقتها بـدرجات كبيـرة ، لـذا نجـد أن الـدين الإسلامى هو المحرك الحقيقى لمناحى هذه الحضارة فهو المحرك للتطبيق العلمى على الحياة اليومية ٠

ومما لا شك فيه أن علماء العرب والمسلمين استفادوا من إنجازات الأمم التى سبقتهم والأمم التى اختلطوا بها بعد الفتوحات الإسلامية وذلك بحصولهم على نتائج تجاربهم العلمية ، لذا فإن الحضـارة عبـارة عـن تـراث ونتـاج مشـتركين بـين الأمـم المختلفـة ، هـذا وقـد أثـرت الحضـارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية فى الكثير من فروع المعرفة ٠

وسوف يتضح لنا مدى تقدم وازدهار الحضارة العربية الإسلامية من خلال هذه الدراسة التى تناولت جوانب من تلك الحضارة ، حيث أن هذه الحضارة غنية بجوانبها ولا تسع الدراسة لتناول هذه الجوانب جميعها ولذلك نتناول بعض الجوانب المؤثرة فى العالم عامة ٠

دكتور

إبراهيم علي القلا

مفهوم الحضارة

الحضارة[1] فى مفهومنا العام ـ هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصود أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية .

وهذا المفهوم للحضارة مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ لأن التاريخ كما سنرى هو الزمن ، والثمرات الحضارية – مادية أم معنوية – تحتاج إلى زمن لكى تطلع ، أى أنها جزء من التاريخ ، أو نتاج جانبى للتاريخ ، وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن ، أو لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما فى نفس الوقت ، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان[2] .

وكلمة حضارة لها أكثر من تعريف أيضا فهى الإقامة فى الحضر والحاضرة هى المدينة ، والمدينة تعنى الحضارة واتساع العمران ، وكلمة تمدن تعنى العيش حياة أهل المدن والأخذ بأسباب الحضارة[3] والحضارة أيضا نظام اجتماعى يعيش الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى[4] كما أنها الروح العميقة للمجتمع وتقوم على تأكيد الأصالة الروحية والحقيقة الفلسفية والعاطفية للإنسان[5] . وعلى الرغم من تعدد تعاريف الحضارة ومدلولها ، فهى مستوى التقدم الذى بلغه المجتمع فى ميدان الفكر والاجتماع والاقتصاد والتكنولوجيا[6] .

والحضارة التى ندرسها توصف بالحضارة العربية أو الحضارة الإسلامية وهذا لا يعنى أن سكان الجزيرة العربية الذين دخلوا فى الإسلام هم وحدهم الذين أسهموا فيها ، فالمقصود بالحضارة العربية الإسلامية ، أنها تشمل جميع الشعوب التى تحدثت العربية وعاشت فى دار الإسلام فى ظل الخلافة الإسلامية بصرف النظر عن الجنس والدين ، ولذلك يدخل فيها مع العرب الأجناس الأخرى حيث حوت أراضى الخلافة الإسلامية العديد من العناصر بجانب العرب ، مثل الفرس والمغاربة ، والسودانيون والأقباط ، والنصارى واليهود وأيضا أصحاب الديانات الأخرى[7] .

وقد وصفت هذه الحضارة بالعربية لوجود ما ينتمى للعربية فيها وأهم ذلك هو اللغة العربية التى حفظت منها أصول هذه الحضارة وفروعها ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية وبها كتب ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[8] وبها دونت السنة النبوية وحفظت ، وتعلم بها من اعتنق الإسلام وانضوى تحت لواء هذه الحضارة وكانت اللغة العربية لغة الدول القائمة بها ، ولذا فلا غرابة أن تكون العربية ضمن تسميتها ، وكان لفظ عربى والعربية رديف لفظ الإسلام[9].

ووصفت أيضا بالعربية لأنها قامت فى البيئة التى كان العرب يسكنونها ومنحوها جهدهم وجهادهم ، وكانوا رسلها ، وحملوها إلى الناس ، وعلى أكتافهم قامت دولتها التى اتسعت وبلغت المحيط الأطلسى وامتدت نحو أوربا وبلاد السند والهند ، وأفريقيا وخدموها ، خلفاء وسلاطين وأمراء ووزراء ، وأهل صناعة وزراعة وتجارة ، ومعلمين ومفكرين ، وبذلك أخذت هذه الحضارة من العربية هوية الوجه واللغة[١٠] .

وعرفت بالحضارة الإسلامية للفكر الإسلامى الذى كان مضمون هذه الحضارة ومحتواها وأساسها الذى قامت عليه ممثلا فى القرآن الكريم ، وما يترتب عليه من ثراء ثقافى ، وتشعب فكرى وتنوع وتطور الكلام وفلسفته مما زاد الحياة الفكرية ثراء[١١] .

أصول الحضارة الإسلامية :

إنه ليس من السهل معرفة أسس الحضارة الإسلامية وذلك لأنها كأى حضارة لم تظهر من عدم ، وإنما سبقتها حضارات هى مصادرها ، فالحضارة أخذ وعطاء ، ونتيجة مشتركة لعناصر قديمة وجديدة ، ولذا فإن أسس الحضارة الإسلامية ترجع أولا إلى العرب ، وثانيا إلى سكان البلاد التى فتحها العرب[١٢] .

أقام العرب المسلمون حضارة جديدة هى أعظم حضارات العالم فى العصور الوسطى ، وهذه الحضارة العربية الإسلامية هى التى جعلت العصور الوسطى عصور مضيئة بالقياس إلى ما سبقها فى غرب أوربا أو أخر أيام الدولة الرومانية القديمة .

ومع أن العرب المسلمين أخذوا من الحضارات التى سبقتهم أو عاصرتهم شيئا غير قليل فإنهم ما أخذوه من هذه الحضارات بالتغيير والتبديل والحذف والإضافة ونجم عن ذلك كله حضارة جديدة لها طابعها الخاص وهو طابع الإسلام والعروبة واللغة العربية التى بها القرآن الكريم[١٣] .

وترجع هذه الحضارة إلى الأصول الآتية :

١- الأصل الإسلامى .
٢- الأصل العربى .
٣- المؤثرات الفارسية .
٤- المؤثرات اليونانية الرومانية .

الأصل الإسلامى :

الإسلام عقائد وأعمال :

فالعقائد: ١- تنظيم الإيمان بإله واحد هو رب العالمين .

٢- والإيمان بالبعث بعد الموت .

٣- والإيمان بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة ٠

والأعمال : تنقسم إلى عدة أنواع :

الأول : أعمال تنزل منزلة العقائد وهى الصلاة والزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ٠

الثانى : أعمال تتصل بالأخلاق وهى التحلى بمكارم الأخلاق وآداب اللياقة، والوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدائد والعدل ، وعفة النفس ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ٠

الثالث : أعمال عبارة عن تطبيق ما جاء به الشرع خاصة بالأسرة أو المعاملات التى تجرى بين الناس ، والجنايات التى تقع فى المجتمع وشئون السلم والحرب ٠

وللإسلام أثر بالغ فى الحياة العقلية للمسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب وحدة فكرية رائعة ، ومن علاماتها علوم التفسير والحديث والفقه ، والسير والمغازى أو علم التاريخ ، والإسلام عامة يحث على التدبر والتفكير فى الكون الذى نعيش فيه ، وفى ظواهره المختلفة ، فأدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهى الجغرافيا والكيمياء والفيزياء ، والفلك والطب ، والإسلام هو الذى انطبعت حياة المسلمين بطابعه ، سواء فى ذلك نظمهم العامة ، السياسية والإدارية والمالية ، وأحوالهم الاجتماعية ، وكذلك فنونهم وآدابهم ٠

والدين أساس الحضارة ، وإذا تعمقنا فى منشأ الفلسفة والعلوم والفنون ، وكل فرع من فروع المعرفة الإنسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثرا فى كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية[١٤] ٠

والدين أحكم مرشد وأهدى قائد للإنسان إلى الحضارة والمدنية القائمة على المعارف الحقه والأخلاق الفاضلة ، وهو أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والفنون والآداب ٠

والإسلام دين يتجاوب مع أرفع الأنظمة وأفضل التقاليد ، ويعمل لخير الإنسانية كافة ، ووسعت رحابه الملل والنحل المتباينة ، فعاشت تحت ظله فى أمن وهدوء وسكينه ، والإسلام يعمل على علاج المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى العالم ، إذ أنه نظام مؤسس على قواعد اجتماعية وعمرانية لا نظير لها ، وهو دين كل عصر وكل مكان ٠

والإسلام يتفق مع التطور الإنسانى والتقدم البشرى ، ولا يتعارض مع العقل أو المنطق أو مقتضيات الحياة ٠

٢- الحضارة العربية :

يأتى بعد الدين الإسلامى ، ينبوع ثان من الينابيع التى أسهمت فى الحضارة الإسلامية ، وذلك هو حضارة العرب ، وإن كان بطبيعة الحال أقل شأن من الينبوع الأول ، إلا أنه كان ذا أثر واضح فى تلك الحضارة ٠

والعرب يقصد بهم سكان الجزيرة العربية داخلها وأطرافها ، وهم العنصر الفعال فى الدولة الإسلامية ، وخاصة فى صدر الإسلام ، وكان لهم ثقافة انفردوا بها، ومثال لذلك أن حرصهم على أنسابهم أدى إلى قيام على الأنساب ، لمعرفة أنساب القبائل والأفراد ، وظهرت فى الأنساب كتب لابن الكلبى ، وابن حزم وغيرهما[١٥] ٠

وللعرب فى الجاهلية والإسلام العديد من الشعراء الذين حملوا لواء الشعر العربى ، وهذا الشعر هو ديوان أخبار العرب وسجل أحداثهم ، وكنز لغتهم وبلاغتهم ، وللعرب تراث وفير من الأمثال والحكم ، سجلت فى كتب أهمها كتاب الأمثال للميدانى[١٦] ٠

وأسهم العرب فى بناء الحضارة الإسلامية بالآداب والعادات التى اتصفوا بها من حيث الشجاعة ، والعفة ، وحفظ الجوار ، والكرم ، واحترام المرأة والولع بالشعر ، وفصاحة اللسان ، وشاعت هذه الصفات الحميدة فى المجتمع الإسلامى[١٧]

وكان للعرب حضارات قديمة فى أطراف الجزيرة العربية ففى :

- الشرق كانت الكلدانيين والأشوريين ٠
- وفى الشمال وجدت حضارة الآرميين والكنعانيين والأنباط ٠
- وفى الجنوب وجدت حضارة معين وسبأ وحمير ٠
- وفى الغرب قامت مدن متقدمة مثل الثموديين والمكيين وغيرهما[١٨] ٠

٣- الحضارة الفارسية والهندية :

وتمثل الينبوع الثالث الذى أثر فى الحضارة العربية الإسلامية فى حضارة بعض الأمم الأسيوية المتحضرة التى دخلت فى الإسلام ، ولا سيما الفرس والهنود المسلمين ٠

والفرس أمة ذات حضارة قديمة ازدهرت خلال عصر الدولة الساسانية التى نبغت فى فنون السياسة والإدارة والحروب ، ومظاهر الترف والرفاهية ، وكان لها دين رسمى هو الزرادشتى ولغة خاصة هى الفهلوية[١٩] ٠

ولما دخل الفرس فى الإسلام أقبلوا على دراسة مبادئه وعلومه ، وتعلموا اللغة العربية حتى ساهموا فى الحركة العلمية والتأليف فى مختلف العلوم ، ولذا أفادوا الحضارة الإسلامية فوائد جمة ، فنحن نجد الكثير من الألفاظ الفارسية نقلت بذاتها إلى اللغة العربية[٢٠] .

كما انتقل فن الغناء إلى الحضارة الإسلامية من الفرس ونبغ الكثير من الفرس فى الشعر ، مثل إسماعيل بن يسار وأبى نواس ، وابن المقفع وغيرهم .

وخلال العصر العباسى زادت حركة تأليف الفرس الموالى فى مختلف العلوم الإسلامية وانتقلت إلى الحضارة العربية الإسلامية عن طريق هذه الحركة بعض العلوم عن الهنود وغيرهم من الشعوب الأسيوية المتحضرة[٢١] .

٤-الحضارة اليونانية الرومانية :

أما الينبوع الرابع للحضارة الإسلامية فهو الحضارة اليونانية التى كان لها أثرها على الحضارة الإسلامية ، فاليونان أمه عريقة فى الفلسفة والعلوم ، والفنون والآداب ، حيث نبغ منهم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ونقل السريان فى الشام والعراق إلى لغتهم السريانية الكثير من المؤلفات اليونانية قبل الإسلام ، مثل الفلسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافيا ، وعلقوا عليها وشرحوها .

تم إنشاء المدارس لتعليم الطلاب هذه العلوم فى الحواضر الكبرى ، منها انطاكيه وقيصرية ونصيبين والرها ، كما قامت بالإسكندرية مدرسة لتعليم الطب .

وخلال العصر العباسى عهد الخلفاء العباسيون ولا سيما الخليفة المأمون إلى طائفة السريان نقل الكتب اليونانية فى العلوم المذكورة إلى اللغة العربية ، فنقلوا الكثير منها إلى العربية عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية رأسا وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين[٢٢] .

وهكذا رأينا أن الحضارة العربية الإسلامية لم تظهر من عدم ، وإنما سبقتها حضارات هى مصادرها ، فالحضارة القائمة بوجه عام تكون خلاصة أو انتقاء لما فى الحضارات السابقة .

خصائص الحضارة الإسلامية :

١- تميزت بالرقى والتقدم والعدالة الاجتماعية التى استمدت من القرآن والسنة والأخذ بالوسائل التى تؤدى إلى النهوض بالبشر .

٢- شمولها ـ حيث عالا شأنها بالإسلام ، وازدهار الثقافة العربية وتقدم العمران الذى تجلى فى المنشآت المدنية والدينية .

٣- الحضارة الإسلامية حضارة عامة . فلم يكن انتشار الإسلام مقصورا على الدولة العربية ، بل امتد وتجاوزت الحدود إلى الصين والهند .

٤- الحضارة الإسلامية حضارة عامة فلم تقتصر على عصر معين ، ولم يكن من أهدافها القضاء على الحضارات السابقة بل تفاعلت معها فشملتها، وأبقت على أفضل جوانبها ، فاستوعبت حضارتى الفرس والروم السابقتين[٢٣] ٠

٥- أنها حضارة إيمانية ، انبثقت من العقيدة الإسلامية ٠ فاستوعبت مضامينها وتشربت مبادئها واصطبغت بصبغتها ، فهى حضارة توحيدية انطلقت من الإيمان بالله الواحد القهار ٠ فكان الدين الحنيف من أقوى الدوافع إلى قيامها وإبداعها وازدهارها ٠

٦- أنها حضارة معطاء ، أخذت واقتبست من الحضارات والثقافات الإنسانية التى عرفتها شعوب العالم القديم ، وأعطت عطاء زاخر بالعلم والمعرفة ٠ وكان عطاؤها لفائدة الإنسانية جمعاء ، حيث لم تفرق بين أصحاب الديانات المختلفة

٧- أنها حضارة متوازنة ، وازنت بين الجانب الروحى وبين الجانب المادى فى اعتدال هو طابع من طوابع الفكر الإسلامى وميزه من مزايا الحضارة الإسلامية، فى كل العصور ، فلا تفريط ولا إفراط ، ولا غلو بغير حق ، ولا اندفاع فى تهور ٠

٨- أنها حضارة إنسانية المنزع عالمية فى آفاقها وامتداداتها لا ترتبط بإقليم جغرافى، ولا بجنس بشرى ولا بمرحلة تاريخية ، ولكنها تحتوى جميع الشعوب والأمم ، وتصل آثارها إلى مختلف البقاع ، فهى حضارة يستظل بظلالها البشر جميعا ، وتصل آثارها إلى كل من يصل إليه عطاؤها ، فالحضارة الإسلامية قامت على أساس أن الإنسان أهم مخلوقات الله ، وأن جميع الأنشطة البشرية لابد وأن تؤدى إلى سعادته ورفاهيته ، وأن كل عمل يقصد به تحقيق هذه الغاية٠

٩- الحضارة الإسلامية حضارة دائمة ، حيث دوامها واستمرارها من مبادئ الدين الحنيف ، لأنها نابعة منها ، ولصيقة بها[٢٤]٠

مصادر ومراجع الفصل الأول

١. **الحضارة** : بكسر الحاء وفتحها ، مشتقة من الفعل حضر ، وحضر لغة ضد غاب ، ومنه الحضر والحاضرة ، والحضرة والحضارة بمعنى المدن والقرى والريف ، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التى يكون لها بها قرار أى سكن وإقامة ، وعليه كانت الحضارة لغة تعنى الإقامة فى الحضر، خلافا للبادية ، **ابن منظور** : لسان العرب مادة حضر ٠

٢. **حسن مؤنس** : الحضارة دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعرفة (٢٣٧) ، الكويت ، ١٩٩٨ ، ص١٥ ٠

٣. **المعجم الوسيط** : مادة حضر ، **أحمد حمدى محمود** : الحضارة ، ص٦ ٠

٤. **ول ديورانت** : قصة الحضارة ، جـ١ ص٣ ٠

٥. **محى الدين صابر** : التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، ص٤١ ٠

٦. **سعيد عاشور** : مذكرات فى مادة الحضارة العربية الإسلامية ، ص١ ٠

٧. **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص ١١ ٠

٨. **سورة يوسف : آية ٢٠ ٠**

٩. **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، ص ٢٣ ٠

١٠. **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، ص ٢٣ ٠

١١. **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص ١١ ٠

١٢. **محمد ضيف الله** : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٢٣ ٠

١٣. **إبراهيم العدوى** : الوطن العربى وحضارته فى العصر الإسلامى ، ص١٩٠ ، **إبراهيم سلمان الكروى** : المرجع فى الحضارة العربية الإسلامية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٩ ، ص١٦ ٠

١٤. **على حسنى الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص ٥٠-٥٣ ٠

١٥. **على حسنى الخربوطلى** : العرب والحضارة ص٤٠ ٠

١٦. **إبراهيم العدوى** : تاريخ الوطن العربى وحضارته ، ص١٩٠ ٠

١٧. **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٣ ، ١٤ ، **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٨

١٨. **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ،ص١٥ ، **إبراهيم سلمان الكروى** : المرجع فى الحضارة ، ص١٨

١٩. **إبراهيم سلمان الكروى** : المرجع فى الحضارة ، ص١٧ ٠

٢٠. **جمال الدين الفندى** : تراث المسلمين فى ميدان العلوم ، ص٢٤٦ ٠

٢١. **إبراهيم سلمان الكروى** : المرجع : ص ١٨ ٠

٢٢. **جمال الدين الفندى** : تراث المسلمين فى ميدان العلوم ، ص ٢٤٦ ٠

٢٣. **إبراهيم العدوى** : تاريخ الوطن العربى وحضارته ، ص ١٩٦ ٠

٢٤. **علي حسني الخربوطلي** : العرب والحضارة ، ص ٤٢

الفصل الثانى

النظم السياسية

الخلافة – الوزارة – ولاة الأقاليم

الحجابة – ولاية العهد – الكتابة

القضاء – الحسبة – الشرطة

الدواوين

الفصل الثانى

النظم السياسية

النظام السياسى هو مجموعة من القواعد والأجهزة المتناسقة ، والمترابطة فيما بينها التى تبين نظام الحكم ، ووسائل ممارسة السلطة ، وأهدافها وطبيعتها ، ومركز الفرد منها وضماناته قبلها ، كما تحدد عناصر القوى المختلفة التى تسيطر على الجماعة وكيفية تعاملها مع بعضها ، والدور الذى تقوم به كل منها[1] .

- **الخلافة**

ثلاثة وعشرون عاما مجيدة قاد الرسول ﷺ الأمة الإسلامية هذه السنوات غيرت مجرى التاريخ ، وكان لها تأثيرها المباشر بمنطقة شبه الجزيرة العربية حيث انصهر شعبها فى قالب واحد ومكنته هذه الوحدة ، وفى ظلها من أن يطل على العالم الخارجى بهدف نشر تعاليم الإسلام بين كافة الناس .

وفى نهاية هذه الأعوام تعرض المجتمع العربى الإسلامى لهزة عنيفة بوفاة الرسول ﷺ القائد الذى كان موفقا فى كل خطواته ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ● إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2] ، كادت هذه الهزة أن تنتهى بنكسة خطيرة ، ويتضح أثرها فى موقف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى رفع سيفه مهددا كل من يجرؤ على ترديد قول النعى[3] .

ولكن رد الناس إلى صوابهم قول أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من كان يعبد محمد فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وتلى قوله تعالى : **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[4] .**

وكانت المشكلة هى مشكلة القيادة ومحاولة ملء الفراغ الذى نتج عن وفاة الرسول ﷺ فى الإشراف على شئون الأمة[5] وشئون الأمة فى هذا الحال دين وشعب ودولة .

- بالنسبة للدين فقد اكتملت أركانه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[6] .
- والشعب فقد نعم بالعدالة والوحدة والتماسك منذ ارتضى الإسلام دينا .
- أما الدولة فقد شملت شبة الجويرة العربية وأطلت على قوة خارجية معادية ولذا فلابد لهذه الدولة من يحتفظ لها بسيادتها ولهذا تأكدت الحاجة إلى الخلافة وبدأ التفكير فى اختيار الخليفة .

لم يبلغ الرسول ﷺ نصا فى القرآن الكريم يحدد قاعدة اختيار من يخلفه ، ولم يرشد الرسول ﷺ فى حديث من أحاديثه الكثيرة من يتولى القيادة من بعده ، بالعين أو الوصف ، ولذا رجع المسلمون إلى العرف العربى القديم .

والخلافة أو الإمامة من أهم أنظمة الدولة الإسلامية التى صاغها المسلمون فى فترة دقيقة من فترات حياتهم ، كما أنها تمثل العمود الفقرى للتفكير السياسى الإسلامى ، وتعد فى الواقع أعظم ما توصل إليه المسلمون فيما يتعلق بسياسة الأمة وحكم المسلمين على الرغم من الخلاف الذى نشب بينهم حول الخلافة .

وبدأت الخطوات الأولى فى اختيار خليفة رسول الله ﷺ ، ونشأ فى سقيفة بنى ساعده - إحدى العشائر بالمدينة - حيث كان اجتماع المسلمين فى مؤتمرهم العام الأول بداية عملية لظهور الفكر السياسى الإسلامى ولقد عقد هذا المؤتمر رجال من الأنصار الذين رأوا ضرورة ملحة فى مناقشة قضية الحكم والسياسة للوصول فيها إلى حل حاسم وسريع واجتماع السقيفة يعد من أهم اللقاءات السياسية التى جمعت المهاجرين والأنصار وخاصة شيوخهم المجربين ، ومن بينهم أبو بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، واللذان استطاعا أن يمسكا بزمام الأمر وأن يحسما الأمر بالتوصل سلميا إلى إقناع الأمة ممثلة فى عدد لها من المهاجرين والأنصار باختيار الصديق رضي الله عنه خليفة لرسول الله ﷺ فى حكم المسلمين[٧] .

هذا ولما كان الأنصار قد رشحوا للخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فأسرع إليهم أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة ابن الجراح وحصل بين الفريقين حوار وجدل ، وكان مما احتج به المهاجرون الآتي :-

١- أن النبى ﷺ أوصى بكم خيرا ، ولو كانت الإمامة فيكم لم تكن الوصاة بكم

٢- وأنه ﷺ قال : " الأئمة من قريش " .

٣- وأنه ﷺ قد رضى أبا بكر لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ، فإن النبىﷺ لما اشتد عليه المرض قال : " مروا أبا بكر فليصل بالناس "[٨] .

وقيل فى استخلاف أبى بكر رضي الله عنه أنه تم بطريقة الانتخاب الاستشارية وأن استخلاف عمر رضي الله عنه كان بطريقة العهد إليه من أبى بكر ، وكان استخلاف عثمان رضي الله عنه تم بطريقة الاختيار والشورى ، وقيل فى استخلاف على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه انتخاب عارضه فريق كبير من الأمة ، وهو اختيار لم يتم ، كما نرى وفق منهج واحد أو حسب طريقة واحدة منتظمة[٩] .

جاء اختيار الصديق رضي الله عنه تأكيدا صريحا على أن الحكم الإسلامى ليس حكما وراثيا ، وإنما الفيصل فى هذا هو العلم بأمور الدين والقدرة على تحمل أعباء السياسة وحكم الرعية بما يضمن إقامة حدود الله تحقيقا للعدالة التى جاء بها القرآن الكريم[١٠] .

والخلافة نظام إسلامى لم يوجد عند غير المسلمين ، فالخليفة ينظر فى مصالح الناس الدنيوية والأخروية طبقا لأحوال الشريعة الإسلامية[١١] .

ولذلك نجد أن الشروط التى رأى الفقهاء ضرورة توافرها فيمن يلى هذا المنصب هى :

١- الحرية .
٢- الإسلام .
٣- الرجولة .
٤- العدالة .
٥- سلامة الحواس .
٦- العلم ، المؤدى إلى الجهاد .
٧- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة ـ الدولة – وجهاد العدو .
٨- النسب القرشى .
٩- سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة .
١٠- الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح [١٢] .

ومن مهام الخلفاء الآتى :-

- الاهتمام بمصالح الإسلام والمسلمين .
- عمارة الثغور .
- النظر فى أمور الرعية .
- رفع المظالم وقمع الظالمين ، وإعانة الملهوف .
- اصطناع المعروف ـ جبر الكسير ، إطلاق الأسير .
- يستمر عن ساق اجتهاده فى حماية بيضة – دولة – الإسلام .
- إقامة حدود الله وإحياء سنة رسول الله ﷺ[١٣] .

ومن مهام الخليفة النظر فى الإيرادات والمصروفات ، والإشراف على جميع شئون البلاد ، بمعاونة رجال الدولة ، وأيضا الإشراف على دور السكة [١٤] وكذلك دور الطراز ، ودور الصناعة ، وغيرها من المؤسسات التى تعمل بمصالح الأمة عامة وكان الخليفة يخرج فى المواكب العامة مثل الاحتفالات الدينية والقومية، وتوديع الجيوش واستقبال السفارات الخاصة للدول الخارجية وغير ذلك

ظلت الخلافة: انتخابية شورية زمن الراشدين ثم انقلبت إلى ملكية مطلقة على يد معاوية ، وكانت مبايعة الخليفة زمن الراشدين تتسم بالبساطة ، حيث تتم مبايعة أهل الحل والعقد ، وهم أهل المدينة فى ذلك الوقت ، وكان الانتخاب مصافحة بالأيدى ولذا سميت بالبيعة[١٥] .

وجرت العادة فى الدولتين الأموية والعباسية على أنه متى بويع الخليفة انتقل إلى دار الخلافة فى موكب حافل ثم يرد عليه وفد المهنئين من البلاد[١٦] .

وخلال الدولة العباسية حدث أنه إذا تمت البيعة اختار الخليفة لنفسه لقبا من الألقاب التى اختلفت عن الألقاب السابقة ، مثل لقب الرشيد ، الأمين ، المأمون ، المعتصم بالله ، الواثق ، المستعين ، المستعصم وهكذا ، وكانت الألقاب السابقة تحوى فى معناها التواضع مثل "عبد الله ووليه" .

وكان الخليفة فى بادئ الأمر يشرف على جميع شئون الدولة بنفسه وإن استشار بعض المقربين إليه ، ولكن مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية لم يستطع الخلفاء الإشراف المباشر بأنفسهم على شئون البلاد ، فكانوا يختارون من يساعدهم فى تصريف شئون البلاد وخاصة الإدارية منها ، وذلك من كبار موظفيهم الذين أطلق عليهم لفظ الكاتب[١٧] .

شارات الخلافة ورسومها :

جرت الخلافة فى بادئ الأمر على البساطة والتواضع ، وترك مظاهر الترف والأبهة واستمر هذا الوضع خلال عصر الخلفاء الراشدين .

وعندما قامت الدولة الأموية ونقل مقر العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ببلاد الشام ، بدأت مظاهر الأبهة تظهر وذلك بتأثر من حضارة الروم ، وأول من أظهر ذلك معاوية الذى جعل ذلك لإرهاب العدو وإشعاره بتفوق الحضارة الإسلامية ومسايرتها للحضارات المعاصرة .

وأهم تلك الرسوم الآتي :

١- الصلاة فى المقصورة الخاصة ، ذكر اسمه فى الخطبة ، والدعاء له على المنابر

٢- الجلوس على سرير الخلافة فى المواكب ، وبدأ ذلك خلال عهد معاوية حيث استأذن الناس فيه وقال لهم أنى قد بدنت فأذنوا له فاتخذه واتبعه الخلفاء المسلمين فيه .

٣- ضرب السكة من الدنانير والدراهم ونقش اسم الخليفة عليها [١٨] .

٤- ومن شارات الخلافة " الخاتم " وقد استخدم من عهد الرسولﷺ حيث كان له خاتم من فضه نقش عليه (محمد رسول الله) فى ثلاثة أسطر واستعمله أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، وسقط من يد عثمان فى بئر أريس وصنع آخر مثله [١٩] .

٥- نقش اسم الخليفة على الطراز ، من ملابس وكسوة وغيرها [٢٠] .

علامات وشارات الخلافة :

البردة ـ الخاتم ـ القضيب ـ الخطبة ـ السكة ـ الطراز .

١- **البردة :** هى بردة الرسولﷺ التى كان يرتديها إلى أن أعطاها للشاعر كعب ابن زهير بن أبى سلمى ، الذى كان قد أعلن توبته وندمه على هجاء الرسولﷺ ثم مدح الرسول بقصيدته المشهورة ، وتداول أهل كعب البردة حتى اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان بأربعين ألف درهم وتوارثها الأمويون والعباسيون وتبركوا بارتدائها فى المواكب والمناسبات إظهارا لمكانتهم من أسرة النبىﷺ[٢١] .

٢- **الخاتم :** صنع الرسولﷺ خاتما حينما بعث خطابه المشهور إلى كسرى فارس ، وكان الأكاسرة لا يقبلون كتبا بدون أختام ، فصنع الرسولﷺ خاتمه من فضة ونقش عليه **"محمد رسول الله"** فى ثلاثة أسطر وانتقل الخاتم إلى أبى بكر ثم إلى عمر ثم إلى عثمان ، ولكن الخاتم سقط من يد عثمان فى بئر أريس، فاصطنع عثمان خاتما مثله ، وحرص كل خليفة على اصطناع خاتم ، يختمون به كتبهم بالطين أو المداد أو الشمع ، وكان معاوية أول من انشأ ديوان الخاتم[٢٢] .

٣- **القضيب :** وهو ثالث شارات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاءوا إليه بالقضيب والبردة والخاتم ، وكان القضيب عبارة عن عود كان النبىﷺ يأخذه بيده ، واتخذه الخلفاء الأمويون ومن بعدهم الخلفاء العباسيون الذين كانوا يظهرون به فى المناسبات[٢٣] .

٤- **الخطبة :** هى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة ، وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للرسولﷺ ، والرضى عن الصحابة ، فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال صار الولاة يتولون إمامه الصلاة فى ولاياتهم ، فكانوا إذا صلوا وختموا الصلاة يقومون بالدعاء للخلفاء[٢٤] .

٥- **السكة :** ومن شارات الخلافة نقش اسم الخليفة على السكة ، أى العملة ، بطابع من حديد[٢٥] .

٦- **الطراز :** حرص الخلفاء الأمويون ثم العباسيون على رسم أسمائهم أو علامات مميزة على أثوابهم وعلى ثياب كبار الموظفين فى الدولة والجنود ، وعرفت هذه العلامات خلال العصرين الأيوبى والمملوكى باسم الرنوك[٢٦] .

مجلس الشورى:

الشورى فى حياة الناس حاجة معلومة وسنة متبعة ، ثم جاء الإسلام فأعلى مكانتها وأكد أهميتها ، وحض القرآن الكريم عليها ، قال تعالى:﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[٢٧]، وقال تعالى : ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[٢٨] كما حض الرسولﷺ على الشورى والأخذ بها وكان كثير الشورى لأصحابه .

وسار الخلفاء الراشدين من بعد الرسولﷺ فى هذا الاتجاه ، فقد استشار أبو بكرﷺ أصحاب الرسولﷺ فى أمور عدة لم يتضح فيها حكم من الكتاب أو السنة ، ومثال لذلك فى ميراث الجدة حينما جاءته تطلب ميراثها فقال : لا أجد لك فى كتاب الله شيئا ، وما علمت أن الرسولﷺ ذكر لك شيئا ، ثم سأل أهل الرأى والفقه من المهاجرين والأنصار ، وكان ممن ذكر من أهل شوراه عمر بن الخطابﷺ وعبد الرحمن بن عوف ﷺ وعلى بن أبى طالبﷺ وعثمان بن عفانﷺ واسيد بن حضير وطلحة بن عبيد الله ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وسعيد بن الزبير بن العوام ، والمغيره بن شعبة وغيرهم[٢٩] ، وقام

المغيره بن شعبة وقال : سمعت رسول اللهﷺ يعطيها السدس ، فقال هل معك أحد ، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها[٣٠] .

واستشار الصحابة حينما عزم على أن يعهد بالخلافة إلى عمررضي الله عنه ، أما إذا كان هناك حكم من الكتاب أو السنة فلم يكن أبو بكر رضي الله عنه يلتفت إلى مشورة أحد من الناس على نحو ما جرى منه فى موقفه من مانعى الزكاة لما وجدهم يفرقون بين الصلاة والزكاة[٣١] .

وفى خلافة عمر بن الخطابرضي الله عنه اتسعت رقعة الدولة ، وكثرت المعضلات وزادت مصالح الناس تعقيدا ، فكثرت لذلك الشورى فى عهد عمررضي الله عنه فقد استشار فى حد شارب الخمر وجعله ثمانين جلده ، بعد أن رأى على بن أبى طالبرضي الله عنه ذلك ووافقه الصحابة على رأيه[٣٢] .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بالفتوحات ، استشار عمررضي الله عنه فيما يفعله فى الأراضى التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فى اتخاذ الديوان وفرض العطاء للجند والناس وكان من رأى بعض الصحابة أن تقسم هذه الأرض بين الغانمين بعد رفع الخمس وكان رأى عمررضي الله عنه وبعض الصحابة أن تبقى بيد أهلها وأن يوضع عليها الخراج لينفق منه على مصالح المسلمين عامة فى كل جيل وزمان ، وبعد نقاش وجدل ومشاورات وافق المسلمون على رأى عمررضي الله عنه .

ولم يخرج عثمان بن عفانرضي الله عنه فى الشورى عن طريق سلفيه ، فقد استشار فى حدث من أهم الأحداث فى الإسلام ، وهو جمع القرآن الكريم فقد قدر خطر ما سيقدم عليه فلم يشأ أن ينفرد برأى فجمع المهاجرين والأنصار وشاورهم فى الأمر، واستقر الرأى على كتابة المصحف وكان لمروان بن الحكم دور كبير فى خلافته فى تصريف الأمور[٣٣] .

وكان على بن أبى طالبرضي الله عنه يستشير أصحابه ويستمع أحيانا إلى رأى أنصاره فى تدبير الأمور ومكايدة الخارجين عليه ، فقد أخذ برأى الأغلبية فى التحكيم .

وعندما آلت الخلافة إلى بنى أميه لم يكن معاوية بن أبى سفيان ممن يجهل فوائد الشورى فيهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر المهمات إلا عن شورة فقد كان يشاور ذوى الرأى من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم فى الكثير من الأمور ، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بنى أميه ، فكان الأحنف بن قيس زعيم تميم مستشارا لمعاوية ، وأيضا كان يستشير المغيره بن شعبة وعمرو بن العاص والوفود التى كانت تأتيه[٣٤] .

وكان روح بن زنباع وهو فقيه وأحد الذين تولوا شئون فلسطين مستشارا لعبد الملك بن مروان[٣٥] .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه اتخذ فى أثناء ولايته على المدينة مجلسا مؤلفا من عشرة من فقهاء المدينة ليعينوه على الحق ، وجعل ألا يقطع أمرا إلا برأيهم أو برأى من حضر منهم ، وهم عروة بن الزبير ، عبيد الله بن عتبة ، أبو بكر بن عبد الرحمن ، أبو بكر بن سليمان بن أبى خثيمة ، سليمان بن يسار ،

القاسم بن محمد ، سالم بن عبد الله بن عمر ، عبد الله بن عبد الله بن عمرو ، عبد الله ابن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، خارجه بن زيد ، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فى شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية غالبا

ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى فى العصر الأموى أولهما شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة ، وكان الخلفاء من بنى أميه يرجعون فيها إلى ذوى الرأى من أشراف القوم والولاة وغيرهم وثانيهما شورى تتعلق بالسلطان خاصة وكان الخلفاء من بنى أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم[٣٦].

ولما آلت الخلافة إلى العباسيين واستقرت فيهم ما يقرب من ثمانية قرون أخذت بطانة الخليفة تظهر بوضوح من حيث العناصر التى تتآلف منها والدور الذى تمارسه فى أمور الدولة ، فمن جهة كان بنو هاشم ، عباسيين وعلويين وموالى العباسيين وشيعتهم والوزراء والقادة العسكريون والكتاب والقضاة والفقهاء يشكلون بطانة الخليفة ، وصار هؤلاء فى الغالب أهل الحل والعقد ، ومن جهة أخرى كانت هذه البطانة الجهة التى يرجع إليها الخليفة فى تصريف أمور الدولة ، وسياسة الرعية وحفظ الأمن والنظام وضبط الأمور ، ومراقبة الأموال فى الإيرادات والمصروفات واستخلاف القائمين بأمر الخلافة ، ومثال لذلك ، لما أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يبايع لابنه المهدى كلم الجند فى ذلك ولما تتابعت الأحداث عليه وثار محمد النفس الذكية العلوى عليه أحضر القواد وأهل بيته واستشارهم فى ذلك[٣٧] ، ولما أراد موسى الهادى أن يخلع هارون الرشيد ويبايع لابنه جعفر تابعة على ذلك القواد ، ودسوا إلى الشيعة ـ الشيعة العباسية ـ فنكلوا فى أمره وتنقصوه فى مجلس (لجماعة) وكما بايع المتوكل لأولاده كتب كتابا وأشهد عليه أهل بيته وشيعته وقواده وقضاته وفقهائه[٣٧] واجتمع فى البيعة لجعفر المتوكل القادة والقضاة إضافة إلى الوزير وعندما خلع المستعين وبويع للمعتز شهد على البيعة بنو هاشم والقضاة والفقهاء والقواد ، ولما ثقل المكتفى فى علته فكر العباس بن الحسن وهو الوزير فيمن يقلده الخلافة ، وكان يركب إلى دار السلطان ويسايره واحد من الأربعة الذين يتولون الدوارية وهم محمد بن داود بن الجراح ومحمد بن عبدون وأبو الحسن بن الفرات وعلى بن عيسى[٣٨] .

ثم ما لبث أن رجحت كفة العسكريين من بين بطانة الخليفة ، واندفعت هذه الفئة بدافع المنافسة مع العناصر الأخرى فى بطانة الخليفة من جهة وبدافع الخوف من تحركات الخليفة ومحاولات فى المحافظة على توازن بينه وبين هذه البطانة يكون فى صالحه ، واندفعت تعمل على تشديد قبضتها على أمور الدولة والدفاع عن مصالحها وامتيازاتها ، وصارت منذ القرن الثالث الهجري تستبد غالبا بمؤسسات الدولة ابتداء بالخليفة الذى صار خلعه وتعيينه فى كثير من المرات مرهونا بإرادتهم ، واستبدت فترات بالأمور فى الدولة ، وكانت سلطة الخليفة فى هذه الظروف لا تتعدى بغداد ، فعلى سبيل المثال أن الخليفة الراضى بالله قال :

"كأنى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى ، حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ، ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى أو أدخلنى فيه قوم بغير شهوتى"[٣٩] .

ولما توفى الخليفة الراضى كان أمير الأمراء بجكم فى واسط فأرسل بجكم كاتبه ليشرف على اختيار الخليفة الجديد ، فعقد مجلسا برئاسة الوزير حضره كل وزير وكاتب وحضره الأشراف العلويون والعباسيون والقضاة والوجوه ليكون الانتخاب فى شكله الكامل وجعل كل اثنين منهم يصونان معا ولكنهم كانوا يعرفون مرشح بجكم فانتخبوه وهو المنفى[٤٠] وفوض الخليفة الطائع لله أمور الخلافة إلى عضد الدولة البويهى ، وصار البويهيون يشاركون الخليفة كل شارات الخلافة ومميزاتها ، ولم يختلف الحال أيام السلاجقه عما كانت عليه الأمور فى عصر البويهيين ، رغم حسن معاملة السلاجقه للخلفاء ورغم محاولات بعض الخلفاء استعادة ما كان لهم من نفوذ[٤١] .

وخلال العصر الفاطمى يمكن القول أن الخلفاء الفاطميين أصابهم مثلما أصاب العباسيين ، ووقعوا تحت سيطرة بطانتهم وبخاصة العسكريين منهم حيث وجهوا مؤسسات الدولة توجيها لم يكن للخليفة الفاطمى فيها أحيانا سوى الاسم[٤٢] .

وخلاصة القول أن حكام المسلمين مارسوا الشورى فى تصريف أمور الدولة على اختلاف بينهم فى الأغراض ، ومع أن الحكام لم يسموا أشخاصا بعينهم يجعلونهم فى الشورى خاصة ، ولم يحصروا أنفسهم بفئة معينة يجعلونهم دون غيرهم موضع شوراهم ، مما لم يؤد إلى تطور مجلس الشورى فى الدولة الإسلامية إلى مجلس نواب دول القرن الحادى والعشرين ، ومع ذلك فإن مجلس الشورى الإسلامى إذا استثنينا جانب التشريع يكون قد مارس المهمة التى تمارسها المجالس النيابية المعاصرة

الوزارة:

تمثل الوزارة فى الحضارة الإسلامية قسما أساسيا من أقسام السلطة التنفيذية فى الدولة ، وقد انتقلت نظم الفرس إلى الدولة الإسلامية خلال العصر العباسى فاتخذوا منها نظاما يساعدهم على تصريف جميع شئون الدولة حتى السياسية منها وهو نظام الوزارة[٤٣] .

وقد ورد لفظ الوزير فى القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾[٤٤]، وكذلك في قوله تعالى﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً**﴾ [٤٥]وروى عن النبى ﷺ أحاديث يذكر فيها لفظ الوزير فعن الترمذى أنه كان للنبى ﷺ أربعة وزراء ، اثنان من أهل السماء واثنان من أهل الأرض هما أبو بكر وعمر[٤٦] .

وذكر الماوردى أنه روى عن النبىﷺ أنه قال : "ما من رجل من المسلمين أعظم أجرا من وزير صالح مع إمام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى " [٤٧] وروى عن عائشة ﷺ أنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

"إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لن يعنه"[٤٨] .

وقد ورد أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال للأنصار فى اجتماع السقيفة " نحن الأمراء وأنتم الوزراء "[٤٩] .

أختلف فى أصل كلمة الوزارة فالبعض ذكر أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من فيشيرا ومعناه الأمر والتقرير ، وقيل أن أصلها عربى وأختلف فى اشتقاقها حيث ذكرت على أنها مشتقة من ثلاثة أوجه هى :

١- أنها مأخوذة من الوزر : بمعنى الحمل الثقيل ، لأنه يحمل عن الملك أثقاله

٢- أو من الوزر : وهو الملجأ لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته لأن عليه مدرار السياسة وإليه تفوض الأمور ، وهى من قوله تعالى ﴿**كَلَّا لا وَزَرَ**﴾[٥٠] أى لا ملجأ .

٣- أو من الأزر : وهو الظهر ، لأن الملك يتقوى بوزيره كقوة الجسم بالظهر[٥١]

ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين فى بداية الأمر ، ولم يتحدد اختصاصه إلا بعد فترة من قيام الدولة العباسية ، حيث أن بساطة الإسلام وبساطة الدولة فى أول عهدها جعلت الحاجة إلى هذه الوظيفة معدومة[٥٢] فالرسولﷺ كان يستعين ببعض من يحسن الكتابة ، ويخصص لكل فريق عملا يقوم به ، فعلى سبيل المثال كان على بن أبى طالب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما يكتبان الوحى ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه حوائجه وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن النميرى يكتبان ما بين الناس ، وعبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء ، وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحى[٥٣] .

وبعد وفاة الرسول ﷺ كان أبو بكر يستعين بعمر بن الخطاب وبالصحابة حيث كان عمر يلى القضاء لأبى بكر ، وأبو عبيده على بيت المال ، ومن كتابه على بن أبى طالب ، وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان[٥٤] وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستعين بعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله ، وكان لا يكاد يفارقه فى سفر وحضر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم[٥٥] .

واعتمد عثمان بن عفان رضي الله عنه فى أول خلافته على مشورة كبار الصحابة ثم مال إلى الاعتماد على أهله وعشيرته من بنى أمية ، واختص مروان بن الحكم .

وكذلك على بن أبى طالب كرم الله وجه فقد استعان فى أموره بالصحابة وكان الكتاب فى عهد الأمويين بمثابة الوزراء ، وقد كان عبد الحميد ابن يحى الكاتب كاتبا ووزير آل مروان بن محمد[٥٦] .

ولم يسم أى من معاونى الخليفة خلال عصر الراشدين أو العصر الأموى باسم الوزراء ، ولم يضف اسم وزير إلى أحد من معاونى الخليفة إضافة دائمة ولازمة .

أما فى العصر العباسى ظهرت الوزارة بالشكل المعروف ، كما كتب عنها فقهاء المسلمين ، وحدثوا عن أقسامها واختصاصاتها وأنواعها ، وبذلك يكون المنصب الذى كان معروفا لدى الأمويين بالكاتب أو الكتابة قد تطور إلى منصب الوزير والوزارة فى خلافة بنى العباس .

وفى ذلك يذكر بن خلدون : "فلما جاءت دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة من إنفاذ العقد والحل ، وتعينت مرتبته فى الدولة ، فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعاونة"[٥٧] .

وكان أول وزير فى دولة بنى العباس هو أبو سلمة الخلال ، وكان فصيح اللسان عالما بالأخبار والأشعار وتفسير القرآن ، حاضر الحجة كثير الخير ، اختير فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ/ م ، حيث سلمت إليه الرئاسة وسمى وزير آل محمد، وصار يدبر الأمور ويفرق المال ، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ منه وترد عليه [٥٨] ولما ظهر ميله للعلويين انتهى الأمر بأن قتله أبو العباس السفاح .

ويبدو أن مكانة الوزير فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الوزارة فى عصر بنى العباس ، لم تختلف كثيرا عن مكانة الكاتب أواخر عهد بن أمية وذلك نظرا لهيبة الخلفاء مثل أبو جعفر المنصور الذى استبد بالأمور[٥٩] وإذا بلغنا عهد هارون الرشيد وجدنا الوزير احتل مكانة راسخة فى الحل والعقد ، فحينما استوزر هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكى ، وقال له : " يا أبة أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك ، فأحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ... فأنى غير ناظر معك فى شئ " وجعل إليه الدواوين كلها مع الوزارة سوى ديوان الخاتم ، وهكذا فوض هارون الرشيد أموره كلها إلى يحيى بن خالد البرمكى ، الذى استعان فى القيام بوزارته بولديه الفضل وجعفر[٦٠] ، ودعى جعفر بن يحي بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ....

وعرف الفاطميون أيضا الوزارة والوزراء ، ويذكر القلقشندى : الوزارة هى أرفع وظائفهم وأعلاها رتبة ، وأعلم أن الوزارة فى الدولة الفاطمية كانت تارة فى أرباب السيوف وتارة فى أرباب الأقلام ، وفى كلا الجانبين كانت الوزارة تارة تعلو فتكون وزارة تفويض ، وتارة تنحط فتكون وزارة تنفيذ أو تكون غير ذلك فتكون ما عرف باسم الوساطة[٦١] .

أما الأمويون فى الأندلس فقد أنفوا أول الأمر اسم الوزير وقسموا المهمات التى يقوم بها عادة أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزيرا ، فوزير للمال ، ووزير للترسيل ، ووزير للنظر فى حوائج المتظلمين وهكذا ، وجعلوا لهم بيتا يجلسون فيه يتداولون المهمات المفوضة إليهم ، وكان يتردد بينهم وبين السلطان الأموى واحد منهم ارتفع مجلسه عن مجالسهم بما سره السلطان فى كل وقت أخصوه باسم الحاجب[٦٢] .

وقد راعى الخلفاء عند اختيار وزرائهم بعض الخصال التى تتوافر فيهم ، فيجب أن يختاره من البرية وينتخبه من الرعية ويختبر عقله ويعتبر دينه ونقله فإن وجد له طمعا فى مال الرعية وميلا إلى إصلاح حاله بفساد أحوالهم ويسئ التدبير فلا يركن إليه ولا يعتمد عليه .

ويجب أن يكون الوزير عنده تيقظ ودين وورع وعفه ورزانة وحلم ورأى أصيل وأن الرأى لا يصح إلا بثلاثة أشياء دراية بالأمور وبصيرة بالسياسة وفكرة فى العواقب ، ويستحب أن يكون الوزير ناصحا مشفقا ومؤمنا مؤتمنا ومن الله خائفا فإذا كملت له هذه الخصال تقبل مشورته ويستمع قوله ولا يخالف أمره[٦٣] .

ويجب أن يكون الوزير مقدما فى صناعته ، حاذقا بالحساب ، خبير بآداب الرياسة وقواعد الملك وآداب السلاطين ، عارفا بأحوال الرعية والأعمال ضباطا للأموال ، حسن الخط ، وأن يتميز بالذكاء والفطنة والتيقظ والحزم والحلم ، والوقار ، والأمانة ، والصدق والشهامة والعفة ، وأن يكون عزيز النفس كبير الهمة[٦٤] .

وهذه الخصال المحمودة لم تجتمع لأحد من الوزراء وكان التفاوت فيها واضحا بين وزير ووزير ، وهناك من وصف بأنه لا علم عنده ولا معرفة ، وكان ردئ السيرة جهولا بالأمور ، إضافة إلى من اشترى منصب الوزارة بالمال مثل ابن مقله وزير الخليفة العباسى الراضى بالله[٦٥] .

أنواع الوزارة :

تنقسم الوزارة إلى نوعين :

الأول : وزارة التفويض وهى أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده ، ولا يستشير الوزير فيها الخليفة ، أى أن الخليفة لا يملك ولا يحكم[٦٦] .

والثانى : وزارة تنفيذ وهى أن الوزير ينفذ أمر الخليفة الذى يشرف على جميع تصرفاته ، ولا ينفذ الوزير شيئا إلا بعد مشورة الخليفة أو السلطان[٦٧] .

وبالنسة لوزير التفويض فإن كل ما يصح للخليفة يصح له إلا ثلاثة أشياء هى : ١- ولاية العهد ذلك أن الامام يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير .

٢- أن للخليفة أن يستعفى الأمة من الخلافة وليس ذلك للوزير .

٣- أن الخليفة يعزل من قلده الوزير وليس ذلك للوزير [٦٨] .

أما الشروط التى يجب أن تتوافر فى وزير التفويض فهى :

- الحرية الإسلام العلم بالأحكام الشرعية
- المعرفة بأمرى الحرب والخراج[٦٩] .

وبالنسبة لوزير التنفيذ فقد وجب أن تتوافر فيه عدة شروط هى :

▯ الأمانة ▯ صدق اللهجة ▯ قلة الطمع ▯ أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة ▯ أن يكون ذكورا فيما يؤدية إلى الخليفة لأنه شاهد له وعليه .

▯ الذكاء والفطنة حتى لا تلتبس عليه الأمور ▯ الحنكة والتجربة .

▯ ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل .

لا يشترط الإسلام فى وزير التنفيذ لأنه لا يمتد سلطته إلى ولاية أمر المسلمين وتولى وزارة التنفيذ ذميون[٧٠] .

الفرق بين وزارة التفويض والتنفيذ :

يكون الفرق بين هاتين الوزارتين فى الآتى :

١- أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٢- أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ

٣- أنه لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحرب وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤- أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أموال بيت المال بقبض ما يستحقه له ويدفع ما يجب منه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .

وكان للوزير لباس رسمى شمل الدرعة وقميصا ومبطنه وخفا واختلف راتبه على مر العصور أو اختلاف الأشخاص .

أما مهام الوزير :

فقد اختلفت الوظائف التى يقوم بها من عهد لأخر ، ومن خليفة لخليفة ، وبين دولة ودولة ، ومن الوظائف التى كان الوزير يقوم بها سواء كان وزير تنفيذ أم وزير تفويض - الإشراف على الشئون الإدارية ، فكان العمل اليومى له شاقا مجهدا ، حيث كان من مهامه أن يغدوا إليه الكتاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه أو يوجهه بما يريد وصايته به ، ثم يروحون إليه بما يعطونه من أعمالهم فيوافقهم عليه ، وإذا خف العمل ، نهض من مجلسه وانصرف الجماعة بعد قيامه ، ويذهب الوزير إلى دار الخلافة فى أيام معينة من كل أسبوع للمثول بين يدى الخليفة وإطلاعه على شئون الدولة وتلقى الأوامر منه[٧١] .

– ومن مهامه النظر فى ديوان الحسبان لما يحتاجه إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند ، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه .

– والإشراف على القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة .

جعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها [٧٢] .

وهذه الوظائف التى استندت إلى الوزير كانت تتفاوت بين وزير وآخر تبعا لطبيعة شخصية الوزير من جهة وطبيعة شخصية الخليفة من جهة أخرى ، وكذلك طبيعة العلاقة بين الخليفة والقوى الآخرى فى

المجتمع ، وقد سجلت بعض الفترات نفوذا قويا للوزراء بلغ درجة التدخل فى تعيين الخلفاء والاشتراك فى عزلهم[٧٣] .

ولاة الأقاليم "الأمراء" :

يأتى الخليفة على رأس السلطة التنفيذية فى الدولة الإسلامية ولما كان الخليفة يجمع فى يده كل السلطات فهو يحكم الطبيعة البشرية وظهرت الحاجة إلى الاستعانة بالولاة على البلدان منذ أن انتشر الإسلام خارج المدينة ، وصارت رقعة الدولة الإسلامية تضم إلى جانب مدينة الرسول ﷺ مدنا وبلاد أخرى ، ومن ثم فوض بعض السلطة التنفيذية إلى ولاته وعماله – أمراء الأقاليم[٧٤] مثال ذلك فقد جعل الرسول ﷺ عتاب بن أسيد واليا على مكة ، ومن أهم عمال الرسول ﷺ على الأقاليم :-

عثمان بن أبى وقاص على الطائف ، العلا بن الحضرمى على البحرين ، زياد بن لبيد الأنصارى على حضر موت ، المهاجر بن أبى أمية بن المغيره على صنعاء ، وعين غيرهم من الولاة على بلدان أخرى[٧٥] .

وكان أول راتب فرضه الرسول ﷺ للعمال هو راتب عتاب بن أسيد والى مكة وكان درهما فى كل يوم .

وفى عهد أبى بكر رضي الله عنه كانت ولايات الجزيرة العربية هى البلاد التى تحت الإدارة الإسلامية نهائيا وقد جعلها عدة وهى :

١- مكة وعليها عتاب بن أسيد .
٢- الطائف وعليها عثمان بن أبى وقاص .
٣- حضرموت وعليها زياد بن لبيد .
٤- صنعاء وعليها المهاجر بن أبى أمية .
٥- البحرين وعليها العلاء بن الحضرمى .
٦- خولان وعليها يعلى بن أميه .
٧- زبيد ورمع وعليها أبا موسى الأشعرى .
٨- الجند وعليها معاذ بن جبل .
٩- نجران وعليها جرير بن عبدالله البجلى .
١٠- جرش وعليها عبدالله بن ثور .

وفى عهد عمر قسم الدولة أقسام ادارية كبيرة ولى على كل قسم منها والى يتولى شئونها والإشراف عليها ، وكان يختار الولاة من أماثل القوم وأفضلهم سيرة وكان يتعدهم بالنصح والإرشاد ومن ذلك نصيحته لبعض عماله التى يقول فيها : "انى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين

فتذلوهن ، ولا تجمروهن فتنتنوهن ولا تمنعوهم فتظلوهن ، وأروا لفحة المسلمين" وأهم الأمصار فى عهد عمر ﷺ وولاتها :-

١- نافع بن عبد الحارث الخزاعى على مكة .
٢- سفيان بن عبدالله الثقفى على الطائف .
٣- يعلى بن منبه على صنعاء .
٤- عبدالله بن أبى ربيعه على الجند .
٥- عثمان بن أبى العاص الثقفى على البحرين .
٦- المغيرة بن شعبة الثقفى على الكوفة .
٧- أبو موسى الأشعرى على البصرة .
٨- معاوية بن أبى سفيان على دمشق .
٩- عمير بن سعد على حمص .
١٠- عمرو بن العاص على مصر[٧٦] .

واتخذ ولاة على غير مكة من البلاد واتبع سياسة تقسيم البلاد إلى ولايات واتخذ الولاة عليها كل من الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين على اختلاف عصورهم[٧٧] .

وفى عهد أبى بكر كانت الدولة الإسلامية تقتصر على شبة الجزيرة العربية ولم يكن مصير بلاد العراق والشام قد تحدد تماما فكانت الولايات فى عهد أبى بكر هى : البحرين - اليمامة - عمان - خولان - حضر موت - الجند - صنعاء - زبيد - رمع - جرش - نجران - الطائف - دومة الجندل[٧٨] .

ثم اتسعت الدولة فى عهد عمر ، وعهد عثمان ، وخلال العصرين الأموى والعباسى والعصور الإسلامية الأخرى ولن ندخل فى تفاصيل اتساع الدولة الإسلامية وذكر ولاياتها ، لأن ما يهمنا هنا - هو اختيار الوالى ومهامه فى ولايته وعلاقته بالخلافة .

أولا : اختيار الولاة :

حينما كان الخليفة أو الامام يختار الوالى ، ولم يتركه مطلقا بل قيده بالقيود التى تضمن عدم استبداد ولاة الأقاليم بالسلطة .

وكان يختار الولاة من أماثل القوم وأفضلهم سمتا وهديا سيرا على سنن النبى ﷺ فى اختيار الأصلح للولاية ، وكان عمر ﷺ يتعدهم بالنصح والإرشاد ، ومن ذلك نصيحته لبعض عماله التى يقول فيها : "إنى لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم وأدروا لفحة المسلمين"[٧٩] .

الولايـة : هى أن يقلد أميرا على إقليم أو بلد ، وقد يطلق على هذا الأمير لقب وال أو عامل ، وقد نشأت الإمارة على البلدان مبكرة فى الإسلام ، فكان الرسول ﷺ، ينيب عنه عمالا على القبائل والمدن فى الحجاز واليمن ، واستمر هذا النظام واتسع فى عهد الخلفاء الراشدين وما بعده من عصور[٨٠] .

وإمارة الاستكفاء فهى أن يختار الخليفة الرجل الكفء ليفوض إليه إمارة بلد أو إقليم فيضطلع هذا الأمير بتدبير الجيوش وتقليد القضاة ، وجباية الخراج ، وحماية الدين وإقامة الشرع وإمامة الصلاة ، والإشراف على شئون الحج ، ثم حماية هذا الإقليم إن كان من الثغور[٨١] .

أما النوع الثالث من الإمارة فهو إمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير ، والخليفة بإذنه منفذا لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة ومن الحظر إلى الإباحة[٨٢] .

الفرق بين إمارة الاستكفاء العامة وإمارة الاستيلاء :

١- أن إمارة الاستيلاء متعينة فى المتولى ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفى .

٢- أن إمارة الاستيلاء مشتملة على البلاد التى غلب عليها المستولى ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التى تضمنها عهد المستكفى .

٣- أن وزارة التفويض تصح فى إمارة الاستيلاء ، ولا تصح فى إمارة الاستكفاء لوقوع الفرق بين المستولى ووزيرة فى النظر .

وهذه القيود تتلخص فيما يلى :

١- حسن اختيار الإمام لولاة الأقاليم .

٢- محاسبة عمال الأقاليم ومراقبة أعمالهم .

٣- فصل السلطة القضائية وحماية استقلالها .

٤- اختيارهم ممن لهم دراية بأمر السياسة والحرب والخراج .

٥- وصايا الرسول لأمرائهم باتباع سنة رسول الله ﷺ[٨٣] .

وكان اختيار الولاة من الأمور التى يقوم الخليفة بها ، ومع ذلك فإن دور أهل الولاية كان واضحا فى اختيار الولاة وسياستهم وتقويمهم ، ومثال لذلك : شكا أهل الكوفة عمار بن ياسر إلى الخليفة عمر بن الخطاب وقالوا أنه ليس بأمير ولا يحمل ما هو فيه فعزله عمر ، وقال لهم من تريدون بأهل الكوفة ، فقالوا أبا موسى الأشعرى ، فولاه عليهم وجاءوه بعد سنة وقالوا ، لا حاجة لنا فى أبى موسى ، فقال لهم أقوى متشدد أحب إليكم أم ضعيف مؤمن ؟ وكان يكتب إلى الولاة بتوقير وجوه الناس الذى جعلوا أنفسهم

وسطاء بينهم وبين الناس ، وسفراء يرفعون حوائجهم ومطالبهم إلى الولاة ، وكان يقول من ظلمه أمير فلا أمرة عليه[٨٤]

وولى هارون الرشيد على بن عيسى بن ماهان على خراسان فلما عاث فيها واستخف برجالها ، كتب أهل خراسان ، إلى الرشيد يشكون سوء سيرته فعزله الرشيد وولى هرثمة بن أعين[٨٥] .

وكان على الخليفة أو الإمام مراقبة الوالى وأن يسأل عن سيرته ويفحص عن حالته وسريرته فإن كان عادلا أكرمه ورفعه وإن كان ظالما أهانه وعزله فإنه لا صلاح لرعية واليها فاسد .

كما روعى ألا تكون الولاية أكبر من الوالى فتقهره ، فإن الوالى إذا ولى ولاية هى أكبر منه يضيع فيها ويبقى حائرا كالفارس الذى بيده رمح لا يقدر على نقله والعمل به ، وقيل سئل بعض خلفاء بنى أميه "ما كان سبب زوال ملككم ، فقال استعنا بصغار العمال على أكابر الأعمال فآل أمرنا إلى ما آل"[٨٦] .

والإمارة كانت على ثلاثة أنواع : الإمارة العامة ، والإمارة الخاصة وإمارة الاستيلاء .

- الإمارة العامة وهى تشمل الصلاة وإدارة الإقليم والحرب والخراج .
- أما الإمارة الخاصة : فهى محددة فى إمارة الجيش ، إمارة الحج ـ إمارة على الصلاة والحرب دون الخراج[٨٧] .

مهام الوالى فى ولايته :

كان الولاة نوابا عن الخليفة فى ولاياتهم وحكاما ، وكان كل منهم يقوم فى ولايته بالمهام التى من شأن الخليفة أن يقوم بها ، وله من صلاحية النظر فى أمور الولاية ما للخليفة من صلاحية النظر فى أمور الدولة[٨٨] ، وتمثلت مهامه فى الآتى :

١- النظر فى تدبير الجيوش وقيادتها .
٢- النظر فى الأحكام وتقليد الولاة .
٣- جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال .
٤- حماية الدين والذب ـ الدفاع – عن الحريم .
٥- إقامة الحدود .
٦- تسيير الحجيج .
٧- الإمامة فى الجمع والجماعات[٨٩] .

وكان من مهام الوالى أيضا حق الإشراف على شئون الشرطة ، وكان هو الذى يعين صاحب الشرطة[٩٠] .

ونلاحظ أنه فى بعض فترات العصر العباسى أرسل الوالى من ينوب عنه فى حكم الولايات ، وكان لكثرة تغيير الولاة خلال العصر العباسى أثرة السلبى على أحوال الأقاليم[٩١] .

وكان بقاء الوالى فى ولايته متوقفا على تنفيذه لمطالب الخلفاء وفقا لسياستهم حيث أن حكم الولاة كان يختلف لينا وشدة تبعا لاختلاف ميولهم فقد اشتهر البعض منهم بالعدل والجود والإصلاح ، والبعض الآخر اتسمت سياسته بالعنف والجور والقسوة .

وكان للولاة مجالس فى ولاياتهم تضم إلى جانب كبار رجال الولاية وموظفيها جماعة من وجوه الناس وعلمائهم وأهل المعرفة بأحوال الولاية ، وكان الوالى يرجع إليهم ويستشيرهم ، ومثال لذلك مجلس سعيد بن العاص فى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان ﷺ ومجلس عمر بن عبد العزيز فى المدينة خلال عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك[٩٢] .

الحجابة :

الحجابة فى اللغة لفظ مشتق من حجب بمعنى حال دون أو منع أو ستر . يقال حجب الشئ أى ستره[٩٣] .

وفى الاصطلاح هى احدى الوظائف المعاونة للحاكم وصاحب الحجابة يسمى حاجبا ، وهو من يحجب السلطان عن العامة والخاصة .

وهذا المنصب لم يعرفه صدر الإسلام ، عندما كان الإسلام بسيطا لا يتشبه حكامه بالملوك . وكان الخلفاء الراشدون لا يحتجبون عن رعاياهم ، فكانوا يجلسون طوال يومهم فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، ويلتقون بالمسلمين على اختلاف مراتبهم بدون حجاب[٩٤] .

وقد كان أول من اتخذ الحجاب معاوية بن أبى سفيان ، وذلك بعد مصرع على بن أبى طالب ﷺ ، ومحاولة اغتيال معاوية ، واتساع الفتن وازدحام الناس على أبواب قصره فى دمشق وحذا الخلفاء الأمويون حذو معاوية فى الاحتجاب عن الناس [٩٥] والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى العصر الحديث وكان يقوم بإدخال الناس على الخليفة حسب مراتبهم ومراكزهم فى المجتمع .

- ومن اختصاصات الحاجب أيضا : تنظيم مثول الناس أمام الخليفة .
- وأنهم كانوا يمثلون همزة الوصل بين الناس والخليفة[٩٦] .

واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب ، فلم يقابلوا رعاياهم إلا من قدم لأمر خطير وصار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل الخليفة كل طائفة فى كل مكان معين ، كما يحدده الحاجب[٩٧] .

واتخذ العباسيون الحجاب وبالغوا فى ذلك تشبها بالأكاسرة وحماية لأنفسهم من الساخطين عليهم وزادوا فى منع الناس عن ملاقاتهم .

أما فى بلاد الأندلس فيلاحظ أن منصب الحجابة كان يماثل منصب الوزارة فى الدولة العباسية ، فقد كان اختصاص الحاجب فى عصر بنى أمية واسعا يشتمل على الإشراف على الشئون المدنية والعسكرية

، وبلغ الحاجب درجة كبيرة من النفوذ حتى أن الخلفاء حافظوا على التلقب بلقب الحاجب بعد وصولهم إلى كرسى الخلافة[٩٨] .

وكان يشغل وظيفة الحاجب كبار العسكريين ، وبلغ نفوذهم إلى درجة كبيرة حيث كان يتم مشورتهم فى الكثير من الأمور فى الدولة ، واستبد بعضهم بالأمر دون الوزير ، وتدخل بعضهم فى تعيين الوزراء[٩٩] ، ومثال لذلك الربيع بن يونس حاجب المنصور والمهدى ، ونلحظ مدى مكانته بأنه أخفى نبأموت المنصور حتى أخذ البيعة للمهدى ، وتخلص من الوزير معاوية بن يسار حيث عزله المهدى بمشورة من الربيع ، ثم رشح الربيع للمهدى يعقوب بن داود ليتولى الوزارة[١٠٠] ولعب دورا كبيرا فى الإيقاع بين هارون الرشيد والبرامكة[١٠١] .

هذا ونجح بعض الحجاب فى تأسيس أسر حاكمة مثل الحاجب أق سنقر والد عماد الدين زنكى الذى أسس الأسرة الزنكية فى الموصل وأعمالها وتوابعها "الجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرها"[١٠٢] .

وخلال العصر الفاطمى لم يتمتع الحاجب بتلك المكانة التى كان يتمتع بها خلال العصرين الأموى والعباسى ، وكان يلقب بصاحب الباب[١٠٣] .

وزاد نفوذ الحاجب حتى صار الواحد منهم يلقب بذى الوزارتين ، وذلك إشارة إلى إشرافه على الأمور المدنية والعسكرية ، وكان ذلك راجعا إلى الثقة التى أولاها له الحكام حيث كان يتم اختيار الحاجب من مقدمى رجال الدولة وخاصة الخليفة ويختار من أغزرهم عقلا وأشدهم دينا وأوفاهم روعا ، وأعظمهم من الله خوفا ، وأصوبهم رأيا وأرحمهم قلبا وأصدقهم لهجة وأذكاهم نفسا[١٠٤] .

وكان على الخلفاء ألا يجعلوا زمام الأمور بأيدى حجابهم ، ولا يركنوا بالكلية إليهم ، ولا يعتمدوا فى جميع أمورهم عليهم ، فربما داخلهم الطمع فينقلون إلى الخليفة ما يريدون ، ويكتمون عنه ما يختارون وهذا يؤدى إلى اختلال الملك وفساد النظام وهلاك الرعية ، بل كان عليه أن يباشر الأمور بنفسه ويسمع من المظلوم شكايته ، ويتولى أمور الرعية حقيرها وخطيرها بنفسه ولا يهمل شيئا منها[١٠٥] .

ولاية العهد :

أثارت مشكلة ولاية العهد أو الاستخلاف كواحدة من نظم الدولة الإسلامية كثيرا من الجدل والخلاف بين المفكرين والعلماء والفقهاء المسلمين ، فمنهم من أدان هذا الاتجاه ونادى ببطلانه ، ومنهم أوجد له المبررات ووضع له من القواعد ما يجعله مشروعا متمما للخلافة .

وكانت البداية التاريخية لولاية العهد سنة ٤٠ هـ/٦٦٠ م حين تولى الحسن بن على خلافة المسلمين ، إلا أنها لم تتم على يد على بن أبى طالب رضي الله عنه ولم يوص بها ، فقد ترك هذا للمسلمين يرون فيه رأيهم ، ومع ذلك يمكن القول أن تولية الحسن بن على كانت البداية لقاعدة جديدة من قواعد الحكم ونظم الدولة ، ربما كانت سابقة سار عليها معاوية بن أبى سفيان فأخذ البيعة لابنه يزيد[١٠٦]

وعلى الرغم مما فى البيعتين من بعد عن أسس الخلافة الإسلامية التى وضعها الرسولﷺ فقد أقحم هذا التقليد على الخلافة وأصبح ملازما لها .

وقد عارض بعض المسلمين بيعه يزيد ، بل أن معاوية أكره الناس أو بعضهم على البيعة ، فقد ثار الحجاز ، وعندما تولى يزيد خلافة الأمة بعث إلى واليه على المدينة الوليد بن عقبة يأمره فى كتاب يقول فيه : خذ حسينا وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة والسلام[١٠٧] .

إن القاعدة التى وضعها الأمويون ، وساروا عليها منذ خلافة معاوية وحتى مقتل مروان بن محمد لم تمر دون أن تحرك الثورة فى النفوس ، وعندما مات معاوية ازدادت الثورة اشتعالا ورأى الحسين بن على أن يطالب بحقه فى الإمامة وسادة أهل العراق وانتهى الأمر بقتله سنه ٦١هـ / ٦٨٠م فى كربلاء[١٠٨] .

ولم تكن كربلاء نهاية المشكلات بالنسبة ليزيد ، فقد كان عبدالله بن الزبير بمكة كما لم تكن المدينة بأقل رفضا للموقف ، وسير يزيد جيشه إلى الحجاز حيث دارت الحرب مع أهل المدينة فى موقعة الحرة وقتل فيها كثيرون[١٠٩] وسارت الجيوش الأموية بعد ذلك إلى مكة وبها عبدالله بن الزبير ولم تنجح هذه المحاولة ، كما لم تنج المدينة من نار الأمويين[١١٠] ، واستمرت ولاية العهد تنتقل بين أولاد الخلفاء وأخوتهم وأقاربهم الأقربين .

مكن الأمويون لأنفسهم ووضعوا أسس ولاية العهد ، وبذلك تحولت نهائيا إلى حكم وراثى[١١١] وازداد الصراع على ولاية العهد خلال العصر العباسى ، ولجأ الخلفاء إلى أخذها لأكثر من واحد من الأبناء ، ولم يتورع كل أولئك فى الدخول فى حروب دامية وصولا للانفراد بها تمهيدا للوصول إلى الخلافة ، فقد عهد أبو العباس السفاح إلى المنصور وجعل ولاية العهد من بعده لعيسى بن موسى[١١٢] فأراد المنصور تقديم المهدى فاستنزله عن العهد عفوا لحقه فيه ، ويذكر الماوردى أنه ليس من حق الخليفة أن يكره ولى العهد على التنازل ، إذ يجب أن يتنازل طائعا راضيا[١١٣] .

وقد حرص الخلفاء العباسيون على ولاية العهد ، فيذكر أن الرشيد رتب الخلافة فى ثلاثة من أبنائه هم الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن وذلك بناء على مشورة من عاصره من فضلاء العلماء[١١٤] .

فإذا عهد الخليفة إلى ثلاثة ورتب الخلافة فيهم ومات والثلاثة أحياء كانت الخلافة بعده للأول ، ولو مات الأول فى حياة الخليفة كانت الخلافة بعده للثانى، ولو مات الأول والثانى فى حياة الخليفة فالخلافة بعده للثالث لأنه قد استقر لكل واحد من الثلاثة بالعهد إليه حكم الخلافة من بعده[١١٥] .

وفى عام ١٨٧هـ/ ٨٠٢م بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون شريطة أن يكون الأمر للمأمون ان أراد أقره فى ولاية العهد وان شاء أن يخلعه خلعه[١١٦] .

وعندما تولى الأمين الخلافة أراد أن يخلع أخاه المأمون من ولاية العهد وسير إليه من يحاربه فى خراسان ، وتصدى لذلك طاهر بن الحسين الذى تمكن من انزال الهزيمة بجيش الأمين وعلى رأسه القائد على بن عيسى بن ماهان[١١٧].

وتعرضت بغداد بسبب ولاية العهد للحصار ودارت الحرب التى انتهت بمقتل الأمين ، وحملت رأسه إلى أخيه المأمون فى خرسان ، ولقد بكى المأمون واشتد حزنه على أخيه ، ثم قدم من خرسان إلى بغداد ليتولى أمر المسلمين[١١٨].

ويتصل النزاع على ولاية العهد حتى أننا نرى تدخل الموالى لتأييد ولى العهد وهذا ما حدث خلال عهد الخليفة المعتز الذى علم أن المؤيد يتآمر عليه وذلك بالاتصال بالموالى فقبض عليه وطلب إليه أن يخلع نفسه من ولاية العهد ولم يهدأ إلا بعد أن قتله مسموما[١١٩] .

واستمرت ولاية العهد قضية من قضايا الخلاف حتى نهاية العصر العباسى وسقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .

ولذا يمكن القول أن ولاية العهد ظلت أسلوبا من أساليب اختيار الخليفة ، وذلك منذ العصر الأموى وحتى انتهاء الخلافة العباسية ، وإذا اعتبرنا أن هذا التطور قد أملته الظروف التى عاشت خلالها نظرية الدولة الإسلامية فإن هذا الأسلوب يضاف إلى ما سنه الخلفاء الراشدون ابتداء بالاختيار دون نص أو عهد مكتوب إلى نص وعهد مكتوب إلى قيام مجلس الشورى وانتهاءا بولاية العهد لواحد ثم لأكثر من واحد [١٢٠] تحولت الخلافة فى عهد الأمويين من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكى الوراثى ، فقد بايع معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بولاية العهد دون أبناء الصحابة مثل الحسين بن على ، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن العباس وغيرهم ، وكان الخلفاء الأمويون يولون العهد أحيانا لأكثر من واحد .

واتبع العباسيون هذا النظام وغالوا فيه ، فقد عهد أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) بالخلافة أبى أخيه إلى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) ثم إلى أخيه عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس ، فلما تولى المنصور الخلافة خلع عيسى بن موسى وبايع لابنه المهدى ، ثم لعيسى بن موسى من بعده ، ولما تولى المهدى الخلافة (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م) خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولى ولديه الهادى ثم هارون الرشيد .

كذلك أراد الهادى (١٦٩-١٨٠هـ) خلع أخيه هارون والبيع لابنه جعفر مثلما فعل المهدى مع عيسى بن موسى ، لولا أن مات الهادى قبل أن ينفذ ذلك .

كما حاول الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، والبيعة لابنه مما أدى إلى النزاع بين الأخوين ، وانتهى الأمر بقتل الأمين .

وكان لنظام ولاية العهد نتيجة سيئة على العباسيين والأمويين من قبلهم ، حيث نشب الخلاف بين الكثيرين مما أضعف الخلافتين[١٢١] .

الكتابة :

الكتابة فى اللغة : لفظ مشتق من كتب وهو يدل على جمع شئ إلى شئ والكتاب بمعنى الفرض أيضا وذلك فى قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾

يقصد بالكتابة هى احدى الوظائف المعاونه للحاكم تشاركه مسئوليات الحكم بتدوين وكتابة ما يعهد الحاكم إليها من رسائل وغيرها القيام بالأعمال الإدارية التى تعين الوزير فى أدائه لعمله ، فقد كان عبء الوزارة يضطلع به شخص واحد فى العادة وهو من يطلق عليه فى عصرنا الحالى لقب "رئيس الوزراء" ، ولكن أعباء الوزير أخذت تتزايد بحيث لم يعد من الممكن أن يقوم بها وحده ، ولذا استعان بموظفين أو كتاب يشرفون معه على الدواوين المختلفة أى الوزارات بالمفهوم الحديث[١٢٢] وقد عرف المسلمون الكتابة فى صورتها البسيطة الأولى فى عهد الرسولﷺ ، حيث كان يتخذ له كتاب من الصحابة الذين يجيدون القراءة والكتابة يدونون القرآن الكريم ويكتبون الرسائل والعهود والمعاهدات المختلفة ، كان على بن أبى طالب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما يكتبان الوحى فان غابا كتب أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكتب خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان بين يدى الرسول فى حوائجه ، واتخذ الرسولﷺ المغيرة بن شعبة والحصين ابن غير كتبة يكتبان ما بين الناس من المداينات والمعاملات ، وجعل عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء وأضاف إلى زيد بن ثابت كتابة الكتب إلى الملوك ، وجعل كتابة المغانم إلى معيقيب بن أبى فاطمة حليف بنى أسد ، وكان حنظلة ابن الربيع خليفة كل كاتب من كتاب النبىﷺ إذا غاب عن عمله حتى غلب عليه اسم الكاتب ، وكان الرسول يضع خاتمه عنده ، وبلغ كتاب الرسولﷺ اثنين وأربعون رجلا[١٢٣] فمنهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب (رضى الله عنهم) ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة[١٢٤] .

وسار على نهجه الخلفاء الراشدون حيث اتخذوا لهم كتابا أيضا ، وكانت الكتابة فى عهدهم مازالت بسيطة فى وظيفتها ففى عهد أبى بكر اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له وكذلك زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم ، وعبد الله بن خلف الخزاعى وحنظلة بن الربيع[١٢٥] وفى عهد عمر بن الخطابﷺ . وتم تعيين كاتب بكل ولاية كانت مهمته تنحصر أولا فى كتابة الرسائل ، وتدوين الدواوين ثم أصبحت المهمة تتسع لتشمل حسابات الدواوين وتسجيل أسماء الجند وأعطياتهم وكاتب للخراج وكاتب للقضاء[١٢٦] .

وعندما انتقلت الخلافة إلى الأمويين تعددت الدواوين وأصبحت خمسة هى: ديوان الرسائل والخراج والجند والشرطة والقضاء وكان لكل ديوان من هذه الدواوين كاتب ، وكان يتصدرهم فى الأهمية كاتب ديوان الرسائل[١٢٧] .

وخلال العصر العباسى زادت مكانة الكاتب نتيجة لكثرة أعمال الوزارة ، حيث أصبح من الضرورى تعيين موظفين لمعاونة الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها ، وكان من أشهر الكتاب فى ذلك العصر كاتب الرسائل الذى يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة ، وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق وبليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب[١٢٨] .

وكان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة فى مجلس القضاء وينوب عن الخليفة أو الأمير فى بعض الأحيان ، وعندما استقرت وظيفة الوزير وزادت أهمية شاغلها صار الكاتب مجرد موظف فى الدواوين[١٢٩] .

وعرف نظام الكتابة فى الأعمال والولايات الإسلامية فكان بكل ولاية كاتب للخراج والمال وكاتب الرسائل .

وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة على رأسها الوزير ، بل وتتدرج فى الرقى إلى الوزارة ، معتمدة على كفايتها وبلاغتها ، وكان لهؤلاء الكتاب أثر كبير فى نشر نوع من الثقافة خاص ، وذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة إطلاعهم واسعة شاملة ، وأنهم بحكم مناصبهم مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافية والتاريخ طرفا لأن كثيرا من مواقفهم يحتاج لذلك[١٣٠] .

وكان هناك صفات ينصح أن يتحلى بها الكتاب من هذه الصفات والخصال الحلم والفقه والعفاف والعدل والإنصاف والأمانة وكتم السر والوفاء والبعد عن السعاية والنميمة والكبر والعظمة والبعد عن المطامع ، والنظر فى كل صنف من صنوف العلم ، واجادة الخط ورواية الأشعار ، ومعرفة أيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها والنظر فى الحساب[١٣١] .

وكان لابد أن تكون هناك مؤهلات خاصة بفئة من الكتاب دون الأخرى ، وذلك لخصوصية الدواوين وتميزها عن بعضها فى الوظائف فمثلا ، كان لا غنى لصاحب ديوان الخراج عن معرفة الحساب والمساحة .

- ولا غنى لصاحب ديوان الصدقات عن الإلمام بعلوم الفقه .
- ولابد لصاحب ديوان الجيش من معرفة عرض الرجال وشيات الدواب ودار السلاح .
- ولابد لصاحب ديوان النفقات من الإلمام بالحساب والمكاييل والأوزان والأسعار وأمثالها ، وهكذا فى الدواوين الأخرى[١٣٢] .

وكانت الدولة تقوم بصرف الرواتب والأرزاق للكتاب وعمال الدواوين ، وعلى سبيل المثال كان راتب كاتب عبد الله بن على العباس فى خلافة المنصور عشرة دراهم كل شهر[١٣٣] .

وكان الأمويون والعباسيون يصرفون راتبا سنويا لرؤساء الكتاب والعمال ثلاثة مائة درهم وزادت رواتبهم عن ذلك خلال عهد المأمون[١٣٤] .

ويذكر المقريزى رواتب أرباب الدواوين خلال العصر الفاطمى كالآتى :

- الراتب الشهرى لصاحب ديوان النظر سبعين دينارا .
- وصاحب ديوان التحقيق خمسين دينارا .
- وأربعين دينارا لصاحب ديوان المجلس .
- وخمسة وثلاثين دينارا لصاحب دفتر المجلس .
- وأربعين دينارا لصاحب ديوان الجيش [١٣٥] .

وكانت كتابة الدواوين فى صدر الإسلام فى صحف مدرجة تسمى قراطيس وإذا كانت طويلة سميت طوامير ، وأول من اتخذ الطوامير وكتب فيها الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٩-٩٦هـ/ ٧٠٧-٧١٤م) وكره الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٧-٧١٩م) استعمالها وجعل كتبه فى شبر من الصحف أو نحوه[١٣٦] وظلت الكتب تثبت فى صحف وتحفظ فى هذه الصحف فى الدواوين حتى كانت خلافة أبى العباس السفاح ، فجعلها خالد بن برمك فى دفاتر واتخذت الدفاتر من الجلود ، ثم استعمل جعفر بن يحى بن خالد برمك بن الكاغد فى خلافة هارون الرشيد وتداوله الناس من بعده[١٣٧] .

القضاء :

القضاء فى اللغة مصدر من قضى وهو أصل يدل على أحكام أمر واتقانه وانفاذ لجهته كما يتضح من قوله تعالى : ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**﴾[١٣٨]أى أحكم خلقهن ، والقضاء هو الحكم قال تعالى:﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ**﴾[١٣٩]أى أحكم ولذلك سمى القاضى قاضيا لأنه يحكم وينفذ الأحكام، وسميت المنية قضاء لأنه ينفذ فى بنى آدم وغيره من الخلق[١٤٠] .

والقضاء من أعظم المناصب ومرتبته تلو مرتبة النبوة ، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وكلفهم الأخذ بالشرائع ، وبعث الرسل قضاة ليحكموا بين الناس . قال تعالى : ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾[١٤١] وقال تعالى لرسوله محمدﷺ ﴿**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾[١٤٢] .

والقضاء من عمل الخليفة لأن معناه الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للتنازع ، على حسب القانون الشرعى المأخوذ من الكتاب والسنة[١٤٣] وقد كان سنة متبعة عند العرب قبل الإسلام وكانوا يعرفون بالحكام[١٤٤]

ولما جاءت دولة الإسلام صار الرسولﷺ يفصل فى الخصومات بين الناس فى المدينة وصار مرد كل حدث أو اختلاف بينهم إلى الله وإلى محمد رسول اللهﷺ[١٤٥] .

ثم صار القضاء بعد الرسولﷺ فى عداد الوظائف الداخلة تحت الخلافة ، وفى ذلك يذكر الهروى أنه على الخليفة ألا يهمل أمر القضاة والعدل وأصحاب المناصب لان بأيديهم أزمة الأمور وصلاح الرعية ، ولهم الحكم على الأرواح والأشباح والأموال وأمور الدين والدنيا بل يمتحنهم فى مجلسه ويسألهم عن أمور دينهم ودنياهم وليجعل عليهم عينا ورقيبا ليعلم أمرهم ، فان أهمل أمرهم فسد حاله[١٤٦] .

فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون فى الحكم ان كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء ، وعندما استخلف أبو بكرﷺ قال له عمر بن الخطابﷺ "أنا أكفيك القضاء" [١٤٧] ، ولما تولى عمر بن الخطابﷺ عين على بن أبى طالبﷺ قاضيا ، وجعل على الأمصار والولايات قضاة ينظرون فى الخصومات بين الناس ، وصار ذلك سنة فى الذين جاءوا من بعده من الخلفاء ، حيث كان يتخذ كل منهم قاضيا فى حاضرة الخلافة وقضاة آخرين فى الولايات والأمصار[١٤٨]

والسبب فى ذلك هو كثرة مشاغل الخلفاء بالفتوح وانشغالهم بالجيوش وتدبيرها مما جعلهم يفوضوا هذا العمل إلى من فى استطاعتهم الاستنباط ، ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة إلا منذ عهد عمر بن الخطابﷺ حيث بعث قضاة إلى الأمصار والولايات فولى أبا الدرداء قضاء المدينة ، وشريحا قضاء البصرة ، وأبا موسى الأشعرى ، قضاء الكوفة ، وقيس بن أبى العاص قضاء مصر ، ووضع لهم نموذجا يسيرون عليه ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين[١٤٩] وكان القضاء فى الأمصار أول الأمر مضاف إلى الولاة ، حتى كانت خلافة عمر بن الخطابﷺ فجعله مستقلا عن نظر الوالى ، وعين له من ينفرد بالنظر فيه ، وكان تقليد القضاة فى الولايات يتم فى الغالب عن طريق الولاة وذلك بتفويض الخليفة لهم[١٥٠] ، ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم فى قضائهم .

وخلال العصر العباسى ظهر منصب قاضى القضاة وذلك زمن هارون الرشيد وتولاه القاضى أبو يوسف صاحب كتاب الخراج وصار لقاضى القضاة حق الإشراف نيابة عن الخليفة على النظام القضائى من حيث النظر فى تعيين القضاة ومراقبتهم فى عاصمة الدولة وخارجها[١٥١] .

وذلك لأنه كان لا يوجد إلا خليفة واحد للمسلمين فى بغداد هو الخليفة العباسى ، ونتيجة لتعدد الخلفاء بعد قيام الدولة الفاطمية بدأ تعدد قاضى القضاة فى عدة عواصم[١٥٢] .

وقد ظهر الأئمة الأربعة ابتداء من القرن الثانى الهجرى وبتدوين مذاهبهم وانتشارها اخذ القضاة يتقيدون فى قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشر مذهب الإمام أبو حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) فى سائر بلاد العراق[١٥٣] كما انتشر مذهب الإمام مالك وهو مذهب أهل الحديث فى بلاد الحجاز ، والإمام مالك هو ابن انس الأصبحى ولد سنة ٩٣هـ/٧١١م وتوفى سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م

- أما المذهب الشافعى نسبه إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى المولود بغزة سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م والمتوفى بمصر سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م فقد انتشر فى مصر والشام .
- وقد انتشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل المولود ببغداد سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م والمتوفى بها سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م فى بغداد فى بلاد الشام ونجد .

وهكذا كان لكل مذهب من هذه المذاهب قاضى قضاة يقوم بدوره بتعيين القضاة فى الأمصار والمدن وفقا لمذهبه[١٥٤] .

وكان الخلفاء يتحرون عند اختيار القضاة أن يكون القاضى من أهل العدالة والعلم وقد ذكر المصنفون لكتب "أدب القضاء" الشروط التى يجب توافرها فيمن يقلد منصب القضاء استقوها من الشواهد القرآنية والسوابق من عهد الصحابة ومن تلاهم فقد ذكر الماوردى سبعة شروط هى : الذكورة حيث يشترط فيمن يتولى القضاء أن يكون رجلا ، وأجاز أبو حنيفة تولى المرأة القضاء فيما يجوز فيه شهادتها ويرى الكاسانى أن الذكورة ليست من جواز التقليد فى الجملة لأن المرأة من أهل الشهادات فى الجملة ، إلا أنها لا تقضى فى الحدود والقصاص لأنه لا شهادة لها فى ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة وأجاز ابن جرير الطبرى تولى المرأة القضاء فى جميع الأحكام[١٥٥]مع البلوغ ، والإسلام ، والعقل ، والعدالة والحرية والعلم بالأحكام الشرعية ، وسلامة الحواس والعلم بآراء السلف[١٥٦] ، حيث يجب فيمن يتولى القضاء أن يسمع ويبصر حتى يستطيع تمييز الحق من الباطل وهذا بخلاف سلامة الأعضاء فهى غير معتبره فى القضاء ولكنها معتبرة فى الولاية العامة[١٥٧] .

واهتم الخلفاء والولاة بتصفح أحوال القضاة وتتبع أخبارهم والاطمئنان على سلامة إجراء أحكام العدل بين الناس ، وكان دور بعض الخلفاء مشهودا فى بيان معالم القضاء وكشف غموضه وإزاحة عللله[١٥٨] .

كان النبى ﷺ هو الذى يتولى القضاء ، وكان يعتمد فى قضائه على الوحى والاجتهاد فيما لا نص فيه ، وقد درب ﷺ أصحابه على ذلك فعندما بعث بمعاذ بن جبل إلى اليمن قال له : "كيف تقضى إذا عرض عليك قضاء ؟ قال أقضى بكتاب الله قال فإن لم تجد قال أقضي بسنة رسول الله ، قال فإن لم تجد فى سنة رسول الله قال أجتهد فى رأيي ولا آلو فقال له الحمد لله الذى وفق رسول الله إلى ما يرضى الله"[١٥٩] .

وفى عصر الخلفاء الراشدين كانت المصادر هى الكتاب والسنة والإجماع والقياس وذلك على الترتيب السابق ، على أنه إذا كان القاضى من أهل الإجتهاد كما كان فى صدر الإسلام ، فإنه يأخذ الحكم نفسه من هذه المصادر السابقة مباشرة وعلى الترتيب السابق ، أما إذا لم يكن كذلك فإنه يأخذ

الحكم منها بواسطة المجتهدين ، واستمر الأمر كذلك حتى ظهور المذاهب الفقهية فقل اجتهاد القاضى وأصبح يحكم وفق قواعد مذهب من المذاهب .

وكان القضاة يرجعون فى الفصل فى الخصومات بين الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يستنبطون الأحكام ، وكانت السنة النبوية لم تدون ولم تجمع حتى عهد عمر بن عبد العزيز ، فكان إذا تعثر أمرا أمام القضاة رجعوا فيه للخلفاء[١٦٠] .

ولم يكن القاضى فى أحكامه موكولا إلى الاجتهاد الصرف وإنما كان موكولا إلى الاجتهاد فى فهم الشريعة الإسلامية ، وتطبيقها على الحوادث والواقعات[١٦١]وعلى الرغم من ذلك صارت أصول الأحكام فى الغالب مبنية على أربعة أمور هى كتاب الله وسنة رسوله ، والإجماع والقياس[١٦٢] وصار القاضى يجد من خلالها طريقه إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل.

وكانت وظيفة القاضى فى عهد الخلفاء الراشدين مقصورة على الفصل فى الخصومات المدنية ، أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار[١٦٣] إلا أنه مع مرور الزمن لم تقتصر سلطة القاضى على الأعمال القضائية البحتة ، بل امتدت إلى أمور دينية أخرى ليس لها علاقة بالقضاء وإنما ضمت إليه لمعرفته بالضرورة للشرع الإسلامى[١٦٤] .

وهذه الأعمال تتمثل فى الآتى :

النظر فى أموال اليتامى ومثال لذلك أن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضى مصر أثناء ولاية عبد العزيز بن مروان بن الحكم على مصر (٨٦هـ /٧٠٥م) من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان (٨٦-٨٩هـ/ ٧٠٥-٧٠٧م) عين عريف على كل قوم للنظر فى أموال اليتامى وأضيف إلى عمله هذه الوظيفة[١٦٥]

وأيضا النظر فى الأحباس ومثال لذلك توبة بن نمر قاضى مصر أثناء ولاية الوليد بن رفاعة على مصر (١١٥-١٢٠هـ/ ٧٣٣-٧٣٧م) من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) وكانت الأحباس من قبل فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم ، ولم يمت توبة حتى صار للأحباس ديوانا عظيما[١٦٦] .

وأضيفت إلى القضاء ولاية الشرطة ، ومن القضاة الذين تولوا الشرطة مع وظيفتهم عابس بن سعيد الذى تولى القضاء من قبل مسلمة بن مخلد الأنصارى (٦٠-٦٨هـ / ٦٧٩-٦٨٧م) وأقره مروان بن الحكم عندما جاء إلى مصر وجمع له القضاء والشرطة ، وأيضا يونس بن عطية الذى تولى القضاء من قبل عبد العزيز بن مروان (٨٤-٨٦هـ / ٧٠٣-٧٠٥م)[١٦٧] .

ومن الأعمال التى أضيفت إلى القاضى امامة المصلين والخطابة وولاية الحج ، وأخذ البيعة للخليفة أو السلطان ، ومصاحبة الجيوش[١٦٨] ، وتولى بعضهم قيادة الجيوش[١٦٩] وأيضا الإشراف على الأحوال الدينية ، والإشراف على المكاييل والعملة[١٧٠] .

ومن الأعمال التى أضيفت إلى القاضى خروجه لرؤية هلال شهر رمضان مع الشهود وقد أضيفت هذه السلطة إلى القاضى فى ولاية عبد الله بن لهيعة على القضاء (١٥٥-١٦٤هـ/ ٧٧١-٧٨٠م) من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، وكذلك أثناء ولاية هاشم بن أبى بكر البكرى قضاء مصر (١٩٤-١٩٦هـ/ ٨٠٩-٨١١م) من قبل محمد الأمين خرج لرؤية هلال رمضان[١٧١].

وكان بعض القضاة على درجة كبيرة من الكفاية والخبرة التى جعلت بعض الخلفاء يولونهم أمورا خارجة عن اختصاص القضاء ، فقد خول الخليفة عمر بن عبد العزيز أبا إدريس الخولانى فى النظر فى المظالم[١٧٢] وجمع هشام بن عبد الملك الشرطة والأحداث مع القضاء إلى بلال بن أبى بردة[١٧٣] .

وقد كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والإجلال كما كان لصاحبها نفوذ كبير يتفق مع خطورة العمل الذى يؤديه .

ونتيجة لكثرة الأعمال المسندة للقاضى فقد اتخذ له نوابا فى الأقاليم[١٧٤] واتخذ القاضى الشهود ليعاونوه فى عمله القضائى البحت ، وكان يطلق على الشهود اسم الشهود العدول حيث يتصفون بالأمانة والعدل ولا يشك فى ذمتهم وكان القاضى يراقب تصرفاتهم[١٧٥] . ولهم رئيس يسمى مقدم الشهود[١٧٦] .

واتخذ القاضى بوابا وحاجبا وأعوانا لإحضار الخصوم وكتابا ومترجمين ومستمعين ، وصار العلماء يحضرون مجلس الحكم للمشاورة فى المشكلات والمناظرة فى المجتهدات[١٧٧] .

وكان المكان الذى يجتمع فيه القاضى بالخصوم يعرف باسم مجلس الحكم وكان مقره مسجد العاصمة الكبير ، وكان القاضى أحيانا يفصل فى أمور الناس وهو فى داره ، وكان مجلس الحكم يعقد علنا فى أيام محدودة[١٧٨] ، ويتكون هذا المجلس من القاضى والشهود العدول ، والموقعين الذين يكتبون ما يدور فى الجلسة ، والحجاب الذين ينظمون دخول المتخاصمين[١٧٩] .

وكان تعيين القضاة وعزلهم لا يتأثر بتعاقب الخلفاء وتبدل الولاة وتغيير الدول ، ومثال لذلك فقد ولى شريح بن الحارث الكندى قضاء الكوفة منذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحتى خلافة عبد الملك بن مروان[١٨٠] وولى محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى القضاء لبنى أمية ثم ولى القضاء لبنى العباس[١٨١] .

وهذا يدل دلالة واضحة على استقلال القضاء وعدم تأثره بالاتجاهات السياسية ، وحرص الدولة الإسلامية مع تعاقب حكامها على نزاهة القضاء وإجراء أحكام العدل بين الناس من جهة أخرى .

واستتماما لاهتمام الخلفاء بأمر القضاء صرفوا للقضاة الرزق والعطاء ، وكانت رواتبهم تختلف بين خليفة وآخر وبين عهد وعهد وبلد وبلد وذلك وفقا للأحوال المعيشية .

ومثال لذلك القاضى عبد الرحمن بن حجيرة كان على قضاء مصر من قبل عبد العزيز بن مروان (٦٩-٨٣هـ/ ٦٨٨-٧٠٢م) وكان راتبه فى السنة ألف دينار[١٨٢] ، وكان للقاضى زى معين يتميز به ويمنع القاضى من أخذ الهدايا ، وكان يركب بغلة شهباء ولا يسمح لأحد باتخاذ بغلة مثلها[١٨٣] .

قضاء المظالم :

نظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة[١٨٤] ، فهى وظيفة ممتزجة بين سطوة السلطنة ونصفه القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه[١٨٥] .

وفى بداية الأمر كانت ولاية المظالم متداخلة مع ولاية القضاء وفرعا منها ومنذ نهاية القرن الأول الهجرى نظم القضاء وتحددت اختصاصاته ، كما نظمت ولاية المظالم ، وتحددت اختصاصاتها ، وهكذا أصبحت ولاية المظالم تجمع بين خصائص القضاء والتنفيذ معا ، ولذلك لا يسمى من يتولها قاضيا بل بسمى صاحب المظالم أو ناظر المظالم[١٨٦] .

وكان السبب فى ظهور ذلك هو تضخم ظروف الحياة فى الخلافة الإسلامية ويعتبر هذا النظام من أعظم أمور القضاء لأنه يمكن المتخاصمين من اللجوء إليه فى حالة التظلم من حكم أصدره القاضى وخلال عهد الرسولﷺ لم تدع الحاجة إلى النظر فى المظالم ، وكذلك خلال عهد الخلفاء الراشدين ، لأن الوازع الدينى فى عهدهم كان له سلطان على نفوس المسلمين حيث لم ينتدب أحد من الخلفاء الراشدين للمظالم ، وكان أول من نظر فيها هو عبد الملك بن مروان حيث جعل يوما يتصفح فيه قصص المتظالمين ، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقوم بنفسه للنظر فى المظالم ورد الحقوق لأصحابها ، كما جلس لها من الخلفاء العباسيين الخليفة المهدى ، والهادى ، وهارون الرشيد ، والمأمون والخلفاء من بعدهم[١٨٧] ونشأ ديوان خاص للنظر فى المظالم خلال العصر العباسى ، كان بمثابة هيئة تحكيم أو محكمة استئناف يلجأ إليها المتخاصمون عند اعتراضهم على حكم أصدره القاضى .

وكان مقر نظر المظالم هو مقر الخليفة فى العاصمة ، ويكون عادة فى القصر أو أثناء سيره فى المواكب ، فعلى سبيل المثال كان ناظر المظالم فى القصر الفاطمى يجلس فى مكان خاص بقصرهم يعرف بباب الذهب[١٨٨] .

ويذكر الماوردى أن مجلس والى المظالم لا يستغنى عن خمسة أصناف ولا ينتظم نظره إلا بهم ، وهذه الأصناف هى :-

١- الحماة والأعوان : لتنظيم المجلس وحمايته .
٢- القضاة والحكام : لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ومعرفة ما يجرى فى مجالسهم بين الخصوم .
٣- الفقهاء : ليرجع إليهم فيما أشكل ويسألهم عما اشتبه وأعضل .
٤- الكتاب : ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما لهم وما عليهم من حقوق .
٥- الشهود[١٨٩] .

وفيما يتعلق باختصاصات قضاة المظالم فهى الفصل فى النزاع بين الناس والدولة أو أحد أفراد موظفيها فى أى عمل من أعمالها سواء كان فى الحكم أم الإدارة أو فى غيرها ، وقد فصل الماوردى هذه الاختصاصات بالآتى :

- تعدى الولاة على الرعية .
- جور العمال فى جباية الأموال من الرعية .
- التظلمات المتعلقة بالميزانية وقضايا الدخل والخرج منها .
- تظلمات الموظفين فى رواتبهم من نقص أو تأخير فى تسليمها .
- رد الغصوب التى استولى عليها ذوى السلطان والأيدى القوية .
- تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه فى ميدان الأحكام والحسبة والعبادات الظاهرة
- النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فى مصالح العامة .
- مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع ، والأعياد ، والحج والجهاد .
- النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين[١٩٠] .

ويشترط فيمن يتولى قضاء المظالم أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر عظيم الهيبة ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، وله من علو اليد وعظيم الرهبة ما يقمع به الظالم ويمنعه عن التغلب والتجاذب[١٩١] ، لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحكام ، وثبات القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين .

الحسبة :

الحسبة نظام إسلامي قديم قدم الإسلام وتطور بتطور الحضارة الإسلامية ، وصار له قواعد وقوانين شملت معظم مناحى الحياة ، وأساس هذا النظام هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا الأساس له سند شرعى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١٩٢] .

ويجب الأمر بالمعروف إذا ظهر فى المجتمع تركه ، وكذلك النهى عن المنكر إذا ظهر فعله ، ولذا فإن نظام الحسبة مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل[١٩٣] ولذا ما لبث نظام الحسبة أن تطور وتعدى ذلك ، إلى واجبات عملية تتفق ومصالح المجتمع وبخاصة سكان المدن حيث كان معظمهم من أرباب الحرف والتجارة .

وهذا النظام باشره الرسولﷺ بنفسه ، حيث كانت أقواله وأفعاله مليئة بنهيه عن المنكر وبأمره بالمعروف حيث نهى عن عبادة الأوثان وأمر بعبادة الله الواحد الأحد ، كما نهى عن أكل الربا ، ونهاهم

عن بيع المعدوم ، وهو بيع الشئ قبل أن يكون أمام المشترى ، ونهى عن أشياء عديدة كانت منتشرة فى المجتمع[١٩٤] .

وكانﷺ يمر فى الأسواق ويتفقد حال السلع ومدى سلامتها ، حتى أنه رأى بعض السلع وقد أصابها التلف وصاحبها يغش بها الناس ، فقالﷺ " **من غشنا فليس منا** " وأن الغاش ليس بمؤمن .

وقالﷺ: "إياكم والجلوس فى الطرقات" ، كما نهى القرآن الكريم عن التطفيف فى الموازين والمكاييل ، ونهى الرسولﷺ عن الاحتكار والتسعير [١٩٥]

عن أبى سعيد الخدرى أن الرسولﷺ نهى عن المنابذة ، وهى طرح الرجل ثوبه بالبيع إلى الرجل قبل أن يقلبه أو ينظر إليه ، ونهى عن الملامسة ، والملامسة لمس الرجل الثوب لا لينظر إليه .

ومن وسائل الرسولﷺ فى حفظ حقوق العاملين وزجره عن استغلال جهلهم بحال الأسواق والأسعار ، أنه منع تلقى الركبان وبيع الحاضر للبادى - للسمسار - وبيع الرجل على بيع أخيه[١٩٦] .

وقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسولﷺ فى إقامة الحسبة بين الناس ، وقد روى أن عمر بن الخطاب ضرب جمالا وقال له حملت جملك ما لا يطيق وروى أنه حرق بيت الرويشد الثقفى لأنه كان يبيع الخمر ، وقال له أنت فويسق ولست برويشد .

وفى العصر الأموى اتسعت الدولة الإسلامية وكثرت مشاكلها وشغل الخلفاء بالأمور الإدارية فأخذوا يعينون من يقومون بعمل الحسبة ، ، ويدعى المحتسب ، وأصبح نظام الحسبة فى العصر الأموى له جهاز كبير يتبعه كثير من الموظفين يعاونون المحتسب[١٩٧] .

وقد اشترط الفقهاء فى المحتسب عدة شروط هى أن يكون مسلما ، حرا ، بالغا ، عاقلا ، قادرا والشرط الأخير مهم لأن الحسبة موضوعه للرهبة ، وأن يكون عالم بالمنكرات الظاهرة[١٩٨] .

ومن صفات المحتسب :-

- يجب أن يكون بارعا فى الاجتهاد .
- وأن يعمل بما يعلم ولا يكون قوله مخالفا لفعله حتى لا يتعرض لسخرية الناس من ناحية وتكون دعوته مقبولة من ناحية أخرى لأنه لا يجوز أن يدعوا لشئ يفقده[١٩٩] ، وأيضا ليتجنب قول الله تعالى فى ذم مثل هذا **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم﴾**"[٢٠٠] .
- كما اشترط أن يكون مرتب المحتسب من بيت المال ، وكان له زى مميز ، حيث كان يرتدى زى العلماء[٢٠١] .

مهام المحتسب :

كانت المهام الداخلة تحت وظيفة المحتسب عديدة والجهات الموكلة إلى نظرة كثيرة ولذلك كان يتخذ الأعوان للوفاء بعمله والقدرة على القيام به ، وكان من جملة الأعمال التى ينظر فيها ما يلى :

مهام المحتسب الاقتصادية :

كان من مهام المحتسب الاقتصادية إشرافه على أصحاب الحرف والمهن التى تتعلق بالمجال الاقتصادي فكان يراقب عملية صنع الخبز حيث كان له دفتر خاص يسمى "دفتر المحتسب" يسجل فيه أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، وكان يخصص لكل حانوت من هذه الحوانيت كمية معينة من الدقيق كل يوم لئلا يختل اقتصاد البلد من قلة الخبز ويلزمهم بذلك[٢٠٢] .

وكان المحتسب يزن الخبز حيث كان له وزنا معلوما ، وكان يلزم الفرانين بألا يخرجوا الخبز من بيت النار إلا بعد تمام نضجه[٢٠٣] .

وكان يأمر الجزارين بعدم ذبح الحوامل من البقر وأن توضع ذيول الماعز معلقة فوق لحومها حتى يعرف الناس نوع اللحوم التى يشترونها ، وعلى الجزارين ذبح الحيوانات فى المذابح لا على أبواب دكاكينهم لئلا تتلوث الطريق بالدم والروث[٢٠٤] ، وكان يقوم بحملات تفتيشية على المطاعم والشوانين والطباخين والعطارين والنحاسين والحدادين والسقائين ، والخياطين والبزازين للاطمئنان على عملهم والتأكد أن أحدا لم يرتكب أية مخالفة ، فإذا عثر على شئ من ذلك كان عليه أن يمنعه فى الحال[٢٠٥] .

وكان يقوم بترتيب وتنظيم الصناعات المختلفة من خلال إقامة كل صنعة فى مكان خاص بها ، وكان الهدف من ذلك هو تسهيل عملية الإشراف عليها ومراقبة ما يتم فيها من صناعات ، ولكى لا تتلف صنعة أخرى[٢٠٦] .

وكان المحتسب يتأكد من الدراهم والدنانير المتداولة فى الأسواق وأنها غير مزورة ومختومة بخاتم السلطان ، وكان يراقب المكاييل والموازين المتداولة فى الأسواق ويمنع الإحتكار ، ويذكر البائعين بعدم خلط البضاعة الرديئة بالجيدة ، وكان يمنع الكبوديين - بائعى الكبده - من خلط كبود الماعز أو البقر بكبود الضأن ومن خلط البائت بالطازج ، وألا يخلطوا لحوم الإبل بلحوم البقر[٢٠٧] .

ولكى يتمكن المحتسب من أداء مهامه الاقتصادية كان يختار لكل صنعة عريفا من بين أفرادها يشرف على أحوال طائفته ، ويطلع على أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتى يتسنى له مراقبتهم .

مهام المحتسب الاجتماعية :

كان المحتسب وأعوانه يشرفون على أخلاق أفراد المجتمع وكان يحرص على توفر الأمانة والأخلاق الحسنة بينهم ، وكذلك اتباع سلوك حميد والظهور بالمظهر اللائق[٢٠٨] .

فكان من واجباته الاجتماعية الإشراف على الآداب العامة ومنع اختلاط الرجال بالنساء فى المتنزهات والأسواق والطرقات وغيرها ، كما كان يمنع الناس من التطلع على جيرانهم من النوافذ والأبواب أو من على السطوح[٢٠٩] وكان يراقب الحمامات العامة ، ويحافظ على الآداب والأخلاق الحسنة بها ، وكان يمنع النساء من الجلوس على أبواب الحوانيت خاصة حوانيت القطانين والكتانين ، وراقب النساء فى الأفراح ، وكذلك فى الجنائز والمآتم وسلوكهن وسيرهن فى الطرقات والملابس التى كانت ترتديها النساء[٢١٠] .

مهام المحتسب الدينية :

ومن مهام المحتسب الدينية إقامة الشرع وإحياء السنة ، فكان يطبق الأحكام على من يفطر فى نهار رمضان ، وعلى المطلقات اللآئى لا يراعين العدة قبل زواجهن للمرة الثانية[٢١١] ، وحرص أن تسير الجنازة وفقا لما نصت عليه الشريعة الإسلامية ، وكان يمنع النساء من تتبع الجنائز وكشف وجوههن ورؤوسهن[٢١٢] وكان يهتم بأمر المساجد من حيث عمارتها وتنظيفها وحفظ الأمن بداخلها ، كان يأمر الأئمة فى المساجد بعدم الإطالة فى الصلاة[٢١٣] .

وكان يختار مؤذن المسجد واشترط منه أن يكون ذكرا مسلما عاقلا وكان يختبرهم فى الأوقات ، وكان ينهى عن التغنى فى الآذان وكذلك التطويل[٢١٤] .

وكان يمتحن الوعاظ والقراء ، ولا يجوز أن يعمل بالوعظ إلا من كان عالما بالعلوم الشرعية حافظا لكتاب الله ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأن يكون صالحا فاضلا ذا سيرة محمودة بين الناس[٢١٥] .

وكان يحث الناس على أداء الصلوات الخمس فى مواقيتها وأداء الأمانة وكان يشرف على أهل الذمة ويأمرهم باتخاذ الخيار ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال والحمير وألا يركبوا شيئا من المراكب المحلاة وأن يكون فى أعناق النصارى الصلبان واليهود الجلاجل إذا دخلوا الحمام[٢١٦] ، وشدد على الخمارين وطارد السكارى وعاقب المخالفين .

مهام المحتسب الصحية :

كان المحتسب يشرف على أداء عمل الأطباء والكحالين والمجبرين وغيرهم من أصحاب الحرف التى لها علاقة بصحة الإنسان ، وكان يشترط عليهم خاصة أو يعقد لهم اختبارات فمن ثبت كفاءته سمح له بممارسة المهنة وأعطى تصريحا بذلك من العريف الخاص وكان يراقب عملية صنع الخبز فيطلب من العجانين استعمال أوعية للماء نظيفة وذات غطاء وغسل المعاجين قبل استعمالها وأن يكون العجان ملثما أثناء عمله ، وأن يشد عصابة فوق جبينه تمنع تساقط العرق منه ، ويحلق شعر ذراعية حتى لا يسقط شئ منه فى العجين ، وأن ينخل العجان الدقيق قبل عجنه ، ويكلف شخصا آخر بطرد الذباب بمذبة يمسكها بيده ، ويأمر الفرانين بإصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن بالكنس من بقايا الخبز المحترقة ، وكان يراقب السقائين ويأمرهم بجلب المياه من داخل البحر حتى يبعد عن مواضع الأوساخ ويأمرهم بنظافة قربهم وتغطيتها وكيزان الشرب التى اشترط فيها عدم استخدام كيزان المجزوم والأبرص[٢١٧] .

ومن مهام المحتسب الصحية إشرافه على الحمامات وتفقدها كل يوم وكان يأمر ضامن الحمام بنظافته وكنسه وغسله بالماء النظيف بالأشياء الخشنة لئلا يتعلق بها الأوساخ والصابون[٢١٨] .

وكان يشرف على الباعة الجائلين ويأمرهم بتغطية الأطعمة من الذباب والحوام ، وأن يغسلوا أطيافهم بالماء النظيف[٢١٩] .

وكان للمحتسب سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه ، وهو ما عرف بالتعزير ، الذى هو نوع من العقاب لم يقرره القرآن الكريم ، وكان يستعين فى تنفيذه بالأعوان[٢٢٠] وشمل التعزير عدة أنواع منه : الردع بالقضاء على شئ محرم ، والتوبيخ بالقول أو الضرب ، بالسوط المتوسط أو الغليظ ، أو بالدره وهى من جلد البقر أو الجمل .

– ومن التعزير أيضا النفى من البلد ، والتشهير أو التجريس[٢٢١] .

وبعد دراسة الحسبة والمحتسب نجد أن الهدف من الحسبة أمر دينى يقضى بالمحافظة على حياة الناس ، وابتغاء مرضاة الله فى جميع تصرفاتهم ، وكان يقوم بذلك المحتسب الذى تطورت وظيفته واتسعت مهامه ، فكان ينظر فى أحوال الرعية ، وكشف أحوال الأسواق ، ومنع التجار من الغش والاحتكار ، وكذلك مراقبة صانعى الأطعمة مثل الخبز واللحوم والحلويات ومراقبة السقائين ، والإشراف على المساجد والتدقيق فى اختيار الأئمة والوعاظ والمؤذنين وغيرها من الأمور التى ذكرناها ، وهكذا كانت الحسبة والمحتسب فى الحضارة الإسلامية نظاما متكاملا يشرف على شتى مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والصحية .

الشرطة :

الشرطة[٢٢٢] وهى وظيفة من وظائف السيف وموضوعها تنفيذ العقوبات وبعد الفتح الإسلامى امتدت أطراف الدولة الإسلامية إداريا ، وأنشئت الدواوين وبيت المال ، وبعد زيادة الخراج أصبحت المدينة فى حاجة ماسة إلى حراسة ليلية مستمرة ، فخصص أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ لهذه المهمة بعض الرجال الذين يتناوبون الحراسة فيما بينهم فى نوبات ودوريات متبادلة ، وسمى هؤلاء بالشرطة لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها[٢٢٣] .

وكانت وظيفة الشرطة هى توفير الأمن والأمان للمواطنين ، وحراسة مؤسسات الدولة العامة ، وأطلق على الرجال الذين يقومون بهذه المهمة اسم العسس وذلك خلال عهد الخليفة عمر بن الخطابﷺ[٢٢٤] .

وكان الخليفة عثمان بن عفانﷺ أول من اتخذ صاحب شرطة ، وكان على الشرطة فى عهده عبد الله بن قنفذ التميمى القرشى ، غير أنه لم يكن يسير بين يدى عثمان بن عفانﷺ بحربة ، ولم تكن هناك جماعة للشرطة[٢٢٥] فكان عبد الله بن قنفذ على الفساد وتتبع الجناة والمفسدين فقط .

واتخذ الخليفة على بن أبى طالبﷺ فى الكوفة صاحب شرطة هو معقل بن قيس الرباحى ، وقيل أن الشرطة نظمت تنظيما متميزا فى عهد على بن أبى طالبﷺ ، أو فى عهد بنى أمية[٢٢٦] .

وكان الولاة على الأمصار يتخذون صاحب شرطة لهم ، فكان للوالى فى أغلب الأحيان حق تعيين صاحب الشرطة على أنه كان بمثابة نائب الوالى حيث كان ينوب عنه فى إدارة البلاد أثناء غيابه للحج أو الحرب ، كما كان ينوب عنه أيضا فى إقامة الصلاة[٢٢٧] .

وكان الخلفاء يتدخلون فى بعض الأحيان فى تعيين أصحاب الشرطة ولجأ بعضهم إلى تعيين صاحب الشرطة فى منصب الوالى بعد تنحية الوالى أو وفاته ، وهذا بطبيعة الحال راجعا إلى تمرس أصحاب الشرطة فى الحكم[٢٢٨] .

ومثال للولاة الذين كانوا يتخذون صاحب شرطة والى البصرة زياد بن أبيه والذى احتاج إلى زيادة عدد الشرطة فيها للقضاء على المفسدين وأهل العبث فى النهار والليل بسبب الحرب التى كانت قد اشتعلت من سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م وحتى سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م ، وكان زياد قد اتخذ رجلين ولاهما أمر الشرطة وكان يسيران بين يديه بالحربة ولما تنازعا ذات يوم أعفى أحدهما وثبت الأخر[٢٢٩] .

وكان لأبى جعفر المنصور صاحب شرطة على العدوى - المفاسد - وصاحب شرطة للحربة أى يكون ملازما للخليفة ويسير بين يديه[٢٣٠] .

وخلال عهد المأمون عرفت الشرطة نظام المباحث حيث كان له عدد من النسوة العجائز يأتونه كل مساء بأخبار اللصوص وقطاع الطرق والمعارضين السياسيين[٢٣١] .

وبعدما كان رئيس جهز الشرطة يسمى فى خلافة بنى أمية "**صاحب الأحداث**" سمى فى العصر العباسى " **صاحب الشرطة**" وفى دولة الترك عرف باسم "**والى الشرطة**"[٢٣٢] ، وكان يطلق عليه فى الأندلس اسم " **صاحب المدينة**" واسم الحاكم فى بلاد أفريقية .

مهام صاحب الشرطة :

كانوا يساعدون الولاة فى مهامهم بجانب مساعدة القضاة فى تنفيذه أحكامهم هذا بجانب تنفيذ العقوبات التى كانت تفرض على بعض المخالفين والمذنبين من قبل المحتسب .

كانوا يحافظون على الأمن الداخلى بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة وإقامة الحدود عليهم[٢٣٣] وتنفيذ عقوبات السجن وغيرها .

- ومن مهامهم نشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق الفاضلة ومنع الفساد[٢٣٤]
- وأسندت إليهم بعض المهام الأخرى بجانب الحراسة ومنع الفساد حيث كانوا يساهمون فى إطفاء الحرائق ، وتحصيل الجزية وإصدار الدنانير[٢٣٥] .
- وأيضا الإشراف على السجون ومراقبة أسوار المدن وأبوابها ، هذا وكان للشرطة زى خاص وأسلحة خاصة شملت الحربة والطبرزين - وهى عبارة عن سكين طويلة أو بلطة يعلقها فى وسطه ، والسوط الذى كان يصنع من الجلد .

السجون وأحوالها :

ظهرت السجون فى عهد عمر بن الخطابﷺ ولكنها نظمت فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أوجد لها ديوانا يشرف عليها ، وأمر بإعطاء المسجونين رزق الصيف والشتاء وكسوة الشتاء والصيف ، والعناية بمرضاهم ، وألا يفيد أحد فى المحابس بقيد يمنعه من الصلاة ، والفصل بين فئات المسجونين بين من يسجن فى دين ومن يسجن فى جريمة ، وجعل للنساء حبسا على حدة .

بينما تذكر سجون الحجاج فى العراق بعدم ملاءمتها للصحة العامة والقسوة فى معاملة المساجين[٢٣٦] .

وكانت السجون فى مصر خلال العصر الفاطمى سيئة للغاية ، حيث يصفها المقريزى بقوله "كلها شنيع المنظر والمخبر ، كلها موحش قذر وضيق ، يشم المار بقربه رائحة كريهة ، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوع والعرى ، والقمل وشدة الظلام وكثرة الوطاويط ، أى أن الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود"[٢٣٧] .

ويعد حبس المعونة أقدم السجون الفاطمية بمصر (الفسطاط) اتخذه يانس الصقلى أحد ولاة الشرطة سجنا سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م بعدما كان دارا للشرطة ، وأنشأ المستنصر بالله سجنا بخزانة البنود لأرباب الجرائم السياسية من الوزراء والأمراء والأعيان[٢٣٨] .

الدواوين :

الديوان : موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال .

اختلفت فى أصل كلمة ديوان فقيل أنها ترجع إلى العربية ومعناها الأصلى الذى يرجع إليه ويعمل بما جاء فيه ، ومنه قول ابن العباس : إذ سألتمونى عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فإن الشعر ديوان العرب[٢٣٩]، ويقال دونته أى أثبته .

ويطلق الديوان على مجتمع الصحف أو الكتاب أو السجل أو الدفتر الذى يكتب فيه أسماء المقاتلين ومقدار ما خصص لهم من عطاء وأرزاق كما صار يطلق على المكان الذى يجلس فيه الكتاب وتحفظ فيه السجلات[٢٤٠] .

نشأة الدواوين :

لم يفرض الرسولﷺ ، ولا أبو بكر الصديقﷺ للمسلمين عطاء مقررا ، ولكن كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيبا من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد إلى المدينة ما من بعض البلاد ، أحضر إلى الرسولﷺ وفرق فيهم حسب ما يراه ، وجرى الأمر على ذلك فى خلافة أبو بكرﷺ .

يذكر الماوردى الدواوين كان فى المحرم سنة ١٠هـ[٢٤١] ، وبالطبع هذا ليس صحيح لأن عمر بن الخطابﷺ تولى الحكم من سنة (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٤م) وقد تباينت الروايات حول تاريخ وضع

الديوان حيث ذكر كل من ابن الأثير[٢٤٢] والطبرى[٢٤٣] أن الخليفة عمرﷺ دون الدواوين سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م بينما ذكر البلاذرى[٢٤٤] والنويرى[٢٤٥] وابن خلدون[٢٤٦] أن سنة تدوين الدواوين هى سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م والمرجح أن الرواية الأخيرة هى الأقرب إلى الصحيح ، أما الرواية التى تشير إلى أن البداية كانت فى سنة ١٥هـ / ٦٣٦م فيبدوا أن الخليفة بدأ بالفعل فى التفكير بتدوين الدواوين ، وجرت المشاورات واستغرقت وقتا طويلا حتى كانت سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م أصبح الديوان قائما .

فلما كانت سنة ١٥هـ / ٦٣٦م خلال خلافة عمر بن الخطابﷺ رأى أن الفتوح قد توالت وأن الأموال قد زادت ، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال ، ولم يكن يعرف كيف يضبط ذلك فأشار عليه جماعة من الفرس المسلمين بالأخذ بنظام الدواوين عن الدولة الفارسية[٢٤٧] .

وفطن الخليفة عمر بن الخطابﷺ لذلك وكان أول من وضع الدواوين ورتبها من العرب فى الإسلام[٢٤٨] وكان الديوان الذى وضعه هو "ديوان الجند" ولكنه كان يعرف باسم الديوان فقط لأنه الديوان الوحيد فى المدينة ، حاضرة الدولة الإسلامية آنذاك[٢٤٩] وكانت هناك دواوين مماثلة فى الأمصار مثل البصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها ، ورأى الخليفة عمر أن يجعل العطاء على حسب السبق فى الإسلام ، ثم استخدم الكتاب فى الدواوين ، وهم رجال مدنيون من أرباب الأقلام ، وكان معظمهم من أهالى البلاد المفتوحة ، وظلت تستخدم فيها لغات غير العربية ، فكان ديوان الشام بالسريانية أو باليونانية ، وديوان مصر بالقبطية وديوان فارس والعراق بالفارسية[٢٥٠] .

تعريب الدواوين :

كانت لغة الدواوين حتى عهد عبد الملك بن مروان فى العراق فارسية وفى الشام الرومية ، ومصر اليونانية[٢٥١] وكان سرجون ابن منصور يتولى ديوان الشام فأمره عبد الملك يوما فتثاقل عنه وتوانى فيه ، فعاد لطلبه وحثه عليه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا . فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والى الأردن ، وكان يتولى له ديوان الرسائل ، أن ينقل ديوان الشام إلى العربية وقد أتم سليمان التعريب فى سنة واحدة[٢٥٢] وكان ذلك سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م .

أما ديوان العراق فقد أمر الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م كاتبة صالح بن عبد الرحمن مولى بنى سعد ، وكان يكتب بالعربية والفارسية[٢٥٣] أن يقوم بتعريب الدواوين ففعل .

أما ديوان مصر فقد نقل إلى العربية سنة ٨٧هـ/٧٠٥م وذلك بأمر من أميرها عبد الله ابن عبد الملك بن مروان فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، فصرف عبد الله بن انتناش (القبطى) وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص[٢٥٤] .

وكان هناك ديوان خراج فى خراسان وتم تعريبة سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م فى ولاية نصر ابن سيار من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك[٢٥٥] .

أثر تعريب الدواوين :

كان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية ، فمن الناحية السياسية أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة ، والمسلمين من غير العرب ، ومن الناحية الأدبية أصبحت اللغة العربية لغة التدوين فنقل إليها الكثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت .

وخلال العصر العباسى أصبح لموظفى الدواوين مكانة كبيرة ، حيث كانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة ، مثل الدواة والكرسى ، والمخدة والمسند والمرتبة[٢٥٦] وهى أدوات تستخدم فى الكتابة والجلوس فى الديوان ، وكانوا يتميزون فى ملابسهم بعمائم كبيرة تتفاوت فى ضخامتها حسب مراتبهم ، وكان يطلق عليهم أصحاب العمائم[٢٥٧] .

ويذكر قدامة بن جعفر أنه خلال العصر العباسى كان هناك مجلسين لديوان الجيش هما مجلس التقرير ويجرى فيه أمر استحقاقات الرجال ، وتقدير أرزاقهم ، والثانى مجلس المقابلة ويختص بالسجلات وتصفح الأسماء[٢٥٨] .

وكان ديوان الجيش فى العصر الفاطمى يتألف من قسمين هما : الأول ديوان الجيش ويتولى تصفح أحوال الجند فمن نجح منهم عرضت دوابه فكان لا يثبت بالديوان إلا الجيد ، والثانى ديوان الرواتب ويشمل أسماء كل مرتزق ، ويشمل راتب الوزير ، وحواشى الخليفة وأرباب الرتب وقاضى القضاة ومن يليه وداعى الدعاة وقراء الحضرة ، وخطباء المساجد ، والشعراء ، ورجال الدواوين ، والمستخدمين فى القصور السلطانية وغيرهم[٢٥٩] .

وكان عمل الدواوين عموما يتلخص فى الإدارة المركزية ، والإدارة المحلية ، تشمل الإدارة المركزية التراسل وشئون المال وتشمل الثانية إدارة الولايات .

ديوان الخاتم :

كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ ديوان الخاتم وذلك على أثر التزوير الذى وقع فى إحدى رسائله إلى بعض ولاته[٢٦٠] وقد عرف الختم على الرسائل والصكوك من قبل الإسلام ، وقيل كان للأكاسرة أربعة خواتيم .

فكان على خاتم الحرب والشرط "**الأناة**".

وعلى خاتم الخراج والعمارة "**التأييد**".

وعلى خاتم البريد "**الوحاء**".

وعلى خاتم المظالم "**العدل**"[٢٦١] .

واتخذ الرسول ﷺ خاتما من فضة ونقش فيه "**محمد رسول الله**" وكان يختم به الكتب التى كان يبعث بها إلى الملوك والرؤساء ، وختم الخلفاء من بعده حتى سقط من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه فى بئر

أريس ، فصنع عثمان آخر على أمثاله[٢٦٢] فلما كان عهد معاوية رتب وظيفته واتخذ له الديوان ، واتخذ كل خليفة من بعد نقشا خاصا لخاتمة ، وكانت الكتب الموجهة من دار الخلافة تمر به وتثبت فيه ، وتختم بخاتم الخليفة فعلى سبيل المثال نقش الخليفة المأمون خاتمة **"الموت حق"** [٢٦٣]وذلك بعد أن تكون قد مرت على دواوين عدة ، وتم التأكد من صحتها[٢٦٤] ، وبلغ من أهمية الخاتم أنه كان الوزير فى العصر العباسى إذا تناوله ليختم به كتابا وقف تعظيما للخلافة وإجلالا لاسم الخليفة[٢٦٥] واستمر هذا الديوان إلى أواسط العصر العباسى ثم ألغى لتحول الأعمال إلى نظر السلاطين[٢٦٦] .

ديوان الرسائل :

يبدوا أن تنظيم هذه الوظيفة وترتيب ديوان لها تم فى خلافة عبد الملك بن مروان[٢٦٧] وعرف ديوان الرسائل باسم ديوان الإنشاء[٢٦٨] منذ أخريات الدولة العباسية ، وعرف باسم ديوان الإنشاء فى الدولة الفاطمية أيضا .

وكان ديوان الرسائل من الدواوين الجليلة فى الدولة وكان من يتولاه يتمتع بحظوة متقدمة عند الخليفة ، وكان يخاطب فى عهد الفاطميين بالشيخ الأجل ويقال له كاتب الدست الشريف ، وتسلم إليه المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة ، ويأمر بالإجابة عنها ، وكان الخليفة يستشير رئيس ديوان الإنشاء فى أكثر الأمور ، ولا يحجب عنه متى أراد المثول بين يدى الخليفة[٢٦٩] .

وقد أصبح عمل هذا الديوان معقدا ، فتعددت اختصاصاته وكثر من يعملون فيه ، فقد وجد فيه كتاب رئيسيون يقومون بالكتابة والإنشاء ، وآخرون مساعدون يقومون بالتلخيص والتبييض ، وكان لابد للعاملين فيه من إتقان اللغة العربية ، ومعرفة اللغات الأخرى مثل التركية والفارسية ، واليونانية والأرمنية ، وكان به أرشيف توضع فيه أصول كل ما يصدر عنه وله مشرف خاص يسمى "الخازن"[٢٧٠] .

ديوان البريد :

البريد هو تبليغ إجراءات ولاة الأمر إلى الأطراف ، وتوصيل الترتيبات المتعلقة بهذه الأطراف إليها ونقل أخبار هذه الأطراف وحاجاتها إلى ولاة الأمر ، ومن ثم الوقوف على مجريات الأمور والأحداث فى الدولة[٢٧١] ، بمعنى نقل الأوامر الصادرة من الخليفة إلى عماله فى الولايات وإرسال كتب الولاة إلى الخليفة.

قيل فى أصل لفظ البريد أنه فارسى ، وهو بريده دم ، وقيل بريده ذنب ، أى مقصوص الذنب ، لأنه كان من عادة ملوك الفرس أنهم إذا أقاموا بغلا فى البريد قصوا ذنبه ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد .

وعربت الكلمة وخففت وسميت دابة البريد : بريدا ، والرسول الذى يركبها بريدا ، والمسافة ما بين السكنين أى المحطتين بريدا ، وقدرت هذه المسافة بنحو أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال ، أى أن مسافة

البريد اثنا عشر ميلا [٢٧٢] وتعادل ٨٦٤٠٠٠ ذراع هاشمى ، أو ٥١٨٤٠٠٠ شعيرة معترضة ظهر إحداهما لبطن الأخرى[٢٧٣] .

كان البريد سنة قديمة وأسلوب متبعا فى عهد الأكاسرة من ملوك الفرس والقياصرة من ملوك الروم وبدأ البريد بهذا منذ عهد الرسولﷺ ومن المهام التى أداها البريد زمن الرسول تلك السفارات التى بعثهاﷺ إلى أكابر الملوك والأمراء كانت مهمتها جميعا هى الدعوة للإسلام ، ومثال لذلك البعثات ، إلى كسرى ، وأمير البحرين وأمير عمان ، وإلى قيصر ، وإلى المقوقس ، وإلى النجاشى وغيرهم ، وهذه البعثات كانت أول عمل قام به ديوان البريد[٢٧٤] .

وبلغ من اهتمام الرسولﷺ بالبريد أنه أمر عناله أن يبردوا له البريد مع أناس يتوافر فيهم حسن الوجه وجمال الخلقة ، وكانﷺ حريصا على توافر تلك الصفات فى من بعثهم إلى الملوك المعاصرين له ، وذلك لعلمه بأن المبعوث إنما هو لسان مترجم لرغباته وآرائه ، وإذا لم يكن كذلك خسر مهمته ورجع على مرسله بالخسران المبين[٢٧٥] .

ومن نواحى اهتمام الرسولﷺ بالبريد أنه اتخذ الخاتم وختم به أبو بكر وعمر وعثمان من بعده ، وسبب اتخاذ الخاتم أنه قيل أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما ، لأنهم يرون ختم الكتب تعظيما للمكتوب إليه[٢٧٦] .

ومنذ عهد الرسولﷺ كانت أخبار الجيوش الإسلامية فى ميادين القتال، وأحوال الأمور فى الولايات تصل إلى ولاة الأمر فى حاضرة الدولة باستمرار، وكانت توجيهات ولاة الأمر تصل الأمصار ، والاتصال بين الجانبين لا ينقطع[٢٧٧]

البريد زمن الراشدين :

ورث أبو بكر الصديقرضي الله عنه البريد عن الرسولﷺ وذلك لكثرة الفتوحات ، وقيام حركة الردة مما جعل الأمر يستلزم الإبقاء على نظام البريد والاهتمام به ، وكان البريد يخرج من المدينة إلى ميادين القتال ، وقد حرص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على إرسال البريد إلى عماله يأمرهم بإعلان الناس عن مواعيد خروج البريد إلى المدينة[٢٧٨] وحافظ عثمان بن عفانرضي الله عنه على نظام البريد حيث كان يستقصى الأخبار وهو فى المسجد وكان يفعل ذلك يوم الجمعة على وجه الخصوص[٢٧٩] .

بريد الأمويين :

لما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان واتخذ من دمشق عاصمة للدولة الإسلامية ، أنشأ ديوان الخاتم لتنظيم البريد ، وأمر بإحضار الدهاقين من الفرس ، وأهل عمال الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد[٢٨٠] وبذلك كان معاوية أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة[٢٨١] وفى خلافة عبد الملك بن مروان حظى البريد بمزيد من العناية والتنظيم[٢٨٢] وخص لديوانه رجلا من ثقاته الأوفياء هو قبيصة بن ذؤيب كان يقرأ الكتب الواردة من الأقاليم ويخبر عبد الملك بما جاء فيها[٢٨٣] .

ثم يأتى من بعده ابنه الوليد الذى زاد من مهام البريد حيث جعل خيله وابله تحمل الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق ليبطن بها حوائط المسجد الجامع بدمشق ، ومساجد مكة ، والمدينة والقدس الشريف[٢٨٤] واهتم عمر بن عبد العزيز بإنشاء خانات للبريد على جوانب الطرق الرئيسية خصوصا بطريق خرسان ليبيت فيها الناس ، وأمكنة يقيم فيها الدواب من خيل وجمال ، ومياه فى الأحواض للشرب[٢٨٥] .

البريد العباسى :

اهتم المهدى بالبريد حيث أقام طريق للبريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يكم هناك بريد قبل ذلك ، ولم يكتف المهدى بذلك بل اهتم بطريق البريد ومنازله وأقام فيها البغال والإبل[٢٨٦] .

واستخدم الخلفاء العباسيون البريد كوسيلة من وسائل استتاب الأمن وقمع الثورات ، ولما آلت الخلافة إلى هارون الرشيد أشار عليه يحى بن خالد البرمكى بإجراء البريد والاهتمام به ، وبين له فوائده والمزايا التى تجنيها الدولة من العناية به ، فأمره الرشيد بإقراره ، وكان يحى خير من يضع الأمور فى نصابها فصب نظام البريد فى قالب جديد وجعل له المراكز والبغال وكان لا يجهز عليه إلا الرشيد أو صاحب الخبر[٢٨٧] وظهرت أهمية البريد خلال عصر الأمين والمأمون وذلك من بغداد إلى خرسان[٢٨٨] .

والبريد فى تاريخ الحكم الإسلامى شمل ثلاثة أنواع هى :

الأول : البريد البرى : وكانت طرقه تمتد من عاصمة الدولة نحو الأمصار ، وتنتشر على هذه الطرق منازل أو محطات للبريد ، هذه المحطة فى الغالب تتألف من خان ومسجد وسقاية ، وفيها دواب البريد ومن يتعدها بالخدمة والعناية [٢٨٩] ، وكانت دواب البريد تضم البغال والخيل والإبل ، وكانت معلمه بعلامات مميزة ، وكانت تعرف بـ " دواب البريد " وكان توفير الدواب للبريد يتم بطريقتين :

الأولى : ربط الدواب والعناية بها فى الإصطبلات التى كانت تعرف بالإصطبلات السلطانية .

والثانية : إعطاء إقطاعات للعربان النازلة بالقرب من محطات البريد وتكليفهم بتقديم ما يلزم من الخيل للبريد [٢٩٠] وعرفت هذه الخيول باسم خيل الشهارة [٢٩١] وقد استخدمت النجب من الإبل وكانت العرب تفضلها على غيرها لأنها أسرع من الخيل وأصبر على السير ، وكان يطلق اسم النجابون على من ركبها فى هذا السبيل[٢٩٢] .

واستعين فى أغراض البريد بوسيلة أخرى وهم الرجال الذين أطلق عليهم اسم الفيوج أو السعادة ، وهم رجال خفاف تعودوا على الجرى والصبر على السير حتى كان أحدهم يقطع ثلاث مراحل فى مرحلة واحدة ، وقيل أن بعض رجال البربر كان يتبع الفارس فيلحقه ، ويجرى وراء الغزال فيقتنصه[٢٩٣] .

ويذكر القلقشندى كيفية نقل الخبر بالبريد بقوله : كانت الرسالة تخرج بما يرسم به لمن يركب فى المهمات السلطانية وغيرها ، وكان للبريد ألواح من نحاس أو فضة ، كان اللوح منها بمقدار الكف أو نحوها

، منقوشة على أحد وجهيه ألقاب السلطان ، وعلى الوجه الآخر "**لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**" .

وهذه الألواح كان بها شرابة من حرير أصفر ، فإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر دفع إلى البريدى لوحا من تلك الألواح فيجعلها البريدى على صدره ، وشرابة الحرير الأصفر يعلقها فى رقبته ، وكتب إلى صاحب الإصطبل السلطانى ليفرج له عما يلزم من الخيل ، ويختم الكتاب وتسلم إليه ، ويكتب له ورقة بالطريق الذى يتوجه بسببه فى دفتر - ديوان الإنشاء - الرسائل - ولذلك كان ديوان الإنشاء أو الرسائل وديوان البريد مضافين إلى نظر متولى واحد[٢٩٤] .

البريد الجوى :

وكانت وسيلة الحمام الزاجل الذى كان يتخذ لحمل المكاتبات على شكل بطائق تعلق به ويعرف باسم الهدى من الوسائل التى انتشرت فى العصور الإسلامية والوسطى وقد اعتنى بحمام المراسلات خلفاء بنى العباس وتنافس الناس فى العراق وخاصة بالبصرة فى اقتنائه ، وصار الحمام متجرا من المتاجر بين الناس ، وبلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار ، وشاع استعماله زمن السلطان نور الدين محمود وفى زمن الفاطميين ، بلغت مسافات طيرانه ما بين القاهرة والبصرة وبين القاهرة ودمشق ، وأقيمت له الأبراج فى الطرق ، وكان يوضع فى أبراج دمشق من حمام مصر ، ومن حمام دمشق فى أبراج مصر[٢٩٥] .

وكانت الرسائل التى يحملها هذا الحمام من ورق خفيف يسمى بطائق أو ورق الطير ، تحمل تحت جناح الحمام لحفظها من المطر ، ثم حملت بعد ذلك فى الذنب وكان يكتب فى هذه الرسائل أمور مختصرة من لب الكلام من غير حشو ، وتؤرخ بالساعة واليوم ولا داعى للسنين وحرصا على وصول الرسالة كانت الرسالة تكتب من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق أحدهما بعد الأخرى[٢٩٦] حتى كان الحمام يصبغ بلون أزرق كلون السماء حتى لا يرى أو يطلى بلون السواد لكى لا يراه العدو إذا أطلق ليلا[٢٩٧] .

وكان حمام البريد يميز بعلامات " دغامات " فى أرجلها أو على مناقيرها ، وكانت الرسالة إذا مرت بمركز ما كتب الوالى بمرورها إلى أن تصل مختومة [٢٩٨]

وجرت العادة ألا يطلق الحمام فى الجو الممطر ، ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافى[٢٩٩] وكانت مغارات الحمام "الأبراج" على بعد أطول مسافة من محطات البريد البرى حيث كانت المسافة بين الواحدة والأخرى تبلغ ثلاثة عشر ميلا[٣٠٠] وأقام لها نظار وحراسا يراقبون وصول الحمام نهارا وليلا خوفا من أن يمر عليهم وهم عنه غافلون ، وكانت أسرع أنواع الحمام تقطع من ٤٠ إلى ٥٠ ميلا فى الساعة ، وأقل الأنواع سرعة تقطع من ٢٥ إلى ٣٠ ميلا ، وكان متوسط طيران الحمام ٣٥ ميلا فى الساعة[٣٠١] .

البريد البحرى :

حيث كانت تستخدم المراكب البحرية ، ويقول الحسن بن عبد الله وإذا كانت البلاد بحرية فليكن لصاحب الخبر مراكب خفيفة سريعة وكان الحجاج بن يوسف الثقفى أول من أجرى فى البحر السفن المقيرة السمسرة غير المخرزة والمدهونة[٣٠٢] .

وهناك طريقة أخرى للبريد المائى وهى أن توضع الرسالة ضمن صندوق محكم الأقفال ويجعل نقله متوازنا بحيث لا يطفو على وجه الماء ولا يغرق فى قاعه بل يكون متوسطا بينها منعا لظهوره أو وقوفه على الأرض ، ثم يلقى فى النهر أو الترعة فيندفع بالماء لغاية مركز الجيش الآخر وهناك يقع فى شباك معدة[٣٠٣] .

ومن طرق البريد المائى أنه كانت تكتب الرسالة وتعلق فى قصبة وتغرس القصبة فى باقة حشيش وتلقى فى الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل إليه[٣٠٤] .

التخاطب بالمشاعل والطبول :

بجانب طرق البريد التى ذكرناها عرفت الدولة الإسلامية طريقة نقل الرسائل والإشارات عن طريق إشعال النيران حيث وضع نظام لاستعمالها وعمال لمراقبتها ، وعرفت الأماكن التى تشعل فيها النيران بالمناور ، ومواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار وذلك للإعلام بقدوم عدو[٣٠٥] وكانت هناك شارات يتفق عليها المنورين عند نقل الخبر ، وقد نشر العرب هذه المناور من الإسكندرية حتى طنجة على طول الساحل الأفريقى الشمالى ، فإذا وقعت واقعة ذات خطورة أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى أخر حتى يبلغ ذلك الإسكندرية فى ليلة واحدة ومن طرابلس إلى الإسكندرية تصل الرسالة النارية فى ثلاث ساعات إلى أربع ساعات[٣٠٦] .

أما الطبول فقد استخدمت أيضا للتخاطب ونقل الأوامر ومثال لذلك أن الأفشين قائد الخليفة المعتصم بالله العباسى عندما كان يحارب الثائر بابك الخرمى وتعذر اتصاله بجنده فى ميدان القتال لكثرة الدروب وتشعب الطرقات بين جبال أذربيجان العظيمة الارتفاع والكثيرة الالتواء استعان بالطبول لإعلان قواته بحركات سيره ووقوفه ، وبلغت طبوله الكبار واحد وعشرين طبلا [٣٠٧] .

ديوان الطراز :[٣٠٨]

كان ديوان الطراز معروفا لدى الفرس والروم ، إلا أن هذه الوظيفة لم تنشأ فى عهد الرسولﷺ وعهد الخلفاء الراشدين رضى اللع عنهم وذلك لبعد الحكم الإسلامى فى هذه الفترة عن أبهة الملك وفخامة السلطان إنما ظهرت فى عهد بنى أمية[٣٠٩]

وكان ديوان الطراز يشرف على دور الطراز ، المعامل ، المصانع[٣١٠] التى كانت تقوم بصناعة الثياب والملابس الخاصة بالخلفاء والسلاطين وحاشيتهم ، كما كان يصنع بها الشارات والأعلام والفساطيط وملابس الجند وغيرها ، وكان الخلفاء يقلدون هذه الوظيفة بخواص دولتهم وثقات مواليهم ، فكان صاحب

ديوان الطراز ينظر فى أمور الصباغ والآلة والحاكة فى دور الطراز وإجراء رزقهم ومشارفة أعمالهم ، ولما تعددت الدول وضعفت تعطلت وظيفة ديوان الطراز[٣١١] .

ديوان الصدقات :

ويقوم هذا الديوان بالنظر فى الأموال المستحقة فى أموال المسلمين ، وهى أموال ظاهرة لا يمكن إخفاؤها كالزرع والثمار والمواشى ، وأموال باطنة يمكن إخفاءها كالذهب والفضة وعروض التجارة[٣١٢] وإذا أخذت زكاة هذه الأموال صار الحال إلى توزيعها فى الأصناف الثانية التى ذكرها الله تعالى فى كتابة العزيز **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[٣١٣] .

- **الفقراء** : هم الذين لا شئ لهم .
- **المساكين** : أسوأ حالا من الفقير لأن المسكين هو الذى أسكنه العدم .
- **المؤلفة قلوبهم** : هم المسلمون حديثا أو الذين أضيروا بسبب إسلامهم .
- **معنى الرقاب** : ما ينفق من الزكاة لتحرير العبيد.
- **الغارمون** : هم الذى استدانوا لحاجة وعجزت مصادرهم عن سداد ديونهم.
- **وفى سبيل الله** : الغزاة الذين لم يفرض لهم فى ديوان العطاء.
- **ابن سبيل** : هو المسافر المنقطع الذى لم يتبق معه ما يستعين به على سفره.
- **العاملين عليها** : هم عمال الزكاة أو جامعوها ، فيدفع لهم أجرهم.

ديوان النفقات :

وكان من اختصاصه النظر فى مصروفات الدولة ، واستمر عمل هذا الديوان خلال العصر العباسى ، وصار يضم المجالس التالية :

- **مجلس الجارى** : ويختص بأمر استحقاقات الحشم .

مجلس الإنزال : ويقوم بمحاسبة التجار الذين يتولون تقديم الطعام فى حالة الإقامات والإنزال .

مجلس الكراع : ويباشر أمر العلوفة الخاصة بالدواب وسياستها وعلاجها وأرزاق القائمين عليها .

مجلس البناء والمرمة : ويتولى محاسبة الزراع والمهندسين والصناع وباعة مواد البناء .

- **مجلس الحوادث** : ويقوم بتولى أمر النفقات الطارئة .
- **مجلس الإنشاء ومجلس النسخ** لتسجيل كل ذلك [٣١٤] .

ديوان بيت المال :

ويعرف بالديوان السامى ، وهو أصل الدواوين ومرجعها إليه ، ووظيفته ثبت جميع أصول الأموال السلطانية على أصنافها من عين وغلال وفئ وغنائم وأعشار وأخماس ويثبت ما تحصل من ذلك ، ويتخذ

بيوتا لأصناف الأموال ويجعل عليها دواوين وحرسا ، فالأموال والقماش لها ديوان الخزانة ، والغلال لها ديوان الأهراء ، والأسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح[٣١٥] .

ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك والاطلاقات يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها ، وكان الوزير يطالب صاحب المال برفع حساب فى كل أسبوع ، ليعرف ما حل وما قبض وما بقى[٣١٦] وكان من واجبات صاحب بيت المال أن يقدم فى آخر كل شهر حسابا كان يطلق عليه اسم "الختمة" وحسابا فى آخر السنة يسمى ختمة جامعة[٣١٧] .

وإلى جانب هذه الدواوين التى بدأت فى عهد الخلفاء الراشدين أو فى عهد الخلفاء من بنى أمية واكتسبت فى العهود التالية مزيدا من الترتيب والتنظيم فى الغالب ظهرت هناك دواوين أخرى ترجع فى معظمها إلى العصر العباسى ومن عاصرهم أو من جاء بعدهم ومنها الآتى :

- **ديوان الأحشام** : وهو ديوان الذين كانوا فى خدمة البلاط .
- **ديوان الحوائج** : واختص بجمع الرقاع - الشكاوى - من المشتكين وتقديمها للخليفة .

وقد ذكر اليعقوبى هذين الديوانين فى عداد الدواوين التى نقلها أبو جعفر المنصور إلى بغداد سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م حين أتم بناءها[٣١٨] .

- **ديوان المصادرين** : لتسجيل أسماء من صودرت أموالهم ومقدار ما صودروا عليه .
- **ديوان الضياع** : واختص بإدارة ضياع الخليفة وأسرته وجميع هذه الدواوين كانت فى خلافة أبى جعفر المنصور[٣١٩] .

ديوان الصوافى : وكان يتولى إدارة الأراضى التابعة لنظر خليفة المسلمين[٣٢٠] .

- **ديوان الموالى والغلمان** : واختص بتسجيل موالى الخليفة وعبيده [٣٢١].
- **ديوان المواريث** : وكان يختص بأموال من لا وارث له أو توفى ويرث أقاربه جزء من تركته فيصبح الجزء الباقى من حق ديوان المواريث الغاه الخليفة المعتضد سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م ، حيث أمر برد الفاضل من تركة المواريث على ذوى الأرحام[٣٢٢] .
- **ديوان الجهبذه** : وكان يتولى النظر فى الحسابات المالية وتدقيق موارد المال وبقايا أموال المطالبات التى كان يتعذر على أهل الخراج أداؤها فى وقت المطالبة[٣٢٣] .
- **ديوان الأكرة** : وكان يشرف على القنوات والترع والجسور وشئون الرى
- **ديوان الماء** : وكان يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه وينظر فيما يملكه أرباب المياه من الماء وما يباع وما ينقص منه[٣٢٤] .

وذكر المقريزى من الدواوين عند الفاطميين ديوان النظر ، وكان ينظر فى دواوين المال ، وديوان المجلس وكان ينظر فى الإقطاعات[٣٢٥] .

ومما سبق يلاحظ كثرة الدواوين ونجد أن سبب ذلك هو اهتمام ولاة الأمر بشئون الدولة والأمة ، فكلما ظهرت مصلحة الأمة فى شئ سارع الحكام إلى إنشاء دائرة - أى ديوان - لرعايتها والقيام على شئونها .

ولذا كثرت الدواوين ، وكبر الجهاز الإدارى فى الدولة الإسلامية متماشيا مع المصالح وكثرتها .

غير أن الضعف الذى صار إليه شأن الخلافة بعض الوقت خلال القرن الثالث الهجرى وفى القرن الرابع الهجرى أدى إلى ضعضعة الجهاز الإدارى ، لاستيلاء الأتراك على أمور الدولة وبخاصة فى عصر إمرة الأمراء ، ومضايقتهم للعمال حتى اضطرهم إلى بذل المرافق لهم ، فاقتنى الأتراك الأملاك ، وتغلبوا على حقوق بيت المال ، وتشبه بهم الديلم - البويهيون - فكسروا على السلطان حقوقه وانقطعت الحمول إلى بغداد وأزيلت سوق الدواوين وأبطلت[٣٢٦] .

كان المسجد الجامع أول الأمر مركز الإدارة مثلما كان مركز العبادة والمجمع والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان ، ثم انفصلت هذه الوظائف عن المسجد عدا وظيفة العبادة ، واستقلت بمنشئات أقيمت خاصة لهذه المصالح ، ففى بغداد كان حول القصر بيت المال ، وخزائن السلاح ، وديوان الرسائل ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وديوان الحوائج، وديوان الأحشام ، وديوان النفقات[٣٢٧] .

وكانت الدواوين خلال العصر الفاطمى موجودة بدار الإمارة إلى جوار الجامع الطولونى بالقاهرة ، ثم نقلها يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله إلى داره ، فلما مات يعقوب نقلها العزيز إلى القصر ، ثم بنيت لها دار أطلق عليها ، "دار الملك" ونقلت الدواوين إليها ثم أعيدت من بعد ذلك إلى القصر[٣٢٨] .

وكان يقوم بوظائف الديوان فئة من الناس أطلق عليهم اسم "الكتاب" وكان يشرف عليهم رئيس أطلق عليه اسم "صاحب الديوان"أو متولى الديوان وكان أصاحب الدواوين فى حاضرة الدولة مسئولين أمام الخليفة وفى الولايات مسئولين أمام الوالى ، ولما استحدث منصب الوزارة ، صارت أمور الدواوين ترجع إلى نظر الوزير نيابة عن الخليفة فى كل ما يتصل بها من تعيين وعزل واستحداث واستغناء ، ويتصفح أحوالها وسير أعمالها وضبط أمورها .

مصادر ومراجع الفصل الثاني

١- **سورة النجم :آية ٣،٤ .**

٢- **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم ، جـ٢ ، ص١٥٦ .

٣- **سورة آل عمران :الآية ١٤٤ ، محمد الخضرى** : الأمم الإسلامية ، جـ٢ ، ص١٥٦ .

٤- **محمد بطاينه** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٤١ .

٥- **المائدة آية ٣ .**

٦- **فتحية النبراوى** : نظم الدولة الإسلامية في المشرق "دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية" المجلد الثانى ، ص١٦٦ .

٧- **أبو زيد شلبى** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٨٢ .

٨- **محمد الخضرى** : الأمم الإسلامية ، جـ١ ص١٦٢ ، **محمد بطاينة** : تاريخ الحضارة ، ص٤٤

٩- **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، جـ١ ص١٧٨ ، **ابن قتية** : الإمامة والسياسة ، جـ١ ص١٣

١٠- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٧ ، **أبو زيد شلبى** : الخلفاء الراشدين ، ص٦ .

١١- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٧،٨ ، **الغزالى** : إحياء علوم الدين، جـ٢ ص٣٤ ، **أبو زيد شلبى** : الخلفاء الراشدون ، ص١-٢

Rosenthal . , F : political thought in medieral Islam , cambridge , 1962 . p34 .

١٢- **على ابن أبى بكر الهروى** : التذكرة الهروية فى الحيل الحربية ، ص٨ .

١٣- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص٢٠٠ .

١٤- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٢٨ ، ٢٩ ، **إبراهيم العدوى**: تاريخ الوطن العربى وحضارته ، ص١٩٣ .

١٥- **أنظر السجلات المستنصرية .**

١٦- **الجهشيارى** : الوزارة والكتابة ، ص١٥ .

١٧- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٨٢ .

١٨- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٨٥ .

١٩- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٨٦ .

٢٠- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٣٣-١٣٧ ، **على حسنى الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص١٤٦ .

٢١- **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٧٢ .

٢٢- **على حسنى الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص١٤٨ .

٢٣- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٩ .

٢٤- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٣٧ .

٢٥- **إبراهيم طرخان** : دولة المماليك الجراكسة ، **على حسن الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص١٤٧ .

٢٦- **الشورى : آية ٨٣ .**

٢٧- **آل عمران آية ١٥٩ .**

٢٨- **ابن سعد** : الطبقات جـ٢ ص١٤١ ، ١٩٦ ، **البلاذرى** : أنساب الأشراف جـ٥ ص١٥ .

٢٩- **أبو زيد شلبى** : الحضارة الإسلامية ص٨٥ .

٣٠- **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٥٤ .

٣١- **الماوردى** : الأحكام ، ص١٩٩ .

٣٢- **أبو يوسف** : كتاب الخراج ، **أبو زيد شلبى** : الحضارة الإسلامية ، ص٨٦ .

٣٣- **أبو زيد شلبى** : الحضارة الإسلامية ، ص٨٦ .

٣٤- **الطبرى** : تاريخه جـ١ ص١٧٧ ، **ابن خلكان** : وفيات ، جـ١ ص٢٨٨ ، **إبراهيم بركات** : السياسة والمجتمع ، ص١٤٨ ، **ابن حجر** : الإصابة ، جـ١ ص٥٢٤ .

٣٥- **الطبرى** : تاريخه جـ٦ ص٤٢٧ ، **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٥٥ .

٣٦- **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٥٦ ، ٥٧ .

٣٧- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٨ ، ص١٤ ، ٩٢ .

٣٨- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٨ ، ص٢٠٧ ، جـ٩ ، ص٣٦ .

٣٩- **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٥٧ .

٤٠- **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٥٨ .

٤١- **ابن الأثير** : الكامل ، جـ٦ ، ص٢٧٧ .

٤٢- **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص٦٨-٧٣ .

٤٣- **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص٩١ .

٤٤- **محمد بطاينة** : الحضارة الإسلامية ، ص٦٠ .

٤٥- ابن خلدون : المقدمة ، ص١٨٦ .

٤٦- **سورة طه الآيات ٢٩،٣٢ .**

٤٧- **سورة الفرقان آية**

٤٨- **ابن بحشل** : تاريخ واسط ، ص٢٠٦ .

٤٩- الماوردى : الأحكام السلطانية : ص٢٤-٢٦ .

٥٠- **حمدى المناوى** : الوزارة والوزراء ، ص١٠ .

٥١- **أحمد أمين** : ضحى الإسلام ، جـ٣ ، ص١٦٤ .

٥٢- **سورة القيامة آية ١١ .**

٥٣- **الماوردى** : الأحكام ، ص١٤ .

٥٤- **ابن خلدون** : المقدمة ، جـ٢ ص٦٠٣ .

٥٥- **اليعقوبى** : تاريخه ، جـ٢ ص٨ ، **ابن الأثير** : الكامل ، جـ٢ ص١٣٠ .

٥٦- **الطبرى** : تاريخ جـ٣ ص٢٢٠ .

٥٧- **محمد بطاينة** :فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٦٠ ، **حمدى المناوى** : الوزارة والوزراء، ص١٢ .

٥٨- **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨٤ .

٥٩- **ابن خلدون** : المقدمة ، جـ٢ ص٦٠٣ ، **ضياء الدين الريس** : النظريات السياسية الإسلامية، ص٢٢٣ .

٦٠- **الجهشيارى** : الوزراء والكتاب ، ص٨٤-٨٦ .

٦١- **ابن الطقطقى** : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص١٥٦ .

٦٢- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٨ ص٢٣٣-٢٦٥ .

٦٣- **القلقشندى** : صبح جـ٣ ص٤٧٨ .

٦٤- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٧٩ .

٦٥- **على ابن أبى بكر الهروى** : كتاب التذكرة الهروية ص٩ .

٦٦- **محمد ضيف الله** : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٦٩ .

٦٧- **ابن طقطقى** : الفخرى فى الآداب السلطانية : ص٢٣٢، ٢٤٤ ، ٢٨٠ .

٦٨- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٢٧ .

٦٩- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٢٨ ٠

٧٠- **الماوردى** : الأحكام ص٢٨ ٠

٧١- **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨٦ ٠

٧٢- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٢٨،٢٩ ، **عبد المنعم ماجد** : نظم الفاطميين ، ص٨٤ ٠

٧٣- **حمدى المناوى** : الوزارة والوزراء ، ص٢٧ ٠

٧٤- **إبراهيم العدوى** : تاريخ الوطن العربى وحضارته ، ص١٩٤ ٠

٧٥- **إبراهيم العدوى** : تاريخ الوطن العربى وحضارته ، ص١٩٤ ٠

٧٦- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٧٨ ٠

٧٧- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٧٩ ، **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٦٩ ، **عبد المنعم ماجد** : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، ص٣٤ ٠

٧٨- **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨١ ٠

٧٩- **ابن هشام** : السيرة النبوية ، جـ٤ ص٢٤٦ ، **خليفة بن خياط**: تاريخه ، ص٩٦،٩٧ ، **أبو زيد شلبى** : الحضارة ص١٧٥ ٠

٨٠- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٢ ، ص٤٠٠ ، **أبو زيد شلبى** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٧٥

٨١- **أبو زيد شلبى** : الحضارة ، ص١٧٦ ، **محمد الخضرى** : تاريخ الأمم الإسلامية ، ص٢٤٢،٢٤١ ٠

٨٢- **أبو يوسف** : الخراج ، ص٦٦ ٠

٨٣- **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، ص٣١٤،٣١٥ ، **أبو زيد شلبى** : الحضارة ، ص١٧٧ ٠

٨٤- **محمد بطاينة** :فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٧٠ ، **تاريخ الطبرى** : جـ٣ ، ص٤٢٧

٨٥- **خليفة بن خياط** : تاريخ خليفة بن خياط ، ص١٢٣ ، **الطبرى** : تاريخ جـ٣ ص٤٢٧ ٠

٨٦- **أبو يوسف** : الخراج ، ص٦٦ ٠

٨٧- **عبد الرحمن سالم** : النظام السياسى ، ص٩٢ ٠

٨٨- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٣٠ ٠

٨٩- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص١ ٠

٩٠- **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨٢ ٠

٩١- **الطبرى** : تاريخ جـ٤ ، ص٢٠٣ ، جـ٥ ص٣١٦ ٠

٩٢- **الطبرى** : تاريخ جـ٨ ، ص٣١٥ ٠

٩٣- **الهروى** : التذكرة و الهروب ، ص١٠ ٠

٩٤- **الهروى** : التذكرة ، ص١٠ ٠

٩٥- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٣٣ ٠

٩٦- **إمارة الاستيلاء** : هى التى تعقد عن اضطرار ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد ويضطر الخليفة إلى تفويض تدبيرها وسياستها إليه استدعاء لطاعة الأمير المستولى ، وحرصا على اجتماع الكلمة ووحدة الدولة ، مثل الدويلات المستقلة فى الدولة الإسلامية ، **الماوردى الأحكام** : ص٣٣ ، ٣٤

٩٧- **محمد بطاينة** :فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٧٢ ، ٧٣ ٠

٩٨- **الكندى** : الولاة والقضاة ص٣٢ ، **ابن عبد الحكم** : فتوح مصر ، ص١٠٥ ٠

٩٩- **أبو المحاسن** : النجوم ، جـ٢ ، ص٣٠٨ ٠

١٠٠- **محمد بطاينة** :فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٧٨ ، ٧٩ ٠

١٠١- **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٦٣ ٠

١٠٢- **عبد الرحمن سالم** : النظام السياسى والمالى فى الإسلام ، ص٩٤ .

١٠٣- **عبد الرحمن سالم** : النظام السياسى والمالى ، ص٩٤ .

١٠٤- **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٦٣ .

١٠٥- **حسن إبراهيم وعلى إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٤٠ .

١٠٦- **عبد الرحمن سالم** : النظام السياسى والمالى فى الإسلام ، ص٢٦٣ .

١٠٧- **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٦٣ .

١٠٨- **ابن طباطبا** : الفخرى ، ص٢١٣ .

١٠٩- **ابن الأثير** : الكامل ، جـ١ ص٢٩١ .

١١٠- **حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٣٩، ١٤١ .

١١١- **الهروى** : التذكرة ، ص٩ .

١١٢- **الهروى** : التذكرة ، ص١٠ .

١١٣- **الدينورى** : الإمامة والسياسة ، ص١٧٩ .

١١٤- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٥ ص٣٣٨ .

١١٥- **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، ص٤٤١ .

١١٦- **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ، ص٢٢٣-٢٢٦ ، ص٤٤١ .

١١٧- **الدينورى** : الإمامة والسياسة ، ص٢١٣ .

١١٨- **يوسف العش** : تاريخ عصر الخلافة العباسية ، ص٤٣ ، ٤٤ .

١١٩- **البغدادى** : تاريخ بغداد ، جـ١٠ ، ص١١٢ .

١٢٠- **ابن طباطبا** : الفخرى ، ص١٧٢ ، ١٧٣ ، **الطبرى** : تاريخه جـ٢ ص٤٣٥ .

١٢١- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص١٥ ، **الطبرى** : تاريخه جـ٢ ، ص٢٤٠،٢٩٦ .

١٢٢- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص١٥ .

١٢٣- **المسعودى** : مروج الذهب جـ٣ ص٢٦٤ .

١٢٤- **ابن طباطبا** : الفخرى ص٢١٤ .

١٢٥- **اليعقوبى** : تاريخه ، جـ٨ ص٥٠٠ ، **يوسف العش** : تاريخ عصر الخلافة العباسية ص٨٤ .

١٢٦- **ابن طباطبا** : الفخرى : ص٢٤٣ ، ٢٤٤ ، **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨١ .

١٢٧- **فتحية النبراوى** : النظم الإسلامية ، ص١٨١ .

١٢٨- **على حسنى الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ .

١٢٩- **حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص٣٥ .

١٣٠- **حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٤٠ .

١٣١- **عبد الرحمن سالم** : النظام السياسى فى الإسلام ، ص٩٣ .

١٣٢- **حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٤١ .

١٣٣- **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص١٨٠ ، **الخربوطلى** : العرب والحضارة ص١٨٠

١٣٤- **جمال الدين سرور** : الدولة الفاطمية ، ص٣٨ ، ٣٩ .

١٣٥- **عبد المنعم ماجد** : نظم المماليك ، ص٥٥ .

١٣٦- **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٦٣ .

١٣٧- **الجهشيارى** : الوزراء والكتاب ، ص٧٤-٧٧ .

١٣٨- **الحسن بن عبد الله** : آثار الأول فى رتيب الدول ، ص٦٧-٧٢ .

١٣٩- **الجهشيارى** : الوزراء والكتاب ، ص١٣٢ .

١٤٠- **الجهشيارى** : الوزراء والكتاب ، ص١٢٦ .

١٤١- **المقريزى** : الخطط جـ٢ ص١١٥ .

١٤٢- **الجهشيارى** : الوزراء والكتاب ، ص٥٣ .

١٤٣- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص١٦٤ .

١٤٤- البقرة / آية ٢١٣ .

١٤٥- المائدة / آية ٤٩ .

١٤٦- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٦٥ .

١٤٧- محمد بطاينة : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٧٩ .

١٤٨- **ابن هشام** : السيرة ، جـ٢ ص١٤٩ .

١٤٩- **الهروى** : التذكرة ، ص١١ .

١٥٠- **الطبرى** : تاريخه جـ٣ ، ص٤٢٦ .

١٥١- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ، ص٨٠ .

١٥٢- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٧٣-١٧٥ ، **محمد الخضرى** : محاضرات فى تاريخ الأمم جـ٨ ص٣٨٦ .

١٥٣- **اليعقوبى** : تاريخه ، جـ٢ ، ص٤٠١ .

١٥٤- **الدينورى** : الإمامة والسياسة ، ص٣١٢ .

١٥٥- **الكندى** : الولاة والقضاة ص٥٩٠ ، **السيوطى** : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص٩١ .

١٥٦- **السيوطى** : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص٩٩ .

١٥٧- **أحمد تيمور** : المذاهب الفقهية الأربعة ، ص١٥ .

١٥٨- **أحمد تيمور** : المذاهب الفقهية الأربعة ، ص١٦ .

١٥٩- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٦٥ ، ٦٦ .

١٦٠- **الكندى** : كتاب الولاة والقضاة ، ص٣١٢ ، **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة ، ص٨٧ .

١٦١- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة ، ص٨٥ .

١٦٢- **محمد الخضرى** : الأمم الإسلامية ،جـ٢ ، ص٣٨٧ .

١٦٣- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٦٦ .

١٦٤- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٨١ .

١٦٥- **الماوردى** : الأحكام ، ص٥٨ .

١٦٦- **الكندى** : كتاب الولاة والقضاة ، ص٣٢٥ .

١٦٧- **الكندى** : كتاب الولاة والقضاة ، ص٣٤٦ .

١٦٨- **الكندى** : الولاة والقضاة ، ص٣٤٨ .

١٦٩- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٤٨ ، ٤٩ .

١٧٠- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٦٦ .

١٧١- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٤٩ .

١٧٢- **هويدا رمضان** : المجتمع المصرى جـ١ ص٣١٢ .

١٧٣- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٦٦ .

١٧٤- **الطبرى** : تاريخه جـ٧ ص٦٦ .

١٧٥- **الكندى** : ولاة مصر ، ص٥٩ .

١٧٦- **القلقشندى** : صبح جـ١٠ ، ص٣٨٧ .

١٧٧- **الكندى** : الولاة ، ص٥٨٨ .

١٧٨- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة ، ص٨٤ .

١٧٩- **الكندى** : الولاة ، ص٥٨٨ ، **المقريزى** : الخطط جـ٢ ، ص٢٤٦ ، **القلقشندى** : صبح جـ٣ ، ص٤٨٧ .

١٨٠- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٤٨،٤٩ .

١٨١- **خليفة بن خياط** : تاريخه ص١٥٠،٢٠٠،٤٢٧ .

١٨٢- **ابن قتيبة** : المعارف ، ص٢١٦ .

١٨٣- **الكندى** : كتاب الولاة والقضاة ، ص٣١٧ ، ٤٣٥ .

١٨٤- **الماوردى** : الأحكام ، ص٧٩ ، **القلقشندى** : صبح ، جـ٣ ، ص٥٢٦ ، **المقريزى** :الخطط ، جـ٢ ، ص٢٤٦ .

١٨٥- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص١٩٤ .

١٨٦- **الماوردى** : الأحكام ، ص٢٠٠،٢٠١-٢٠٥ .

١٨٧- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة ، ص٥٤ .

١٨٨- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٢٠٤-٢٠٦ ، **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص٢٦٩

١٨٩- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص١٩٤ ، **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٦٦ .

١٩٠- آل عمران : آية ١٠٤ .

١٩١- محمد بطاينة : فى تاريخ الحضارة ، ص٩٣-٦٢ .

١٩٢- **الشيزرى** : نهاية الرتبة ، ص٦٢ ، **الخربوطلى** : حضارة العرب ص١٧٠ .

١٩٣- **سهام أبو زيد** : الحسبة ، ص٤٧ .

١٩٤- **الخربوطلى** : العرب والحضارة ، ص١٧٠ ، ٧١ .

١٩٥- **ابن الأخوة** : معالم القرية ، ص١٢ .

١٩٦- البقرة / آية ٤٤ .

١٩٧- **فتحية النبراوى** : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ، ص١١٢ ، **سهام أبو زيد** : الحسبة ، ص١١٦ .

١٩٨- **انظر ابن الأخوة** : معالم القرية ، **القلقشندى** : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٤٩١ ، **القريزى** : الخطط جـ٢ ص٣٤٢ ، **ابن خلدون** : المقدمة ص١٧٨ ، **سهام أبو زيد** : الحسبة فى مصر الإسلامية .

١٩٩- **المقريزى** : إغاثة الأمة ، ص١٩ .

٢٠٠- **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٥٨ .

٢٠١- **الشرطة** : كلمة مشتقة من الشرط أى العلامات التى كان أصحاب الشرطة يضعونها فوق ملابسهم من أجل أن يعرفهم الناس ، **القلقشندى** : صبح جـ٢ ، ص٤٠٥،٤٢٣ .

٢٠٢- **الفيروز أبادى** : القاموس المحيط ، مادة الشرطة .

٢٠٣- **الطبرى** :تاريخه ، جـ٤ ، ص٢٠٥ .

٢٠٤- **خليفة بن خياط** : تاريخه ، ص١٧٩ .

٢٠٥- **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص٢١٧ .

٢٠٦- **ابن عبد الحكم** : فتوح مصر ، ص١٠٥ ، **ابن دقماق** : الانتصار جـ٤ ، ص٦ .

٢٠٧- **الكندى** : الولاة ، ص١٩٢ ، **أبو المحاسن** : النجوم جـ٢ ، ص٢١ .

٢٠٨- **الطبرى** : تاريخ ، جـ٥ ، ص٢٢٢ ٠

٢٠٩- **محمد بطاينة** : فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٣٥ ٠

٢١٠- **أحمد فريد رفاعى** : عصر المأمون جـ١ ، ص٣٢٧ ٠

٢١١- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٨٨ ٠

٢١٢- **أبو المحاسن** : النجوم ، جـ٢ ص٢٦ ٠

٢١٣- **أحمد عبد الرازق** : شرطة القاهرة ص١٣ ٠

٢١٤- **أحمد عبد الرازق** : تاريخ وآثار مصر الإسلامية ، ص٣٧ ٠

٢١٥- **القلقشندى** : صبح جـ١ ص٨٩ ، ٩٠ ٠

٢١٦- **انظر مادة الديوان** : فى القاموس المحيط للفيرزبادى ، ولسان العرب **لابن منظور** ٠

٢١٧- **الماوردى** : الأحكام ، ص١٧٣ ٠

٢١٨- **ابن الأثير** : الكامل ، جـ١ ، ص٢٣٠ ٠

٢١٩- **الطبرى** : تاريخه جـ١ ، ص١٦٢ ٠

٢٢٠- **البلاذرى** : فتوح البلدان ، ص٤٣٦ ٠

٢٢١- **النويرى** : نهاية الارب ، جـ٨ ، ص١٩٨ ٠

٢٢٢- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص٢٤٤ ٠

٢٢٣- **الماوردى** : الأحكام السلطانية ، ص٨٣ ٠

٢٢٤- **ابن خلدون** : المقدمة ، ص١٩٢ ٠

٢٢٥- **الطبرى** : تاريخه جـ٦ ، ص١٨٠ ٠

٢٢٦- **المقريزى** : الخطط ، جـ١ ، ص١٥٨ ٠

٢٢٧- **الكندى** : الولاة ، ص٨٠ ، **المقريزى** : الخطط جـ١ ، ص١٧٥ ٠

٢٢٨- **القلقشندى** : صبح ، جـ٣ ، ص٤٩ ٠

٢٢٩- **المقريزى** : الخطط جـ٢ ، ص٣٥٢ ٠

٢٣٠- **قدامة بن جعفر** : الخراج وصنعة الكتابة ، ص٢١-٢٣ ٠

٢٣١- **المقريزى** : الخطط جـ٢ ، ص١١٤ ٠

٢٣٢- **الطبرى** : تاريخه ، جـ٥ ، ص٣٣٠ ٠

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

الزراعة:

احتوت الدولة العربية الإسلامية فيما احتوت عليه من الأراضي الشاسعة بضعة أقاليم تعد من أخصب أقاليم العالم تربةً وأكثرها إنتاجاً وهى أولاً: مصر وبقاع الشام التى استولى عليها المسلمون من البيزنطيين ، وثانياً: العراق وخراسان وما وراء النهر وسجستان التى كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبل ظهور الإسلام ، وساءت الأحوال الاقتصادية فى هذه الأقاليم جمعاً بسبب الحروب الكثيرة بين الدولتين البيزنطية والساسانية وما ترتب على تلك الحروب من قلة الأيدى العاملة فى الزراعة وإهمال شئون الرى وندرة المحاصيل مع ثقل الضرائب وشدة جبايتها من الناس.

ولما فتح العرب هذه الأقاليم أخذوا فى تأميم أحوالها الاقتصادية كى تصبح الدولة العربية الإسلامية غنية بمرافقها ومتابع ثروتها.

فاتخذوا كافة التدابير نحو الاهتمام بالزراعة اهتماماً يكفل لهم توسيع مجالات الرزق وتحسين الوضع الاقتصادى ومن مظاهر هذا الاهتمام الآتى:

١- قاموا بإصلاح طرق الرى وتنظيمها فى كل إقليم ، فبنوا السدود وشقوا القنوات والأنهار ،وأقاموا عليها الجسور والقناطر ومثال لذلك أن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠٠،٠٠٠ عامل من المصريين فى استصلاح طرق الرى فى مصر صيفاً وشتاءاً.

٢- اهتم بعض ولاة البصرة منذ عهد عمر بن الخطاب بشئون الزراعة حيث حضروا بعض الأنهار بناحية البصرة ، وأيضاً حفر الحجاج نهر الصين بناحية "كسكر" ، وكانت واسط أرض قصب فأحدث الحجاج فى سنة ٨٣هـ مدينة "واسط" فلذا سميت واسط القصب .

وكان الدهاقين فى الأنبار قد سألوا سعد بن أبى وقاص أن يحفر لهم نهراً فتكتب إلى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره ، فجمع الرجال لذلك فعملوا فى حفره حتى انتهوا إلى جبل أعاق حفرهم فتركوه ، ولما ولى الحجاج الثقفى العراق جمع الفعلة من كل ناحية وانفق عليه حتى أتم حفره فنسب هذا الجبل إلى الحجاج ونسب النهر إلى سعد بن عمرو ، وتم استصلاح الأراضى فى البطائح ، وكان ذلك فى عهد الوليد بن عبد الملك .

وعمل الحجاج على الإكثار من الأيدى العاملة ، حيث أتى بخلق من زط السند وأصناف ممن بها من الأمم، ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسفل "كسكر" فغلبوا على البطحة وتناسلوا بها .

وأكثر الحجاج أيضاً من الماشية ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفى عامل الحجاج على السند - بعث منها بألوف جواميس، فبعث الحجاج منها إلى الوليد أربعة آلاف وألقى بها فى كسكر كما منع الحجاج أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة .

وخلال العصر العباسى، اهتم العباسيون بشئون الزراعة فقد فطنوا أن الزراعة هى أهم مورد من موارد الدخل فى الدولة، وكانت فلاحة الأرض يقوم بها السكان الوطنيون الذين تحسنت حالتهم فى ظل الدولة العباسية .

ففى بداية دولتهم جددوا حفر القنوات القديمة ، واستحدثوا قنوات جديدة وخصوصاً فى العراق حتى أصبح ما بين النهرين دجلة والفرات أشبه بشبكة من القنوات والأنهار وأطلقوا عليها اسم النواظم لأنها نظمت توزيع المياه .

وقام الخليفة أبو جعفر المنصور ببناء مدينة بغداد ومدها بالأنهار والترع ، حتى إذا تولى المهدى الخلافة قام بدوره بحفر المجارى المائية وحفر الرشيد كثيراً من الأنهار، وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة وكانت الحكومة تشرف عليها إشرافاً مباشراً ، وتعمل على النهوض بمحصولاتها وتنمية مواردها .

اهتم الخلفاء العباسيون ، بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة علمية بعد أن جلبوا إلى بلادهم أنواعاً كثيرة من الأشجار وزرعوها فى مزارع واسعة، وراجت من أجل ذلك صناعة استخراج الزيوت العطرية من الورود والبنفسج وغيرها فى كل من شيراز ودمشق.

وكان للرى تشريعات دقيقة معقدة ، وكان من واجبات الدولة الاهتمام بصيانة الجسور وإقامة السدود وغيرها من شئون الرى ، ولهذا الغرض خصص طائفة من العمال قائمة بذاتها فى هذه الأمور عرفوا باسم المهندسين ، وكان فى مرو ديوان يسمى ديوان الماء ، كان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل .

وقد اعتنى العباسيين بدراسة أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من أنواع النباتات.

كانت الزراعة المصدر الأول للمواد الغذائية التى يعتمد عليها الناس فى معيشتهم ، بجانب أن الصناعة تعتمد على الكثير من الخامات الزراعية والزراعة هى الحرفة الرئيسية التى يشتغل بها أكبر عدد من سكان البلاد الإسلامية ، وهى منبع ثروة المالكية ، وكانت تدر للدولة دخل ثابت عرف بالخراج ، وقد اهتم الخلفاء بتخفيف الأعباء عن المزارعين بتخفيف الضرائب وتنظيم جبايتها ، فقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية على بعض المحصولات ، واستبدلها بنظام المقاسمة ، وعم المهدى هذا النظام ، واهتم الرشيد بالضرائب المفروضة على الأرض وخاصة الخراج وكلف قاضيه المشهور بأبى يوسف بوضع كتاب عن الخراج .

وسائل الرى:

تعتمد الزراعة على الرى ولذا كانت هناك وسائل عدة للرى اختلفت باختلاف الأقاليم ، فبلاد الشام وشمالى العراق كانت الأمطار الغزيرة وسيلة لرى الأراضى بها ، والمناطق الجبلية كانت تعتمد فى الرى على المياه الجوفية.

كانت مياه الأنهار هى الوسيلة الرئيسية لدى الأقاليم الغنية مثل مصر والعراق ، حيث تعتمد مصر على نهر النيل ، وتعتمد العراق على مياه دجلة والفرات ، وما يتفرع من هذه الأنهار من فروع وترع وقنوات كونت شبكة من المياه تروى من خلالها مساحات واسعة من الأراضى .

استصلاح الأراضى:

بذل العرب المسلمون جهوداً كبيرة فى تجفيف البرك والمستنقعات ، وكانت الدولة تقوم ببناء السدود والعناية بها ، وتهتم بحفر وتطهير الأنهار ، من الرمال التى تترسب فيها ، وكانت الأملاح تهدد بإفساد الزروع فى بعض الأماكن ، وتحول الأرض إلى سباخ فعالج المسلمون هذه الأمور ، بقشط الطبقة الملحية من على وجه الأرض وقد استخدم العبيد على نطاق واسع فى الأراضى الواقعة شرقى البصرة حيث تكثر المستنقعات فى القسم الأول من دجلة والفرات ، وكانت مهمة العبيد هؤلاء "كسح السباخ" أى إزالة الطبقة الملحية التى تفصل هذه الأرض، وإظهار التربة الخصبة الصالحة للزراعة ، ونقل السباخ وجعله أكواماً ليستفاد منه فى الوقت نفسه . أو بزراعة أنواع من المحصولات تقاوم ملوحة الأرض مثل الشعير ، أو أنهم كانوا يزرعون الأرض سنة ويتركونها سنة أخرى .

المحاصيل الزراعية:

كان كل إقليم يزرع أصنافاً كثيرة من المزروعات التى يحتاجها السكان ، مثل الشعير والقمح والأرز والبلح والسمسم والقطن والكتان ، وكان السواد ، وهو السهل المغطى بالغرين من أخصب أنواع التربة وينتج كميات كبيرة من المحصولات التى تزرع فيه وخاصة الفاكهة ، وهذا النوع من الأرض توفر فى دلتا الأنهار بمصر والعراق ، حيث كانت تنتج البرتقال ، والكروم والخضر ، بجانب المناطق الحارة التى كانت تنتج البندق ، والباذنجان وقصب السكر والترمس وغيرها.

وكان هناك بعض الأقاليم التى اشتهرت بوفرة إنتاجها لمحصولات معينة ، فقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان والقمح ، واشتهت خراسان بإنتاج القطن ، والأهواز بقصب السكر ، واليمن بالنباتات الطبية واللبان ، وبلاد الشام بالزيتون والكروم ، وأرمينية بأشجار الفواكه ، والبحرين واليمامة بالنخيل .

واشتهرت الدولة الإسلامية بإنتاج الكثير من المحصولات الأخرى مثل الأرز وكان يزرع بكثرة فى خوزاستان ، والسمسم الذى كان يزرع فى الكثير من البلاد ، والذرة وكان يزرع فى المناطق الجافة فى جنوب الدولة مثل جنوب الجزيرة ، وبلاد النوبة ، وجنوب مصر ، وأيضاً النيلى الذى كان يزرع فى صعيد مصر والواحات ، وفلسطين وكرمان والزعفران ، وكثت زراعته فى بلاد فارس والشام ، والمغرب وبعض أنواع الفاكهة

مثل الرمان والبطيخ والتفاح فى بلاد فارس والشام والعراق ، وكانت معظم أقاليم الدولة تزرع الفاكهة بأنواعها .

الصناعة والحرف الصناعية:

لم تكن الصناعة أقل تقدماً من الزراعة فى أقاليم الدولة الإسلامية ، وذلك بعد أن خلقت الحياة الاجتماعية فى الدولة أنواعاً من الترف ، فتقدمت الصناعات وأصبحنا نجد أنواعاً من الحرف المتعددة ، تدل على النهضة الصناعية.

الحرف الصناعية:

صناعة المنسوجات:

انتشرت فى بلاد الشام صناعة السجاجيد والبسط والطنافس والمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية ،واشتهرت بلاد فارس بصناعة السجاجيد والمنسوجات الفنية ، والنسيج المخطط ، الذى يقال له العتابى الذى اشتهر به حى عتاب ببغداد ، وذلك نسبة إلى أمير أموى اسمه عتاب ، وأعجب هذا النسيج العتابى أهل أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد أوروبا حتى صار معروفا عندهم باسمه العربى ومنه لفظ topis ومعناها البساط فى الفرنسية .

وامتازت بلاد العراق بصناعة المنسوجات المختلفة ، وخاصة الحرير والأطلس واشتهرت خراسان بصناعة المنسوجات الصوفية والبسط والستور ، واشتهرت أرمينية وبخارى بالفرش الصوفية ، وكانت البسط الأرمينية مقدمة على غيرها .

اشتهرت مصر بصناعة المنسوجات الحريرية المعروفة باسم الدمياطى والديبقى والتنيسى والسكندرى نسبة إلى المدن التى تركزت فيها هذه الصناعة ، بجانب المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية .

صناعة المنسوجات:

اعتمدت صناعة المنسوجات على خامات مختلفة توفر معظمها بأراضى الدولة الإسلامية ، حيث كان الحرير يوجد فى خوزستان وطبرستان ، والقطن فى فارس وفيما بين النهرين وكرمان ، والكتان فى مصر ، والصوف فى شتى أنحاء الدولة الإسلامية ، ولذلك ازدهرت صناعة المنسوجات فى مراكز عديدة منها:

-**إيران** التى أنتجت الكثير من المنسوجات الحريرية ، وخراسان ونيسابور ومرو حيث كانت مراكز هامة لصناعة المنسوجات القطنية الصوفية.

-و**خوارزم وبخارى وسمرقند** التى أنتجت منسوجات كتانية تشبه النسيج المصرى.

-**مدينة شوستر وسوسة وجندشاهبور** وكانت من مراكز صناعة المنسوجات القطنية والسجاد والصوف والستور وأنواع متعددة من المنسوجات الحريرية.

-ووجدت مصانع حكومية فى مدينة شوستر اختصت بصناعة كسوة الكعبة .

–واشتهت مصر بإنتاج منسوجات عديدة منها القباطى ، والدبيقى والدمياطى والتنيسى ، والسكندرى ، والمنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية.

– وانتشرت فى بلاد الأندلس صناعة المنسوجات منذ دخلها العرب وبلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار فى خلافة الأمويين ، حيث أنتجت دور الطراز بها العديد من أنواع المنسوجات مثل الديباج والدهش وقد أشار الإدريسى أنه يوجد فى عصر المرابطين ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون ، وكذلك السنور المكللة بالذهب ، والخمر ، والعتابى ، وغيرها.

واشتهرت مدن الهند فى العصر الإسلامى ، بالمنسوجات القطنية الدقيقة حيث شجع تلك الصناعة أباطرة المغول ، وكان الديباج الهندى غنياً بما يحويه من خيوط ذهبية وفضية وأحجار كريمة ، وكانت لاهور وبنارس وأحمد آباد من أشهر مراكز هذه الصناعة بالهند .

واشتهرت مصر بإنتاج العديد من المنسوجات المختلفة يأتى فى مقدمتها الكتانية التى كانت تصدر إلى الكثير من النواحى ، ومن أهم مراكز هذه الصناعة مدينة تنيس ودمياط وشطا ودقيق وإلى هذه المدن تُنسب أجود أنواع الأقمشة مثل التنيسى والدمياطى والدبيقى واشتهرت مدينة الإسكندرية بإنتاج أنواع من المنسوجات الكتانية تسمى بالشرب وهى غالية الثمن ، واشتهرت مدن صعيد مصر بإنتاج المنسوجات الصوفية .

صناعة العطور:

قامت صناعة العطور بفارس والعراق وفى مصر حيث كانت الزيوت العطرية تستخرج من الورود المختلفة التى كانت تزرع بكثرة فى البساتين.

صناعة الأدوية:

اشتهرت بغداد بصناعة الأدوية والعقاقير والصباغة ، حيث أقيم بها عدد كبير من دور الصناعة.

الصناعات المعدنية:

استفاد المسلمون من ثرواتهم المعدنية والطبيعية المختلفة ، وأتقنوا الكثير من الصناعات المعدنية ، فكان الحديد يوجد بكثرة فى كرمان وكابل وفارس وأفريقية وصقلية ، وكانت فارس أكبر مراكز استخراج الحديد وصناعته ، واشتهرت مدن عديدة بإنتاج النحاس الأصفر مثل أصفهان وبخارى ، وكان النحاس يدخل فى صناعات عديدة منها العملة ، وطلاء المنابر ، والتحف والأبواب ، وغيرها .

أما الذهب والفضة فكان المشرق يشتهر بالفضة والمغرب يأتى بالذهب وتركز هذا المعدن بشدة فى أسوان وعيذاب ، ودخل الذهب والفضة فى صناعة العملة الإسلامية ، حيث كان الدينار يصنع من الذهب والدرهم من الفضة، هذا بجانب صناعة الحلى والمصوغات التى كانت منتشرة فى أنحاء البلاد بالدولة الإسلامية ومن المعادن أيضاً صنعت الأسلحة بمختلف أنواعها.

صناعة الورق:

كان الورق البردى الذى يصنع فى مصر هو المادة المستعملة فى الأغراض الأدبية فى العالم الإسلامى خلال القرون الأولى وكان صناع الورق أغلبهم من النصارى والأقباط وكان يُطبع عليه (الأب والابن وروح القدس) واستبدل هذا الطابع بعد ذلك بما يتفق مع الدين الإسلامى ، وكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث ذلك حيث كتب على رؤوس الطومير - الصحف الكبار ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، وغيرها فكتب إليه ملك الروم أنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه وإلا آتاكم فى الدينار من ذكر نبيكم ما تكرهون فعظم ذلك على عبد الملك ، ومنع ألا يدخل بلاد الروم شئ من القراطيس فمكث حيناً لايعمل إليهم.

ظلت الطوامير المصرية هى مادة الكتابة فى العالم الإسلامى إلى القرن الرابع الهجرى ، حيث بدأ ظهور الورق الذى أحدث انقلاباً ، فكان الكاغد يُصنع فى سمرقند ويذكر ابن النديم "أن الكاغد أو الورق الخراسانى كان يصنع من الكتان وأن صناعاً من الصين صنعوه بخراسان على مثال الورق الصينى ، ولما انقضت دولة بنى أمية ، واستوزر أبو العباس السفاح خالد بن برمك بعد أبو سلمه الخلال جعل الدفاتر من الجلود ، وفى عهد وزارة يحيى بن خالد بن برمك اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعده. وفى منتصف القرن السادس الهجرى كانت قراطيس سمرقند لأهل المشرق ، وقراطيس مصر لأهل المغرب .

وإذا كان الكاغد الذى نُقلت صناعته من الصين هو أجود أنواع الورق فى الدولة الإسلامية ، فإنه ناله على يد المسلمين الكثير من التغيير ، حيث تم تنقيته من ورق التوت ومن الغاب الهندى فكانت توجد مصانع بدمشق وطبرية بفلسطين ، وكان الكاغد يُعمل بسمرقند ويحمل إلى الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات فى كل سنة وذلك أواخر القرن الرابع الهجرى حيث توفى الفضل سنة ٣٩١هـ وكان انتشار الكاغد إيذاناً بتقدم صناعة الورق وتداولها فى الأمصار الإسلامية حيث انتشرت أسواق الوراقين بالأمصار الإسلامية، فكان في مدينة الفسطاط بمصر سوق كبير للوراقين وكانت هناك محلات للورق عديدة في بغداد ، وقد استخدم في عمل الورق الكتان المخلوط بالقطن وانتشرت صناعة الورق في سوريا وشمالي أفريقيا وأسبانيا.

صناعة السكر :

عمل العرب على نشر زراعة قصب السكر فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، فأسسوا معامل تكرير فى سوريا وفلسطين وقبرص وبحر قزوين ومصر وشمالى افريقيا وصقلية وأسبانيا وقد اعتمد استهلاك السكر فى العالم الإسلامى وأوربا مدة طويلة على صناعته فى سوريا وقبرص ومصر وصقلية والأندلس .

التجارة والطرق التجارية :

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشأت تجارة عالمية واسعة على أيدى أهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهما من شعوب الدولة العربية الإسلامية ، ثم تحولت هذه التجارة العالمية شيئا فشيئا إلى العرب المسلمين ، وخاصة أن كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالتجارة وخبرة لها ولها عندهم منزلة مرموقة ، ولما جاء الإسلام واتسعت الفتوحات نشطت التجارة ، واتسعت حتى أصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد

العالم ، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الصين والفلبين للمشاركة فى تجارة الحرير ، وسافروا إليها عن طريق الحرير العظيم والفلبين ، وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة وإسبانيا وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا والحبشة وساحل أفريقية ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس التى ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمالى أوربا والشرق ٠

أدى نشاط المسلمين التجارى إلى ابتكار النظم المالية والتجارية التى عرفتها أوربا عنهم ، وخلال العصر العباسى أنشأ التجار لأول مرة نقابة مسئوله عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع التدليس وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين وأطلق عليه (رئيس التجار) كما كان يسمى أعضاء النقابة "الأمناء" ٠

أصبحت التجارة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجرى مظهرا من مظاهر أبهة الإسلام وحضارته ، وصارت لها السيادة فى البلاد وتعددت السفن الإسلامية وقوافل المسلمين تجوب كل التجار واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية ٠

ونشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من أمصار التى تغلب عليها غير المسلمين ، ومن هذه الجاليات ما كان فى بلاد الخزر ، وغانة ، والهند والصين وكوريا ٠

ونتيجة لنشاط التجارة وازدهارها أصبح الكثير من المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى منها مركز برى والبعض الآخر مركز بحرى وأهم هذه المدن :

أولا : نماذج لمراكز التجارة الإسلامية فى المشرق الإسلامى ٠

الموصل :

كانت الموصل قاعدة إقليم الجزيرة مركزا هاما للتجارة ، وكانت تلتقى فيها الطرق التجارية الآتية من أذربيجان وأرمنية وجنوب العراق وكان لموقعها على نهر دجلة أثر كبير فى زيادة أهميتها التجارية ، حيث ذكر أنها " باب العراق ومفتاح خرسان ورأس طريق أذربيجان " ٠

بغداد :

كان لبغداد أهميتها كمركز من مراكز التجارة الداخلية والخارجية ، فقد حفلت هذه المدينة بالأسواق التى تركز معظمها فى الكرخ - جنوب بغداد وكان لكل صنف من أصناف التجارة موضع خاص وكانت السوق الرئيسية فى ربض الكرخ - حيث كانت تمتد من قصر وضاح إلى سوق الثلاثاء بمقدار فرسخين طولا ، وبمقدار فرسخ عرضا وتضم هذه السوق أسواقا عديدة منها دار البطيخ " لبيع الفاكهة " وسوق دار القطن ، وسوق البزازين ، وسوق الوراقين وسوق الطعام وتباع فيه الحبوب هذا بجانب أسواق للباعة الجائلين يأتون من المدن المجاورة إلى بغداد فى الصباح وينصرفون عنها فى المساء ٠

وكانت أسواق بغداد على درجة كبيرة من النشاط ويذكر ذلك المقدسى بقوله : " والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون فى السفن وترى لهم جلبة وضوضاء " (٥٩) ٠

الكوفة : تقع الكوفة على الطريق الشرقى لبادية الشام على حافة الصحراء فهى ملتقى القوافل القادمة من الجزيرة العربية والحجاز ، ومن مراكزها التجارية (الكتامة) وتقع عند الباب الغربى وقرب البادية وكان موضعا لاناخة الجمال ونقل البضائع وتفريغها وفضلا عن ذلك كان يباع فيها الماشية .

وأسواق الكوفة كانت كثيرة وعامرة وكانت تباع فيها البغال والحمير والابل، السيوف والرماح ، والحنطة والمنسوجات والأقمشة .

الإسكندرية :

يتميز ميناء الإسكندرية بوقوعه فى وسط البحر المتوسط وعلى مسافة متساوية تقريبا مع بلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا مما أهلة لامتيازات تجارة البحر الأسود فضلا عن الحوض الشرقى للبحر المتوسط ذاته وكانت منارة الإسكندرية هى أكثر الأشياء التى لفتت أنظار الرحالة والكتاب وازدهر ميناء الإسكندرية بشكل ملحوظ بعد الفتح الفاطمى لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م وأصبح منافسا خطيرا لبغداد وعاصمة الخلافة الإسلامية قيل أن الإسكندرية تميزت من حيث الموقع على الطريق الملاحى بين غرب آسيا وشمال أفريقيا ، فى حين ربطتها الطرق النهرية والبرية بالبحر الأحمر .

وأسواق الإسكندرية حافلة بالسلع التى يأتى أكثرها من الشرق وتحوى أسواقها شتى الأحجار الكريمة والعطور ، وجميع الأشياء الثمينة التى تحمل إلى الإسكندرية من الهند واليمن والجزيرة العربية وأثيوبيا وفارس وغيرها من الأقطار .

دمياط :

كانت دمياط ثغرا من ثغور الإسلام ، وكان ميناء دمياط هو الميناء الرئيسى الذى ترسو به وتقلع منه السفن المتجه بين مصر وشمال شرق البحر المتوسط ، وكان سوقا لمنتجات الهند التى كانت تصل إليه عن طريق عيذاب وقوص فنهر النيل ، وقد ظل يحتل هذه المكانة حتى قرب نهاية عصر الحروب الصليبية وكان الحى التجارى بها هو أهم أقسامها

احتلت دمياط مكان الصدارة بين موانى مصر الشرقية خلال العصر الفاطمى ، بسبب ضيق الفرع البيلوزى وطمر الرمال له ، مما جعله يفقد أهميته ، بينما أخذ فرع دمياط يتسع وينطلق نحو البحر وتزيد أهمية ويكثر استخدامه وكان لموقع دمياط المتميز أثر السلب عليها حيث جعلها هدفا لحملات الصليبية التى كثيرا ما أغارت عليها ، مما ألحق بها وبتجارتها الكثير من الدمار ففى سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م أحرق أهالى دمياط الحى التجارى بها خشية أن يقع فى أيدى الصليبيين

الفسطاط :

كانت مدينة الفسطاط تتميز بموقعها على حافة النيل وقد يسر لها هذا الموقع أن تكون محط وإقلاع المراكب كما يذكر أبو الفدا والمقدسى . أن لوجودها على رأس الدلتا أثر كبير فى شهرتها كمدينة تجارية حيث

قال : " إن ساحلها كثير المراكب ، وهو متجر الأنام وأجل من مدينة السلام " بغداد " خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعايش " .

ويصف الإدريسى مدينة الفسطاط فيقول " ومدينة الفسطاط هى مصر وهى مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن ، فسيحة الطرقات ، مسقفة البناءات ، فاتحة الأسواق ، نافقة التجارات متصلة العمارات ... " وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت تربطها الطرق بمعظم المدن المصرية ، وظلت الفسطاط مركزا كبيرا للتسويق والتجارة الداخلية بعد إنشاء مدينة القاهرة ، وكان لوقعها على النيل أثرة فى ذلك ويذكر ابن سعيد المغربى (ق ٧هـ) " أن الفسطاط أكثر رزقا وأرخص أسعارا من القاهرة " (٩٧).

أسوان:

كانت هذه المدينة أحد الثغور المهمة على النوبة ، إلى جانب شهرتها كوسيط تجارى فى التجارة الداخلية والخارجية ، وقد كانت مدينة أسوان السوق الأساسية لتجارة النوبة حيث يذكر " أن النوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان " وذكر أحد الرحالة أنه رأى تجار أسوان يذهبون إلى بلاد النوبة ومعهم الخرز والأمشاط والمرجان .

وقد لعبت أسوان ، دورا هاما فى تجارة مصر الداخلية باعتبارها كانت ملتقى القوافل التجارية الآتية من السودان أو الصحراء الشرقية وقد أسهمت الطرق البرية السهلة فى خدمة التجارة الداخلية بأسوان وسوف نذكر الطريق ضمن طرق التجارة، وصارت أسوان بحكم موقعها سوقا حافلة بمختلف السلع أسعارها رخيصة .

بعض مراكز التجارة فى بلاد المغرب :

مدينة تلمسان :

تقع مدينة تلمسان فى سفح جبل يسمى بالصخرتين ، وتوجد بها مجموعة من الأنهار أصغرها نهر سطفسيف وصفها البكرى بأنها " دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر " واشتهرت تلمسان بمكانة تجارية متميزة حيث كانت مقصدا للتجار من جميع الجهات .

واكتسبت تلمسان أهميتها التجارية نظرا لوقوعها فى مركز الطريق البرى الرئيسى فى الشمال الافريقى ، وفى قلب شبكة طرق القوافل التجارية البرية ، وسط عدد من المدن والحصون التى أحاطت بها بحيث كانت تلمسان بمثابة نقطة التقاء لعديد من الطرق التجارية.

طنجة :

مدينة طنجة : مدينة قديمة مبنية على جبل عال مطل على ساحل البحر المتوسط عرفت باسم طنجة البيضاء وسماها البربر وليلى وكانت مستقرا لصنهاجة ،وقد اكتسبت طنجة وكورها (طنجة ، وسبته ، وتطوان ، وقلعة حجر الستر) مكانة تجارية هامة ، وكانت دائما مركزا تجاريا ومحطة هامة لحط وإقلاع السفن لأسباب جغرافية تتعلق بموعد هبوب الرياح الشرقية ، هذا إلى جانب شهرة أسواقها بمختلف أنواع التجارات.

ومما زاد فى أهمية طنجة التجارية انتشار المراسى والموانى الهامة على امتداد الطريق الذى يفصل بينها وبين سبته وكانت هذه المراسى أكثر المراسى المغربية أمانا فى فصل الشتاء.

بعض المراكز التجارية على الخليج العربى :

عمان :

هى قاعدة الخليج العربى ، تقع على مدخله من الجهة الجنوبية وفى نفس الوقت تطل على المحيط الهندى ، أى أنها تقع على الطريق الرئيسى للتجارة الرائجة الممتد من الصين إلى المدن الواقعة على جانبى الخليج العربى ، وعمان مدينة جليلة ، بها مرسى السفن الآتية من الهند ومن بلاد شرق أفريقيا ، وليس على بحر الخليج مدينة أهل منهاوكانت أحد المراكز الرئيسية للتجارة على الساحل الغربى للخليج العربى ، تأتى إليها السفن من البصرة وهى متجهة نحو الهند وسرنديب وشرق أفريقيا.

صحار :

هى قصبة عمان ، وخزانة الشرق والعراقوتعتبر أقدم مدن عمان وأكثرها مالاويقصدها فى كل سنة من التجار ما لا يعد ولا يحصى وإليها تجلب بضائع اليمن ويتجهز منها بأنواع التجارات إلى الهند والصين وكان العصر الذهبى لصحار خلال القرن الرابع الهجرى ، حيث كانت ملتقى السفن التجارية العائدة من رحلاتها قبل انطلاقها إلى الخليج حيث تفرغ جزء من حمولتها فى هذا المركز التجارى الكبير.

سيراف :

مدينة بناها العباسيون على الجانب الشرقى من الخليج العربى لخدمة تجارة الشرق ولاستقبال السفن الكبيرة القادمة من أعالى البحار والتى كان يتعذر عليها دخول نهر دجلة ، بسبب الرمال التى كانت تأتى مع مياه هذا النهر وتسد مدخله

النظام المالى

أقام الإسلام نظامه المالى على قاعدة هامة هى عدم الاستغلال مهما بدا من وراء ذلك أحيانا من اختفاء بعض المصالح المادية العاجلة ، كما أدار الإسلام نظامه المالى حول غاية أساسية هى تحقيق التكامل بين أفراد المجتمع الإسلامى .

وقد نما النظام المالى الإسلامى فى خط متواز مع نمو الدولة الإسلامية وتعدد وظائفها ، فيلاحظ أن هذا النظام فى صدر الإسلام - أى فى عهد الرسول ﷺ وعصر أبى بكر وأول عهد عمر ، وكان بسيطا الحياة الإسلامية الأولى ، ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية فى عهد عمر ، وحوت العديد من الجنسيات والنحل ودخل المسلمون أحيانا فى معاملات مالية مع الأمم الأخرى ، بدأت تلح عليهم ضرورة تطوير نظامهم المالى بما يتلائم مع الحاجات الجديدة .

وقد اجتهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ووضع كثيرا من أسس النظام المالى فى الإسلام ، وجاءت اجتهاداته متسقة تماما مع القيم الإسلامية ، ولم تتجمد النظم المالية فى الإسلام عند عصر عمر بل نمت وتطورت فى عهدى عثمان وعلى رضى الله عنهما ، وفيما تلاهما من عهود .

وأول ما ينبغى أن نتناوله فى النظام المالى هو الموارد المالية الأساسية للدولة الإسلامية وهى الموارد التى شكلت ركيزة النظام المالى فى الإسلام .

موارد بيت المال :

وكانت موارد بيت المال فى الدولة الإسلامية الغنائم والفيئ ، والخراج والجزية والزكاة والعشور ، وخمس المعادن ، وتركة من لا وارث له وهذه الأقسام الأصلية يدخل تحتها فروع صغيرة .

- **الزكاة :**

هى البركة والنماء ، وفى الشرع حصة من المال ونحوه يوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم.

والزكاة فى الاصطلاح هى مقدار معين من المال - نقدا كان أم عينا - يدفعه المسلم مخيرا للإمام أو نائبة وأن يوزعها بنفسه لفئات معينة بشروط خاصة، وقد ثبت مشروعية الزكاة بنص القرآن الكريم فى آيات عديدة : قال تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾وقال جل شأنه : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ .

والزكاة والصدقة شئ واحد وكان لها ديوان خاص بها فى دار الخلافة له فروع فى سائر الولايات ، فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة على الأموال التى تبلغ النصاب ، ويحول عليها الحول وتختلف قيمة النصاب باختلاف الأنواع التى تجب فيها الزكاة.

– **فهناك زكاة الذهب والفضة** " أو ما يسمى زكاة النقد " ونصاب الذهب عشرون مثقالا أى خمسة وثمانون جراما ، ونصاب الفضة مائتا درهم ، وفى نصاب الذهب والفضة مقدارها ربع العشر أى ٢,٥% إذا حال عليها الحول ، وتعامل النقود بأنواعها معاملة الذهب والفضة

– **زكاة عروض التجارة** : وكانت تؤخذ من التجار على ما يتاجرون فيه من متاع عن الذهب والفضة ، ويجب عليها ربع العشر إذا بلغت قيمتها نصابا من الذهب والفضة وحال الحول كامل

– **زكاة الزروع والثمار** : ونصابها أربعة اردب أو ما يعادلها بالوزن وهو ٦٥٠ك تقريبا، ومقدارها (١٠%) إذا كانت الأرض تروى بالراحة أو بمياة الأمطار ، أو بنسبة ٥% إذا كانت تروى بآله . وتجب هذه الزكاة على الزروع والثمار بمجرد حصادها

– **زكاة النعم** (بفتح النون والعين) وهى الإبل والبقر والغنم ، ونصاب الإبل يبدأ من خمسة ، والبقر والجاموس يبدأ من الثلاثين ، والغنم من أربعين وتسمى السوائم أى التى ترعى الكلأ ، أما إذا كانت عاملة أو معلوفة فليس فيها زكاة على أصح الأقوال والخيل إذا اعتبرت آله من آلات الحرب فلا زكاة عليها

وكان لصدقة " الزكاة " عمال يختصون بجمعها فى الولايات الإسلامية وكان لا يجوز أن يتولى عمال الخراج جبايتها ، لأنه لا يجوز اختلاط مال الخراج بمال الصدقات لان لكل منهم مصرف خاص ، ويشترط فى عامل الزكاة أن يكون حرا مسلما عادلا عالما بأحكام الزكاة وعليه أن يتولى الأموال الظاهرة التى لا يمكن إخفاءها كالزرع والثمار والماشية ، أما الأموال الباطنة كالذهب والفضة وعروض التجارة فعلى أصحابها إخراج زكاتها طوعاوعلى العامل أن يدعوا أهلها إلى إخراجها ويرغبهم فى المسارعة فى ذلك تميزا لهم عن أهل الذمة فى أهل الجزية

- الجزية " الجوالى " :

الجزية فى اللغة مشتقة من الفعل " جزى " الذى قد يعنى كافأ أو قضى ، وهى فى الاصطلاح مبلغ معين يفرض على رؤوس أهل الذمة من الرجال الأحرار والعقلاء ، ولا تجب على امراءة ولا صبى ولا مجنون ، ممن خضعوا للحكم الإسلامى ولم يرغبوا فى اعتناق الإسلام

وقد فرضت على الذميين مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ووجبت عليهم نظير قيام المسلمين بالدفاع عنهم ومما بينهم ، لأنهم لم يكونا يشاركون فى الحروب مع المسلمين

وقد ثبتت الجزية بنص القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

وعن مقدار الجزية فقد اختلف العلماء فى تقدير قيمتها حيث يرى الشافعى أن أقلها دينار ، وأكثرها مقدار بالاجتهاد .

وقدرها أبو حنيفة على ثلاث طبقات الأغنياء ويؤخذ منهم (٤٨ دينار) أربعة دنانير وسدس دينارا ومن الأوساط دينارا وقيراطان ، ومن العمال " الفقراء " دينار واحد وثلث وربع وحبتان " ويضاف إلى كل فئة من تلك الفئات درهمان وربع تدفع للقائمين على جبايتها

وعلى الرغم أن الجزية كانت تعتبر من أهم مصادر المال فى عصر الدولة الإسلامية إلا أننا نجدها فى العصر الفاطمى ليست ذات بال ، فقد كان تحول كثير من أهالى البلاد المفتوحة إلى الإسلام سببافى أنها لم تعد مصدرا مهما للدخل بحيث أصبحت تعرف بالجوالى .

وكانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية ، وكان يسمح بدفعها نقدا أو عينا ، وكانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية الجزية ثم تكسر الخواتيم وتستبدل بشاره تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية

الخراج : الخراج فى اللغة يعنى الأجر أو الرزق أو الناتج ، قال تعالى ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أى فرزق ربك أو أجر ربك ومثوبته خير .

والخراج بمفهومه الاصطلاحى مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأراضى التى فتحها المسلمون ولم يثبت الخراج بنص قرآنى كما هو الشأن فى الجزية بل ثبت باجتهاد الصحابة .

والخراج فى الإسلام " هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها"، وهو ما يخرج من غلة الأرض، ويعنى أيضا المال الذى يحصل فى أوقات معينةوالخراج هو الضريبة السنوية التى تجبى على الأرض المزروعة .

ولما كان الخراج من أهم موارد الدولة المالية فقد ذكر ابن خلدون أن " الملك بالجند ، والجند بالمال والمال بالخراج " ، وقد اهتم الخلفاء والولاة بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزية لأن الخراج أكثر ثباتا من الجزية وأكثر دخلا حيث أن الجزية تسقط بالإسلام .

الخراج فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

اتسعت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب الذى تولى الخلافة فى الفترة من سنة ١٣-٢٣هـ حيث فتحت العراق والشام وأراضى السواد ثم استمرت الفتوح فى الشرق وتم الاستيلاء على معظم أقاليم الإمبراطورية الفارسية وفتحت مصر فى أواخر عهد عمر. ومنذ اتسعت هذه الفتوحات ظهر أمام المسلمين مشكلة كبرى ، هى مصير هذه الأراضى الشاسعة التى خضعت للمسلمين وأيضا مصير أهلها المقيمين عليها ، ومن هنا نشأ نظام الخراج .

كانت أراضى الأمصار عدة أنواع ، وكان لكل نوع منها وضع خاص بالنسبة للخراج ، والخلاصة أن أراضى الخراج هى كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، وكل أرض روتها أنهار الخراج وخصصت لزراعة الغلات أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها أو شغلت الطواحين .

كان الخراج يظل مفروضا على الأرض المفتوحة عنوة حتى بعد إسلام صاحبها لأن هذه الأرض فئ للمسلمين لهم جميعا ، وما يدفعه صاحبها هو إيجار مقابل زراعته لها.

أما الأرض التى صولح أهلها على زوال ملكهم عنها فلا يجوز بيعها ويعتبر خراجها إيجارا ولا يسقط الخراج بإسلام أهلها إنما ترفع عنهم الجزية

والأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فيجوز بيعها ويسقط خراجها باسلام أهلها وتصبح أرض عشرية

تقدير الخراج :

كان هناك نظامان أساسيان لتقدير الخراج فى الدولة الإسلامية :

الأول : هو نظام المساحة : ومعناه أن يكون هناك خراج معين على مساحة محددة من الأرض تجيبه الدولة كل عام مهما ارتفع أو انخفض محصول الأرض.

وفى هذا النظام يجب مراعاة الآتى :

١- أن يتغير مقدار الخراج تبعا لتغير ظروف الأرض ونوع محصولها .

٢- أن يراعى مقدار جودة الأرض .

٣- أن يراعى نوع الحبوب والثمار حيث هناك ما كثر ثمنه ، وهناك ما يقل ثمنه .

٤- أن يراعى طريقة السقى ، فيفرق بين الأرض التى تسقى طبيعيا وبالأمطار ، والأرض التى تسقى بآله

وهذا النظام كان معمولا به منذ عهد عمر بن الخطاب حتى تم تغيره .

الثانى : هو نظام المقاسمة أو المزارعة ، ويقصد به أن يتقاسم الدولة والناس ما ينتج من محصول بنسبة معينة فمثلا يكون الثلث للدولة والثلثان للزراعيين ، والسبب فى الأخذ بهذا النظام أن شكوى المزارعين بدأت تتصاعد عندما هبطت أسعار المحاصيل ، فلم تف الغلال بخراجها .

ويرجع هذا النظام إلى الخليفة العباسى المهدى (١٥٨هـ) ، حيث قرر العدول عن نظام المساحة ، والعمل بنظامه المقاسمة وبدأ التنفيذ بهذا النظام منذ سنة ١٦٠هـ .

وقدرت قيمة المقاسمة بنسب معينة كما يلى :

- النصف على الأرض التى تسقى سيحا - بدون آله أو رافعة .
- الثلث على الأراضى التى تسقى بالدوالى - الناعورة - ويظهر أنها ساقية صغيرة أو شادوف.
- الربع على تلك التى تسقى بالدواليب .

ولا شئ عليهم سوى ذلك وهذا النظام خاص بالزروع ، أما الثمار من نخيل وكروم وأشجار فتبقى على نظام المساحة ، وينبغى تعديل الخراج حسب قرب وبعد الأراضى من الأسواق مع مراعاة النسبة

العشور :

عشور التجارة هى نوع من الضرائب الجمركية فرضتها الدولة الإسلامية على تجارة أهل الذمة ، وكذلك على أهل الحرب إذ مروا بتجارتهم على ثغور الإسلام ، أو دخلوا دار الإسلام ، كما فرضت أيضا على تجارة المسلمين إذا جلبوها من خارج دار الإسلام .

لم تكن العشور معروفة على عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أول من سن تشريعها فى الدولة الإسلامية الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك نتيجة تشعب مظاهر النشاط الإسلامى فى عهده واختلاط المسلمين بالمجتمعات الأخرى .

والسبب فى ذلك أيضا أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر بن الخطاب يقول له " إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما أى ربع

العشر وليس فيما دون المائتين (من الدراهم) شئ، وقد اعتبر أبو يوسف أن ما يؤخذ من المسلمين من العشور يجرى مجرى الصدقة ، وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الحرب يجرى مجرى الخراج.

وكانت العشور لا تحصل إلا مره واحدة فى السنة .

الغنائم " الخمس " :

الغنيمة والغنم بالضم - تعنى الفوز بالشئ بلا مشقة ، والغنيمة هى ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوه تنقسم الغنائم إلى أربعة أقسام : أسرى وسبى وأرض وأموال.

الأسرى :

وهم المقاتلون من أهل الشرك الذين يقعوا أسرا فى يد المسلمين ، وكانوا إما أن يقتلوا أو يسترقوا أو يفدوا أنفسهم بمال ، ويكون المال المأخوذ فى الفداء غنيمة.

السبي :

فهم النساء والأطفال ولا يجوز قتلهم إذا كانوا أهل كتاب ولكن يعتبروا سبيا مسترقا ويقسمون مع الغنائم ، ولا يفرق بين الوالدة وولدها ، ويجوز فداء الأسرى بالمال ، ومبادلتهم بأسرى المسلمين.

الأرض :

وهى ثلاثة أقسام ، أرض ملكت عنوه ، وأرض ملكت عفوا ، أرض استولى عليها المسلمون صلحا ، ولكل نوع أحكامه .

أما الغنائم المنقولة كالماشية والمال والأسلحة فهى تقسم كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وعلى هذا فقيمتها الخمس أى أن بيت مال المسلمين يستحق نسبة قدرها ٢٠% من الغنائم التى يستولى عليها المسلمون من الحروب .

الفئ :

فى اللغة ، فاء الرجل يفئ فيئا من باب باع ، رجع ، وفى القرآن الكريم : ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّه﴾ أى حتى ترجع إلى الحق ، وفاء الظل يفئ فيئا ، أى رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق ، والفئ الخراج والغنيمة .

وتعددت تفسيرات الفئ بمفهومه الاصطلاحى وتختلف فيه وجهات النظر من خلال التفسيرات المختلفة ، وتستطيع أن تقول أن أدق معنى للفئ ، هو أن كل مال وصل إلى المسلمين من المشركين عفوا بدون حرب ولا يخاف خيل ولا ركاب راى بالرعب الذى يقذفه الله فى قلوب المشركين.

وهناك فرق بين الغنيمة والفئ ، فمال الفئ مأخوذ عفوا ومال الغنيمة مأخوذ قهرا وإن أربعة أخماس الفئ تصرف فى أشياء غير أربعة أخماس الغنيمةحيث أن أربعة أخماس الفئ تؤول خالصة لبيت مال المسلمين .

يجب إعادة النظر فى تقسيم خمسة كما تقسم خمس الغنائم " لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ".

ومن مصادر الثروة فى عصر الراشدين الصوافى أو القطائع وهى الأرض التى بقيت بغير صاحب ، لجلاء أهلها ، أو لانها كانت تابعة للملوك السابقين ، فضمها الخليفة عمر ﷺ إلى بيت المال وسماها الصوافى ، لأنه استصفاها أى جعلها خالصة للمسلمين ، ورأى الخليفة عثمان رضى الله عنه أن المصلحة تقتضى إعطاءها لمن يشرفون على زراعتها ، فوزعها على بعض المسلمين من الصحابة والولاة وأقاربه إقطاع إجارة لا تمليك فلما تولى الخليفة على بن أبى طالب ﷺ ردها إلى الملكية العامة.

هذه هى الموارد الأساسية لبيت المال ويمكن تقسيمها إلى قسمين موارد دورية منتظمة وموارد غير ذلك

الموارد الدورية هى : الزكاة - الجزية - الخراج .

الموارد غير الدورية هى : الغنيمة - الفئ - عشور التجارة .

وهناك موارد أخرى أقل أهمية مما ذكرنا منها :

١- تركة من لا وارث له إن كان مسلما ، فإن كان ذميا فتركته ترد على أهل ملته .

٢- خمس الركاز - المعادن - وهى الذهب والحديد والنحاس والرصاص ويمكن أن يلحق بها البترول وغيره من الثروات التى تستخرج من باطن الأرض .

٣- المصادرات : قرر المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٦٤م إن من حق ولى الأمر بكل بلد أن يحد من حرية التملك بالقدر الذى يكفل درء المفاسد البينة وتحقيق المصالح الراجحة ، وإن هذه الأموال من حق ولى الأمر أن يردها إلى أهلها أو يدفعها للدولة فإن لم يوافقوا قام بمصادرتها ليجعلها فى مواضعها .

وكان الرسول ﷺ يحاسب عماله على المستخرج والمصروف ومصادر الهدايا التى تهدى إلى الولاة ويردها إلى أهلها إذا عرفهم ، إو يودعها بيت المال إذا تعثر معرفة أصحابها ليستعن بها فى أمور الدولة من جهاد وغيره . ويتضح لنا ذلك ، من الرواية التى رواها مسلم فى صحيحة ، ، عن أبى حميد الساعدى من قصة ابن النبيه الأزدى الذى ولاه الرسول ﷺ صدقات بنى سليم وعندما جاء الرسول ﷺ يحاسبه قال ، هذا لكم وهذا لى ، قال النبى ﷺ : " فهلا جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ".

وقد حذا الخلفاء الراشدون حذو الرسول ﷺ فى هذا المجال فكان سبب مصدراتهم لعمالهم هو حجب بعض الولاة لجزء من مال الخراج أو اشتغالهم بالتجارة وانصرافهم عن مصالح الرعية ، فشاطرهم الخليفة عمر أموالهم ، وأخذ ما زاد عن رأس مالهم وأودعه بيت مال المسلمين ، وممن شاطرهم الخليفة عمر فى أموالهم عمرو بن العاص عامله على مصر ، وأبو هريرة عامله على البحرين ، وسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة

، والنعمان بن على والى نيسان ، وخالد بن الوليد والى الشام ، وعتبه بن أبى سفيان والى الطائف ، وأبو موسى الأشعرى والى البصرة. ومن الوثائق التى تؤكد ذلك الخطاب الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى والى مصر عمرو بن العاص جاء فيه "***من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك أما بعد . فقد بلغنى أنه فشت لك فاشية من خيل وإبل وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ولا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال***".

وحدثت المصادرات فى عهود مختلفة غير عهد الخليفة عمر ﷺ إلا أنها كانت تتم تعسفا وذلك فى عهد بنى أمية حيث كانت المصادرات إحدى وسائل الإنتقام من الخصوم ، دون أن يتعرضوا لأذى ، وأحيانا كانت المصادرات ولم تنفذ ، وأحيانا أخرى صادروا الأموال ثم ردوها لأصحابها .

ومن أمثلة مصادرات العصر الأموى :

- استيلاء معاوية بن أبى سفيان على تركة زياد بن أبيه عامله على العراق ، وكانت قيمتها ستة ملايين دينار ، ثم قام من بعده ابنه يزيد (٦٠-٦٤ هـ) بمصادرة أهل المدينة المنورة عندما خرجوا عليه ، ونفذ ذلك قائد جنده مسلم بن عقبة وفى خلافة عبد الملك بن مروان صادر أموال واليه على خرسان بكير بن وشاح وعزله ، وصادر الحجاج بن يوسف الثقفى أموال عبد الله بن الزبير بعد مقتله وفى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك صودرت أموال الحجاج بن يوسف ، وتمت مصادرات فى عهد الخلفاء الأمويين حتى نهاية العصر الأموى .

وفى العصر العباسى ، بدأت المصادرات تكشف عن وجهها القبيح ، واتخذت شكلا جديدا غير متعارف عليه فى العصور السابقة ، وظل هذا الشكل سائدا فى الدولة الإسلامية حتى نهاية عصر المماليك وكان من أهم السمات العامة للمصادرات هى :

- ازدادت المصادرات فى بداية عهدهم خاصة لبنى أمية وكان مصير أكثر المصادرين القتل.
- كان منفذ المصادرات الوزير ، وغالبا ما لجأ إلى الشدة فى تنفيذ ذلك .
- لم تكن المصادرة جزاءا للمخالفات ، بل أصبحت غرضا لجمع الأموال من الأثرياء .
- كانت هذه الأموال تؤول إلى بيت مال العامة وبيت مال الخاصة .

مثال لبعض حالات المصادرات خلال العصر العباسى الآتى :

فى عهد أبو العباس السفاح أمر أقاربه بقتل ومصادرة كل من يجدونه من الأمويين .وفى عهد أبو جعفر المنصور قام بمصادرة أموال الوزير أبى أيوب سليمان الموريانى وقتله بسبب كذبه عليه ، وذلك سنة ١٥٤هـ، وكذلك صادر خالد بن برمك بعد اتهامه فى خراج الأهواز وأخذ منه مبلغ ٢,٧٠٠,٠٠ دينار استدانها من الناس.وقد اودعت هذه الأموال فى بيت مال مفرد يسمى " بيت مال المظالم " وكتب على كل مال اسيم صاحبه وأوصى ابنه المهدى من بعده استدعاء أصحاب الأموال وردها إليهم ، وفى عهد هارون الرشيد صادر أموال البرامكة بعد نكبتهم سنة ١٨٧هـ وأخذ منهم ما يقدر ٥٠,٦٨٠,٠٠٠ خمسين مليون

دينار وقبض على ابن ماهان والى خرسان وصادر خزانته ، ويقال أنها نقلت على ١٥٠٠ جمل وفى العصور اللاحقة لهارون الرشيد كانت المصادرات من قبل الخلفاء العباسيين حتى نهاية العصر العباسى .

وفى العصر الفاطمى كانت المصادرات كثيرة ، حيث تمت مصادرة الخلفاء للوزراء ، وصادر بعض الوزراء ممتلكات العامة، ومثال لذلك قام العزيز بعزل وسجن ومصادرة الوزير يعقوب سنة ٣٧٣هـ وأخذ منه نصف مليون دينار ، وفى سنة ٤٥٩هـ قبض المستنصر على الأسعد المريقى وصادر ممتلكاته ، وكانت تحوى عددا كبيرا من الآت الحرب ، وهكذا كانت المصادرات ضمن موارد الدولة التى تصل إلى بيت مال المسلمين

النفقات :

وكان لها ديوان خاص عرف باسم ديوان النفقات كانت واردات الدولة الأساسية وغير الأساسية التى سبق الحديث عنها تصب فى بيت المال لتكون تحت تصرف الخليفة أو الحاكم ، فبيت المال شديد الشبه بالخزانة العامة للدولة فى عصرنا هذا ، وقد أصبح فى كل ولاية من الولايات الإسلامية بيت مال خاص بها بالإضافة إلى بيت المال المركزى فى قصر الخلافة أو مركز الحكومة .

وكانت مصارف بيت المال تنفق فى مصالح المسلمين ومرافقهم العامة وما تقضى الحاجة إلى إنفاقه وأهم هذه المصالح الآتى :

- أعطيات الجند .
- أرزاق القضاة والولاة والعمال والموظفين والكتاب وعمارة المساجد .
- الهبات والمنح وغيرها .
- المنافع العامة مثل شق الأنهار ، وحفر الآبار .
- النفقات الخاصة بقصر الخليفة ورجال البلاط (بعد عصر الخلفاء الراشدين) وازدادت نفقات الدولة خلال عصر العباسيين ، لدرجة كبيرة حتى بلغت نفقات دار الخلافة فقط عدا الولايات فى اليوم سبعة آلاف دينار ، وبالطبع ترجع هذه النفقات إلى بذخ الخلفاء وتحرر بعضهم نوعا ما من التقاليد الدينية والانغماس فى اللهو .
- نفقات بناء الحصون وإعداد الجيش وتسليحه ، وتسيير البريد هذا ولم تكن الدولة تنفق على كل الأمور حيث كانت هناك أموال الأوقاف الإسلامية وأهل الخير التى تنفق فى إصلاح الجسور وشق الطرق ، وأحيانا ينفقون على الجهاد.
- كانت هناك مصارف محددة لموارد محددة وخاصة الزكاة كما جاء فى الشرع وكما ذكرنا .

النقود الإسلامية :

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة واستعمل المسلمون فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون تلك النقود ، وهى الدينار البيزنطى وهو عملة ذهبية ولما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب

ﷺ أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم وزن المثقال (٢٠ قيراطا) ومنها درهم وزنه قيراطا ، ودرهم وزنه ١٠ قراريط فأخذ عمر ﷺ جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى (٤٢ قيراطا) وأخذ ثلثها وهو (١٤ قيراطا) وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن وزنها (١٤٠) فصارت النسبة بين الدراهم والمثاقيل كنسبة (١٠:٧) .

ويذكر المقريزى أنه فى سنة ١٨هـ ضرب الدرهم على نقش الكسراوية وشكلها بعينها غير أنها زاد فى بعضها : **الحمد لله ، وفى بعضها محمد رسول الله** ، وفى بعضها **لا إله إلا الله وحده** ، وعلى أخرى عمر ، وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقبل ، فلما بيع الخليفة عثمان ﷺ ضرب فى خلافته دراهم ونقشها ﷺ .

واستخدمت الدولة الأموية الدنانير البيزنطية القديمة نفسها مع بعض التعديلات كإضافة عبارة **لا إله إلا الله محمد رسول الله على أحد** وجهى الدينار مع إبقاء صورة الإمبراطور البيزنطى هرقل على الوجه الآخر ، وقد ضرب هذا النوع من العملة فى دمشق سنة ٧٢هـ / ٦٩١م

ثم حدث تعديل جديد على العملة حيث استبدلت صورة هرقل بصورة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٩هـ) واقفا يحمل سيفا ، وقد بدأ ضرب هذا النمط من الدنانير سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م ، وذلك بعد سنوات ضربة النقود دون أن تظهر عليها صورة الخليفة بل نقشت عليها عبارات مثل الشهادتين وآيه قرآنية .

ثم أمر بضرب الدراهم فى سنة ٧٥هـ وأمر بتعميم العملة الإسلامية فى جميع الولايات سنة ٧٦هـ ، ولهذا كان إصلاح العملة وتعريبها ما بين سنة ٧٤ إلى سنة٧٧هـ

وجعل عبد الملك وزن الدينار إثنين وعشرون قيراطا إلا حبه بالشامى ووزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى ، وقيل أن عبد الملك أمر الحجاج وهو بالعراق بضربها ففعل

وكان السبب فى تعريب النقود هو أنه كانت القراطيس (أى ورق الكتابة) تدخل بلاد الروم من أرض مصر ، ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير ، فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث رؤوس الطوامير . كتابة **" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"** وغيرها من ذكر الله فكتب إليه ملك الروم ، إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه ، فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يستشيره فأشار عليه بأن يحرم دنانيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككا ، ويمنع ان يدخل بلاد الروم شئ من القراطيس وانقطعت التجارة التى كان بها يتم التبادل بين الأوراق والدنانير

وبطل التعامل منذ ذلك الوقت بالنقود الفارسية والرومية، وصارت العملة موحدة فى جميع أنحاء الأمصار ، فعبد الملك بن مروان هو أول من أوجد النقد القومى العربى للدولة الإسلامية، الضرب أو دار السكة وقد استخدم العرب بعد الفتوحات دور الضرب التى كانت موجودة فى أيام الساسانيين والبيزنطيين وفى

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٩هـ) أنشئت أول دور الضرب الإسلامية فى الكوفة وواسط من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق

وخلال العصر العباسى أوجد الخليفة هارون الرشيد منصبا جديدا للإشراف على سك النقود هو " ناظر السكة " وعندما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين وقامت عدة دويلات إسلامية فى الأقاليم أقيمت مراكز جديدة لسك النقود وقد ساعد النشاط التجارى الإسلامى وتقدم الصناعات والمدن وازدهارها على ازدياد دور الضرب ٠

وكانت ترد إدور السكة العربية الإسلامية كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس ، وكان يعمل بها عدد من الموظفين والعمال منهم :

السباك : وهو الذى يختص بإعداد السبائك المعدنية للسك ٠

النقاش : وهو المكلف بنقش المسكوكات وصيانة رسومها وتصميمها ٠

المقدم : وهو أهم شخصية فنية بدار الضرب ، حيث يعد المسئول الأول عن جميع مراحل عمليات السبك فى دار الضرب من اختيار المواد الخام وسبقها ثم اختيار السبيكة من خلال قياس مدى نقائها ، ويوكل إليه أعمال كثيرة بدار الضرب مثل حفظ عيارى الذهب والفضة ، معرفة أسرار المزيفين وغيرها ٠

الضراب : وهو العامل الذى يقوم بضرب العملة أو سكها ، وقد ورد اسم الضراب بمعنى الطباع فى أول أمر تعريب النقود ٠

الناقد أو المعدل : وكانت مهمته تمييز العملة وإخراج المزيف منها ٠

الصانع : وهو الذى يقوم بصح الصنج الزجاجية الخاصة بوزن النقود داخل دار الضرب .

الكتاب : ومهمتهم تسجيل فئات النقود وكمياتها وأوزانها فى سجلات خاصة

هذا وقد عرف المسلمون ثلاثة أنواع من العملة : الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضة ، والفلس من النحاس ٠

وكانت أوزان هذه العملات تخضع لإشراف الدولة على قاضى القضاة أو القاضى للتأكد من مطابقتها للمواصفات، كما كان المحتسب يراقب دار الضرب وخاصة دار العيار فيها صنج المسكوكات

وقد كان للسكة أو ضرب النقود أهمية خاصة كوسيلة لإظهار نفوذ الحكام ، ولذلك اعتبرت السكة من أهم شارات الخلافة والحكم فى الدولة الإسلامية ، وأن سك العملة يعد مظهرا يؤكد استقلال الدولة سياسيا واقتصاديا وإداريا ، فإذا ضرب أحد الحكام المسلمين تقودا باسمه دون اسم الخليفة كان ذلك دلالة على استقلاله فى الحكم وعدم اعترافه بسيادة الخليفة ٠

وكان الوزن الشرعى للعمله ، هو المثقال والدانق، وهناك اختلاف بين وزن العمله وعيارها ، فالوزن هو المثاقيل أو الدوانق التى توزن بها الدنانير والدراهم ، أما العيار فهو يعنى قيمة الجودة فى العملة ، فإذا كانت خالصة كان العيار كاملا ، وإذا كانت العملة غير خالصة كان العيار ناقصا٠

ديوان بيت المال :

ويعرف بالديوان السامى ، وهو أصل الدواوين ومرجعها إليه ، ووظيفته ثبت جميع أصول الأموال السلطانية على أصنافها من عين وغلال وفئ وغنائم وأعشار وأخماس ويثبت ما تحصل من ذلك ، ويتخذ بيتا لأصناف الأموال ويجعل عليها دواوين وحرسا ، فالأموال والقماش لها ديوان الخزانة ، والغلال لها ديوان الأهراء ، والأسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح ٠

ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك والاطلاقات يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها ، وكان الوزير يطالب صاحب المال برفع حساب فى كل أسبوع ، ليعرف ما حل وما قبض وما بقى وكان من واجبات صاحب بيت المال أن يقدم فى آخر كل شهر حسابا كان يطلق عليه اسم " الختمة " وحسابا فى آخر السنة يسمى ختمة جامعة٠

وإلى جانب هذه الدواوين التى بدأت فى عهد الخلفاء الراشدين أو فى عهد الخلفاء من بنى أمية واكتسبت فى العهود التالية مزيدا من الترتيب والتنظيم فى الغالب ظهرت هناك دواوين أخرى ترجع فى معظمها إلى العصر العباسى ومن عاصرهم أو من جاء بعدهم ومنها الآتى :

- ديوان الأحشام : وهو ديوان الذين كانوا فى خدمة البلاط ٠
- ديوان الحوائج : واختص بجمع الرقاع - الشكاوى - من المشتكين وتقديمها للخليفة ٠

وقد ذكر اليعقوبى هذين الديوانين فى عداد الدواوين التى نقلها أبو جعفر المنصور إلى بغداد سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م حين أتم بناءها ٠

- ديوان المصادرين : لتسجيل أسماء من صودر أموالهم ومقدار ما صودرت عليه ٠
- ديوان الضياع : واختص بإدارة ضياع الخليفة وأسرته وجميع هذه الدواوين كانت فى خلافة أبى جعفر المنصور ٠
- ديوان الصوافى : وكان يتولى إدارة الأراضى التابعة لنظر خليفة المسلمين ٠
- ديوان الموالى والغلمان : واختص بتسجيل موالى الخليفة وعبيده٠
- ديوان المواريث : وكان يختص بأموال من لا وارث له أو توفى ويرث أقاربه جزء من تركته فيصبح الجزء الباقى من حق ديوان المواريث ، الغاه الخليفة المعتضد سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م ، حيث أمر برد الفاضل من تركة المواريث على ذوى الأرحام ٠

ديوان الجهبذه : وكان يتولى النظر فى الحسابات المالية وتدقيق موارد المال وبقايا أموال المطالبات التى كان يتعذر على أهل الخراج أداؤها فى وقت المطالبة ٠

ديوان الأكرة : وكان يشرف على القنوات والترع والجسور وشئون الرى ٠

ديوان الماء : وكان يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه وينظر فيما يملكه أرباب المياه من الماء وما يباع وما ينقص منه ٠

وذكر المقريزى من الدواوين عند الفاطميين ديوان النظر ، وكان ينظر فى دواوين المال ، وديوان المجلس وكان ينظر فى الإقطاعات مما سبق يلاحظ كثرة الدواوين ونجد أن سبب ذلك هو اهتمام ولاة الأمر بشئون الدولة والأمة ، فكلما ظهرت مصلحة الأمة فى شئ سارع الحكام إلى إنشاء دائرة – أى ديوان – لرعايتها والقيام على شئونها ٠

ولذا كثرت الدواوين ، وكبر الجهاز الإدارى فى الدولة الإسلامية متماشيا مع المصالح وكثرتها ٠

المكاييل والموازين والمقاييس

اختلفت المكاييل والموازين ووحدات القياس من قطر إلى آخر من أقطار العالم الإسلامى ، كما كانت تختلف أيضا فى القطر الواحد من مدينة إلى أخرى ، كما يظهر هذا الاختلاف أيضا من عصر إلى عصر ٠

المكاييل :

ورد الكيل فى القرآن الكريم فى عدة مواضع منها :

قال تعالى " وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " وقوله تعالى : " وأوفو الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم " ٠ وقال تعالى : " وأوفوا الكيل والميزان بالقسط "٠

وتعددت أنواع وأسماء المكاييل فى الأسواق حيث استخدمت لتقدير الأشياء اليابسة مثل الحبوب والملح والتمور وما شابهها فكان هناك :

الأردب : وهو ميكيال مصرى قديم ، وهو أربعة وعشرون صاعا ٠

بما يعادل (٦) ويبات أو (١٢) كيلة أو (٢٤) ربعا أو (٤٨) ماواه أو(٩٦) قدحا ، وقدرت قيمة الأردب وزنا (١٥٠ كجم قمحا (١٣٠) كجم شعرا ، (١٤٠) كجم ذره ، (١٥٥) كجم فولا ، (٥٧) كجم عدسا وعند الحنفية الأردب يعادل ٧٨ كجم ، وعند الجمهور يساوى ٤٨,٩٦ كجم والاردب يساوى (١٩٨) لتر ٠

الصاع : ويستخدم فى تقدير الحبوب الحبوب أيضا ، وهو لغة مكيال لأهل المدينة ويقدر بأربعة أمداد ومقداره ثمانية أرطال كوفية ومقداره عند الحنفية ٣,٢٥ كجم ، وعند الجمهور ٢,٠٤ كجم٠

الويبة : لغة كيل مصرى معروف وهى تساوى ٦/١ (سدس إردب) كما تساوى كيلتين وتساوى ٣٣ لترا ٠

الكيلة : وهى وعاء يكال به الحبوب ، وهى من المكاييل المصرية ، تقدر بثمانية أقداح ، وتساوى أربعة ملاوى وتعادل ١٦,٥ لتر ٠

القدح : وهو مكيال مصرى مقداره ٨/١ ثمن كيله مصريه ، وحجمه يعادل ٢,٠٦٢٥ لترا وعرف منه بعض الأجزاء مثل نصف ، وربع وثمن القدح ، والخروبه والقيراط وهو أقلها جميعا إذ يبلغ جزء من (٣٢) جزء من القدح ٠

المد : اختلفت الفقهاء فى تقديره ولذا اختلفت قيمته من منطقة إلى أخرى فى العالم الإسلامى ، وهو مقدار ملء اليدين المتوسطتين من غير قبضهما ، وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاعومقدار المد رطلان بالعراقى عند الحنفية ، وعند الشافعية فهو رطل وثلث بالعراقى وهو يساوى بالحنفية ٨١٢,٥ جراما ، وعند الجمهور يساوى ٥١٠ جراما ٠

القفيز : وهو المكاييل التى تفاوض الناس فى تقديرها لاختلاف الاصطلاح فيها ٠ والقفيز ٠ مكيال وهو ثمانية مكاييل ، وهو معروف لأهل العراق وهو يساوى صاع ونصف ، وثلاث كيلجات أو نصف ويبه (أى أحد عشر أو أثنى عشر مدا) ويعادل عند المالكية ٤٨ صاعا ، وعند الشافعية ١٢ صاعا ٠

الكيلجه : تساوى ثلث مكوك أو ما يعادل خمسة أرطال أو ستمائة درهم ٠

الجريب : مكيال قدره أربعة أقفزة يساوى ٤٨ صاعا ، ومقداره عند الحنفية ١٥٦ كجم وعند الجمهور ٩٧,٩٢ كجم ٠

الوسق : ٦٠ صاعا عند أهل الحجاز ، ورد ذكره فى الحديث النبوى الشريف ، فعن أبى سعيد الخدرى ، ليس فيما دون خمسة أواسق صدقة " متفق عليه ، ومقداره عند الحنفية يعادل ١٩٥ كجم ، وعند الجمهور يعادل ١٢٣,٤ كجم ، ويعادل ١٠ كيلات مصرية ٠

الكر : هو أكبر مقاييس الكيل العربية ، وهو مكيال لأهل العراق ، والكر (٦٠) قفيزا فى بغداد ، أما الكر بواسط والبصرة كان مقدار مائة وعشرون قفيزا ويعادل بالمصرى أربعين إردبا من أول = عشرة إردب من الحالى ٠

القربة : ظرف من الجلد يخرز من جانب واحد ، وتستعمل لحفظ الماء واللبن ونحوهما ومقدار القربة رطل بغدادى ٠ وتعادل ٤٠,٦٢٥ كجم عند الحنفية ، أما عند الجمهور فهى تعادل ٨,٢٥٠ كجم

القسط : يقدر بنصف صاع ، وأصله من القسط أى النصيب ويعادل عند الحنفية ١,٦٢٥ كجم ، وعند الجمهور يعادل ١,٠٢ كجم ٠

المدى : بالضم ـ وهو مكيال لاهل الشام ومصر وهو غير المد ، وقال الجوهرى : المدى : القفيز الشامى وقيل المدى مكيال لاهل الشام يقال له الجريب ، يسع خمسة وأربعين رطلا ، ومثل المدى مكيال لاهل الشام يسمح خمسة عشر مكوكا ، والمكوك صاع ونصف ، وهذه آراء مختلفة ٠

رأى يقول أنه مثل الجريب ، ورأى يقول أنه = ٤٥ رطلا ورأى أخر يقول أنه = ١٥ مكوكا كل منها صاع ونصف ٠

والتقدير الأخير للمدى هو ٢٢,٥ صاعا ، ويسع ١٢٠ رطلا ويعادل ٤٥,٩ جراما ٠

الموازين :

لما كانت الموازين والمكاييل أساس المعاملات ، وبها اعتبار المبيعات وتقع بهما المعاملة على الوجه الشرعى ، فقد اصطلح أهل كل اقليم على موازين ومكاييل معينة فيما بينهم مثل : القنطار والوقية ، والرطل ، والدينار والدرهم ، والقيراط ، والقطمير ، والنقير ، والفلس والمن ، وغيرهما وفيما يلى تفصيل موجز لهذه الأوزان :

القنطار :

ورد ذكر القنطار فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ٠٠٠" و " القناطير المقنطرة من الذهب والفضة " وقد اختلف الناس فى تحديده ، فقيل مقداره ألف ومائتا أوقية ، أو مائة رطل من ذهب أو فضة ، أو ألف دينار ، أو ثمانون ألف درهم ، وأصح الأقوال من ذلك أن القنطار يقدر بألف ومائتا أوقية ، بما يساوى ٨٤٠٠ دينار ٠

ومقدار القنطار عند الحنفية = ١٤٩,٧٦ كجم ، وعند الجمهور ١٤٢,٨ كجم ٠

الرطل : معيار يوزن به ، وهو مكيال أيضا والمقصود به رطل بغداد أو الرطل العراقى ، ويساوى عند الحنفية ٤٠٦,٢٥ جراما ، وعند الجمهور الرطل يساوى ١٢٨ درهم وأربعة أسباع ، واختلفت الأرطال تبعا لما يوزن بها ، فالرطل الذى يوزن به الفحم والحطب والخشب غير الرطل الذى يوزن به الكافور والرواند والادهان النفيسة والطيب ٠

وكان رطل نصيبين يساوى ٤٢٠ درهما ورطل الرى يساوى ٣٠٠ درهما ، ورطل واسط والبصرة ١٢٨ درهما ، والرطل المكى يساوى ٢٠٠ درهم والرطل البغدادى وكلاهما يساوى ١٣٠ درهما ٠

الأوقية : من أشهر الموازين التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية وقد ورد ذكرها فى الحديث النبوى الشريف ، فعن سلمة بن عبد الرحمن قال : قالت عائشة " رضى الله عنها " : كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت كان صداقة لأزواجه اثنتى عشرة أوقية ونشا ٠ قالت أتدرى ما النش ؟ قلت لا ٠ قالت نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم " رواه مسلم ٠

وحددها ابن المجاور بحوالى ٣/١ ٢١ درهم وبحساب الدرهم ٣,١٢٥ جم يكون وزن الأوقية فى القرن ٦هـ / ١٢ الميلادى بلغ ٦٧,٠٧٨ جم بينما ذكر هنتس أن وزنها فى شبة الجزيرة العربية فى صدر الإسلام كان حوالى درهما أى ١٢٥ جم ٠

النش : هو لغة يطلق على النصف من كل شئ ، وقيل أن وزنه عشرون درهما وهو نصف الأوقية لأنهم يسمون الأربعين درهما أوقية ويسمون العشرين درهما نشا ٠ ويسمون الخمسة نواه ، ومقداره عند الحنفية ٦٢,٤ جراما ، وعند الجمهور ٥٩,٥ جراما ٠

الدينار : هو مثقال من الذهب ، ومقداره ٤,٢٥ جراماويساوى الدينار ٦ دوانق ، فوزن الدانق = ٧٦٨. جرام ٠

الدرهم : اسم لما ضرب من الفضة على شكل مخصوص ، وهو وحدة نقدية من المسكوكات الفضية معلومة الوزن ٠ ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين " ٠

ومقدار الدرهم عند الحنفية ٣,١٢٥ جراما ، وعند الجمهور مقدار (٢,٩٧٥) جراما ٠

الفلس : الفلس فى اللغة : القشرة على ظهر السمكة وفى الاصطلاح الفلس عملة يتعامل بها مضروبة من غير الذهب والفضة ، وتقدر بسدس درهم ٠

القيراط : جزء من أجزاء الدينار ، وهو يساوى ٠,١٧٧١ جراما حيث أنه يساوى ٢٠/١ من الدينار ٠

الحبة : فى اللغة واحدة الحب ، وتجمع أيضا على حباب وحبوب ، وهى الحبوب المختلفة فى كل شئ وحبة القلب سويداؤه ٠

وفى الاصطلاح هى وزن للنوع من الحبوب التى يتركب منها الدرهم والدينار ، وباقى الأوزان ٠

ومقدار الحبة عند الجمهور تساوى واحد من اثنين وسبعين من الدينار ٠

أى ٤,٢٥ ÷ ٧٢ = ٠,٠٥٩ جراما ٠

المن : فى اللغة المن مأخوذ من المنا الذى يوزن به ومقداره رطلان ومقدار المن ٢٦٠ درهما ، أى ٧٧٣,٥ جراما ٠

القطمير : فى اللغة هو القشرة الرقيقة التى على نواة البلح ، كاللفافة لها وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " ، والقطمير فى الاصطلاح يساوى ١٢ ذره أى (٠,٠٠٠٠٠٢٧٦) جراما٠

الفتيل : فى اللغة ما يكون فى شق النواة ، ويضرب مثلا للشئ التافه الحقير وقد ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : " بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا "٠

وذكر فى مواضع أخرى فى سورة النساء آيه ٧٧ ، وسورة الإسراء آيه ٧ ٠ ومقدار الفتيل يساوى ٠,٠٠٠٠٩٩٣٦ جراما ٠

المقاييس :

كانت أهم وحدات قياس الأطوال المستخدم فى الأسواق الإسلامية هى :

الذراع : فى اللغة بسط اليد ومدها وأصلة من الذراع وهو الساعد ، وهو بين طرف المرفق إلى طرف الاصبع الوسطى ، وهو أهم وحدات قياس الأطوال المستعملة فى الأسواق ومقداره ٢٤ إصبعا ويساوى قدما ونصف ، أى أن القدم يساوى ٣٠,٩٠٤ سم ، ويبلغ طول الذراع ٤٦,٣٧٥ سم عند الحنفية ٤٦,٢ سم ٠

ومن الأذرع المعروفة فى الدولة الإسلامية الذراع العمرية ، وهى الذراع التى وضعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان مقدارها بأن الخليفة عمر جمع أطوال الأذرع الموجودة وأوسطها وأحضرها وأخذ الثلث ، وزاد عليها قبضة وابهاما قائما ، وهناك أيضا ما يعرف باسم ذراع العمل ، وضعت زمن الخليفة معاوية ٠

وهناك سبعة أنواع من الأذرع :

أقصرها القاضية ـ ثم اليوسيفية ، ثم السوداء ، ثم الهاشمية الصغرى وهى البلاليه ، ثم الهاشمية الكبرى ، وهى الزيادية ، ثم العمرية ثم الميزانية ٠

وعند الجمهور يسمى أيضا بالذراع المرسلة أو الذراع المأمونى وهناك ذراع يستخدم فى قياس البز والتجارة يعرف بالذراع السوداء ، وأول من وضعها الخليفة هارون الرشيد ، وقدرها بذراع خادم كان على رأسه ٠

الإصبع : لغة يراد بها الجارحة ، ومقدار الإصبع عند الحنفية ٤٢/١ من الذراع ويساوى ٢,٥٧٦ سم ٠

القبضة : مقدارها أربعة أصابع : أى ٢,٥٧٦ × ٤ = ١٠,٣٠٤ سم ٠

الشبر : يقدر الشبر بستة أصابع ، ويساوى ١٥,٤٥٦ سم ٠

الباع : مقدار من اليدين ، وهو طول ذراعى الإنسان وعضدية وصدره وذلك مقدار أربعة أذرع أى ٤٦,٢ × ٤ = ١,٨٤,٢ م ٠

القصبة : فى مصر خلال العهد الإسلامى صارت أراضى مصر تقاس بقصبة خاصة يقال لها القصبة الحاكمية ، وطولها ثمانية أذرع بذراع اليد ، أى ٤٦,٢ × ٨ = ٣٠٦٩٦ متر تقريبا ٠

وكانت تقاس وتمسح بها الأراضى الزراعية فى مصر وسميت بذلك نسبة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، حيث اتخذت وحدة قياس فى عهده وكانت عبارة عن عود من الغاب (البوص طوله ٣٨٥ سم) ٠

ومن الأنواع الأخرى القصبة السندفاوية ، وهى نسبة إلى مدينة سندفا قرب المحلة الكبرى بمصر وهى أطول من القصبة الحاكمية قليلا ٠

الميل : يطلق فى اللغة على عدة معان ، فمنها الميل الذى يكتحل به ، ومنها القطعة من الأرض بين الجبلين ، ومنها الميل أى مد البصر ٠ ومقدار الميل هو أربعة آلاف ذراع بالمراسلة أى ٤٠٠٠ × ٤٦,٢ = ١٨٤٨ متر ٠

الفرسخ : كل شئ دائم كثير لا ينقطع ، وفراسخ الليل والنهار ساعاتها كأوقاتها ، والفرسخ : المسافة المعلومة من الأرض وهو فارسى معرب ومقدار الفرسخ ثلاثة أميال أى أنه يساوى ١٨٤٨ × ٣ = ٥٥٤٤م ٠

البريد : كلمة فارسية يراد بها فى الأصل البغل وأصلها بريده دم أى محذوف الذنب الأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كعلامة لها ، فعربت ثم سمى الرسول الذى يركبه بريدى ، والمسافة بين السكتين بريدا ٠

ومقدار البريد العربى أربعة فراسخ أى أن طوله ٥٥٤٤ × ٤ = ٢٢,١٧٦م ٠

المرحلة : هى المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة ، والجمع مراحل وتساوى المرحلة ٢٤ ميلا أى ١٨٤٨ × ٢٤ = ٤٤,٣٥٢ ك ٠

٠

الفصل الرابع

النظم الحربية

نبدأ الحديث عن النظم الحربية بتعريف ما هية الحرب ، وموقف الإسلام منها " فالحرب رحى ثقالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، ثقافها الأناة ، وذمارها الحذر"(١) ، وهي شيء طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية وسببها في الأكثر أما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده"(٢).

والحرب في الإسلام حرب دفاعية ، وقد وردت كلمة الحرب في القرآن الكريم بمعنى القتال في قوله تعالى ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾(٣) ، وفي قوله﴿**فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾(٤).

والحرب والجهاد يدوران حول معنى واحد هو قتال العدو ، وقد بين القرآن الكريم كما سنرى في مواضع كثيرة منه السبب الذي من أجله شرع القتال ، وأذن للمؤمنين في الحرب ، والجهاد وأرجعه إلى أمرين :

الأول : الدفاع عن النفس عند التعدي.

الثاني : الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من أمن أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه ، أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته(٥).

والجهاد في اللغة من الجهد ،وهو المشقة ، وجهد دابته وأجهدها - إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجهد الرجل في شيئ أي جد فيه وبالغ ، وجهد الجل على ما لم يسم فاعله فهو مجهود من المشقة ، وجاهد في سبيل الله مجاهدة وجهادا ، والاجتهاد بذل الوسع والمجهود(٦).

وأما في الاصطلاح فإن الجهاد هو قتال العدو من الكفار والمشركين ومحاربته بشتى الوسائل الممكنة والمشروعة لنصرة الإسلام(٧)

استفاد العربي من بيئته صفات الشجاعة الفردية وقوة الحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظمأ وشدة الحر والبرد ، وكان قتال العرب فى حروبهم وغزواتهم فى العصور القديمة أدنى إلى البساطة ، فيبدءون المعركة عادة بالمبارزة الفردية وتكون بين بطلين من أبطال القبيلتين ثم يكون الالتحام فيكرون على العدو وهذا هو الأسلوب المعروف بالكر والفر(٨) .

على أن هذا الأسلوب تغير إذ فرض الإسلام الجهاد(٩) على المؤمنين دفاعا عن الدين والنفس والوطن والمال ففى الفترة المكية لم يقم المسلمون بعمل عسكرى ضد من خالفهم من قريش أو غيرهم حيث أمر الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة والأعراض عن المشركين في قوله تعالى﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ**

عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[10]، فضلا عن إنشاء تنظيم عسكرى فيها وخلت حياة المسلمين فى هذه الفترة من جميع مظاهر العنف المادى ثم أمر بالمجادلة بالتي هي أحسن في قوله تعالى﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[11]حتى هاجروا إلى المدينة .

وفى بيعة العقبة الثانية ، تناولت الاتفاقية مسألة حماية الرسولﷺ ومنعه من الأعداء ، وذكرت الاتفاقية أن نقباء أهل المدينة بذلوا للرسولﷺ ما أراد من الحماية والمنعة ، وبايعوه على حرب الأحمر والأسود[12] وفى هذه الظروف نزلت آيه الإذن بالقتال وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾[13]فقد أبيح القتال في الإسلام لسبب ذكرته الآية وهو وقوع الظلم على المؤمنين ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ...**﴾[14] ، وفي هذه الآية توجيه للمسلمين بالا يقاتلوا إلا من قاتلهم ولا يعتدوا إلا من أعتدى عليهم، وذلك لأن الإسلام هو دين السلام ، وأنما شرع القتال للدفاع عن النفس ، وحماية الدعوة ، وهذه المشروعية لا تتم إلا بوجود ما يدفع إليها ، إذ الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم ، أما الحرب فهي استثناء من الأصل ويكون ذلك عندما تتوافر مبرراته.

وعندما هاجر الرسولﷺ إلى المدينة ووضع الصحيفة التى نظمت مجتمع المدينة من مهاجرين وأنصار ويهود - وجعل على هذا المجتمع الدفاع عن المدينة ، ومنذ غزوة بدر صار الجهاد دفاعا وهجوما مشتركا بين جميع المسلمين مهاجرين وأنصار[15] ، ثم صار فرضا مكتوبا عليهم وعلى المسلمين من بعدهم ، وفى السنة الثانية من الهجرة فرض الله القتال وأوجبه وذلك فى قوله تعالى﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾[16]، وهو فرض كفاية لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً**﴾[17] .

وحكمة الجهاد أن يعبد الله وحده مع ما يتبع ذلك من دفع العدوان والشر وحفظ الأنفس والأموال ورعاية الحق وصيانة العدل ونعيم الخير ونشر الفضيلة ، قال تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه**﴾[18]. وفرض الجهاد أيضا وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ**﴾[19] ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم ، قال تعالى : ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾[20]ثم أمروا بالقتال مطلقا وذلك فى قوله تعالى : ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[21] ، وقوله تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[22]وهذا الجهاد لم ينبثق عن مؤسسة عسكرية ، ولم يؤد الحال إلى ظهور مؤسسة الجيش[23]بمفهوم الجيش النظامى وما يتطلبه من رواتب وملابس ومأكل ووسائل نقل وأسلحة وغيرها ، وظل الجيش فى عهد الرسولﷺ من جميع المسلمين، وكانوا إذا استنفروا نفروا ، وإذا وضعت الحرب أوزارها رجعوا إلى مألوف حياتهم .

وكان كل مقاتل يجهز نفسه بأسلحته ودابته إ فإن لم يتح له ذلك استطاع أن يحصل على الدابة من مخازن الصدقة[٢٤].

ولما بدأت التوسعات خلال عصر الراشدين احتاجت الدولة إلى جيش كبير دائم يكون على استعداد أيام الحرب والسلم على السواء ، ففى عهد عمر بن الخطاب ﷺ كثرت الأموال ، فقام بتأسيس ديوان الجند وذلك سنة ١٥هـ/٦٣٦م[٢٥] وجعل للجند رواتب مخصصة واعاشة مفروضة لأولادهم ، وحظر عليهم مزاولة الأعمال الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت صار الجيش مؤسسة ذات كيان مستقل تعتمد فى تمويلها على الدولة[٢٦] .

وقد اهتم الرسولﷺ والخلفاء الراشدين من بعده بالتربية البدنية فقد أمر الله بأن يكونوا على أهبة الاستعداد من الناحية المادية والمعنوية ، وأن يكونوا مزودين بالعتاد ، وأن يحوزوا كل أسباب القوة التي ترهب عدوهم ، يقول تعالى﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾[٢٧] ويقول الرسولﷺ "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" ويقول أيضا "إن لبدنك عليك حقا" فالجيش الهزيل الضعيف لا مكان له بين الجيوش فالدعوة والجيش المسلم يحتاج إلى رجال أشداء أقوياء إذا ضربوا أوجعوا وإذا سابقوا سبقوا وإذا قاتلوا انتصروا ، ولن يكون ذلك إلا بتعليم أطفال المسلمين الرياضة والألعاب التى تقوى أجسامهم وتقيهم من الأمراض وتعينهم على تحمل أعباء القتال ، ولنا فى رسول الله ﷺ القدوة الحسنة فها هو يصرع - ركانة - ثلاث مرات متتاليات وركانة كان أقوى رجل فى شبة الجزيرة لا يغلبه شجاع ولا يصرعه جبار ، وكان الصحابة من أشد الرجال وأعظمهم قوة ، فكان الخليفة عمرﷺ يحب ركوب الخيل ويستطيع أن يقفز على الحصان دون أن يمسك بشئ ، وكان على بن أبى طالب ﷺ يسابق فلا يسبق ، وكان طلحة والزبير من أشد المصارعين فى المسلمين، وهكذا كان الاهتمام بإعداد الجيش وتدريبه[٢٨] .

وكان الخليفة بحكم ولايته العامة قائدا للجيش ، ولكن الخلفاء لم يكونوا يقومون بهذه المهمة إلا نادرا ، وكانوا يقيمون ويبعثون الجيوش ويولون عليها الأمراء ويمدونهم بالعساكر ، فيذكر أن أبا بكرﷺ خرج بالمسلمين إلى حرب القبائل في ذي القصة فاجتمع عليه المسلمون ، وقالوا له نناشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فأنك أن أصبت لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فأبعث رجلا ، فإن أصيب أمرت آخر ، فقال : لا والله لا أفعل ولا أواسيكم بنفسي"[٢٩].

وفي حروب العراق وفي ظروف حرب القادسية نادى الخليفة عمرﷺ "الصلاة جامعة" وأخبر الناس بالخبر فقال العامة : سر وسربنا معك ، ثم بعث عمرﷺ إلى أهل الرأي وإلى أصحاب الرسول ﷺ وأعلام العرب فقال : أحضروني الرأي فأني سائر فاجتمعوا وأجمع معظمهم على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم ويرميهم بالجنود ، وفي ذلك ما يغيظ العدو ، وقال عبد الرحمن بن عوف "

بأبي وأمي أجعل جعزها بي وأقم ، وابعث جندا فقد رأيت فضاء الله لك في جنودك قبل وبعد،فأنه أن يهزم جيشك ليس كهزيمتك ، وأنك أن تقتل أو تهزم في أنف الأمر خشيت إلا يكبر المسلمون وإلا يشهدوا "ان لا أله إلا الله"[٣٠] ، وعلى ذلك كان خروجهم على رأس الجيوش قليلا ولا يحدث إلا لأمر عظيم ، فقد قاد على بن أبى طالب ﷺ الجيش بنفسه فى حروب الجمل وصفين[٣١]وقاد عبد الملك الجيش في حربه مع مصعب بن الزبير ، وقاد مروان بن محمد الجيش في حروبه مع الخوارج والعباسيين ، وقاد الرشيد الجيش لحرب رافع بن الليث ، وكذلك الخليفة المعتصم قاد الجيش لحرب الروم[٣٢].

وفى الولايات كانت قيادة الجيش تعود إلى الولاة أو من كانوا ينيبونهم عنهم ولم تكن على أية حال أخبار الجيوش تغيب عن الخليفة وكانت أخبارها توافية باستمرار منذ أن تخرج إلى ساحة القتال وحتى تعود إلى قواعدها[٣٣] .

وخلال العصر الأموي تطور تطورا كبيرا ، حيث أدخل نظام التجنيد الإجبارى فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت الدولة الأموية دولة حرب زادت الحروب والفتوحات خلال عصرها ، وقد تأثر الأمويون بالنظام البيزنطى العسكرى القائم على تقسيم بلاد الشام إلى عده أجناد وكان على العرب أصحاب الأراضى تزويد الدولة بعدد من الجند دونت أسماؤهم فى ديوان الجند وصرفت لهم رواتب معينة علاوة على حصتهم من الغنائم واعتمد الأمويون على القبائل العربية فى بلاد الشام فى تكوين جيشهم[٣٤] ،ولما انطلقت حركة الفتوحات الإسلامية خارج الجزيرة العربية وصارت بعض العناصر المختلفة من أهل البلاد المفتوحة تشارك فى الجيش ، حيث شمل عناصر عديدة مثل الفرس والزط - من السند - والبخارية والأتراك والبربر وغيرهم

ومنذ العصر العباسى أخذت أعداد هذه العناصر تزداد كثافة لأسباب تتصل بمهد الدعوة العباسية وظروف قيام دولتهم ، فقد كثرت العناصر الخرسانية فى الجيش فى بداية قيام الدولة ، وزاد عدد الأتراك ، فى عهد المعتصم ثم ظهر عنصر المغاربة ، والفراعنة[٣٦] ، ولما ظهرت الإمارات المستقلة بدأ حكامها فى تكوين جيوش خاصة بهم من أجناس مختلفة[٣٧] .

أما عن أعداد الجيش الإسلامى ، فقد بدأت متواضعة لا تتجاوز المئات فى بداية قيام الدولة الإسلامية ، ففي غزوة بدر كان عدد الجيش الإسلامي مع الرسول ﷺ قد بلغ (٣١٤رجلا) - (٨٣) من المهاجرين – (٦١) من الأوس - (١٧٠) من الخزرج ، وكان عدد المسلمين في غزوة أحد ألف رجل ، وفي غزوة الخندق ذكر أن عدد جيش المسلمين بلغ ثلاثة آلاف رجل[٣٨] ، وفي غزوة مؤنة كان عدد الجيش الإسلامي مكونا من ثلاثة آلاف مقاتل[٣٩] ،ثم صارت تكبر وتزداد بازدياد الداخلين فى الإسلام ، فبلغ العدد فى غزوة حنين عام ٨هـ أثنى عشر ألفا[٤٠]، وفى معركة اليرموك بلغ العدد ستة وأربعين ألفا وغزا يزيد بن المهلب بن أبى صفرة جرجان وطبرستان سنة ٩٨هـ / ٧١٦م فى مائة ألف مقاتل من أهل الكوفة والبصرة

وأهل خرسان والرى سوى الموالى والمماليك والمتطوعة[٤١] ، وسار هارون الرشيد سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م فى خلافة أبيه المهدى فى الصائفة إلى بلاد الروم فى ٩٥,٧٩٣، خمسة وتسعين ألف وسبعمائة وثلاث وتسعين رجلا[٤٢] وهذه أمثلة لا تحصى عدد الجيش الإسلامى بأكمله إنما تدل على ازدياد عدد الجيش ، حيث كان الجيش موزعا بين الشام ومصر وأفريقية والأندلس والعراق وخرسان والثغور الإسلامية ، فعلى سبيل المثال كان ديوان الجند فى مصر خلال عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفا[٤٣] ، وكان عدد المرابطين المقاتلين من أهل البصرة بخرسان فى عهد بنى أمية أربعة وخمسين ألفا[٤٤] وعندما التقى مروان بن محمد بجيوش العباسيين سنة ١٣٢هـ كانت عساكره تبلغ من العدد مائة وعشرون ألفا[٤٥] ، وكان الجيش خلال العصر العباسى يبلغ مئات الألوف من الجند ، فكان جيش العراق وحده يبلغ ٥٢ ألفا[٤٦].

تمويل الجيش :

ذكرنا أن الجيش زمن الرسولﷺ كان يعتمد فى تمويله على الاكتفاء الذاتى حيث كان كل مقاتل يجهز نفسه بأسلحته ودابته ، فإن لم يتح له ذلك استطاع أن يحصل على دابة من بيت الصدقات[٤٧] ، وكان الأفراد يتدبرون المال مما كان بين أيديهم من زراعة أو تجارة أو إبل أو ماشية ، أو ما تقدمه الدولة من سلاح وخيل تشتريها من حظها من خمس الغنائم ، وما تأخذه من أهل الذمة ـ الجزية ـ وما كان يصرف من أموال الزكاة فى هذا السبيل[٤٨]، وبعد تأسيس ديوان الجند صار الجند يصرفون جزءا من رواتبهم فى تجهيز أنفسهم وإعداد ما يلزمهم فى السفر والقتال ، وورد على سبيل المثال أن كثير بن شهاب الحارثى الذى عينه والى الكوفه المغيره بن شعبه الثقفى على الرى ودستبى وقزوين فى خلافة عمر بن الخطابرضي الله عنه كان إذا غزى أخذ كل امرئ ممن معه بترس ودرع وبيضة ومسبلة وخمس أبر وخيوط كتان وبمخصف ومقراض ومخلاة[٤٩] ، وكان الرجل يحتاج مثلما حدث فى غزوة تبوك إلى بعيرين ، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده[٥٠] ، وعندما صارت خطوط القتال إلى ما وراء النهر فى المناطق الجبلية الوعرة صار الجند يستخدمون إضافة إلى الإبل والبغال فى حمل امتعتهم وموادهم[٥١].

وإلى جانب تجهيز الجند أنفسهم كانت مساهمة الدولة فى الانفاق وإعداد القوة كبيرة ، فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يحمل فى كل عام على أربعين ألفا من الظهر ، وأنه جعل ثلاثين ألف بعير وثلاثمائة فرس ووسم فى أفخاذهن حبيس فى سبيل الله[٥٢]، وبلغ مقدار ما أنفق الحجاج على الجيش الذى سيره بقيادة ابن الأشعث إلى سجستان ألفى ألف سوى أعطيات الجند حتى دعى بجيش الطواويس[٥٣] ، وبلغت نفقات الجيش الذى قاده هارون الرشيد فى عهد أبيه المهدى لغزوا الروم ١٩٤,٤٥٠ دينار ومن الورق واحد وعشرين ألف ألف وأربعمائة وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم[٥٤].

تشكيلات الجيش :

كان الجيش أول الأمر قد اتبع نظام الصف فى القتال ، وجاء فى القرآن الكريم ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[٥٥] ثم اقتضت الضرورة إلى تقسيم الجيش إلى نظام التبعية الذى يقوم على أساس تقسيمه إلى مقدمة وقلب وميمنه وميسره وساقه أى مؤخرة[٥٦] ، وهذا النظام يقوم على تقسيم الجند إلى مجموعات فى عشرات ومئات وألوف مربعات أو مثلثات أو أهله ، وأطلق على القائد الذى يقود عشرة جنود لقب عريف والذى يقود مائة لقب نقيب والذى يقود ألف لقب قائد ، أما لقب أمير فأطلق على القائد العام للجيش[٥٧] .

وقيل أن مروان بن محمد الذى كان قائدا عسكريا للجيوش الإسلامية فى جبهة أرمينيه وأذربيجان قبل أن يكون خليفة هو الذى اتبع نظام التبعية وأبطل نظام الصف[٥٨] ، وإلى جانب هذه الأنظمة التى كان يتبعها الجيش فى القتال ، كان الجيش يتكون من وحدات ، كانت تتمايز عن بعضها بالرايات وكان لكل منها قائد وتتسمى بأسماء تدل على فعالها وصبرها فى القتال مثل كتيبة الأهوال ، وكتيبة الخرساء[٥٩] وكانت تتمايز أحيانا بالأسلحة ويذكر أن خالد بن الوليد قسم الجيش فى اليرموك إلى كراديس وجعل على كل كردوس رأسا وزعها ما بين الميسرة والميمنة والقلب[٦٠] .

وبجانب المقاتلين من الفرسان والرجاله وجدت طوائف كثيرة تقوم بخدمة الجيش وتسهيل مهمته مثل النفاطين وضاربى المنجانيق ، والعيون وهم الطلائع الذين يرصدون تحركات العدو كما نجد القضاة والأطباء والمؤذنين والقراء والنجارين والحاملين مع الجيش[٦١] .

هذا وكان الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده يتعهدون القواد والجند بالنصيحة التي تفيدهم في حسن أدائهم لواجبهم الأول باعتبارهم دعاة الإسلام وفي حسن تسيرهم للجنود والظفر على العدو ، فيقول الله تعالى﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾[٦٢] ، وقوله تعالى ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[٦٣]

ومن وصايا الرسول ﷺ إذا بعث سرية :" اغزوا باسم الله في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا"[٦٤] كما نهى ﷺ عن الغدر بقوله " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة "[٦٥] ، ونهى الرسول ﷺ عن الغلول ، وعن النهبة ، وعن قتل النساء والولدان ، ونهى عن التعذيب بالنار إلا الله[٦٦].

كما أوصى أبو بكر رضي الله عنه أسامة بن زيد قائد أول جيش غزا بعد وفاة الرسول ﷺ بقوله " أيها الناس أوصيكم بعشر فاحفظوا عني : لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعفروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ،ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له[٦٧].

ومن وصايا عمر بن الخطاب ﷺ لسعد بن أبي وقاص كبير قواد الجبهة الشرقية في زمانه "....وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تحشمهم مسيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فأنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الأنفس والكراع - الخيل - وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرءمون - يصلحون- أسلحتهم وأقبعتهم ونخ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ولا يرزأ أحد في أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة أبتليتم بالوفاء بها كما أبتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خبرا ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم..ثم أذك أحراسك على عسكرك وتيقظ من البيان جهدك.."[٦٨]

أسلحة الجيش :

كان العرب فى الجاهلية يعيشون فى حرب مستمرة بسبب فقدان سلطة مركزية عليا ، وقد أدى هذا إلى تدربهم على القتال وإلى اهتمامهم الكبير بالأسلحة التى صنعوها أو عملوا على توفيرها بشرائها من البلدان المجاورة لهم فاقتنوا السيوف والدروع والرماح للفرسان ، والدروع والحراب والقوس والسهام والسيوف للرجالة ، كما استخدموا الطبرزينات وهى آله تشبه الفأس - والتروس والخوذ والضبور[٦٩] والدبابات والمنجنيقات ، واستخدموا أيضا النفط أو النار الإغريقية[٧٠].

وكانت السيوف أبرز أسلحة العرب والمسلمين ، ومن أحبها إلى نفوسهم ، ومن ثم كثرت أسماؤها فى لغتهم وأشعارهم ومنها الأبيض والمهند والمشرفى ، والبصرية والسيرجى ، والمهند هو السيف المصنوع فى الهند ، والمشرفى نسبة إلى مشارف الشام أما السيرجى فهو نسبة إلى سريج وهو رجل من بنى أسد كان حدادا اشتهر بصناعة السيوف[٧١] ، وقد أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف سيفا قلعيا - نسبة إلى القلع مكان البادية قرب حلوان تصنع فيه السيوف - وسيفا يدعى بتار - وسيفا يدعى الحتف ، كان عنده بعد ذلك المخدوم ورسوب أصابها من الفلس ، وله سيفان آخران أحدهما يدعى القضيب والآخر يدعى ذو الفقار فنمه يوم بدر وكان لمنبة بن الحجاج[٧٢] ، أما الرماح فقد اشتهرت عندهم ومنها الردينية - نسبة إلى إمرأة تدعى ردينة اشتهرت فى الجاهلية بسقيف الرماح ، والسهرية والخطية التى كانت تستورد من الهند وتباع فى مدينة الخط فى البحرين[٧٣] ، والرمح عبارة عن قضيب من الخشب ركب فيها سنان الحديد ولها أسماء أخرى مثل صعدة المستوى ، والعنزة وذلك إذا كان أقصر من العصا وأطول من الرمح ، ومنها أيضا النيزك والمطرد ، وأجود الرماح الصلب المستقيم الذى لا يثنى ، والرمح من الأسلحة التى يستخدمها الفرسان والمشاة[٧٤].

ومن أسلحة المسلمين القسى ، ومن أجود أنواعها القسى العصفورية ، والقسى الماسخية وكانت الأقواس تصنع من أخشاب الأشجار ، وتستخدم السهام والنبال والنشاب للرمى بها ، وقد غنم النبى ﷺ

من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أرماح وثلاث قسى ، قوس الروحاء وقوس شوحط وتدعى البيضاء وقوس صفراء تدعى الصفراء[٧٥] .

وعرف المسلمون الدروع واستخدموها ، والدرع هو القميص الذى يلبسه المحارب ، ويصنع من الحديد أو الزرد ، والدروع نوعان الأول يصنع من صفائح الحديد والآخر يصنع من حلق متضافر يصمد أمام طعنات السيوف وضربات السهام ويحمى المقاتل ، واشتهر اليهود فى المدينة بصناعة الأسلحة ومنها الدروع وكانوا يبيعونها للقبائل العربية المختلفة فى شبة الجزيرة العربية ، وقد أصاب الرسول ﷺ من دروعهم اثنتين واحدة يقال لها السعدية ، ودرع يقال لها فضة ، كما كانت له درع ثالثة يقال لها ذات الفضول[٧٦] .

وكان الضبور من الأسلحة التي أستخدمها المسلمون حيث يتقي بها المحاربون النبال الموجهة إليهم من أعلى وهي كالدبابة ، تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيه .

أما الخنادق فكانت ضمن الأسلحة التي أقتبسها المسلمون من الفرس ، حيث كانوا ينشئونها حول المدن والمعسكرات ، وأول خندق حفره المسلمون هو الذي حفره الرسول ﷺ والمسلمون حول المدينة المنورة بمشورة سلمان الفارسي في غزوة الخندق سنة ٥هـ/٦٢٦م[٧٧].

واستخدم المسلمون الخوذة البيضة وهى تصنع من الحديد وتلبس على الرأس حماية لها من ضربات السيوف ، والمغفرة هو من الزرد ويلبس تحت القلنسوة ، ومنها ما كان يغطى الصدر وهى الجواشن[٧٨] .

وقد اهتم المسلمون بوقاية خيولهم أثناء الحروب فألبسوها دروع تسمى تجافيف ، تغطى أجسامها وتصد عنها إصابات الأعداء[٧٩] .

واستخدم المسلمون النفط منذ زمن مبكر فى حروبهم ، وهو الذى استعمله الروم قبلهم ، وكانت فرقة النفاطين من الفرق الأساسية فى إرباك صفوف العدو ، وإحراق سفنه وقلاعه ، ويتكون النفط من تركيب كيماوى أساسه البترول[٨٠] ، وينسب اختراعه إلى يونانى اسمه كالينيكوس Kallinikos[٨١] ، ونقله عنهم المسلمون ، وبرعوا فى استعماله إذ يوجد النفط فى أنحاء بلادهم ، فعرفوا منه الأسود الذى يوجد على ساحل البحر الأحمر . ويسيل من أعالى جبل ، ويجمع فى خزائن[٨٢] وأبيض أو الطيا ، ويوجد فى العراق ، كما وجدت منابعة بجوار بحر قزوين[٨٣] وكان النفاطون يلقونه على العدو فى قارورات النفط أو قوارير (قدور النفط) ، أو بالنشاب أو من فوق ظهور الخيل[٨٤] .

وكانت آلات الحصار هى المنجنيقات والعربات والدبابات واستخدمها فى حصار المدنونقب الأسوار وهدم الحصون ، وان بدت هذه الآلات بدائية إلا أنها أثبتت فاعلية فى الحصار والمعارك التى خاضها المسلمون الأوائل[٨٥] ، فقد استخدمها الرسول ﷺ عندما سار إلى الطائف لمطاردة فلول ثقيف واعتصمت منه بالحصون، ورمت المسلمين بالنبل ، ونصب الرسول ﷺ المنجنيق ورماهم به ، فكان ﷺ

أول من رمى بالمنجنيق فى الإسلام ، كما استعان على حربهم بالدبابات ، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ، ويزحفون بها إلى جدار الحصن لينقبوه[٨٦] .

المعسكرات والثغور:

عرف المسلمون كيف يحتفظون بالفتوح التي تمت لهم على الرغم من قلة عددهم وكثرة أعدائهم المحيطين بهم ، فقام الخليفة عمر رضي الله عنه بإقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لإراحة الجنود في الطريق بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ومن هذه المعسكرات معسكر البصرة والكوفة في العراق ، وحمص ودمشق في الشام ، والفسطاط والإسكندرية في مصر ، وبرقة وطرابلس والقيروان في الشمال الأفريقي .

وعني المسلمون بتحصين أطراف فتوحهم مما يلي أرض العدو من أطراف الصين إلى ساحل المحيط الأطلسي، فأقاموا الحصون والقلاع عند كل مكان يخشى أن ينفذ منه العدو ، وسمو هذه الثغور وشحنوها بالرجال والعتاد ووسعوا على أهلها الأرزاق حتى يتفرغوا لحراسة حدود الدولة[٨٧].

صناعة الأسلحة :

استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الوسيط فقد استخدموا السيوف والرماح والنشاب - أى السهام ذات النصول المثلثة - كما استخدموا أقواس الرحل ، وأقواس اللولب التى تشد بواسطة لولب وأقواس الركاب التى تشد من ركاب الخيل .

كذلك استخدموا ما يسمى باللتوت وهى أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة ، والدبابيس وهى تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة والطبر أو الطبرزين وهى الفأس .

والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه وهى مغطاه بجلد اللمط وهو حيوان يعيش فى الصحراء كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات الحديدية لحماية الرأس ، كما لبسوا الجوشن لحماية صدورهم أو الدروع المسبلة ذات المغاحر الملتحمة التى تغطى جميع أجزاء الجسم .

كذلك استخدم المسلمون أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات المدمرة للحصون والدبابات والكباش لنقب الحوائط والأسوار .

كل هذه الأسلحة صنعها المسلمون فى بلادهم الممتدة شرقا وغربا معتمدين فى ذلك على ما لديهم من مواد خام وأيد صناعية ماهرة .

فخام الحديد كان منتشرا فى فرغانة وكابل وكرمان وأذربيجان وأرمينيه ، ولبنان والشام ، وصقلية ، والمغرب والأندلس ، إلى جانب الحديد المستورد من الهند وسيلان وروسيا وبيزنطة ، وعلى أساس هذه الخامات الحديدية قامت صناعة الأسلحة التى اشتهر باسم مكان صناعها فى العالم الإسلامى[٨٨].

ومن السيوف : السيوف الفارسية ، السيوف الشامية كالمشرفية ، والدمشقية ، والسيوف الحنفية التى كانت تصنع فى الحجر عاصمة بنى حنيفة فى اليمامة .

وإلى جانب هذه الأسلحة التقليدية ، توصل المسلمون إلى اختراع أسلحة متطورة أمثال لذلك أنهم صنعوا قدورا خزفية فى حجم الرمانة محشوة بالجير الحى والنشاد والبول ، وأطلقوا عليها اسم القدور الكفيات لأنها تلقى على العدو باليد أو بالكف مثل القنابل اليدوية ، فإذا صطدمت بجسم العدو العدو المدرع بالحديد انكسرت وخرجت رائحتها فى أنفه وسببت له اختناقا[٨٩] .

الجاسوسية :

كان النبى ﷺ يهتم بمعرفة أخبار عدوه ، واستطلاع أحواله فكان يزكى العيون ليأتوه بخبره ، ويعلموه بأمره ، ومن ذلك أنه أرسل عبد الله بن جحش فى اثنى عشر مهاجر إلى " نخلة " بين مكة والطائف ليترصد بها قريشا ، ويعلم من أخبارهم ، كما أرسل قبل بدر رجلان يستقيان ويتنسطان الأخبار وهما بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء ، حيث ذهبا إلى قريب من الماء وأخذا شنا لهما يستقيان فيه ، وبعض كفار قريش على الماء ، فسمع الرجلان حوارا حادا بين جاريتين تستقيان الماء ، قالت الأولى لصاحبتها ، وكانت تداينها بدين ، إنما يأتى العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ورد رجال من قريش أرادوا تهدئة الموقف بينهما وقالوا نعم مؤكدين بذلك صحة ما قالت الجاريتان ، وسمع عيون الرسول ﷺ هذه الأخبار ، وعادا مسرعين إليه يخبراه بنبأ العير القادمة من الشام[٩٠] . وفى أحد بعث أنسا ومؤنسا ابنى فضاله يلتمسان خبر قريش ، فأخبراه بما علما ، وهكذا كان الرسول ﷺ يهتم بأخبار عدوه ليأخذ حذره ، وليعد للأمر عدته[٩١] .

وسار الخلفاء من بعد الرسول ﷺ على نهجه فى هذا المضمار ، فنرى الخليفة عمر رضي الله عنه ، يقول فى وصايته لسعد بن أبى وقاص : فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم .

وفى عصر العباسيين عنوا بها وأحكموا أمرها ، حتى أنهم كانوا يستخدمون لذلك الرجال والنساء الذين كانوا يذهبون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى زى التجار ، أو الأطباء أو غيرهما ، ويتنسطون الأخبار ثم يعودون بها إلى الدولة لتحتاط للأمر ، ولن تكن الجاسوسية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت تنافس الدولة الإسلامية[٩٢] .

الأسلحة الوقائية :

استعمل النبى ﷺ الحسك [٩٣] ليمنع العدو من الدنو من جنده ، كما تستعمل الجيوش الآن الأسلاك الشائكة ، وكان المسلمون يستعملون الخوذة والبيضة لوقاية الجذع والأطراف[٩٤] .

وجه المسلمون عنايتهم نحو استغلال آبار النفط التى فى بلادهم والتى كانت تكثر فى إيران والعراق وصقلية أو فى طبرستان ، وفى سرقوسة .

ويصف ابن الشباط النوسى (ق ٧هـ) طريقة استخراج زيت النفط من الآبار ، وكيف أن الرجل الذى ينزل فى البئر كان عليه أن يغطى رأسه ويسد مسام أنفه وإلا هلك لساعته .

وفى أواخر ق ٧هـ / ١٣م توصل المسلمون فى المغرب والأندلس إلى اكتشاف خاصية أخرى للنفط كمادة هادمة متفجرة إذ اختلطت بملح البارود أو النشادر ، وحصى الحديد فى درجة حرارة عالية ، وهذا الاكتشاف أدى إلى ظهور المدافع والأسلحة النارية .

وقد استخدم هذا السلاح سلطان المغرب يعقوب المرينى أثناء هجومه على مدينة سجلماسة سنة ٦٧٢هـ وأيضا استخدم سلطان غرناطة اسماعيل بن الأحمر فى حصار مدينة أشكر جنوب الأندلس سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م .

برع الجيش العربى الإسلامى فى كل فنون الحرب والمعرفة فى العصور الوسطى فكانوا فى حالة الدفاع يحفرون الخنادق ثم عمدوا إلى إنشاء القلاع والحصون ، واستخدموا الكمائن والخدع الحربية ، ولجأوا إلى عرقلة العدو بإحراق الأرض أو استخدام الثعالب والكلاب وذلك بأن يعلقوا النار فى أذنابها ثم يطلقوها لتعدو فى معسكرات العدو[٩٥] .

تميز الجندى العربى المسلم بالخفة وسرعة الحركة والصبر على الجوع والعطش والتعب ، وكان الانضباط عاليا بين صفوف الجند فقد شدد القواد على الجنود بالعقاب فى حالة العبث بالنظام أو الذين يتعرضون للسكان المدنيين ، وقد اتبع العرب المسلمون الرأفة مع الأسرى ومعاملتهم معاملة كريمة ، وسلكوا مسلكا إنسانيا مع الأعداء فكان لا يجوز قتل الشيوخ والرهبان والنساء والأطفال فى الحروب والسلم ، واتبعوا أيضا أسلوب تبادل أسرى الحرب ، وأسلوب الفداء بالمال[٩٦] .

الأسطول :

لم يكن عرب الحجاز أول الأمر – لبداوتهم – مهرة فى ركوب البحر ، وثقافته وممارسة أحواله[٩٧] ، وأول من ركبه منهم للفتح العلاء بن الحضرمى والى البحرين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، وذلك عندما خرج لغزو بلاد فارس سنة ١٧هـ / ٦٣٨م بغير اذن عمر ﷺ[٩٨] .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ لا يرى فى هذه المرحلة المبكرة أن المسلمين مهرة فى ثقافة البحر وركوبه ، ولا يستطيعون بخبرتهم البحرية أن يجاروا البيزنطيين الذين كانوا تمرسوا فى شئون البحر ومرنوا على ركوبه ، واحكموا ثقافته[٩٩] .

وقد روي أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ نهى عن ركوب البحر ونهى قواده على القتال فيه ، ولما أشار عليه معاوية بن أبي سفيان ببناء الأسطول فأبى ، ولما ألح عليه سأل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ واليه على مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر ، فوصفه له ، فبين ما فيه من مخاطر قائلا : " يا أمير المؤمنين أني قد رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وأن ثار أزاغ القول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، أن مال غرق ، وأن نجا

برق " ، فلما قرأ عمر ﷺ كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية " والذي بعث محمد بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا"[١٠٠]

وكان فى الامتداد البرى للجوانب الأخرى من الشام ما يغنى عن ركوب البحر لأغراض الجهاد ونشر الإسلام ، وقد استعاض عمر بن الخطاب ﷺ عن ركوب البحر باتخاذ نظام المرابطة على السواحل كسياسة بحرية دفاعية[١٠١] هذا بجانب المناظر والمسالح على طول الساحل وشحنها بالمقاتلة واتخاذ المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من السواحل[١٠٢] .

ولما استخلف عثمان بن عفان ﷺ تابع سياسة عمر بن الخطاب ﷺ البحرية وأرسل إلى الولاة يأمرهم بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، وقد نجحت هذه السياسة الدفاعية فى صد الاعتداءات البيزنطة البحرية التى تعرضت لها سواحل الشام ومصر سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م[١٠٣] .

ثم عزم الخليفة عثمان ﷺ على ركوب البحر ، فأذن لمعاوية والي الشام سنة ٢٧هـ / ٦٤٧م بغزو قبرص عن طريق البحر ، واشترط عليه اتخاذ الحيطة والحذر وقال له: " لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه، ففعل "[١٠٤] .

ولما استقر الأمر للمسلمين وشمخ سلطانهم وخضع سلطان غيرهم تقرب إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته وأنشئوا لهم السفن والشوانى فاستخدموا لها من النواتية فى حاجاتهم البحرية مما تقوم عليها ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافتهم ، فاستخدموا الخطط وأنشئوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح واختصوا لذلك شعوبهم فى الشام وأفريقية ومصر والمغرب والأندلس[١٠٥] .

دور الصناعة :[١٠٦]

كانت مصر فى مقدمة البلاد التى ساهمت فى بناء الأسطول الإسلامى لأن صناعة السفن كانت أكبر صناعات الإسكندرية ، وفى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر غزا الروم البرلس سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين ، فاهتم أمراء مصر ببناء السفن وأنشئت لأول مرة دار لصناعتها فى جزيرة الروضة سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م[١٠٧] .

ولما ولى الخلافة عبد الملك بن مروان سنة (٦٥-٧٦ هـ / ٦٨٤- ٦٩٥م) بعث إلى حسان بن النعمان عامله على أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء السفن والآلات[١٠٨]، حيث كان أهم المنجزات الأموية في المجال البحر إنشاء ترسانة تونس على أثر هجوم بيزنطي راح فيه عدد من ضحايا المسلمين قتلى وأسرى حيث كانت المنطقة غير محمية ، وهكذا أمد عبد الملك بن مروان واليه حسان بألف فني من أقباط مصر بأسرهم للعمل في بناء ترسانة تونس ، وفرض على السكان البربر أن يتولوا جر الخشب لإنشاء السفن ليكون ذلك جريا عليهم إلى آخر الدهر[١٠٩].

وكان بنوا أمية يغزون الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب للحفظة في السواحل[١١٠].

وهكذا كانت فى العصر الأموى ثلاث أساطيل مستقلة عن بعضها ، ويعمل كل منها فى منطقة معينة هى : أسطول مصر ، وأسطول سورية ثم أسطول شمال أفريقية ، هذا علاوة على وحدة بحرية صغيرة تعمل فى البحر الأحمر وقد انعقد لواء كل من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر[١١١] .

ومن ولاة الشؤون البحرية الأوائل في عهد معاوية : علقمة بن جنادة الذي شهد فتح مصر وتوفى سنة ٥٩هـ ، وعقبة بن عامر وهو من غزاة جزر البحر المتوسط وكان مع هذا مقرئا وفقيها ، ورويفع بن ثابت الذي غزا طرابلس الغرب وجزيرة جربة ، وفضالة بن عبيد الذي ولاه معاوية شؤون الجيش وغزو الروم بحرا بعد أن تولى قضاء دمشق مدة ، وكذلك تولى غزو البحر عقبة بن نافع على رأس الجيش المصري ، ومن ولاة البحر بأفريقية : محمد بن أوس الأنصاري سنة ٧٣هـ وشارك مع موسى ابن نصير في حملاته بالمغرب والأندلس ، ويظهر أن ولايته على البحر أستمرت مدة طويلة ، ثم رشحه أهل أفريقية سنة١٠٢ هـ لولايتها مؤقتا في ظروف أضطرابات بالعاصمة قبل تعين والي رسمي[١١٢].

وكان من ولاة البحر خلال فترة حكم الوليد بن عبد الملك خالد بن كيسان الذي وقع في أسر الروم خلال هجمات المسلمين على المواقع البيزنطية بأسيا الصغرى ثم قدموه كترضية للوليد[١١٣].

وعندما آلت الخلافة إلى بنى العباس واتخذوا العراق مركزا لهم بدأ اهتمامهم بأمور البحرية ضعيفا عما كان عليه الوضع خلال العصر الأموى واستمر ذلك ما يقرب من خمسين سنة ، بسبب انصراف الدولة عن شئون البحر ونفض يدها من محاربة البيزنطيين فى البحر المتوسط[١١٤]وقد ساعد على تجمد النشاط البحرى الإسلامى فى شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هى الأخرى عن المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية وبعض المشاكل الخارجية التى عصفت بها كالنزاع الأيقونى ، وثورة توماس الصقلى ، سنة ٢٠٥هـ /٨٢٠م ، وكذلك الصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه ايرين ، وساعد على تجمد النشاط البحرى الإسلامى أيضا انفصال المغرب الإسلامى والأندلس عن المشرق سياسيا[١١٥] .

وعلى الرغم من ذلك فقد أبدى خلفاء بنى العباسى اهتمامهم بالبحرية منذ عهد الخليفة هارون الرشيد وولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام ومصر سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥م فغزوا جزيرة قبرص عندما نكث أهلها العهد مع المسلمين ، كما غزا جزيرة أقريطش[١١٦] .

وعلى هذا النحو اهتم العباسيون بالبحرية الإسلامية المغربية والأندلسية فى غرب البحر المتوسط[١١٧] .

وقد اهتم أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م بإنشاء السفن الحربية وقام بتوسيع دار الصناعة وتحسينها ، وجعل لها أحواضا حول جزيرة الروضة ، كانت تعرف باسم " صناعة السفن " ، ومن دلائل اهتمام ابن طولون بالأسطول أنه استقدم ملتزم الصناعة بالروضة أبا كامن شجاع بن أسلم الحاسب ، وقال له :"كل ما تعمل لي من العدة فأنه يكتفي بالقليل مع تقدم هيبتي في صدور الناس إلا المراكب، فأن البحر لا يتهيبني ولا يخاف ثورتي ، وليس يعمل فيه إلا وثاقة الصنعة ، وتقديم الاحتياط، فقدموا الحزم في المراكب ، وإستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة البحر"[١١٨].

وورث خمارويه عن أبيه هذا الأهتمام بالأسطول ، فيذكر أن عدة المراكب المرصدة للجهاد في أيام أحمد بن طولون مائة شين ، فلما مات وتملك أبنه خمارويه زاد في عددها وعدتها [١١٩] ، غير أن خلفاء خمارويه لم يولوا البحرية ذلك القدر من الأهتمام فكانت القوة البحرية في عهدهم لا تتجاوز عددا محدودا من السفن ، ولم يقدر لهذه القوة أن تلعب دورا في تاريخ الأسرة الطولونية[١٢٠]

وانتقلت دار الصناعة إلى الفسطاط أيام الاخشيد (٣٢٣-٣٣٤هـ / ٩٣٤-٩٤٥م) فى المصنع المعروف باسم "صناعة السفن" فغدت السفن الحربية والبحرية والنيلية تصنع فى "صناعة مصر" مرة وفى صناعة الجزيرة مرة أخرى[١٢١] .

ولما فتحت صقلية فى أيام الأغالبة فى عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات ازداد المسلمون رغبة فى غزو البحر ، فبالغوا فى إنشاء الأساطيل فى أفريقية ، والأندلس ، وبلغ عدد سفن الأسطول الإسلامى خلال عهد عبد الرحمن الناصر أواسط القرن الرابع الهجرى ٢٠٠ سفينة ، وكان أسطول أفريقية نحو ذلك ، وتعددت دور الصناعة هناك[١٢٢] .

واهتم الفاطميون بصناعة السفن اهتماما كثيرا فى دور الصناعة بمصر والإسكندرية ودمياط ، وأخذت الدولة تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطرد الروم من أطراف الشام الشمالية ، وعلى شواطئ البحر الأحمر وشواطئ أفريقية التى كانت فى حوزتهم من قبل .

وقد خصصت الدولة جزءا كبيرا من ميزانيتها للنفقة على الأسطول وتجهيزه بما يحتاج إليه ، فأنشأ المعز لدين الله دار لصناعة السفن بالمقس قريبا من مدينة القاهرة سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م صنع بها ٦٠٠ سفينة[١٢٣] وقد جدد العزيز بالله الفاطمى دار صناعة المقس بالبناء ، وأضاف إليها إضافة جديدة ، وانتجت أسطول ضخم سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م ليرسله إلى طرابلس الشام بقصد عرقلة البيزنطيين ومنعهم من التوغل فى بلاد الشام[١٢٤] .

ولما دب الضعف والوهن فى الممالك الإسلامية المتوسطية مثل الفاطميين فى مصر والشام ، وبنى زيرى فى أفريقية والأمويين فى الأندلس ، وضعفت البحرية الإسلامية ، وأخذت سيطرتهم فى البحر المتوسط تتراجع وتنحسر عن جزره تباعا ، ولم تستطيع الجهود التى بذلها المرابطون والموحدون والمرينيون وغيرهم فى

إنشاء الأساطيل أن تغير الوضع البحرى لصالح المسلمين تماما ، ثم أصابها الضعف أيضا ، وانتقلت ضربات الأساطيل الأوربية إلى السواحل الإسلامية فى كل من الأندلس والمغرب ومصر والشام ونجح هؤلاء فى احتلال أجزاء من هذه البلاد ، ابتداء من سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م[١٢٥] .

أنواع السفن :

كانت السفن الحربية أنواعا متفاوتة فى شكلها وقوتها وأحجامها تبعا للأغراض المختلفة التى صنعت من أجلها ، وقد أنتجت دور الصناعة من قطع الأسطول ومراكب البحر أنواعا كثيرة نذكر منها :

البطسة : والجمع بطسات وبطس ، وهى سفينة كبيرة يصل شراعها إلى أربعين شراعا ، واشتهر هذا النوع من السفن فى أيام الحروب الصليبية ، وهى تحمل آلات الحرب والأقوات والميرة والرجال ، وآلات الحصار ولها أسطحة عالية ، وطبقات كل طبقة خاصة بفئة من الجيش يفرش بالبسط وغيرها ، ووظيفة البطس الأصلية هو القيام بالأعمال القتالية فى البحر ، وتتسع لعدد كبير من الجند يصل إلى سبعمائة[١٢٦] .

الشوانى : جمع شينى ، وكانت أهم قطع الأسطول الفاطمى ، وكانت تعرف بالأغربة ، لأنها كانت تطلى بالقار ، وكانت لها قلوع بيضاء فهى بذلك تشبة القربان ، ولها من المجاديف مائة وأربعين مجدافا[١٢٧] وكانت تتسع لمائة وخمسين رجلا، ومزودة بأبراج وقلاع تستخدم للدفاع والهجوم[١٢٨] .

الحراريق : جمع حراقة وهى سفينة حربية تقوم برمى النار على الأعداء فى البحر ، وهى تلى الشوانى فى الأهمية ، وكان يجدف فيها بما يقرب من مائة مجداف[١٢٩]

الأغربة : وهى جمع غراب ، من المراكب الحربية سريعة الحركة ، وسميت بذلك بسبب مقدمتها التى كانت على شكل رأس غراب[١٣٠] .

الطرائد : جمع طريدة وهى سفن مخصصة لحمل الخيل وتسع الواحدة منها لحمل أربعين فرسا[١٣١] وكانت سريعة الجرى .

الشلنديات : وهى جمع شلندية ، نوع من المراكب الحربية المسطحة ، تستخدم لحمل الجنود والسلاح والمؤن ، وكان المقاتلون يرتادون ظهرها لقتال الأعداء ، بينما يجدف الجدافون تحتهم[١٣٢]وكانت تصنع بدار الصناعة بالروضة[١٣٣] .

المسطحات : جمع مسطح وهى كبار السفن المسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول ، وتستخدم فى مطاردة العدو لسرعتها[١٣٤] .

القوارب : جمع قارب ، والزوارق جمع زورق ضمن قطع الأسطول أيضا وهى مراكب من غير شراع وتستعمل فى العادة لنقل الأشخاص[١٣٥] .

الخلية : وهى سفينة شراعية كبيرة ويتبعها زورق يقال له الركوه ، وسميت بذلك تشبيها بالخلية من الابل التى ترأم على ولد واحد[١٣٦] .

جفن : سفينة حربية بطيئة الحركة لكبر حجمها .

البارجة : كانت ضمن السفن الحربية وهى تحمل خمسة وأربعين رجلا منهم ثلاثة نفاطون وبحار وخباز إضافة إلى المجدفين والمقاتلة[١٣٧] .

الحرابى أو الحربيات : جمع حربية ، وهى نوع من الشوانى ولكنها أصغر حجما ، وتمتاز هذه المراكب عن الشوانى بسرعتها وخفة حركتها ، وكان هذا النوع يصنع بدار الصناعة بالروضة فى مصر ، واستخدمت فى المعارك بأرض المغرب والأندلس[١٣٨] .

المركب المسمى بالغيطانى والمركب المسمى بالعجزى : هما مركبان عظيما الحجم، صنعا بدار صناعة مصر ، كانا يحملان عددا كبيرا من الركاب والبضائع الطائلة[١٣٩] .

ويذكر المقريزى أنواع أخرى من السفن كانت تصنع بدار الصناعة بالجزيرة خلال عصر ابن طولون مثل العلابيات والحمائم ، والسنابك وقوارب الخدمة ، وكلها مراكب نيلية ، والطيارة ، والاشكيف[١٤٠] .

ومن أنواع السفن البدن وهو زورق يمتاز بمقدمة ومؤخرة مدببة ، والبغلة وهى ذات مؤخرة مربعة الشكل حمولتها أكثر من خمسين طنا ، والبركة من السفن الخفيفة ، والجهازى وهى سفينة تجارية ضخمة ، والسميرية وهى من سفن البحر والنهر الحربية ، والشذا وهى سفينة صغيرة من العصر العباسى[١٤١] .

إن تعدد أنواع السفن الحربية والتجارية وسفن النزهة الصغيرة يوضح لنا عظمة البحرية الإسلامية ، ويدل دلالة واضحة على أن المسلمين الذين نشئوا فى الصحراء استطاعوا السيطرة على البحار وسجلوا مجدا بحريا رائعا .

وكانت هناك أنواع من السفن تستخدم للابحار فى البحر الأحمر ، ما بين أيلة وعيذاب أو عيذاب والبحر الحبشى ، وهذا النوع ذكره ابن جبير ، وكان يعرف باسم الجلاب أو الجلبات ، وكان لا يستعمل فى صناعتها مسمار البته ، إنما كانت تخيط بأمراس من القنبار وهو قش جوز النارجيل يصنعون منه حبالا يخيطون بها السفن ، وكانوا يدهنون السفن بالسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش[١٤٢] .

هذا عن أنواع السفن المختلفة التى تستخدم فى الأسطول الإسلامى أما عن الأسلحة البحرية فكانت تشمل الآتى :-

- **الكلاليب** : وهى عبارة عن خطاطيف من حديد يلقونها على إحدى سفن العدو فيوقفونها ثم يشدونها إليهم ، ويرمون عليها الألواح كالجسر ، ويدخلون إليها ويقاتلون من فيها[١٤٣] .
- **الباسليقات** : وهى سلاسل فى رؤسها رمانة من حديد ، كانت تستخدم فى القتال على سطح السفن[١٤٤] .

- **التوابيت** : وهى صناديق مفتوحة من أعلاها ، تكون فى أعلى الصوارى وتستخدم فى الرمى على سفن العدو أو يصعد إليها الرجال قبل دنو العدو حتى لا تصيبهم سهامه ، ويقذفون العدو بأحجار صغيرة فى مخلاه بجانب الصندوق وهم محتمون بالصناديق[١٤٥] .
- **اللجام** : وهى أداة من حديد طويلة محددة الرأس جدا أسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم المركب يستخدم فى مهاجمة مركب العدو عن طريق الطعن أو النطح[١٤٦] .

– المنجنيق : وهو عبارة عن آله من الخشب تستخدم فى قذف الحجارة ، حيث أنه له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسفله إلى أعلى ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج المقذوف منه[١٤٧] وكانت تستخدم فى قذف النفط أو جرار الزيت المغلى أو النيران .

السهام النارية : وهى عبارة عن سهام عادية ملفوف على نصلها فى مشاقة كبريت ورايتنج وقلفونية ، ونورة وشحم الكلى يتم إحراق طرفه ، وتستخدم فى الرمى على مراكب الاعداء فإذا واجهت الهواء تشعل نارا عظيمة تحرق كل ما تصيب[١٤٨]

جرار النورة : وهى مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ ويرمون بها فى سفن الأعداء فتعمى الرجال بغبارها .

الزرافة : وهى أنبوبة من النحاس تستخدم فى قذف مزيج من المواد الملتهبة مما يطلق عليه النفط ، وكان يقذف مشكلا فتبعث ناره تجاه سفن الأعداء فتحرقها وكانت توضع فى مقدمة السفن أو مؤخرتها أو على الأجناب[١٤٩] .

وهذه النيران كانت لا تنطفئ بملامسة الماء ، ولذا كان تأثيرها شديد على السفن وكان البحريون يتخذون سبل الوقاية بأنهم كانوا يعلقون الجلود أو اللبود المبللة بالخل والشب والنطرون لدفع أذى النفط ، وكان الرجال يرتدون بعض الملابس الواقية مثل الخيش المطلى بالطلاء الذى لا تحرقه النار[١٥٠] .

ومن الأسلحة البحرية أيضا . **قدور الحيات والعقارب** ، وكانوا يرمون بها على سفن الأعداء فتحدث اضطرابا وهرجا بها ، وأيضا **قدور الصابون اللين** اللزج لتزلق أقدامهم[١٥١] .

هذا بجانب الأسلحة الشخصية التى يجهز بها كل جندى نفسه ، مثل السيوف والرماح والفؤوس ، والدبابيس ، والأقواس والنشاب وغيرها[١٥٢] .

قيادة الأسطول :

كان لكل أسطول قائد ورئيس ونوتية ، حيث أوكلت الدولة أمور البحرية إلى قائد أطلق عليه " **أمير البحر** " وكانت مهمته الإشراف على الأسطول وجميع ما يتعلق به من بناء السفن وتفقد دور صناعة

، وتصفح أحواله ، وتعهد أعدائه ، وانتقاء المهرة من أهل الصناعات والحرف له ، واختيار رجاله وتدريبهم[١٥٣] .

وكان الرئيس يدبر أمر جرية بالريح أو المجادف وأمر إرساله فى مرفئه ، والنواتية يعملون بأمر الرئيس[١٥٤] فعلى سبيل المثال معاوية بن أبى سفيان لما أذن له بالغزو فى البحر ، جعل على البحر عبد الله بن قيس الفزارى أميرا فغزا عبد الله خمسين غزاة ما بين شاتيه وصائفه فى البحر ولم يغرق منها أحد ولم ينكب[١٥٥]

وخلال العصر الفاطمى كان على رأس الأسطول المصرى عشرة قواد عليهم رئيس يسمى قائد القواد ، ولهم مرتبات قد تصل إلى ٢٠ دينارا فى الشهر ، ويذكر أن ما كان ينفق على الحملة زمن المعز لدين الله الفاطمى أكثر من مائة ألف دينار ، وكان يصرف عليه من خراج الاقطاعات المحبوسة عليه ، ووصل عدد رجال الأسطول الفاطمى فى بعض الأحيان أكثر من خمسة آلاف[١٥٦] .

الفصل الخامس
الحياة الثقافية

عنى الإسلام بالعلم وتشجيعه والدعوة إلى تحصيله ، وأتاح المناخ الفكرى الحر الذى مكن العلماء وأصحاب الفكر من الإسهام فى إثراء الحضارة الإسلامية ، فى كافة مجالاتها ، ورفع الإسلام من شأن العلماء وطلاب العلم وجعل لهم منزلة خاصة فى الدنيا والآخرة ، وفتح الإسلام أمامهم الآفاق للاستزادة من العلم والنظر فيه تحقيقا لاستمرارية الحياة وتجددها ، فأولى الآيات فى القرآن الكريم التى نزلت على الرسولﷺ كانت ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(١) ، كما تبين الآيات مكانة العلماء فى قول الله تعالى:﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٢) كما فضلهم على غيرهم فى قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٣) كما حثهم على الاستزادة منه بقوله تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(٤) وشرح فضل العلم فى معرفة العلماء للخالق وخشيتهم له فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾(٥) وغيرها من الآيات التى تذكر العلم والعلماء .

وتوضح أقوال وأحاديث الرسولﷺ أهمية العلم والعلماء فعنه قال " يوزن يوم القيامة مداد العلماء بماء الشهداء وقال ﷺ : "لموت قبيلة أيسر من موت عالم" وقوله : غزوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة(٦) .

وشملت العلوم عند المسلمين فروع عدة منها الآتى :

- الدراسات الدينية :

كانت الدراسات الدينية فى مقدمة المجالات الثقافية عند المسلمين نظرا لارتباطها بالقرآن الكريم وشملت هذه الدراسات فروع عدة مثل :

علم القراءات :

وهو من علوم الدين التى تبحث فى كيفية قراءة ألفاظ القرآن الكريم ، وتهجى كلماته ، وإعجازه وبلاغته(٧) ، ويجب أن يتوفر فى عالم القراءات بعض الشروط ، حيث يجب أن يكون على قدر عال وعلم تام بقواعد اللغة وأصول التفسير حتى يتسنى له قراءة ألفاظ القرآن الكريم بدقة(٨) .

ويرجع السبب فى ظهور هذا العلم وجود الخط العربى على أشكال عديدة حيث كا يرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها .

ولذا اتفق بعد البحث والاستقصاء على قراءات معينة ، وقصد من تنوعها التسهيل نتيجة لاختلاف اللهجات ، وقد أصبحت هذه القراءات علما مدونا توضع فيه المصنفات وكانت كل بل تأخذ ما يلائم طبع أهلها ، فبعضهم جعلها سبع قراءات ، وبعضهم جعلها عشر ، والبعض الآخر جعلها خمسا وعشرين قراءة، وإن رجحت سبع قراءات وهى :

نافع من المدينة ، وابن كثير من مكة ، وابن عامر من الشام ، وأبى عمر من البصرة، وعاصم وحمزة والكسائى من الكوفة ، وهؤلاء أدوا القراءات موافقة لنص مصحف عثمان ولكل منهم رجال تعلموا عنهم[٩] ومع ذلك أضيف إليهم ثلاث قراءات وأصبحوا عشرة وهم حفص ، وأبو جعفر ، ويعقوب[١٠] .

علم الحديث :

يعد الحديث النبوى الشريف المصدر الثانى للشريعة الإسلامية لأنه يتضمن أحكاما وقوانين للمجتمع الإسلامى على الرغم من أنه لم يدون إلا فى أواخر القرن الأول الهجرى لأن الصحابة كانوا يحفظونه فى صدورهم وكان يكتب فى صحاف متفرقة[١١].

والحديث النبوى هو العلم الذى يتناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله فى صورتها المدونة ، وهو ما اصطلح على تسميته بالسنة أو طريقة سلوكه ، وله حجته مثل القرآن[١٢] .

وكان للحديث أعظم الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الإسلامى ، فقد أقبل الناس على دراسته ورحلوا فى سبيل جمعه وتعلمه ، فكان من ذلك تبادل الآراء العلمية واطلاع علماء بلد على ماضى البلد الآخر من علوم ومعرفة ، وبهذا كان الحديث من العوامل المهمة فى توحيد الثقافة فى العالم العربى والإسلامى[١٣] .

ولم يغفل العلماء عن تمييز الحديث الصحيح من الموضوع بل أعاروا ذلك عظيم اهتمامهم ، وكرسوا جهودهم لتنقيته مما دخل عليه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة[١٤] .

ومن اشتهر برواية الحديث عدد من الصحابة أهمهم أبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدرى ، وكان هؤلاء من الرواة المكثرين[١٥] ، ومن التابعين اشتهر عدد من العلماء برواية الحديث منهم سعيد بن المسيب والزهرى ، ومحمد بن سيرين .

وممن اشتهر بجمع الحديث ستة علماء وصلوا القمة فى جمعه ، أولهم البخارى، وهو أبو عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى المولود سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩م فى بخارى والمتوفى سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م وقد اشتهر بسرعة الحفظ ودقة النقل وسرعة البديهة بجانب الصبر والاجتهاد فى جمع الحديث ، سمى إمام المحدثين لجمعه عددا كبيرا منه ، إذ جمع ٢٠٩ ألف حديث ويقال ٧٢٧٥ حديثا وهذا أقرب إلى الصحيح منها ثلاثة آلاف حديث متكررة[١٦] ، وأبو مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى تلقى الإمام مسلم الحديث عن عدد كبير من علماء عصره ورحل إلى العديد من الأمصار الإسلامية باحثا عن الحديث ، حتى بلغ درجة كبيرة من العلم ، وقد وضع كتابة الشهير " صحيح مسلم " ويبلغ عدد الأحاديث التى اشتمل عليها صحيح مسلم ٣٠٣٠ حديثا[١٧] توفى سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م ، وابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ /

٨٨٦م ، وأبا داود المتوفى سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م والترمذى المتوفى سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م والنسائى المتوفى سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م وهؤلاء الستة عرفت مصنفاتهم عموما بالصحاح السنة[١٨] .

علم الفقه :

اعتمد علم الفقه الإسلامى على القرآن الكريم والسنة النبوية ، واجتهاد العلماء المسلمين فى بعض الأمور الدينية التى لا يتسنى استنباطها من القرآن والسنة[١٩] وهو بذلك يرادف التشريع ومن يقوم به يسمى فقيها وجمعها فقهاء .

ولم يظهر الفقه كعلم فى أول الأمر لوجود الصحابة والتابعين ولكن لما تعددت مشاكل المسلمين وبعد العهد بظهور الإسلام كانت هناك الحاجة إلى ضبط أحوال المجتمع ولذا ظهرت عدة طرق فقهية أطلق عليها مذاهب وهى تسير فى دائرة الإسلام ومن هذه المذاهب الآتى :-

المذهب الحنفى[٢٠] : (**٨٠-١٥٠هـ / ٦٩٩-٧٦٧م**) :

يعد المذهب الحنفى أقدم المذاهب الإسلامية ، وينسب إلى النعمان بن ثابت بن زوطى المولود بالكوفة سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م[٢١] استطاع النعمان أن يحتل مكانه كبيرة بين علماء عصره مما مكنه من أن يتصدى للتدريس ، فالتف الناس حوله ، ووجدوا فيه علما غزيرا وقدرة على المناظرة والمحاولة[٢٢] .

وقد توسع المذهب الحنفى فى الأخذ بالقياس والرأى ، لا عزوفا عن حديث رسول الله ﷺ بل لقلة الحديث الصحيح فى العراق[٢٣] ونشط فقه الرأى على يد أبى حنيفة وأصحابة ومن شايعهم على طريقهم من فقهاء الحضارة ، حيث دعت إلى ذلك الحضارة الجديدة ، كما شاع فى فقههم التماس العلل والأوصاف المناسبة للأحكام ، وبهذا أمكن الربط بين مسائل الشريعة بعضها ببعض ، توفى أبوحنيفة ببغداد سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م[٢٤] وانتشرا المذهب الحنفى فى بلاد بعيدة ومدن عديدة كنواحى بغداد ومصر وبلاد فارس وبلخ وفرغانة وبلاد اليمن وأكثر بلاد السند والهند[٢٥] .

المذهب المالكى (٩٧-١٧٩هـ / ٧١٥-٧٩٥م) .

نسبة إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحى الحموى المدنى أصله من اليمن ، ولد فى الحجاز سنة ٩٧هـ / ٧١٥م ، وعاش حياته بالمدينة المنورة ، فتأثر بالبيئة العلمية التى كانت بها ، وتلقى العلم عن علمائها ، وجمع السنة حتى صار حجة من حجج الله فى أرضه ، وضرب به المثل فقيل " لا يفتى ومالك بالمدينة "[٢٦]، جلس للتدريس بالمسجد النبوى ورحل إليه الناس من كل مكان ، والتفوا حوله ، فكان يتكلم فى الحديث والفقه ، وقد ترك كتابه الشهير " الموطأ " الذى جمع فيه الأحاديث الصحاح والفتاوى ورتبها حسب الترتيب الفقهى ، فكان هذا الكتاب يعد كتاب حديث وفقه فى آن واحد[٢٧] .

تلقى مالك العلم من علماء المدينة ، وشيخة فى الفقه هو ربيعة بن فروخ المعروف بربيعه الرأى ، وروى عن كثير من أهل الحديث والفقه[٢٨] .

وكان اعتماد فتواه على كتاب الله ثم على السنة ، ولكنه كان يقدم عمل أهل المدينة على خبر واحد إذا كان مخالفا له ، وذلك لثقته أن أهل المدينة توارثوا ما كانوا يعملون به عن سلفهم الذين توارثوه عن الصحابة[٢٩] وكان مالك يكره مدرسه الرأى فى العراق وبالرغم من ذلك فقد كان يأخذ بالرأى ويعتمد على الاجتهاد والقياس والمصلحة عندما لا يكون هناك نص شرعى ثابت[٣٠] .

ومن تلاميذ الإمام مالك ، الإمام الشافعى الذى تلقى عن الإمام مالك الحديث والفقه وقد حضر دروسه فريق كبير من أهل مصر وأهل المغرب وأهل الأندلس ، حيث تلقوا مذهبه ونشروه فى بلادهم وكان أشهر أصحابة الذين نشروا مذهبه عبد الرحمن بن القاسم المولود بالشام سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م توفى فى مصر سنة ١٩١هـ / ٨٠٦م ، وعبد الله ابن وهب بن مسلم المصرى المولود سنة ١٢٥هـ / ٧٤٢م والمتوفى سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م ، وهؤلاء أشهر من نشروا فقه مالك بمصر ، أما فى شمال أفريقية والأندلس فكان أشهرهم أسد بن الفرات من أهل تونس وسحنون بن عبد السلام التنوخى ، وعبد الملك بن حبيب[٣١] .

توفى الإمام مالك سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م بالمدينة المنورة عن عمر يناهز خمس وثمانين سنة ودفن بالبقيع ، فى خلافة هارون الرشيد[٣٢] .

انتشر المذهب المالكى فى بغداد انتشارا كثيرا ، ثم ضعف فيها بعد القرن الرابع ، وضعف بالبصرة بعد القرن الخامس ، وغلب فى خراسان وقزوين ، وظهر بنيسابور ، وكان ببلاد فارس وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام وشمال افريقيا ودخل الأندلس فى عهد هشام[٣٣] .

المذهب الشافعى (١٥٠-٢٠٤هـ / ٧٦٧-٨٢٠م):

ينسب إلى محمد بن إدريس الشافعى القرشى ويلتقى نسبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، ولد فى غزة سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م .

نشأ محمد بن إدريس يتيما بسبب فقده لوالده ، فانتقلت أمه به إلى مكة ، وفى مكة تلقى العلم عن شيوخه فيها ، ثم رحل إلى المدينة حيث التقى بالإمام مالك وأخذ عنه العلم[٣٤] ، وبعد وفاة الإمام مالك أصبح واليا على" نجران " إلا أنه سرعان ما اتهم بتشيعه للعلويين والدعوة لهم فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد فى الرقة إلا أنه برئ من هذه التهمة[٣٥] .

ثم انتقل الشافعى إلى بغداد وأخذ العلم عن أحد تلاميذ أبى حنيفة بها ، وهكذا جمع الشافعى بين منهجى استاذه الأول مالك بن أنس "مدرسة الحديث" واستاذه الثانى أبى حنيفة "مدرسة أهل الرأى" .

ثم رحل إلى مصر سنة ١٨٩هـ / ٨١٣م واستقر بها[٣٦] وعمل على نشر مذهبه فى شتى أنحاء البلاد ، فكان مذهبه وسطا بين أهل الرأى من أصحاب أبو حنيفة وبين أهل الحديث من أصحاب مالك ، وقد أحب المصريون المذهب الشافعى وصار له فقهاء ومريدون كثيرون ، ترك كتابين هامين هما "الأم" : وهو عبارة عن إملاءات أملاها على تلاميذه فى مصر فى حلقات الدرس ، وقد كتبها عنه تلاميذه كل بروايته

وأدخلوا عليها تعليقاتهم ، أما الكتاب الثانى فهو الرسالة فى أصول الفقه ، رواها تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى ، وبها اعتبر الشافعى أول من ألف وجمع قواعد أصول الفقه[٣٧] ، توفى الإمام الشافعى بمصر سنة ٢٠٤هـ / ٨٠٩م ودفن بها[٣٨] .

المذهب الحنبلى (١٦٤-٢٤١هـ / ٧٨٠-٨٥٥م) .

ينسب هذا المذهب إلى الإمام " أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى ، ولد بمدينة مرو سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م ، وقيل أن أمه خرجت به حاملا من هذه المدينة وولدته فى بغداد[٣٩] .

اتجه ابن حنبل إلى دراسة الحديث والرواية والتقى بالإمام الشافعى فى الحجاز فأخذ عنه الفقه والأصول ، وتلقى الحديث عنه ، وعن أكابر المحدثين فى عصره ، وتلقى عنه الحديث الأئمة العظام منهم البخارى ومسلم ، وغلب عليه الاشتغال بالحديث ، استنبط ابن حنبل مذهبه من السنة مع شئ من القياس والرأى[٤٠] .

وكان منشأ هذا المذهب ببغداد ، ثم شاع فى غيرها من البلدان بالعراق والشام والحجاز ولكن دون شيوع باقى المذاهب ، وذلك لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته فى معاضدة الرواية[٤١] .

وهذا ما أبعد الناس عنه ، إذ وجدوا فى المذاهب الأخرى متسعا لما يعرض لهم فى حياتهم ، يضاف إلى هذا أن اتباع هذا المذهب لجأوا خلال القرن الرابع إلى العنف فى ترويج مذهبهم وكانوا غالبية فى ذلك الوقت ببغداد[٤٢] ، حيث يذكر أنه فى سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، وأن وجدوا نبيذا أراقوه ، وأن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آله الغناء ، واعترضوا فى البيع والشراء ، ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا أرادوا شيئا من ذلك سألوا الذى معه ما هو فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة[٤٣] .

ومن أمثلة تشدد الحنابلة ، فى أمر الطهارة ، والنجاسة أنه فى نجاسة سؤر الكلب وغسل الإناء سبعا والثامنة بالتراب .

وأيضا قولهم بوجوب المضمضة والاستنشاق فى الوضوء ، بينما قال الفقهاء الثلاثة بأن هذا من السنن لا من الفرائض ، وأيضا قولهم بأن أكل لحم الابل ناقض للوضوء .

ولذا جعلت بعض الشعوب الإسلامية يصفون هذا المذهب بالتشدد ، ويطلقون على كل متحر فى دينه متشددا أو حنبليا[٤٤] .

ظهر المذهب الحنبلى فى مصر خلال القرن السابع الهجرى ، وذلك لأن الإمام أحمد بن حنبل كان فى القرن الثالث بالعراق ، وفى هذا القرن ملك الفاطميون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلا ونفيا وتشريدا ، ولم يزولوا منها إلا فى أواخر القرن السادس الهجرى[٤٥] .

وذكر المقدسى أنه كان موجودا فى القرن الرابع بالبصره وبإقليم قور والديلم والرحاب والسوس من إقليم خوزستان ، ومهما يكن من انتشاره فإن أتباعه كانوا قليلون فى كل عصر[٤٦] .

أما عن أثار أحمد بن حنبل العلمية ، فنجد أنه لم يكتب آراءه الفقهيه كما فعل الشافعى ، بل كان يكره كتابتها ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى اشتغاله بالحديث حتى لقب بحق إمام أهل السنة[٤٧] ، وصنف سنده المشهور (المسند) ، فى الحديث رواية ابنه على ، وله كتاب "السنة موصل المعتقد إلى الجنة" وهى رسالة اعتقادية ، وكتاب الزهد ، وكتاب الصلاة وما يلزمها ، وكتاب الورع والعلم ، وكتاب الرد على الزنادقة وكتاب العلل والرجال ، وكتاب الأشربه ، وقد قام تلاميذه بتدوين ما سمعوه منه من فتاوى ، وقد رويت عنه بعده روايات تشابه المدونه فى فقه مالك[٤٨] .

المذهب الشيعى :

إلى جانب المذاهب الفقهية الخاصة بأهل السنة انتشر فى الدولة الإسلامية لأسباب سياسية ـ المذهب الشيعى ـ والشيعة هم من شايعوا على بن أبى طالب ﷺ وقالوا أنه امام المسلمين وخليفتهم بعد رسول الله ﷺ ، ولفظ الشيعة فى اللغة يطلق على الأتباع والمحبين والأنصار ، والواحد منهم شيعى ويقال تشيع الرجال أى ادعى دعوة الشيعة[٤٩] .

وبعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ تولى على بن أبى طالب ﷺ الخلافة ، ولكن خلاف حاد نشبا بين المسلمين فقريق وقف بجانب الخليفة يناصره ويدافع عن الخلافة ، وفريق آخر بزعامة معاوية بن أبى سفيان وقف فى وجه الخليفة ورفض مبايعته[٥٠] .

ثم انشق بعض أنصار الخليفة على بن أبى طالب رضى الله عنه عليه بعد معركة صفين ، وقالوا لا حكم إلا لله ، وحارب الخليفة الخارجين عليه إلا أن أحد الخوارج طعنه فى مسجد الكوفة فقتله[٥١] .

وانتقلت الخلافة فى بنى أمية ووقعت المظالم بآل على وحل بهم من القتل والتمثيل ما أدمى القلوب ، وكانت حادثة كربلاء التى قتل فيها الحسين بن على على يد الأمويين من أقسى الجرائم الوحشية التى ارتكبت فى حق آل البيت[٥٢] .

مبادئ الشيعة :

الشيعة جميعا يعتقدون أن "الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز اغفالها" .

وكانت أهم طوائف الشيعة هى الزيدية والامامية أو الجعفرية ، فالزيدية هم أقرب جماعة من أهل السنة ، فهم فى السياسة لا يتبرؤن من أبى بكر وعمر ، ولا يقولون بعصمة الأئمة ، أما الشيعة الإمامية فيعتمدون فى الفقه على الكتاب والسنه كأصلين عامين ولكن اختلفوا مع أهل السنة فى الفروع .

ومن أهم ما اختلف فيه الشيعة مع أهل السنة والجماعة ، اباحتهم نكاح المتعة ، وتحريمهم الزواج من الذميات ، واختلافهم فى نظام المواريث ، وأنهم يزيدون فى صيغ الآذان بعد عبارة " حى على الفلاح " عبارة " حى على خير العمل" ويقولون بالمسح على الرجلين فى الوضوء دون غسلهما ، وغيرها من الأمور ، وكان أمام هذه الطائفة هو جعفر الصادق[٥٣]ولا زالت الإمامية الزيدية إلى وقتنا هذا **ومن طوائف الشيعة** :

الرافضة : سموا بذلك لان زيد بن على بن الحسين امتنع عن لعن أبى بكر وعمر وعثمان ورفض رأى من يقول بذمهم .

الكيسانية : الذين ينسبون إلى كيسان - رئيس جند المختار بن أبى عبيد الثقفى[٥٤]

وقد ظهرت فرق كثيرة كالخوارج والمرجئة ، والمعتزلة وأهل السنة .

الخوارج :

نشأت هذه الطائفة عندما خرجت على الخليفة عثمان بن عفانﷺ ومعارضته فى أشياء كثيرة ، مثل ايثارة أهله بالولايات ، ثم انضموا إلى من بايعوا على بن أبى طالب ﷺ ، ثم نقموا عليه ارتضائه التحكيم ، وقالوا كلمتهم المشهورة ***"لا حكم إلا لله"*** فخرجوا على على بن أبى طالب ، وانشقوا عليه ، فسموا بالخوارج وذهبوا إلى حروراء وهى قرية بظاهر الكوفة وسموا بالحرورية كذلك وأمروا رجلا منهم اسمه " عبد الله بن وهب الراسبى " وقد حاربهم على رضى الله عنه ، وهزمهم فى موقعة النهروان وأفنى منهم ثلاثة آلاف ، ولكن لم يقض عليهم فظلوا فى حروب دامية مع الأمويين ثم هان أمرهم زمن العباسيين[٥٥] .

المرجئة :

لما كان هناك فريق موافق على التحكيم وفريق معاض التحكيم ظهر جماعة من الصحابة كرهوا هذا النزاع ، وقالوا بإيمان الجميع وان كان بعضهم مصيبا وبعضهم مخطأ ، وما دمنا لا نستطيع تعيين المخطئ والمصيب ، فنرجئ أمرهم إلى الله تعالى ، فسميت هذه الطائفة بالمرجئة[٥٦] .

المعتزلة :

كان لهم فى العصر العباسى شعبتان ، شعبة البصرة التى أسسها واصل بن عطاء ، وشعبة الكوفة التى أسسها بشر بن المعتمر فى (٢١٠هـ / ٨٢٥م) وتفرعت من هاتين الشعبتين فروع كثيرة تختلف فى بعض التفاصيل والجزئيات وكانوا أكثر الفرق اتصالا بالفلسفة اليونانية وأسرعهم للإفادة بها [٥٧] .

العلوم الأدبية :

ازدهرت الدراسات النحوية واللغوية والعربية لما كان لها صلة وثيقة بعلوم القرآن والحديث ، وهى مفتاح لفهم القرآن والسنة وأداة لفهم الأحكام وتطرق الأدب إلى موضوعات كثيرة فى مناحى الحياة .

علم التاريخ :

يعتبر التاريخ من أهم العلوم الاجتماعية والإنسانية بوصفه مدرسة للحكام والشعوب يستمدون جميعا منه الدروس التى تساعدهم على مواجهة مشاكل الحاضر والتخطيط لمستقبل أفضل ٠

الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحركة التاريخية فى صدر الإسلام :

١- احساس بعض الخلفاء وحكام الدولة الإسلامية بالحاجة إلى الوقوف على أخبار السابقين ٠

٢- اتساع الدولة الإسلامية حيث دخل فى نطاقها العديد من الشعوب العريقة ذات التاريخ الحافل ٠

٣- وجه القرآن الكريم انظار المسلمين إلى الإهتمام بالتاريخ وذلك بحكم ما فيه من قصص وأخبار تناولت أنباء السابقين ٠

٤- الحديث النبوى الشريف الذى عكف علماء المسلمين على جمعه ، وهو يحتوى على جانب هام لا يستهان به من المعرفة التاريخية ، وخاصة ما يرتبط منها بسيرة الرسول ﷺ٠

ويعرف السخاوى التاريخ بقوله : " أما موضوعه فالإنسان والزمان ومسائلة أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفى الزمان "٠

أما عن فائدة التاريخ فيقول السخاوى أيضا : " وأما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها : ومن أجل فوائده أنه أحد الطرق التى يعلم بها النسخ فى أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما إلا بالإضافة إلى وقت متأخر "كرؤيته قبل أن يموت بعام أو نحوه أو عن صاحبى متأخر" (٨٨) ٠

كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع أهم الأسباب التى دفعت العرب والمسلمين للاهتمام بالتاريخ ، فقد اهتموا بتتبع حياة الرسولﷺ وأحواله واستقصاء لسنته ، وغزواته ووقف رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، وأن كان التاريخ فى ذلك الوقت لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع الحديث (٨٩) ٠

كانت رغبة الخلفاء الأوائل فى الوقوف على أخبار الملوك والحكام السابقين لعصرهم ، واهتمام المسلمين بجمع السيرة القديمة للرسول ﷺ وصحابته التى أصبحت فيما بعد الأساس الذى بنيت عليه السير والمغازى (٩٠) ، واهتم العرب بالأنساب ورواية الأخبار التاريخية وقصص البطولة وأنباء الحروب وكان للرواة دورهم فى حفظ التاريخ ٠

ويعتبر عبيد بن شرية الجرهمى اليمنى صاحب معاوية بن أبى سفيان من أوائل المؤرخين العرب ، وقد صنف لمعاوية كتابا عن ملوك اليمن القدامى ، ويذكر أن معاوية استدعاه إلى بلاطه فى دمشق وكلفه بكتابة تاريخ العرب سماه كتاب الملوك وأخبار الماضين (٩١) ٠

ويأتى فى نفس المرتبة مؤرخ آخر هو وهب بن منبه اليمنى صاحب كتاب التيجان وملوك حمير ، إذ يعد من المؤرخين الأوائل الذين اهتموا بتاريخ شبة الجزيرة العربية والذى اعتمد عليه كثير من المؤرخين من بينهم محمد بن جرير الطبرى توفى وهب بن منية سنة ١١٠هـ / ٧١٢م (٩٢) ٠

ومن رواد الكتابة التاريخية فى المدينة عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ/٧١٢م وهو أقدم من ألف فى السيرة النبوية ، وعنه أخذ ابن هشام وابن سعد وقد اشتملت كتابات عروة على فترة صدر الإسلام متضمنة السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين وقد كانت أساسا ظهر فى كتابات الطبرى (٩٣) ٠

ومن أوائل المؤرخين فى المدينة ابان بن عثمان بن عفان الذى درس الفقه والحديث ، وكتب صحفا عن سيرة الرسولﷺ بين فيها حياته وغزواته وجهاده ، توفى ابان سنة ١٠٥هـ (٩٤) ، وابن شهاب الزهرى وهو من مؤسسى المدرسة التاريخية فى المدينة ، حيث تكلم عن المغازى ، توفى سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م (٩٥) ومحمد ابن اسحق ، الذى استحق لجدارته فى كتابة السيرة النبوية لقب استاذ ، توفى ابن اسحاق سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م (٩٦) ، ويمثل الواقدى مرحلة هامة فى الكتابة التاريخية عند المسلمين وعلى يديه تتلمذ ابن سعد ، توفى الواقدى سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٣م (٩٧) وقد التقى محمد ابن سعد بكبار شيوخ الحديث فى عصره سواء من قابل فى مدينة الرسولﷺ وغيرها ، وكان ابن سعد محدثا واخباريا توفى سنة ٣٢٠هـ / ٨٤٥م (٩٨) ٠

وفى العصر العباسى يظهر الطبرى شيخ المؤرخين مصنف موسوعته الكبرى فى التاريخ الإسلامى " تاريخ الرسل والملوك " وقد تأثر الطبرى فى كتابة بمنهج كتابة الحديث فهو يهتم كثيرا بالرواية المسندة (ت ٣١٠هـ) وتبعه عدد من المؤرخين (٩٨) ٠

ومع القرن السادس الهجرى تأتى مرحلة الصقل فى الكتابة التاريخية الخالية من التعقيد اللغوى مثل كتابات ابن الأثير ، حيث وضع المسلمون أسسا للكتابة التاريخية ، بحيث أصبح من الممكن تحديد معالم الكتابات التاريخية المختلفة ، فقد أرخ بعضهم وفقا للسنين ، ومن ثم ظهرت الحوليات ، وأرخ بعضهم حسب الموضوعات ، فكتبوا دراسات متخصصة فى النظم والقوانين والأحكام والملل والنحل ، والنقود ، والخراج والمدن ، والدول(٩٩)٠

- فممن ألف فى التاريخ العام الطبرى ت ٣١٠هـ والمسعودى ت ٣٤٦هـ ، ومسكويه ت ٤٢١هـ ٠
- وممن كتب فى تاريخ المدن أبو بكر الخطيب البغدادى ت ٤٦٣هـ / ١٣٧٢م، وكتابه تاريخ بغداد من أعظم الكتب فى موضوعه ، وابن كثير ت ٧٧٤هـ

وابن خلدون ت ٨٠٨هـ ، ياقوت ت ٦٢٦هـ ، ابن خلكان ت ٦٨١هـ ، الذهبى ت ٧٤٨هـ ، الكتبى ت ٧٦٤هـ ، ابن حجر ت ٨٥٣هـ ، السخاوى ت ٩٠٢هـ ٠

- وممن ألف لدولة المقريزى (ت ٨٤٥هـ) الذى يعد كتابة الخطط أحسن مصدر عن تاريخ مصر ٠

- وممن كتب فى تاريخ المدن أبو بكر الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) وكتابة تاريخ بغداد من أعظم الكتب فى موضوعه ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) صاحب كتاب " تاريخ دمشق " وهو موسوعة تاريخية هامة فى تاريخ دمشق (١٠٠) ٠
- وممن ألف فى التاريخ العام الطبرى ، والمسعودى (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) الذى جمع الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليها أحد ، وله عدة مؤلفات من أشهرها كتاب " مروج الذهب ومعاد الجوهر " ومسكويه (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) وكتابه " تجارب الأمم " من أحسن كتب التاريخ ويمتاز مسكويه بأنه لم يجعل همه فى كتابه جمع الحوادث فقط بل كان له تدبر ونظر فيما يكتب (١٠١) ٠

وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) وكتابة " المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر " من كتب التاريخ القيمة التى يعتد بها ، فهو يمتاز بأنه مؤرخ ناقد ، وتعتبر مقدمته التى وضع فيها مبادئ النقد التاريخية أول كتاب من نوعه فى فلسفة التاريخ والاجتماع (١٠٢) ٠

ومن أشهر كتب التراجم كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) ، وكتاب وفيات الأعيان لأبن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) والكتبى فى كتاب فوات الوفيات (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) والذهبى فى كتاب العبر فى خبر من غبر (ت ٧٤٨هـ) وابن حجر العسقلانى فى كتابه أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، (ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م) ، والسخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) (١٠٣) وحاجى خليفة صاحب كتاب "كشف الظنون " وهو معجم فريد لأسماء نحو ١٨,٥٠٠ كتاب والحق فيه اسم كل كتاب منها باسم مؤلفه وسنة وفاته ، توفى سنة ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م (١٠٤) ٠

وخلاصة القول فى علم التاريخ فى الدولة العربية الإسلامية أنه ابتدأ فرعا من علم الحديث فكان متأثرا بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها ، وكان أهل السيرة والمغازى والأخباريون يجمعون المأثور من الروايات ويدونوها مع اسنادها إلى مصادرها الأصلية ، بمعنى أنهم لم يحاولوا نقد الخبر نفسه ، وإنما كانوا ينقدون ناقل الخبر نفسه ، وهذه الطريقة ضمنت للعرب صحة الاخبار ٠

الجغرافيا :

اهتم المسلمون اهتماما كبيرا بعلم الجغرافيا ، وتعددت كتبهم ومصنفاتهم ومؤلفاتهم واختراعاتهم ومبتكراتهم فيها ، وأسهموا فى تقدم علم الجغرافيا بنصيب موفور ، وقد ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات ، فجابوا البلاد من الصين إلى ادغال أفريقيا ، وأقاموا علاقات تجارية واسعة مع تلك البلاد لم يسمع بها الأوربيون ٠

وكانت عناية المسلمين بالجغرافيا مرتبطة بالبيئة التى عاشوا فيها والصحارى المترامية الأطراف من حولهم تدعوا إلى ذلك ، فإنهم لم يكونوا يستطيعون التجول فيها دون هداية النجوم والكواكب لتحديد

طرقاتهم ومعرفة الاتجاهات الأصلية لما له من ارتباط بتحديد موقع القبلة ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (١٠٧) ٠

وقد نشأ علم الجغرافية عند العرب نشأة بسيطة ، ثم أخذ ينمو تدريجيا حتى أصبح من أهم العلوم العربية واحتل مركزا ممتازا فى الأداب العالمية ، وتطور على يدهم لاتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية ، وحاجة الدولة لمعرفة البلاد وضبط شئونها ، حيث كانت الدولة فى حاجة لمعرفة ما ينتج من محاصيل وأحوال السكان وطرق المواصلات وأطوالها ومسافاتها ، والمراحل التى يقطعها البريد (١٠٨) ٠

ومن العوامل التى ساعدت على تطور علم الجغرافيا عند العرب الرحلات المتنوعة يأتى فى مقدمتها السفر لأداء فريضة الحج ، والرحلات التجارية ، داخل أقاليم الدولة الإسلامية ، ومع الدول الخارجية (١٠٩) ٠

أفاد العرب مما ترجم من كتب الجغرافية الأجنبية مثل الهند والصين وتأثروا بالفكر الجغرافى فيهما ، وكذلك المؤلفات اليونانية فى الجغرافيا مثل مؤلفات بطليموس السكندرى المتوفى سنة ١٦٨م ، حيث ألف ثابت بن قرة الحرانى مؤلفات قيمة حول الكسوف وعملية وحركة الفلك ، كما كتب شروطا وتفسيرات على المجسطلى لبطليموس وله أرصاد قيمة قام بها فى بغداد وحسب حركة الشمس (١١٠) ٠

ومن الجغرافيين المسلمين التاجر سليمان الذى أبحر من سيراف على الخليج الفارسى ، وجاوز المحيط الهندى ، وبلغ شواطئ الصين ثم كتب رحلته فى سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م وكتابه أول مؤلف نشر فى بلاد العرب عن بلاد الصين وقد نقل إلى اللغة الفرنسية (١١١) ٠ واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٨م) الذى عرف كتابه باسم البلدان ٠

ثم جاء من بعده ابن خرداذبة وهو من الجغرافيين القرن الثالث الهجرى (ت ٢٣٢هـ / ٨٤٦م) وله كتاب المسالك والممالك ، ويعتبر أبو عبيد الله محمد بن جابر البتانى من أهم الجغرافيين القرن الرابع الهجرى فقد توفى سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وكان يدرس فى مرصده حركات النجوم ويطابق معلوماته على ما ورد فى المجلسطى ، ومن أشهر كتاباته الزيج الصابئ ، ومن أعماله الهامة كتاب الأطوال والعروض والتى كانت أساسا للجداول الجغرافية التى وضعها المسعودى الذى قضى خمسا وعشرين سنة من حياته فى الطواف فى بلدان الدولة الإسلامية ، وفى الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وسجل مشاهداته فى تأليفه المهمة التى يعد أشهرها كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حيث وصف فيه أحوال الأمم وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وكتابه التنبيه والإشراف ، توفى المسعودى سنة (٣٤٥هـ / ٩٥٦م) (١١٢) ٠

ومن الجغرافيين العرب فى القرن الرابع الهجرى أيضا المقدسى الذى وضع كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وانتهى من تأليفه سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م وقد وصف بأنه أعظم الجغرافيين الذين عرفهم العالم على مر العصور (١١٣) ٠

ومن أهم الجغرافيين الذين اهتموا برسم الخرائط ، أبو زيد أحمد بن سهل البلخى المتوفى فى مطلع القرن الرابع للهجرة ، وله كتاب صورة الأرض (١١٤) والاصطخرى وابن حوقل كما تقدم ذكرهما ، والإدريسى الذى رحل إلى الأندلس وتلقى العلم على يد علماء قرطبة ، ثم استقر فى صقلية فى خدمة الملك النورماندى روجر الثانى وقد ألف كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق ، وهو من أهم الأعمال الجغرافية ، ويزيد من أهميته مجموعة الخرائط الهامة التى ربت على السبعين وقد أفاد الإدريسى من ابن خرداذبه وسليمان التاجر صاحب أخبار الصين والهند ، توفى الإدريسى سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م (١١٥) ٠

وكتب المسلمون المعاجم الجغرافية ، ومن أهمها معجم البلدان لياقوت الحموى ، وهو معجم وموسوعة جغرافية ضخمة إلى جانب ما فيه من معارف تاريخية وأدبية عظيمة (١١٦) ٠

أما عن الرحلات ، فالمكتبة العربية تزخر بكتب الرحلات ومن أهمها ابن فضلان الذى ذهب فى بعثة أرسلها الخليفة المقتدر بالله العباسى إلى نهر الفولجا والبلغار سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م ، وقد ترك ابن فضلان تسجيلا لرحلته ، وصف فيه عادات وتقاليد وأخلاق الخزر والروس ومعلومات أخرى ينفرد بها ابن فضلان (١١٧) ، ورحلة أبى دلف الخزرجى سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م إلى تركستان والصين والتبت والهند وسجستان ، ورحلة إبراهيم بن يعقوب العالم الأندلسى إلى المانيا وأوربا الوسطى وما يسمى الآن بلغاريا وجيكوسلوفاكيا ، وساحل فرنسا وهولندا (١١٨) ٠

– وكان من أعظم الرحلات شهرة رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة

ابن جبير: ولد فى الأندلس سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م وتوفى بمصر سنة ٦١٤هـ/ ١٢١م كان أديبا وعالما فى الفقه والحديث رحل إلى المشرق ثلاث رحلات الأولى بدأها سنة ٥٧٨هـ وانتهت سنة ٥٨١هـ ، وصف خلالها كل ما مر به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان وغرائب المشاهد ، وتحدث عن الأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، ووصف النواحى الدينية (١١٩) ٠

ابن بطوطة : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، ولد فى طنجه سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م وتوفى فى مراكش سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م طاف ابن بطوطة معظم أرجاء العالم الإسلامى ، حيث زار الحجاز والشام والعراق وفارس وأسيا الوسطى وبيزنطة ، وبخارى وافغانستان والهند والصين وسيلان ، وعاد إلى بلاده ، رحل إلى الأندلس فزار مدنها وعاد إلى وطنه ثم سافر إلى أفريقيا ووصل إلى تمبكتو وغيرها ووصف ما شاهده فى رحلاته فى كتابه المسمى " تحفة النظار فى غرائب الأمصار

وعجائب الأسفار " وهو المعروف برحلة ابن بطوطة ، وابن جبير وابن بطوطة يمثلان مرحلة من مراحل الكتابة الجغرافية عند المسلمين (١٢٠) ٠

وتحدث الجغرافيون المسلمون عن الجغرافيا الاقتصادية والثروة المعدنية والإنتاج الزراعى ، وتحدثوا عن الطرق والمسالك ، وناقشوا موضوع السكان وحياتهم الاجتماعية وذلك لأهميتها عند جمع الخراج (١٢١)

والجغرافيون المسلمون هم الذين وضعوا أساس علم المحيطات كما وضعوا أصول علم الخرائط ، وكانت صورة الأرض للخوارزمى " خلال عصر المأمون " من أوائل الكتب التى تضمنت عددا من الخرائط

ووضع البلخى (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) أول أطلس عربى ألحق بكتابه صور الأقاليم وشهد عصر المأمون جهود المسعودى فى رسم الخرائط أو الصور المأمونية (١٢٢) ، واشترك معه عدد من علماء عصر المأمون وصوروا العالم بأفلاكه ونجومه ، وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك فجاءت أحسن مما تقدمها من محاولات (١٢٣) ٠

وهكذا يتجلى فضل العرب فى هذا العلم ، يقول جوستاف لوبون : ويكتفى أن نشير إلى ذلك إلى ما حققه العرب فى الجغرافية لاثبات قيمتهم العالمية فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينا مضبوطا فى الخرائط فصححوا بذلك أخطاء علماء اليونان ، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التى كان يشك الأوربيون فى وجودها ، وهم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التى جاءت ناسخة لما تقدمها فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونا كثيرة (١٢٤) ٠

وهكذا نرى جهود الجغرافيين المسلمين فى حفاظهم على التراث الجغرافى القديم ، ودورهم فى إقامة هذا العلم على أسس من التجربة والملاحظة والابتكار أسهمت فى تطوير الفكر الجغرافى مما أدى إلى نجاح حركة الكشوف الجغرافية (١٢٥) ٠

الفلسفة :

الفلسفة كلمة تعنى فى أصلها اليونانى حب الحكمة : وموضوعها البحث فى الكون وفى طبيعة الإنسان ومركزه فى العالم وسلوكه الأخلاقى ٠ وهدف الفلسفة الوصول إلى المعرفة هى العقل وما اكتشفه من قوانين المنطق وأساليب الجدل والبرهان والاستقراء والاستنتاج (١٢٦) ٠

وقد تأثر المسلمون بالمدارس الفلسفية القديمة وخاصة مدرسة الإسكندرية التى وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام مفكريها ومنهم يوحنا النحوى الذى يذكر أنه التقى بعمرو بن العاص عند فتح الإسكندرية ، وترجم المسلمون الفلسفة اليونانية ، وانتجوا فكرا فلسفيا خاصا بهم ، وأضافوا إلى الفكر الإنسانى اضافات أصيلة (١٢٧) ٠

وقد اهتم الخلفاء الأمويون بالفلسفة ، ودعا الأمير خالد بن زيد فلاسفة من الإسكندرية حيث استقبلهم فى دمشق ، كذلك أبدى الخليفة عمر بن عبد العزيز اهتمامه بمدرسة الإسكندرية الفلسفية واتصل ببعض مفكريها (١٢٨) ٠

وقد ارتبط ظهور الفلسفة بشكل جاد مع التجمة ، التى بدأت فى العصر الأموى حيث يمكن للدارس أن يستنتج أن المسلمين قاموا بترجمة بعض الأعمال الفلسفية ، وتشير المصادر أن الخليفة مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ / ٦٨٣-٦٨٤م) كلف ماسروجيه اليهودى بترجمة كتابات الكاهن السكندرى هارون القس ويبدو أن الترجمة كانت من السريانية إلى العربية ، واهتم عمر بن عبد العزيز بخزائن الكتب ووفرها للعلماء فى دمشق (١٢٩) ٠

واهتم الخليفة العباسى المأمون بالفلسفة وعلم الكلام ، فصرف الكثير من المال للمترجمين والمحققين لنتاج سقراط (٤٧٠-٣٦٩ ق٠م) وأفلاطون (٤٢٩-٣٤٧ ق٠م) ، وأرسطو طاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق٠م) لأهمية فلسفتهم لدى المأمون ، وتمخضت عناية المأمون بالفلسفة بأن ظهر فلاسفة مسلمون مثل : الكندى ، والفارابى فى المشرق الإسلامى وابن طفيل وابن رشد وابن ماجه فى المغرب الإسلامى ، وغيرهم ممن لم يكتفوا بنقل الفلسفة القديمة من اليونانية إلى العربية فقط بل درسوها وشرحوها وفسروا الغامض منها ، وابتكروا نظريات فيها (١٣٠) ٠

ومن أشهر فلاسفة الإسلام :

الكندى :

وينسب إلى آل كنده القحطانية التى حكمت اليمن ، وكان أبوه وهو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندى أميرا على الكوفة فى عهد الخليفة العباسى المهدى عاش (٢٦٠هـ / ٨٧٣م) ولد بالكوفة ، ودرس فى البصرة على أشهر علمائها ، حتى برز فى الفلسفة ، وصار فاضل دهره وواحد عصره ، وأكبر فلاسفة المسلمين (١٣١) ، خدم المأمون والمعتصم ، وأسهم فى النهضة الفكرية ويعتبر الكندى من نتاج مدرسة المعتزلة ٠

- ترجم مؤلفات ارسطو طاليس وغيره من فلاسفة اليونان ٠
- اهتم بدراسة فلسفة علماء الهند وفسر نظرياتهم وعلق عليها ٠
- اشتغل فى بغداد فلكيا وطبيبا وفيلسوفا ٠
- أعطى اهتمامه بعلم الحيل المعروف الآن بعلم الميكانيكا (١٣٢) وكان العلماء يعتمدون على نظرياته عند القيام بأعمال البناء ٠

- قسم الكندى العلوم إلى أسسها الفكرية والمنطقية فاعتبر أولا العلوم الفلسفية وتشمل الرياضيات والمنطق والطبيعيات والفيزياء والسياسة وعلم الاجتماع ، أما الثانى فهو العلوم الدينية وتحتوى على أصول الدين والعقائد والتوحيد (١٣٣) وقد تأثر الكندى فى تقسيم العلوم بالفيلسوف أرسطو ٠
- أعطى جزءا من وقته لعلم الهندسة فترجم الكثير من مؤلفات علماء اليونان ٠
- اهتم بدراسة الموسيقى وله العديد من المؤلفات التى تبعت فى الموسيقى منها رسالة الكندى فى النغم (١٣٤) وعندما تحول التيار ضد المعتزلة زج به فى السجن واتهم بتأويل الدين على وفق الفلسفة ، وصودرت مكتبته واعدمت كتبه فلم يبق منها إلا القليل مما سبق ذكره ٠ وتوفى الكندى ببغداد سنة (٢٦٠١هـ / ٨٧٣م) ٠

أبو النصر الفارابى : (٢٦٠-٣٣٩هـ / ٨٧٤-٩٥٠م) :

هو أبة النصر محمد بن طرخان الفارابى ، ولد فى أواسط أسيا فى فاراب (١٣٥) درس الفارابى الفلسفة فى بغداد ، ورحل إلى حلب وعاش زاهدا فى كنف سيف الدولة الحمدانى ، كانت فلسفته تميل إلى المزج بين الأفلاطونية ، والأرسطوطالية ، والتصوف الإسلامى ، مما حمل العلماء على أن يسمونه المعلم الثانى (١٣٦) ٠

والفارابى هو المؤسس الحقيقى للدراسات الفلسفية الإسلامية ، فهو الذى وضع أسسها وشيد بنيانها فاعتمد عليه الكثيرون الذين أتوا بعده ومنهم بن سينا ، وابن رشد (١٣٧) ٠

وللفارابى مؤلفات كثيرة فى مختلف العلوم منها :

- كتابة فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها وهو أشبه بقاموس على شكل الموسوعات العلمية ٠
- الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الالهى وأرسطو الطبيعى ٠
- كتابة آراء أهل المدينة الفاضلة ، وشرح فيه نظام المجتمع الإنسانى الأمثل متأثرا بجمهورية أفلاطون ٠
- بحث الفارابى فى علم الكلام والقصيدة والفقه والشريعة ، وقواعد النحو ، والتقدير الجمالى للشعر والنثر ، وتنظيم المجتمع الكامل ٠
- وكذلك كتابه فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس وهو يشهد له بالبراعة الفلسفية والتحقق بفنون الحكمة (١٣٨) ٠
- أجمع علماء المشرق والمغرب على أن الفارابى كان عازفا ماهرا وعالما بأصول الموسيقى وفروعها التى قادته إلى اختراع العود والربابة وآله القانون ، فهو المعلم الأول فى الموسيقى (١٣٩) ٠

زار الفارابى مصر وأكمل فيها كتابه فى الفلسفة السياسية عن المدينة الفاضلة، واستقر حاله فى حلب وقيل أن الفارابى كان يعرف أكثر من سبعين لغة (١٤٠) ، وتشعبت معارفه حيث تطرق إلى جميع العلوم النظرية والتطبيقية ، فقد كان موسوعة تمشى على قدمين ، إذ تكلم عن المعادن ذات القابلية للتمدد

بالطرق، كالصفائح وسحبها أسلاكا ، وعرفها تعريفا علميا ، مثل الذهب والفضة، والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين (١٤١) ٠

كما قدم دراسة كاملة بين فيها فساد علم التنجيم ، ونفى ما يزعمه المنجمون من أن بعض الكواكب تجلب السعادة وبعضها يجلب النحس وفرق بين التنجيم وعلم الفلك الذى يرمى إلى دراسة حركات الكواكب دراسة علمية (١٤٢) ، توفى الفارابى بدمشق فى كنف الأمير سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م ٠

ابن سينا : (٣٧٠-٤٢٨هـ / ٩٨٠-١٠٣٦م) :

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، ولد فى أفشنة قرب خرميثن - احدى قرى بخارى - (١٤٣) ، ثم انتقل به والده إلى بخارى ، وفيها حفظ القرآن الكريم ، ولم يكن يبلغ السادسة عشر من عمره حتى تعلم الكثير من العلوم كالفقه والمنطق والهندسة والطبيعة ، والفلسفة والطب وغيرهما (١٤٤) ، كان ابن سينا معاصر لأبى الريحان البيرونى وابن الهيثم وكان صديقا حميما لأمراء السامانيين الذين حكموا كرمان وسجستان وجرجان وما وراء النهر وخراسان (٢٦٠-٣٨٩هـ) (١٤٥) ويذكر أن نوح بن منصور ملك الدولة السامانية مرض مرضا حادا احتار فيه الأطباء ، فاستدعى الطبيب ابن سينا فبرئ على يديه فقربه إليه ، وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة عامرة بنفائس الكتب ، فاستأذنه ابن سينا فى دخولها فاستوعب ما فيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم أخذ يتنقل فى البلدان وأخذ فى التأليف وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وارتفعت مسئوليته ٠٠ وتنقل فى بلاد خراسان (١٤٦) وكان من أشهر الأطباء الذين أنجبهم العالم ، وهو المعروف فى أوربا باسم " أفسينا " Avasina ٠

لقد تميز ابن سينا عن غيره فى جميع فروع المعرفة ، وعى وجه الخصوص نبغ فى العلوم البحتة والتطبيقية مثل : الفلسفة والفيزياء والهندسة والرياضيات والطب والكيمياء والصيدلة والنبات وعلوم الأرض وعلم الحيوان ، واللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة وشعرا ٠٠ ، ومن أشهر كتبه كتاب " القانون" الذى حوى أهم ما عرف إلى زمانه من علوم الطب ، وكتاب " الشفاء " فى الطب وفى غيره وكتاب النجاة تلخيص للشفاء (١٤٧) ، وكتابه " الإشارات والتنبيهات " فى الفلسفة ، وهو صاحب المنهج الفلسفى الذى يقوم على التجربة والاستقراء ، وترجمت كتبه "الطبية والفلسفية" إلى اللاتينية فكان أحد ينابيع المعرفة فى أوربا (١٤٨) ٠

تقلبت الأحوال بابن سينا ، حيث يذكر أنه سجن مرتين الأولى فى عهد شمس الدولة البويهى حاكم همذان ، والثانية فى عهد علاء الدولة أمير أصفهان ، وولى الوزارة لشمس الدولة أبى طاهر بن فخر الدولة ، توفى ابن سينا بهمذان ودفن بها ، عن عمر يناهز ثمان وخمسين سنة (١٤٩) ٠

جماعة أخوان الصفا وخلان الوفاء :

وهى جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية ، تكونت نواتها فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم نمت وصار لها فرع فى بغداد والقاهرة وسلمية فى سوريا ، وكان أعضائها خمسة هم : أبو سليمان محمد ابن معشر البستى ويعرف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد المهرجانى ، وأبو الحسن العوفى ، وزيد بن رفاعة ، وأبو يعقوب السجستانى (١٥٠) .

وقد كشف لنا الدكتور صابر أبا زيد فى كتابه فكره الزمان عند اخوان الصفا اثنى عشر عضوا من أعضاء الجماعة ونفى أن يكون أبو هان التوحيدى أحدهم ناقدا لآراء المؤرخين (١٥١) .

وكانوا يجتمعون سرا ويتباحثون فى الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة أبحاث المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهنود ، وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام ، وزعموا أنهم بمذهبهم هذا قربوا الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا ، أن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى التقت الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية قد حصل الكمال (١٥٢) .

وكان لأبحاثهم هذه وكتاباتهم تأثير كبير فى كثير من علماء المسلمين وفلاسفتهم كالمعرى ، وأبى حيان التوحيدى ، والغزالى ، وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس الهجرى (١٥٣) .

الغزالى (٤٥١-٥٠٥هـ / ١٠٥٩-١١١١م) :

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى حجة الإسلام : ومن أكبر أعلام الفكر والتصوف فى زمانه ولد فى طوس - إحدى مدن خراسان - سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ، تعلم فى بلده ثم رحل إلى جورجيان ثم إلى نيسابور حيث كان إمام الحرمين الجوينى ظل فى جواره يتلقى منه العلوم الدينية والعقلية ، ثم ولى التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ ثم انقط عن التدريس وسلك طريق الزهد (١٥٤) .

تكاثر الفلاسفة فى عصره وناهضوا رجال الدين فتصدى لهم وأطلع على أقوالهم ، قضى نحو عشرة أعوام فى الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية ، وأخذ يبحث ويناظر حتى ظهر له أن الفلاسفة على ضلال أو خلاف وحمل عليهم حملة شعواء صادقة بالتأليف والمجادلة وكان يجادلهم ببراهينهم وحججهم فسمى "حجة الإسلام" .

ومن كتاياته "تهافت الفلاسفة" ، الذى تصدى فيه لأباطيل الفلاسفة ، هذا إلى جانب أرفع مؤلفاته شأنا وهو كتابه الشهير " إحياء علوم الدين " توفر على بحث الأخلاق ، وله المنقذ من الضلال " وهى قصة حياته الباطنية" (١٥٥) .

ابن طفيل (٥٠٠-٥٨١هـ / ١١٠٦-١١٨٥م) :

هو أبو بكر بن عبد الملك بن طفيل الأندلسى ، ولد فى وادى "آش" بالقرب من غرناطة سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، اشتهر بالفلسفة والطب ، قضى حياته فى بلاط الموحدين يدرس ويعمل طبيبا ، حيث كان طبيب السلطان الموحدى أبى يعقوب ، اشتغل وزيرا فى حكومة الموحدين ، كان من العلماء المغرمين بالتجارب العلمية ، انتقد نظام بطليموس الفلكى وخاصة نظريته القائلة بأن الأفلاك ذات مراكز متعددة (١٥٦)٠

يعتبر بن طفيل أعجوبة زمانه ، حيث تفوق فى معظم فروع المعرفة وقد بنى أراءه فى علم الفلك على علم الهندسة ، ولذا برز فى الرياضيات التطبيقية ، واشتهر فى علم الفزياء ، ويرى ابن طفيل أن العالم يجب أن يكون ملما بمعظم العلوم التى لها علاقة ببعضها ، وأن يكون مثقفا مدركا لما يجرى فى العالم الذى حوله (١٥٧) ٠

ومن مؤلفاته :

١- قصة حى ابن يقظان التى ترجمت إلى لغات العالم لأهميتها ، وهى رواية فلسفية خيالية صور فيها وصول الإنسان إلى العقل بمعزل عن كل تعليم ، وكل ما يحيط به وشبه الإنسان بالحيوان الأليف ٠

٢- أسرار الحكمة الشرقية ٠

٣- شرح الأثار العلوية لأرسطو طاليس ٠

٤- كتاب فى الطب (١٥٨) ٠

وخلاصة القول إن ابن طفيل كان مدرسة فى الفلسفة ومن أصحاب الكفاءات النادرة الذين أسهموا اسهامات مبتكرة فى فروع العلوم البحتة ، والعلوم التطبيقية ، توفى ابن طفيل فى مدينة مراكش بالمغرب سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م وشيع ملك المغرب آنذاك جنازته بنفسه تقديرا لمكانته العلمية العظيمة (١٥٩) ٠

ابن رشد (٥٢٠-٥٩٥هـ / ١١٢٦-١١٩٨م) :

هو محمد بن قاسم أبى الوليد محمد بن محمد بن رشد الحافظ القرطبى ، ولد فى قرطبة ولى القضاء فى أشبيليه وقرطبة ، قربه إليه الخليفة الموحدى يوسف وعينه طبيبا ووزيرا له بدلا من ابن طفيل ، حيث كان ابن رشد فيلسوف وطبيب بجانب نبوغه فى علم الفقه واللغة والأدب (١٦٠) ٠

وهو أعظم من شرح فلسفة أرسطو وعرض أفكاره على وجهها الصحيح ، وعلق على كل كتبه التى وصلت إلى العالم العربى فى شروح متغايره ، حتى أطلق عليه اسم "الشارح الكبير" ، وعلى شروحه بنى الأوربيون فلسفتهم فى القرون الوسطى ، وكان لفلسفته وآرائه أثر كبير فى التطور الفكرى فى جامعة باريس وغرب أوربا وكان من أثر تقديرهم لأرائه أن سموه أفيروس وأطلقوا على مذهبه الأفيروسية ، فكانت فلسفته حلقة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية والشعوب المسيحية فى أوربا (١٦١) ٠

ويعد ابن رشد آخر حلقة فلسفية ذات بال من حلقات تفكير المسلمين ، فقد ألم بمؤلفاتهم وأبحاثهم ، ونصب نفسه مدافعا عن الفلاسفة الذين هاجمهم الغزالى فأعد كتاب " تهافت التهافت " ليرد به على كتاب تهافت الفلاسفة الذى وضعه الغزالى للطعن على الفلاسفة ، وبذل جهدا كبيرا فى إثبات أن الدين لا يناقض الفلسفة الحقه فى شئ (١٦٢) ٠

ومن مؤلفات ابن رشد :

- كتاب " فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال " ٠
- الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ٠
- كتاب التحصيل الذى جمع فيه أهل العلم من الصحابة والتابعين ٠
- وكتاب " الكليات فى الطب " وهو موسوعة طبية فى سبع مجلدات ، ومحتوياته تنحصر فى علم التشريح ، وكلية الدورة الدموية عند الإنسان ، وتشخيص بعض الأمراض المنتشرة آنذاك ، ووصفه بعض الأدوية لها ، وفهم ابن رشد فهما جيدا الشبكية للعين ، وهناك قول مأثور له : " من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانا بالله " (١٦٣) ٠
- وكتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، وهو كتاب قيم فى الفقه المقارن ٠
- وكتاب جوامع كتب ارسطو طاليس فى الطبيعيات والالهيات ٠

توفى ابن رشد فى مراكش يوم الخميس ٩ من صفر سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ثم حمل جسده إلى قرطبة حيث دفن مع أبائه واجداده (١٦٤) وما زال تمثاله فى ميدان عام بأسبانيا (انظر الشكل) ٠

ابن باجه :

هو أبو بكر محمد بن يحى الصائغ المشهور بابن باجه ولد فى مدينة سرقسطة ، ولا يعرف تاريخ ولادته ، درس فلسفة ارسطوطاليس وأطلع على كتب الفارابى وابن سينا والغزالى ودرسها ، اشتهر ابن باجه بنبوغه فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والفلك والرياضة ، والطب ، والصيدلة (١٦٥) ٠

ترجمت أعمال ابن باجه إلى اللاتينية والعبرية ، حيث عمل دراسة مفصله عن علم الحركة تدل على طول باعه فى هذا المجال ، وصحح كثيرا من المؤلفات فى الفلسفة والمنطق والطب والصيدلة والهندسة والفلك ، والنبات وعلم النفس وغيرها (١٦٦) ، انتقل إلى فارس واتهم بالالحاد ثم مات مسموما فى مدينة فاس سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م (١٦٧) ٠

النضر بن الحارث بن كلدية :

ابن خالة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى عاشر الأحبار والكهنة وأخذ عنهم صناعة الطب عن أبيه وغيره ، وكان كثير الأذى والحسد للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أمر الرسول بقتله بعد أن أسر فى موقعة بدر ٠ (١٦٨)

الدراسات العلمية وثيقة الصلة بالحياة البشرية ، ولها شأن عظيم فى تقدم المدنية الحديثة التى تقوم على الاختراع والاكتشاف والاختبار وتتمثل هذه الدراسات فى الطب ، والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء .

الطب يقول أبو القاسم صاعد الأندلسى : " وكانت العرب فى صدر الإسلام لا تعنى بشئ من العلم إلا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكره عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طراً إليها ، ولما كان عندهم من الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث عليها ، حيث يقول " يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحد هو الهرم " (١٦٩) .

ومن أشهر الأطباء العرب والمسلمين الآتى :-

- الحارث بن كلدة الثقفى : وكان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تعلم الطب فى فارس فى مدرسة بنيسابور ، وأشرف على عيادة كسرى الفرس خسروانو شروان (١٧٠) ، وتعلم أيضا فى اليمن . أطلق عليه طبيب العرب (١٧١) .
- ابن الحبر الكنانى : وكان طبيبا ماهرا فى أيام عمر بن عبد العزيز .
- عبد الملك بن ابجر : اسلم على يد الخليفة عمر بن عبد العزيز واعتمد عليه فى صناعة الطب ونقل تدريس الطب من الإسكندرية إلى انطاكية وجران فى أواخر القرن الأول الهجرى .
- استقدم أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م جورجيس ابن يختيشوع رئيس أطباء جنديسابور وكان نصرانيا عارفا باليونانية والسريانية والفارسية والعربية نقل للمنصور بعض كتبه من اليونانية إلى العربية وخلفه الكثير من أبناء اسرته فى بغداد .
- يوحنا بن ماسويه ، قلده الرشيد أمر الكتب الطبية التى عثر عليها بغزة وعموريه فنقل العديد منها للعربية وقدم فى الطب خلال عهدى المأمون والمعتصم والواثق وامتد به العمر إلى أيام المتوكل : نقل العديد من كتب التراث اليونانى وصار طبيبا خاصا للمتوكل (١٧٢) .

لم يكد عصر الترجمة ينتهى حتى كانت مؤلفات أبقراط وجالينوس وديستوريديس وغيرها قد أصبحت فى متناول أطباء المسلمين الذين لم يلبثوا أن فاقوا اساتذتهم ، فأقبلوا على فحص ماجاء بهذه المؤلفات وصححوا ما ورد فيها من أخطاء ثم أضافوا لها الكثير من خلال مؤلفات طبية اسلامية جديدة وظهر الأطباء المؤلفون مثل :

- على بن سهل ، الرازى ، على بن العباس ، وابن سينا وغيرهم ممن ازدهر الطب الإسلامى على أيديهم .
- الرازى : (٢٥٠-٣٢٠هـ / ٨٦٤-٩٣٢م) هو محمد بن زكريا الذى عرف فى أوربا باسم رازيس .

ولد فى الرى القريبة من طهران ، ونبغ فى الطب والكيمياء والفلسفة والموسيقى ، وكان من أعظم أطباء العالم الإسلامى ، تسلم منصب مستشفى الرى ، ثم أصبح رئيسا لمستشفى بغداد الكبير (١٧٣) ٠

ألف الرازى أكثر من مائة مؤلف أهمها كتابان فى الطب هما :

كتاب الحاوى : وهو أكبر موسوعة فى الطب كتبها طبيب بمفرده ، احتوى هذا الكتاب على طب اليونان والسريان والهند والعرب القدماء ، وأضاف إلى كل ذلك خبرته وتجاربه ٠

ومن محتوياته الحديث عن أمراض الرأس كالسكته والفالج وأوجاع العصب والمانخوليا ، والصرع والكابوس والتشنج ، وأمراض العيون والأنف والأذن والأسنان (١٧٤) ٠

وكان الرازى يسمى أعراض كل مرض ويصف العلاج الموافق له ثم يؤكد تشخيصه وصحة مداواته بأمثلة كثيرة من تجاربه ٠

الجدرى والحصبة : وهو كتاب آيه فى الملاحظة المباشرة ، والتحليل الدقيق وباكورة الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، والرازى هو أول طبيب يميز ويفرق بين هذين المرضين ، وأشار إلى انتقالهما بالعدوى ، وأكد على أهمية النبض والقلب والتنفس والبراز عند المريض بهما ، ثم تكلم عن التشوهات التى تحدث من جرائهما ، ونصح باتباع طرق يمكن أن تحول دون هذه التشوهات ٠

وتبدو قيمة هذا الكتاب من طبعه باللغة الانجليزية أربعين مرة ، وترجم إلى عدة لغات منها اللاتينية (١٧٥) ٠

ومن أعمال الرازى الآتى :

١- ربطه بين الكيمياء والطب ٠

٢- أول من استخدم الماء البارد فى علاج الحميات ٠

٣- تكلم عن الحصى فى الكلى والمثانة بدقة متناهية (١٧٦) ٠

٤- أول من استخدم أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح ٠

٥- برع فى قدح الماء الأزرق من العين ٠

٦- له جهود فى الأمراض التناسلية والتوليد (١٧٧) ٠

أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) ٠

يدين علم الطب الإسلامى لهذا العالم الطبيب باكتشاف الحشرة التى تسبب داء الجرب ، الذى نجح الطبيب الأندلسى ابن زهر فى علاجه علاجا شافيا ٠

ابن سينا :

قيل فيه إن الطب كان ناقصا فكمله ابن سينا ، وكان أبرع أطباء عصره وهو أشهر أطباء المسلمين وأبعدهم أثرا وكتابه " القانون" اعتبره الأوربيون خير ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية ، فهو قاموس فى

الطب والصيدلة ، وهو خلاصة تجاربه وقراءاته فى الطب (١٧٨) ، وفيه خلاصة أبحاث اليونان والفرس والكلدان والهنود والعرب ٠

ويتكون هذا الكتاب من خمسة فروع :

- الأول يشمل الكليات أى المبادئ العامة النظرية والعلمية ٠
- الثانى يتكلم فيه عن الأدوية ٠
- الثالث يتحدث عن أمراض كل عضو من الرأس إلى القدم ٠
- الرابع عن أمراض لا تختص بعضو ٠
- الخامس فى تركيب الأدوية وآلات الطب (١٧٩) ٠

ومن أهم أعماله :

- أول من وصف الحميره الخبيثة وما ينتج عنها من حمى سماها الحمى الفارسية ٠
- أول من اكتشف الطفيلية المسماه بالانكلستوما والمرض الناشئ عنها " الرهقان " (١٨٠) ٠
- أول من وصف السحابا وفرق بين الالتهاب الرئوى والبلورى ٠
- أشار إلى أمراض العقم وتكلم عن الأمراض الخبيثة والجهاز الهضمى (١٨١) ٠

وقد نقلت كتبه إلى أكثر لغات العالم ، وظلت مرجعا عاما لأطباء العالم ، وأساسا للمباحثات الطبية فى جامعات فرنسا وايطاليا ستة قرون ، وطبعت عدة مرات وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر الميلادى (١٨٢) ٠

أبو القاسم الزهراوى : (ت ٤٠٤هـ / ١٠١٣م)

ظهر فى الزهراء بجوار قرطبة فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وكان طبيب البلاط عند الحكم الثانى (٣٥٠-٣٦٦م) وسبب تفوقه هو أنه مؤلف الرسالة القيمة " التصريف لمن عجز عن التأليف " وتحوى ثلاثين جزءا وفيه قسم طبى وجراحى وصيدلى (١٨٣) ٠

وقد ورد فى هذه الرسالة آراء جديدة فى الجراحة ، منها ما يتعلق بكى الجراحات وسحق حصاة المثانة ، ولزوم تشريح الأجسام الحية والميتة ٠

- أول من استعمل ربط الشرايين فى الجراحات ٠
- استخدم الكى فى علاج النزيف ٠
- اخترع الكثير من آلات الجراحة ٠
- تكلم عن جراحة العين والأذن (١٨٤) ٠
- يذكر أنه نجح فى عملية شق القصبة الهوائية ٠
- اخترع منظار المهبل ، وتفتيت رأس الجنين إذا كان ضخما (١٨٥) ٠

ابن زهر (٤٨٧-٥٦٤هـ/ ١٠٩٤-١١٦٨م) .

هو أبو مروان بن أبى العلاء ، ولد فى اشبيليه ، واعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، له اختراعات فى علم الجراحة وألف كتاب الاقتصاد ، وكتاب التيسير ذا الأثر الكبير فى الطب الأوربى (١٨٦) .

ومن أهم أعماله :

- أول من شخص الالتهاب الجلدى " الحكة " .
- اكتشف الحقنة الشرجية المغذية وبالغذاء الاصطناعى لمختلف حالات شلل عضلات المعدة التى توسع فيها كل التوسع (١٨٧) .

ابن النفيس : (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٨م)

تلقى العلم فى دمشق وفى القاهرة ، أصبح رئيسا لمستشفى المنصورى فى القاهرة وصار عميدا للمدرسة الطبية ، وكان يلقى المحاضرات عن جالينوس وعن ابن سينا ، واهتم بعلم التشريح المقارن ، لكى يلم بالاختلافات ، ثم اعتمد التشريح طريقة له فى العمل والبحث (١٨٨) حتى وصل إلى النتائج التالية :

١- أن تغذية القلب بواسطة الدم الذى يجرى فى العروق الموزعة فى أنحاء القلب كله ، وليس فى البطين الأيمن من القلب ، وبهذا يكون أول من اكتشف الدورة الدموية فى الشرايين .
٢- يجرى الدم إلى الرئتين ليتشبع هناك بالهواء ، وليس لمدهما بالغذاء .
٣- هناك اتصال بين أوردة الرئتين وشرايينهما يتمم الدورة الدموية ضمن الرئة.
٤- ليس فى شرايين الرئتين أى هواء أو رواسب .
٥- أن جدران أوردة الرئتين أسمك بكثير من جدران شرايينها ، وهى مؤلفة من طبقتين .
٦- ليس فى جدار القلب الفاصل بين شطريه أى صمام ، بل أن الدم يجرى فى دورة متكاملة .

جمع ابن النفيس اكتشافاته هذه فى كتابه " شرح تشريح القانون" (١٨٩) .

أحمد بن إياس "حمدين بن أبا "

من علماء الأندلس اشتهر بعلم الطب ، حيث وضع عقاقير شافية وصل عددها إلى ١٠٠ عقار نباتى ، ووضع مؤلفات كثيرة شرح فيها بعض العمليات الجراحية المعقدة ، ومنها ما اختص بالرحم ، مما يؤكد أنه بنى قسما من خبرته على عمليات التشريح (١٩٠) .

الصيدلة :

هى علم صناعة الأدوية وكل ما يتصل بأسمائها وتصنيفها واكتشافها وأصحابها وتاريخها ، اشتهر بين العرب باسم الصيدلة أو علم المفردات أو العقاقير أو الأدوية (١٩١) أو الأقراباذين (١٩٢) .

والعرب هم المؤسسون الحقيقيون لمهنة الصيدلة ، حيث سبقوا الأمم فى انشاء الصيدليات ، وتحضير الأدوية ، وإقامة الرقابة على الصيدليات والصيادلة ، ونظموا جوانب الأدوية ، وكانت لهم

الصيدليات الخاصة والعامة ، وألحقوا بكل مستشفى صيدلية خاصة بها ، أما العامة فقد افتتحوها فى أواخر عهد المنصور ، وأنشأوا صيدليات خاصة بساحة المعركة كانت تصحب البيمارستانات المحمولة المتنقلة (١٩٣) .

علم الكيمياء (٢٠١) :

هو علم يرمى إلى اكتشاف الأجسام مع تحديد خصائصها وتفاعلاتها ، وما يمكن الانتفاع به من ورائها ، واتقاء أضرارها فى مجالات التطبيق العملى .

بدأ العرب يهتمون بهذا العلم عن طريق النقل عن تراث اليونان وعرف عندهم باسم الصفة ، وتذكر المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م) هو أول من اهتم بترجمة كتب الكيمياء حيث علمه راهب رومى اسمه مريانوس Mariaunus كان فى مدرسة الإسكندرية (٢٠٢) والعرب أول من اهتموا بعلم الكيمياء ولم تصبح علما حقيقيا إلا بفضل جهودهم العلمية وميلهم إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج (٢٠٣) .

وعندما أصبح لدى الأمة العربية الإسلامية علماء مشهورون فى ميدان الكيمياء بدأ هؤلاء بمراجعة ما ترجم إلى اللغة العربية ، مع الإضافة الجوهرية إليه عن طريق الشرح والتعليق ، وبهذا صارت مؤلفات الحضارات القديمة كأنها مؤلفات عربية بعد ما أدخلوا عليها التعديلات الكثير (٢٠٤) .

وقد درس علماء العرب والمسلمين عن كتب خواص المادة واستعملوا آلات خاصة لايجاد الوزن النوعى والكثافة النوعية لبعض المعادن والجواهر .

أهم المكتشفات العربية فى الكيمياء :

للعرب مآثر جمة فى الكيمياء ، ومن منجزاتهم فى هذا العلم الآتى :

- تحضير الحامض الأزوتى : وهو قوى المفعول ويستعمل ملح الأزون فى عملية اللحام .
- تحضير ماء الفضة (حامض النيتريك) وماء الذهب (حامض النيتروهيدروكلوريك) والسليمانى (كلوريد الزئبق) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وحجر جهنم (نترات الفضة) وكربونات الصوديوم ، وملح البارود (كربونات البوتاسيوم) والقلويات ، والزرنيخ ، والكحول المختلفة ، والنشادر الغازية وغيرها (٢٠٥) .

واستخدموا طرق عديدة من التجارب الكيميائية مثل التقطير ، والتصعيد والتلبر - هو عملية تصلب الأجسام المنصهرة أو المذابة - والتبخير والتخمير والتشميع - يتم بتليين المعادن ، وفصل الذهب عن الفضة باستخدام الحوامض (٢٠٦) .

كما صنف العرب الأجسام أربعة : معدنية - نباتية - حيوانية - مشتقة .

وقد صنف الرازى المعادن إلى ستة أصناف :

١- أرواح - غازات - الزئبق - النشادر - الكبريت - الزرنيخ ٠

٢- أجساد - معادن : هى الفضة - الذهب - النحاس - الحديد ٠

٣- حجارة مثل التوتيا - الكحل - الزجاج - الجبس ٠

٤- زاجات - أملاح - الزاج الأبيض - كبريتات الخرصين - والأزرق كبريت النحاس - والأخضر كبريتات النحاس - والشبه ٠

٥- بوارق : مثل النطرون ٠

٦- أملاح : مثل ملح البول - الملح الطيب - الملح المر ٠

بعض الصناعات التى اهتم بها علماء العرب والمسلمين فى علم الكيمياء ٠

كان للعرب والمسلمين نشاط بارز فى الصناعات الكيميائية ، وتحضير الأدوية - والعقاقير الطبية ، ودبغ الجلود ، وصقل المعادن وتحضير العطور - وصبغ الأقمشة ، والمفرقعات - والسجاد الصناعى - والصابون وآلات المختبرات الكيميائية - والشموع - والزيوت النباتية - والزجاج ٠

كما استخدموا القصدير فى طلاء الأوانى النحاسية لمنع التأكسد والصدأ ، ومزجوا النحاس بالقصدير ليحصلوا على النحاس الأصفر (٢٠٧) ٠

أشهر الكيميائيين العرب :

الكيميائيون العرب كثيرون هم :

خالد بن يزيد بن معاوية :

هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ، عاش فيما بين سنتى (١٠-٨٥هـ) نذر خالد نفسه للعلم والعلماء ، وهو الذى جعل لعلم الكيمياء مكانة مرموقة بين العلوم الأخرى حيث اهتم بهذا العلم ، فجلب العلماء من مصر ليترجموا العلوم الكيميائية والطبية من اليونانية والقبطية إلى العربية ، واهتم بعلم الطب لحاجة الشعب إليه (٢٠٨) ٠

جعفر الصادق :

هو أبو عبد الله جعفر الصادق ينتهى نسبة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه عاش جعفر فيما بين سنتى (٨٠-١٤٩هـ) ولد فى المدينة المنورة ، تتلمذ على يديه الامامان أبوحنيفة ومالك ، وجابر بن حيان الأزدى وغيرهم ، كانت له حلقات علمية فى المسجد ، وكان جعفر الصادق من أوائل علماء العرب والمسلمين الذين استغلوا فى مجال علم الكيمياء ، وقد اهتم بتعليم الكيمياء فى مدرسته التى بناها بالكوفة وكان يدرس العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية (٢٠٩) ٠

وصف جعفر الكثير من المعادن والعقاقير فى كتبه وذكرها جابر بن حيان وله دراسات قيمة فى العدوى والجراثيم والعقاقير ومنافعها ومضارها ، كما بحث فى الجهاز الهضمى والبولى والبصرى والسمعى وصارت بحوثه متداولة بين المتخصصين فى عصره وتدرس لطلاب العلم آنذاك (٢١٠) ٠

جابر بن حيان (١٠١-١٩٧هـ) :

هو أبو عبد الله جابر بن حيان الأزدى ، ولد فى طوس فى خراسان ، هاجر والده حيان بن عبد الله الأزدى من اليمن إلى الكوفة فى أواخر عصر بنى أمية ، وعمل فى الكوفة صيدليا وبقى يمارس هذه المهنة مدة طويلة وعندما بدأ بنو العباس يطالبون بنى أمية بالخلافة ساندهم حيان ، فأرسلوه إلى طوس فى خراسان لنشر أفكاره ، وهناك ولد النابغة جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء ، وكيموى العرب الأول (٢١١) ٠

لقد نبغ جابر بن حيان فى علم الكيمياء فصنف عددا كبيرا من الكتب الأصلية التى أدهشت معاصريه ، ولقد تتلمذ جابر بن حيان على مؤلفات خالد بن يزيد بن معاوية ، ومن أستاذه الإمام جعفر الصادق ، قام جابر بكثير من العمليات المخبرية كالتبخر والتكليس والتصعيد ، والتقطير ، والتكثيف والترشيح ، والإذابة ، والصهر ، والبلورة ، كما حضر عددا كبيرا من المواد الكيميائية مثل : أكسيد الزئبق ، وحامض الكبريتيك وحامض النيتريك ، وحامض الأزوتيك ، والماء الملكى الذى يذيب الذهب (٢١٢) ٠

وله مؤلفات كثيرة فى مختلف العلوم ومن كتبه فى الكيمياء : الرحمة ـ الميزان ـ السموم ، والخواص الكبير والاستتمام وقد أقسم جابر بن حيان السموم إلى أنواع ثلاثة ـ حيوانية : مرارة الأفعى ومرارة لسان السلحفاة ، وذيل الإبل ٠

نباتية : الأفيون والحنظل ٠

حجرية : الزنجار ، الزئبق ، الزرنيخ ٠

كما عرف استخدام ثانى أوكسيد المانجنيز فى صناعة الزجاج لإزالة اللون الأخضر أو الأزرق من الزجاج (٢١٣) ترجمت كتب جابر بن حيان إلى اللاتينية فى وقت مبكر ، وكان لها أثر كبير فى تكوين مدرسة كيميائية فى أوربا ، ونقل كتابة المعروف بالاستتمام إلى الفرنسية (٢١٤) ٠

وهو أول من استعمل الموازين الحساسة ، والأوزان المتناهية فى الدقة فى تجاربه العلمية ، كالقيراط والدانق والدرهم والمثقال والأوقية والرطل (٢١٥) ٠

ومن أشهر علماء العرب والمسلمين فى الفلك ٠

الكندى :

وقد وضع ستة عشر مؤلفا فى علم الفلك ، وتسعة عشر مؤلفا فى علم النجوم ٠

أبو معشر البلخى :

وأشهر كتبه (مدخل إلى علم أحكام النجوم) ٠

محمد بن إبراهيم الفزارى : ت ١٨٩هـ / ٣٠٤م ٠

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفزارى ولد ببغداد ، وقد أحاطه الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور بالرعاية والتقدير تتلمذ على يد أبيه أبى اسحق إبراهيم الفزارى (ت ١٦٠هـ / ٧٧٦م) ، وكان عالما فى الهيئة ، قام محمد بن إبراهيم بترجمة كتاب " سدهانتا " من الهندية إلى العربية ، وصنف كتاب " السند هند " وصار من أهم المراجع التى يرجع إليها الباحث فى علم الفلك أيام الخليفة العباسى المأمون (٢٥٢) ٠

ومحمد بن إبراهيم الفزارى هو أول من صنع اسطرلاب فى الإسلام ، وألف كتابا يصف طريقة العمل به وسماه (كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح) ٠

ومن مؤلفاته فى علم الفلك كتاب " العمل بالاسطرلاب ذات الحلق " (٢٥٣) ٠

السرخسى : ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م :

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسى ، توفى فى بغداد ، كان معلما للخليفة المعتضد بالله العباسى ٠

تفنن السرخسى فى علم الفلك ، فترجم المصادر الهامة للعلوم اليونانية والهندية والفارسية فى هذا المجال ، وقدم دراسة نظرية وتاريخية فيه ، حيث جمع آراء العلماء الأوائل فى كتابه المشهور (كتاب المدخل إلى صناعة النجوم) الذى يحتوى على موضوعات هامة فى علم الفلك ٠

البتانى : (٢٣٥-٣١٧هـ / ٨٤٩-٩٢٩م)

هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتانى ، ولد فى بتان من نواحى حران على نهر البلخ أحد روافد نهر الفرات ، فى دمشق (٢٥٨) ٠

اشتهر بألقاب كثيرة منها : بطليموس العرب ، وقاموس كليات المعارف عند العرب والمسلمين ، وكذلك لقب بالرقى - نسبة إلى الرقة الواقعة على نهر الفرات فى العراق - قام البتانى بأرصاد كثيرة (٢٥٩) :

- وضع جداول فلكية على مستوى كبير من الأهمية والاتقان والدقة " الزيج الصابى : ٠
- ابتكر الدوال المثلثية المعروفة ٠
- له العديد من الكتب فى الفلك منها " الشرح المختصر لكتب بطليموس الفلكية الأربعة " ٠
- درس " أبعد نقطة بين الشمس والأرض " ٠
- حدد بطليموس فى كتابه المجسطى السنة الشمسية لـ ٣٦٥ يوما وخمس ساعات و٥٥ دقيقة و١٢ ثانية ، بينما توصل البتانى بأرصاده المتناهية فى الدقة أن طول السنة الشمسية ٣٦٥ يوما ، و٥ ساعات و٤٦

دقيقة و٣٢ ثانية أما القيمة الحقيقية التى توصل إليها علماء العصر الحديث فهى ٣٦٥ يوما و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٤٦ ثانية ٠

- صحح البتانى قيمة الاعتدالين الصيفى والشتوى (٢٦٠) ٠

ترجمت أعماله إلى اللاتينية والإسبانية عدة مرات ، ويعد من أشهر علماء الفلك فى العالم (٢٦١) ٠

البوزجانى (٣٢٨-٣٨٨هـ / ٩٣٩-٩٩٨م)

هو أبو الوفاء محمد بن اسماعيل بن العباس الحاسب ، ولد فى بؤجان بين هراة ونيسابور فى خراسان ، وتوفى فى بغداد (٢٦٢) ٠

عمل البوزجانى مرصدا فى بغداد ، ونال شهرة عظيمة من دراسته لإنتاج كل من اقليدس وديوفانتوس وبطليموس ، وكذلك تصحيحه للأخطاء التى وقع فيها العلماء الكبار ، كما شرح وعلق على مؤلفات البتانى فى علم الفلك ، فهو من ألمع علماء العرب والمسلمين فى علمى الفلك والهندسة (٢٦٣) ٠

البيرونى (٣٦٢هـ / ٩٧٢م)

ولد سنة ٣٦٢هـ فى بيروت بالقرب من مدينة كاث والتى تعتبر أكبر مدن قلبقستان فى القرون الوسطى ، ويذكر ابن أبو أصبيعة فى كتابة أن بيرون مدينة فى السند ، والسند مقاطعة فى باكستان عاصمتها كراتشى (٢٦٦) ٠

وهو مؤلف عربى من أصل فارسى وقد سبق ذكره فى علم الفيزياء ، ولد بضاحية من ضواحى خوارزم ، له تصانيف عديدة فى علم الفلك منها : القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم ، أهداه لسلطان غزنه السلطان مسعود ٠

-التفهيم لأوائل صناعة التنجيم (٢٦٧) ٠

ويعد البيرونى من أعمق المفكرين المسلمين فى العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية ، وله كتاب الأثار الباقية عن القرون الخالية فى تقاويم وعادات الشعوب القديمة (٢٦٨) ٠

- وهو أول من أثبت كروية الأرض وقاس قطرها ٠

-وأثبت أن الأرض تدور حول محورها ، وفسر الجاذبية الأرضية ٠

-أول من صحح نظرية الإغريق القائلة بأن الشمس تدور حول الأرض فتسبب الليل والنهار ٠

- ألف رسالة فى فى المعادن ٠

- أجرى البيرونى دراسات مستفيضة على ظاهرتى الكسوف والخسوف (٢٦٩) ٠

- شرح الشفق والغسق ٠

- أثبت أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت(٢٧٠) ٠

المؤسسات التعليمية

عرف العالم الإسلامى طوال عهوده المختلفة عددا كبيرا من القنوات التى عن طريقها وقف الكثيرون على العديد من أطراف وجوانب المعرفة التى خاضوا إليها وأسهموا فى تطويرها ونموها ، مما عرف باسم المؤسسات التعليمية وشملت هذه المؤسسات الآتى :

١- **المساجد :**

تاريخ التربية الإسلامية يرتبط ارتباطا وثيقا بالمسجد ، ولهذا فالحديث عنه حديث عن مكان كأحد المؤسسات التعليمية لنشر الثقافة الإسلامية ٠

فمنذ بعث النبى ﷺ برسالة الإسلام والمسلمون يتخذون من المسجد بيتا يتعبدون فيه لله ، واتخاذه أيضا مكانا تتم فيه عملية التربية والتعليم حيث قامت حلقات الدراسة فى المسجد ، واستمرت كذلك على مر السنين والقرون فى مختلف البلاد الإسلامية دون انقطاع ولعل السبب فى جعل المسجد مركزا ثقافيا هو أن الدراسات فى السنوات أولى للإسلام كانت دراسات دينية تشرح تعاليم الدين الجديد وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه ، وهذه تتصل بالمسجد أوثق اتصال ، ثم أن المسلمين اتخذوا من المسجد مكانا للعبادة ومعهدا للتعليم ، ودارا للقضاء ، وساحة تتجمع فيها الجيوش ومنزلا لاستقبال الوفود والسفراء (٢٩١) ٠

والمسجد هو أقدم الأبنية التى اهتم بها المسلمون ، وهو المؤسسة العلمية الأولى فى الإسلام ، وهو مركز الإشعاع الثقافى والحضارى الذى امتد لينتشر فى الأقاليم التى فتحها المسلمون (٢٩٢) ٠

والمسجد النبوى فى المدينة المنورة هو أول نموذج من هذه المؤسسات التعليمية الذى وضعت فيه اللبنات للتعليم حيث كان المسلمون يعقدون به حلقات العلم ، وكانت تعقد أيضا فى مسجد قباء (٢٩٣) ٠

وقد أصبح المسجد النبوى الأساس الذى سار عليه تخطيط المساجد الإسلامية وظل المسجد النبوى على حاله سنين طويلة ، حتى ولاية الوليد بن عبد الملك الخلافة وأمر بهدم المسجد وبنائه من جديد (٢٩٤) ٠

ويروى ابن خلكان أن حلقات الدرس كانت تعقد بالمسجد النبوى فى المدينة ومن أشهر هذه الحلقات ربيعة الرأى فقيه أهل المدينة وكان مالك بن أنس يأتيه ليتعلم بين يديه (٢٩٥) ٠

ومع حركة الفتوح الإسلامية أقام المسلمون مساجدهم فى الأقاليم المفتوحة لتكون مراكز لنشر الثقافة الإسلامية ، ومراكز للعلم والمعرفة ٠

حيث أصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون، أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها ، ومثال لذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما فتح البلدان كتب إلى أبى موسى وهو

على البصرة ويأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة ، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك (٢٩٦) ٠

كما بنى عقبة ابن نافع المسجد الجامع فى القيروان ، وبنى موسى بن نصير مسجدا فى أغمات لنشر تعليم الإسلام وكانت هذه أول المساجد الإسلامية التى تأصلت فيها اللغة العربية وأصبحت لغة العلم والعلماء ، وفيها وضعت أصول تعليم اللغة ، ففى المسجد الجامع بالبصره كان العالم الجليل " الخليل بن أحمد " يعقد مجلسه العلمى ، وعلى يديه تتلمذ أئمة النحو المسلمين وفى مسجد الكوفة كانت دروس القراءات تعقد ، وكان أول من جلس لإقراء القرآن الكريم وتجويده وضبطه " عبد الله بن حبيب بن ربيعه الضرير " وفى الكوفة ظهرت مدرسة لتفسير القرآن الكريم وكان من أهم رجالها " سعيد بن جبير " وكانت حلقات التفسير أكبر حلقات العلم بهذا المسجد " (٢٩٧) ٠

أما جامع عمرو فكان أول الجوامع التى أنشئت بمصر ، وأطلق عليه اسم الجامع العتيق ، ويذكر المقريزى : " بالجامع زوايا يدرس فيها الفقه منها زاوية الإمام الشافعى ، والزاوية المجدية ، والزاوية الصاحبية والزاوية الكمالية ، ويذكر أنه كان بالمسجد بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه " (٢٩٨) ٠

ومن أشهر المساجد التى بنيت بالعالم الإسلامى خلال العصر الأموى جامع دمشق : الذى بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك فيما بين عامى ٨٨-٩٦هـ / ٧٠٦-٧١٤م وكان هذا المسجد مركزا هاما من مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى ، ويذكر ابن جبير أنه كان فيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها إجراء واسع ، وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى ، للطلبة المغربة ، وفى الجانب الغربى أيضا مقصوره للخليفة يجتمعون فيها للتدريس ويصلون بها ، وفى الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس (٢٩٩) ٠

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة للدرس وذلك ٤٥٦هـ، وكان الناس يجتمعون إليه فى الصباح كل يوم فيقرأ لهم (٣٠٠) ٠

ولما أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ ، اهتم بتشييد الجامع ، وجعله المنصور فى وسط المدينة المدوره ، ملاصقا لقصره ، وقد جدد هذا المسجد فى عهد هارون الرشيد (٣٠١) ٠

وقد كان هذا المسجد قبله انظار الأساتذه والطلاب فى ذلك العهد ففى سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م كان البغدادى يعقد به دروسه (٣٠٢) ، وكان الكسائى يجلس فيه ليقرأ فى علوم اللغة (٣٠٣) ، وكذلك أبو العتاهية الذى كان يملى من شعره فى هذا المسجد (٣٠٤) ٠

ومن العلماء الأفذاذ الذين درسوا فى الجامع الأموى القراءات والتفسير والعربية ، علم الدين السخاوى ، ومن رجال الحديث فى هذا الجامع القاسم ابن الحافظ الكبير بن عساكر ، وأحمد بن فرج الأشبيلى نزيل دمشق ، والمتوفى سنة ٦٩٩هـ (٣٠٥) ٠

ومن علماء الفقه بجامع بنى أميه ضياء الدين الدولعى خطيب الجامع (٣٠٦) ، ومدرس الزاوية الغربية ، وعماد الدين بن الحرستانى (٣٠٧) وحمود بن عبد الله أبو المثنى المراغى ، وهو فقيه شافعى أصولى ومن علماء النحو فى الجامع الأموى ابن الحاجب ، وابن مالك ، وكذلك على بن الحسن بن أبى الفضائل وكان له حلقة كبيرة بالجامع لاقراء القرآن والفقه والنحو ، وله فى الفرائض يد باسطه ، توفى سنة ٥٦٢هـ (٣٠٨) ، وكان أبو شامه من أعيان العلماء يدرس التاريخ بالجامع الأموى ٠

ويذكر المقريزى أن أحمد بن طولون رتب فى مسجده دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الأربعة ، ودرسا فى القرآن الكريم ، ودرسا فى الحديث ، ودرسا للطب ، ٠٠٠ وعمل بجواره مكتبا لإقراء ايتام المسلمين (٣٠٩) ٠

ونهج الفاطميون نفس المنهج فى نشر الثقافة الإسلامية ، عندما بنوا الجامع الأزهر ففى عهد المعز لدين الله الفاطمى جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيروانى للدرس فيه ، وقرأ على الحضور مختصر أبيه فى فقه الشيعه ، وكانت أولى حلقات الدرس فى الجامع الأزهر (٣١٠) ٠

فعلى الرغم من أن المسجد كان المركز الرئيسى للتعليم فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن ذلك لم يحل دون قيامه صلى الله عليه وسلم بالدعوى للتعليم فى أماكن أخرى وحيثما اجتمع الناس ٠

وعرفت المساجد آيات عدة من إخلاص التلاميذ والمعلمين وحديثهم فى طلب العلم وتعليمه فى المسجد ، وهكذا كانت المساجد فى الإسلام مراكز للإشعاع الفكرى والحضارى على مر العصور ، واهتم بها الخلفاء والحكام والأمراء ، وأوقفوا عليها الأموال والضياع والأراضى تشجيعا للعلم والعلماء ، وقد عاشت المساجد الإسلامية تاريخ الأمة معبرة عن التطورات الحضارية المختلفة على مر العصور ٠

وكانت مساجد المسلمين مدارسهم وجامعتهم التى فيها ترعرعت عقولهم وأبدعت فيما أخرجت للدنيا علوما انتفع بها الناس ففيها ألفت أمهات الكتب مثل، كتاب الموطأ الذى ألفه مالك بن أنس بمسجد المدينة ، وفى جامع عمرو ألف الشافعى كتاب الأم ، وفى المسجد الأقصى بالقدس كتب الغزالى جزءا من احياء علوم الدين ، وقد أدت المساجد الإسلامية رسالتها فى نشر الثقافة الإسلامية ، وظلت مراكز شعاع مضيئة لحضارة الإسلام ٠

الجامع الطولونى :

ويذكر أن المسجد ظل خرابا إلى سنة ٦٩٦هـ (٣١١) ، وعنما تسلطن المنصور لاجين ، عاد إلى مكانته ، حيث يذكر أنه لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون فاتح عكا ، هرب واختفى بمنارة الجامع الطولونى ونذر أن نجاه الله من هذه الفتنه ليعمرنه ، فلما نجاه أمر بتجديده (٣١٢) وعمارته ، ورتب فيه دروسا لالقاء الفقه على المذاهب الأربعة ، ودروسا لتفسير القرآن الكريم ، ودرسا للحديث ودرسا للطب (٣١٣) ودرسا للقراءات ودرسا للميقات (٣١٤) ٠

المدارس :

مع اتساع دائرة الحضارة الإسلامية ، وتطورها ، تجاوزت الرغبة فى طلب العلم نطاق العلوم الدينية إلى غيرها من العلوم التعليمية والعقلية ، وكان أن ظهرت حركة الترجمة لتنقل إلى المسلمين معارف أصحاب الحضارات القديمة ، ومن ثم ظهرت مراكز تعليمية أخرى مثل المدرسة (٣١٥) ٠

أحس صحابة الرسول ﷺ بحاجتهم إلى أماكن خاصة للتعليم وعدم الاكتفاء بالمسجد وحده كمركز تعليمى ، وهذا ما فعله عبد الله بن العباس فى اخريات أيامه بعد أن استوطن الطائف حيث اتخذ من منزلة معهدا لدراسة العلم بها (٣١٦) ٠

وانتشر فى العالم الإسلامى بعد ذلك فكرة اتخاذ الدور والقصور أماكن للعلم ولكنها لم تسمى مدارس ، ويذكر أن فكرة إنشاء المدارس فى المشرق الإسلامى بدأت عندما فكر بعض الدارسين بناء مدارس خاصة بهم لاملاء الحديث أو لالقاء محاضرات الفقه ، مثال لذلك أبا حاتم محمد بن حيان البستى المتوفى سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م حيث اتخذ من داره مدرسة لأصحابه وأفرد فيها مكان لسكنى الطلبة الغرباء من أهل الحديث والمتفقهة ، وأنشأ بها خزانه للكتب أودع بها ما عنده من الكتب ، وعين لها خازنا يقوم بإحضار الكتب لمن يريد القراءة أو النسخ ، وشرط عليه ألا يخرج منها شئ خارج المدرسة كما كان للطلبة الدارسين بها بعض الجرايات الخاصة بنفقتهم (٣١٧) ٠

ويذكر المقريزى أن المدارس كانت مما استحدث فى الإسلام إذ لم تكن نعرف زمن الصحابة والتابعين " وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنة الهجرة " أى فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى (٣١٨) ٠

ويقال أن أول مدرسة بنيت فى الإسلام هى المدرسة البيهقية فى نيسابور بإقليم خراسان وتبعها المدرسة التى أنشأها الأمير نصر بن سيكدلين ، ثم تتابع إنشاء المدارس بعد ذلك ففى عهد السلاجقة خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى أنشأ نظام الملك والذى وزر للسلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وكذلك السلطان ملكشاه المدرسة النظامية ببغداد ، وقد شرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م وتم البناء فى سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م (٣١٩) ومن أشهر من قام بالتدريس فيها الشيخ أبو اسحق الشيرازى الفيروزا بادى صاحب كتاب التنبيه فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى والغزالى (٣٢٠) ٠

واقتدى بنظام الملك سلاطين السلاجقة الذين جاءوا بعد ملكاشاه كما اقتفى أثرهم الأتايكه الذين أقاموا امارات على القاضى دولة السلاجقة (٣٢١) ٠

ونظرا لازدياد عدد الطلاب والمتعلمين كانت هناك الحاجة لإقامة مراكز خاصة بالتعليم يكون الهدف منها استيعاب تلك الأعداد ليمارسوا فيها نشاطهم ، ففى بلاد الشام أقام بها نور الدين محمود بن الزنكى مدارس الشافعية والحنفية فى دمشق وحلب حماه وحمص ورفح والرحبه وأعمالها ، ومن أهم هذه المدارس المدرسة النورية التى بناها للفقهاء الشافعية (٣٢٢) ٠

أما المدارس كمنشآت تعليمية فى العصر الفاطمى ، فيرى المقريزى " إن أول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب ابن كلس ،

يعمل ذلك بالجامع الأزهر ٠ ثم عمل فى دار الوزير يعقوب ابن كلس ٣٦٩هـ / ٩٨٠م مجلس يحضره الفقهاء ، فكان يقرأ فيه كتاب فقه على مذهبهم ٠

- المذهب الشيعى - وعمل أيضا مجلس جامع عمرو بن العاص فى مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير وهذا المعروف بالرسالة الوزيرية ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة (٣٢٣) ٠

وعلى الرغم أن الفاطميين عملوا على القضاء على دراسة السنة والفقه السنى ، إلا أنه أنشئت خلال العصر الفاطمى مدرستان سنيتان هما مدرسة الوزير رضوان بن الوحشى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٨م وهى أول مدرسة فى الإسكندرية لتدريس المذهب المالكى (٣٢٤) ، وقرر فى تدريسها الفقيه أبا الظاهر بن عوف (٣٢٥) ٠ وعرفت باسم الحافظة " نسبة إلى الخليفة الفاطمى أو العمومية نسبة إلى الفقيه أبا الطاهر بن عوف ٠

وبعد أربعة عشر سنة من إنشاء المدرسة الحافظية أنشأ الوزير السنى العادل بن السلار مدرسة ثانية فى الإسكندرية ، لتدريس المذهب الشافعى ، وذلك سنة ٥٤٦هـ / ١١٥٠م (٣٢٦) وقرر فى تدريسها الحافظ السلفى ، وعرفت باسم الدرجة السلفية ٠

وبسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية شهدت البلاد توسع كبير فى إنشاء المدارس ، حيث اقتدى صلاح الدين الأيوبى بسيده نور الدين محمود الذى بنى دمشق وحلب ٠

وأعمالهما عدة مدارس مثل المدرسة الناصرية ، المدرسة القمحية ، المدرسة الصلاحية ، غيرها فى مصر سنة ٥٨٠هـ ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس أولاده وامرائه ، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من سلاطين المماليك ، وامرائهم وأتباعهم (٣٢٧) ، وتمتاز تلك الفترة بأن الأمراء والأميرات والتجار أسهموا فى إنشاء المدارس وفى رعاية العلم (٣٢٨) ٠

وبتتبع المدارس فى مصر نجد أن بعضها اختص بمذهب واحد مثل المدرسة السيوفية وقد اختصت بالمذهب الحنفى ، والمدرسة الصالحية التى أنشئت سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م خلال عهد الصالح نجم الدين أيوب قد جمعتا بين تدريس المذاهب الأربعة : المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى (٣٢٩) ٠

وبعد ذلك كثرت مدارس المذاهب الأربعة فى مصر مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م ، والمدرسة المنصورية التى أنشأها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، والمدرسة الناصرية التى بدأ كتبغا بناءها وأتمها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ ، والمدرسة التى أنشأها السلطان الناصر حسن بجامعه تجاه القلعة سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م (٣٣٠) ٠

وإذا كانت المساجد قد قامت بدور التعليم كما ذكرنا فإن المدارس كانت تمتاز عن المساجد باحتضان العلوم التى يكثر فيها الجدل والنقاش كعلم الكلام ، وعلم المناظرة ، ثم كان بها مدرسون معينون من قبل الحكومات ، ويتقاضون مرتبات محددة وذلك بخلاف المساجد التى كان يفد لها القضاء والشيوخ دون إذن من أحد ، وبالتالى كانوا لا يتقاضون أجرا ٠

- كان عدد التلاميذ بالمدرسة محدودا غالبا دون المساجد ، كما كان ينالهم دائما نصيب من الأوقاف التى توقف على المدارس (٣٣١) ٠
- كانت المدرسة تحوى ديوان وهو ما يرادف قاعة المحاضرات فى التعبير الحديث ، وما كانت المدرسة تخلو منه ، فهو أبرز مرافقها وأهمها ولا يوجد فى المسجد (٣٣٢) ٠
- ومن خواص المدرسة أيضا المساكن التى تبنى فيها ليعيش فيها الطلاب والمدرسون الذين ينسبون إليها ، وقد حفلت أغلب المدارس الإسلامية بهذه المساكن وما يتبعها من المرافق كالمطبخ وحجرة الطعام وما شابهما (٣٣٣) ٠

وإذ نظرنا إلى المسجد والمدرسة نجد أن المسجد كان مكانا للعبادة والدرس، وكانت المدرسة مكانا للدرس والعبادة ، حيث وجدنا مساجد يعين بها مدرسين (٣٣٤) ، كما وجدنا بعد المدارس يعين بها مؤذنون ، ولها مآذن ، وتقام بها المنابر للخطابة ، وأقيمت بها الصلوات المفروضة ، وصلاة الجمعة والعيدين أيضا (٣٣٥)

الزوايا ـ الخوانق ـ الربط :

وهى جميعا أماكن أعدت لإقامة الصوفية وانقطاعهم فيها ، ورغم اختلاف الأسماء ، إلا أنها جميعا قامت لخدمة غرض واحد ٠

الزوايا (٣٣٦) :

أنشئت الزوايا أول الأمر ملحقة بالمساجد ، ثم تطورت إلى أبنية صغيرة للصلاة والعبادة يتخذها أحد المشايخ المشهورين بالتقوى والصلاح سنا له ولمن يرد عليه من العابرين ، ويقوم بالوعظ والإرشاد فيها لمن يتردد عليه من الناس ، وكذلك تطلق على الرباط الذى تنشئه إحدى الطرق الصوفية (٣٣٧) ٠

ومثال لتلك الزوايا فى الجامع الأموى بدمشق يذكر ابن جبير أنه بالمسجد عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد من ازدحام الناس ، وشاهد ابن جبير الصومعة الغربية له ، المكان الذى كا يعتكف فيه أبو حامد الغزالى ٠٠٠ كما دخل زاوية المالكية فى الجانب الغربى من الجامع ، وشاهد الطلبة المغاربة مجتمعين فيها (٣٣٨) ٠

وقد سجل لنا المفريزى بعض التفاصيل عن زوايا ثمان كانت تدرس فيها شتى العلوم بجامع عمرو بن العاص ٠ ومنها :

- **زاوية الإمام الشافعى** : درس بها الإمام الشافعى فعرفت باسمه ، وأوقفت عليها الأوقاف خلال العصر الأيوبى ٠
- **الزاوية المجدية** : وتقع بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس وكان قد رتبها مجد الدين أبو الأشبال وزير الملك الأشرف ، ووقف على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة ٠
- **الزاوية الصاحبية** : رتبها الصاحب محمد بن فخر الدين ، وجعل لها مدرسين : أحدهما مالكى والأخر شافعى ، وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة (٣٣٩) ٠

- **زاوية الشيخ خضر** : وهى خارج باب الفتوح ، تشرف على الخليج الكبير ، عرفت بالشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى ، شيخ السلطان الظاهر بيومى حيث قربة السلطان بيبرس وبنى له زاوية بجبل المزه ،

الخوانق (٣٤٤) :

وهى من العمائر الدينية الهامة التى كثر انتشارها فى العالم الإسلامى وذلك نظرا لإنتشار حياة التصوف والزهد ، حيث خصصت الخوانق لايواء المتصوفة والمنقطعين للعبادة ، وقد اتخذ الحكام المسلمين خلال القرن السادس الهجرى من المتصوفة جلساء لهم وأخذوا بنصائحهم (٣٤٥) ٠

وغالبا ما كان يقوم بانشائها أحد السلاطين أو الأمراء أو غيرهم من ذوى اليسار والتقوى ، وترتيب بعض الأوقاف للصرف من ريعها على ما ينزل فيها من الصوفية (٣٤٦) ٠

وأول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبره ، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دورا واسكنهم فيها ٠ وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره وكان ذلك فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه (٣٤٧) ٠

ومنم الخانقاوات الشهيرة :

- **الخانقاه الصلاحية " أو سعيد السعداء " :**

أقامها السلطان صلاح الدين ، وسميت باسم سعيد السعداء ، نسبة إلى أحد الأساتذة المحكين خدام القصر الفاطمى ، وعتيق الخليفة المنتصر بالله قبل سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وكانت داره مقابل دار الوزارة وسكنها من الوزراء طلاع بن رزيك ، وشاور ، وابنه الكامل ، ثم حولها صلاح الدين خانقاه ، برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وولى عليهم شيخا هو ووقف عليهم بستان الحبانية بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة (٣٤٨) ٠

ومن هذا يتضح أن أول من أحدث الخوانق فى مصر هو السلطان صلاح الدين الذى جرى على سنة رسول الله صلى الله علية وسلم فى إيواء الغرباء من المسلمين وإعداد الأماكن التى تصلح لإقامتهم ، وإجراء الأرزاق التى تعفيهم من مذلة الكسب وتتيح لهم التفرغ للعبادة والعلم ٠

ثم أتى المماليك فجروا على سنة أساتذتهم الأيوبيين فى بناء الخوانق فيها ٠

الخانقاه والبيبرسية :

بناها الأمير ركن الدين بيبرس الحاشنكير سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م وذلك فى موضع دار الوزارة ، ومات فأغلقها من بعده السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ذكرها المقريزى بقوله : " وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وأوسعها مقدارا ، وأتقنها صنعة " (٣٤٩) ٠

- **خانقاه سرياقوس**

أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث بدأ فى بنائها سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٢م وأتم بنائها سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى ٠

وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمع ، وبنى حماما ومطبخا بها ، وخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى لإسماع الحديث النبوى ، وسمع السلطان ذلك ، وكان جامعا موقورا وقرر السلطان فى مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصراى ، ولقبه شيخ الشيوخ (٣٥٠) ٠

- **الربط (٣٥٤) :**

كانت الأربطة تستخدم فى تدريس العلوم الدينية كالوعظ والإقراء والحديث وغيرها ، وكانت منتشرة بالدولة الإسلامية ، وخاصة السواحل ، حيث كان يقطنها المجاهدين المرابطة (٣٥٥) ٠

وكانت الأربطة منتشرة فى مناطق أخرى غير السواحل ، ومثال لذلك الأربطة التى كانت منتشرة فى القرافة الكبرى بمصر ، نذكر منها رباط الحجازية ، الذى أمرت بإنشائة " فوز " جارية على بن أحمد الجرائى وذلك سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م ووقفته على واعظه زمانها السيدة الحجازية ، ورباط التاريخ وقد أمرت ببنائه الجهة الأمرية المعروفة بجهة الدار الجديدة سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، ورباط الأندلس وقد أمرت بإنشائه السيدة " علم الأمرية " وتسمى " ست القصور " سنة ٥٢٦هـ / ١٣٣١م ، وخصصته للعجائز والأرامل (٣٥٦) ٠

ومن الأربطة أيضا :

رباط الصاحب :

أنشأ الصاحب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م ووقف عليه أبوه الصاحب بعد موته عقارا بمدينة مصر ، وشرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المحرومين (٣٥٧) ٠

الكتاتيب (٣٦٠) :

أنشئت الكتاتيب لتعليم الأطفال مبادئ القراءة وكتابة الخط العربى وتحفيظ القرآن الكريم ، إلى جانب علوم اللغة ، وكان الكتاب أسبق أنواع المؤسسات التعليمية فى العالم الإسلامى ، حيث اتخذ المسلمون منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب مدرسة يتعلم فيها أبناؤهم وقد ظل الكتاب ينمو شيئا فشيئا حتى انتشر انتشارا كبيرا فى البلدان الإسلامية (٣٦١) ٠

ولم تظهر الكتاتيب فى بادئ الأمر فى صدر الإسلام بشكل كبير ولكنها بدأت تكثر فى القرن الثانى الهجرى ، وخلال القرون التالية له (٣٦٢) ٠

ويقال أن أول من تعلم الكتابة العربية من أهل مكة هو سفيان ابن أميه ابن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهره ، وقد تعلماها من بشر بن عبد الملك الذى تعلمها من الحيرة (٣٦٣) ٠

وكان الكتاب فى بادئ الأمر يتخذ مكانه فى المسجد فى إحدى زواياه أو أمام أحد محاربه ، وذلك للعلاقة الدينية التى تربط بينهما ، ولكنه انفصل بعد ذلك ، وكان الكتاب بالمسجد يتخذ شكل حلقة من حلقات الدرس المختلفة ، حيث يجلس المعلم ومن حوله الصبيان يعلمهم ، وكان يساعده فى ذلك العريف (٣٦٤)

وكان السبب فى انفصال الكتاب عن المسجد ، أنه قد وردت توصيات كثيرة بألا يكون فى المسجد ، وذلك لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسه (٣٦٥) ٠

وأيضا كره الكثير من المسلمين وجود الأطفال بالمساجد لما فى ذلك من التشويش على المصلين وعلى حلقات الدرس ، ولما قد يحدثه الأطفال من العبث بحوائط المسجد وبنائه ، وهو المكان المقدس الذى تقام فيه شعائر الإسلام (٣٦٦)

وقد ورد فى كتب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن الرسولﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ، ولا يتحرزون من النجاسات بل يتخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق (٣٦٧) ولكنه على الرغم من ذلك ظل المعلمون يتخذون الكثير من الكتاتيب بالمساجد أو الزوايا أو ألحقت بها ، فى غرفة ملتصقه ، وذكرت أمثلة كثيرة من هذه الكتاتيب الملحقة بالمساجد والزوايا أو ردها ابن حوقل (٣٦٨) ٠

أما الكتاب المستقل بنفسه فقد اتخذه المعلم بعيدا عن المسجد فى حجرة من داره أو أى مكان آخر ، وكان الكتاب يفرش بالحصر غالبا وكان يجلس عليها الصبيان متربعين حول معلمهم ، وكانت أدوات الدراسة فيه لا تتجاوز المصحف الشريف وعدة ألواح يكتب عليها الصبيان بجانب عدد من الدوى والأقلام ، وكان الصبية يلوثون أصابعهم وملابسهم بالمداد وهم فى جلوسهم بين انحناء يقوس الظهر وبين اهتزاز قد يؤثر فى المخ (٣٦٩) ٠

والحياه والكتاب كانت فطريه وأوقات الدراسة فيه تحدد بظواهر طبيعية ، فكان شروق الشمس مبدأ الدراسة ، وأذان العصر نهايته ، وكان الصبية يستريحون من الذهاب ألى الكتاب يوم الجمعة وأيام المواسم والأعياد (٣٧٠) ٠

وكان الطفل فى الغالب يرسل إلى الكتاب أو يجلس إلى مؤدب يؤديه فيما بين الخامسة والسابعة من عمره ، وقد ذكر أن الطفل كا يرسل إلى المكتب " الكتاب " فى الخامسة من عمره ، فإذا ما بلغ الثامنة وكان ينتمى إلى أسرة معوذة انصرف إلى الصناعة أو التجارة أما إذا كان موسورا فإنه يواصل الدراسة بالكتاب فى سن الرابعة من عمره (٣٧١) ٠

أما عن منهج الدراسة بالكتاب فكان أساسه وأهم مواده القرآن الكريم ، وتبعته بعض المواد الأخرى ، فيوص الغزالى بأن يتعلم الطفل فى الكتاب القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ثم بعض الأحكام الدينية ، ثم الشعر (٣٧٢) ويضيف مسكويه أنه يحب أن يتعلم الطفل مبادئ الحساب وقليلا من قواعد اللغة العربية ويضع الجاحظ منهاجا مفصلا يحذر فيه من الاكثار من النحو والصرف ويحث على قراءة التاريخ والأدب (٣٧٣) ٠

وكانت هناك اختلافات فى المناهج من منطقة لأخرى ، مثل العناية ببعض العلوم وتقديمها على البعض الآخر ، حيث صار القرآن الكريم أصل التعليم الذى يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، فأهل المغرب كان

مذهبهم الاقتصاد فى تعليم الولدان القرآن الكريم فقط ، ولا يخلطون ذلك سواء فى مجالس تعليمهم لا من حديث ، ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب (٣٧٤) ٠

أما أهل أفريقيا ، فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسه العلوم الدينية ، وتلقين بعض مسائلها ، كذلك الخط ، وأهل المشرق يخلطون فى التعليم كذلك ٠

وكان لأهل الأندلس مذهبهم فى تعليمهم رواية الشعر ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وتجويد الخط ، وكانت عنايتهم بالخط أكثر (٣٧٥) ٠

فمنهج الكتاب إذن يتلخص فى استظهار القرآن الكريم والوقوف على أصول الدين وتعلم بعض مبادئ اللغة والشعر وإجادة الخط ، وكان الصبى فى الغالب يتم هذه المرحلة الدراسية فى بضع سنوات ذكر البعض أنها قد تصل إلى ثلاث أو أربع (٣٧٦) سنوات إلا أنها كانت تستغرق أكثر من ذلك نظرا للعلوم التى كان يجب على الصبى أن يتقنها وخاصة حفظ القرآن الكريم كاملا عن ظهر قلب ، تلقينا وكتابته (٣٧٧) ٠

وكانت الكتاتيب منتشره فى القرى والمدن الإسلامية ، حيث كانت بعض الكتاتيب يتقاضى فيها المعلمون أجورا من أولياء أمور الأطفال الملتحقين بالكتاب (٣٧٨) ٠

وقد اشترط الفقهاء فى معلمى الكتاتيب أن يكون من أهل الخبرة وأمانة والعفة ، وعلى عقيدة دينية سليمة ، لأن عقيدتهم إذا فسدت فسوف ينشأ الصبيان فى الكتاتيب على عقيدة فاسدة (٣٧٩) ٠

وكان لرعاية الخلفاء والولاة والسلاطين للعلم والعلماء أثر كبير فى انتشار الكتاتيب فأقبل الناس عليها إذ كانت هى التى تعد النشئ للالتحاق بالجامع الأزهر وغيره ، فضلا عن تلقين الصينية أصول الدين الحنيف ومساعدتهم على حفظ كتاب الله العزيز ٠

المكتبات :

هى مجموعة من الأوعية الفكرية نظمت بطريقة تيسر الإفادة منها ، والحضارة الإسلامية كانت سباقة بالنسبة لجميع البلدان وكل المجتمعات فى الاهتمام بالمكتبات لتقديرها للدور الذى يمكن أن تلعبه فى المجتمع ، وكانت صناعة الكتاب إحدى الصناعات المتقدمة فى العالم الإسلامى كله ، فكانت للكتب أسواقها المعروفة " حوانيت الوراقين " وكانت الحضارة الإسلامية ترتكز على الكتاب والمكتبات ، فالمكتبة الإسلامية من أهم المؤسسات التعليمية فى العالم الإسلامى ٠

هناك ثلاث أنواع من المكتبات فى العالم الإسلامى هى :

- مكتبات عامة ٠
- مكتبات بين العامة والخاصة ٠
- مكتبات خاصة ٠
-

١- المكتبات العامة :

أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون فى متناول الدارسين فيها والوافدين إليها ، كما أنشئت أحيانا لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة ، ثم أنشئت متصلة بالمدارس ، وكانت هذه المكتبات من الكثرة ، بحيث أنه كان من الصعب أن نجد مسجد أو مدرسة أو بيمارستان دون أن تزود بمجموعة من الكتب يرجع إليها الباحثون ، ونقدم فيما يلى موجز عن أهم هذه المكتبات :

- بيت الحكمة :

اختلف الباحثون حول فترة تأسيس مكتبة بيت الحكمة ، فبينما يرى Jean Key Gates فى كتابة المدخل إلى المهنة المكتبية أن بغداد وصلت لمستوى كبير من الشهرة فى عهد الخليفة العباسى المامون وخاصة سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م عندما أنشأ بيت الحكمة كمؤسسة للبحث العلمى ولها مواصفات وأهداف المكتبة ومركز للترجمة والأبحاث (٣٨٠) .

بينما يرى ابن النديم فى كتابه الفهرست غير ذلك حيث يفهم من كلامه أنها أنشئت فى عهد هارون الرشيد ، فقد ذكر فى كلامه عن أبى سهل الفصل بن نوبخت أنه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد (٣٨١) وذكر أيضا عند كلامه عن علان الشعوبى ـ أصله من الفرس ـ أنه كان راويه عارفا بالأنساب والمثالب والمناظرات منقطعا إلى البرامكة وينسخ ، فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة (٣٨٢) .

وبيت الحكمة عبارة عن " دار يجتمع فيها العلماء وخزانة للكتب ، ومكتب للترجمة ، ويعتبر بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الإسلامى ، ولعله أول جمعية علمية أو جامعة يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ، ويلجأ إليها طلبة العلم بذلك مركزا علميا شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها (٣٨٣)

ويمكن القول أب بيت الحكمة قد أنشأها الرشيد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وقد أصبحت زمن المأمون مؤسسة علمية متكاملة ، وذلك عن طريق الثروة الضخمة التى جاءت إليها عن طريق التراث اليونانى ، والفارسى ، والهندى والقبطى والآرمى ، ونقلت هذه المعارف عن طريق الترجمة (٣٨٤) .

ويذكر ابن أبى أصبيعية أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين استولى عليها المسلمون (٣٨٥) .

وهناك طريقة ثابته أتت بمجموعة من الكتب اليونانية عن طريق الاتصال ، بأن طلب المأمون من صاحب قبرص أن يرسل له الكتب اليونانية الموجودة لدية ، ورغم معارضة البعض فى إرسال هذه الكتب للمأمون إلا أن صاحب قبرص وافق فى النهاية على إرسالها بناءا على نصيحة أحد المطارنة له بأن العلوم العقلية إذا دخلت على دولة شرعية أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها (٣٨٦) .

وأتت أيضا عن طريق القسطنطينية حيث يذكر ابن النديم " أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ... فكتب إلى ملك الروم مراسلة يسأله فيها الإذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع (٣٨٧) .

تلك المجموعات من الكتب اليونانية التى وردت بيت الحكمة وقد صنفت هذه الكتب بحسب موضوعاتها واختير لها المترجمون وفى مكتبة بيت الحكمة وكتبها ذكر القلقشندى : " وأعلم أن الكتب المصنفة أكثر

من أن تحصى وأجل من أن تحصر لا سيما الكتب المصنفة فى الملة الإسلامية ، لم يصنف مثلها فى ملة من الملل ، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم ، وأن منها كتبا مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها والاكثار من نسخها ، فزادت شهرتها ورغب فى اقتنائها " (٣٨٨) ٠

وقد بدأت بوادر الترجمة مع بداية العصر العباسى خلال عهد المنصور وهارون الرشيد (٣٨٩) ، وقد وصلت أوج مجدها خلال عهد المأمون الذى قال فيه ابن النديم " وكان أعلم الخلفاء بالفقه والكلام " (٣٩٠) ، وقيل فيه أيضا " ألا رحم الله أمير المؤمنين عبد الله المأمون ما كان أوسع علمه وأغزر عقله فى أمره " (٣٩١) ٠

ويعتبر عصر المأمون بحق أفضل عصر للترجمة إذ أن دور المأمون كان أفضل دور لمسته حركة الترجمة عبر تاريخها ٠

ومن بين الذين ساهموا فى ازدهار حركة الترجمة بمكتبة بيت الحكمة يوحنا بن ماسوبه الذى تقلد ترجمة الكتب اليونانية إلى بيت الحكمة ، وخدم هارون الرشيد والأمين والمأمون ويقى على ذلك إلى أيام المتوكل (٣٩٢) ، والحسن بن سهل بن نوبخت وكان من أشهر النقلة من الفارسية إلى العربية ، والحجاج بن يوسف ابن مصر ، ويوحنا البطريق ، ويعقوب بن اسحاق ، وعمر بن فرخان الطبرى ، وثابت بن قرة ، وسنان بن ثابت بن قرة ، وغيرهم فى مختلف الاهتمامات من العلوم كالأطباء ، والفلاسفة ، والفلكيين وأصحاب الحيل والصناعات (٣٩٣) ٠

وقبل أن ينتهى عصر المأمون ، أصبح العرب ملمين إلماما جيدا فى علوم الطب والفلسفة والرياضيات والتاريخ الطبيعى ، كما أصبح فى حوزتهم أفضل ترجمات لمصنفات ابقراط ، وجالينوس وبطليموس وأقليدس وأرسطو طاليس ، إذ كان المأمون يدفع المكافأت السخية عن الترجمات ، فتفاطر المترجمون نت أنحاء العراق والشام وكارع من جميع الملل والجناس يترجمون عن اليونانية والفارسية والسريانية والسنكرينية وغيرها (٣٩٤) ٠

هذا وقد استمرت خزانة الحكمة فى العمل وتأدية رسالتها بعد المأمون ، ولكنها فقدت الكثير من أهميتها شيئا فشيئا مع توالى الزمن ، حتى داهم التتار بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب وذهبت معالمها وعفت أثارها ٠٠٠ " (٣٩٥) ٠

مكتبة دار الحكمة بالقاهرة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م

أنشئت دار الحكمة بالقاهرة خلال عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وكانت مركزا أكاديميا للبحث والدرس والمناظرات والجدل ، تم افتتاحها فى جمادى الآخر سنة ٣٩٥هـ (٣٩٦) ويذكر المقريزى أن دار الحكمة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت ٠٠ وحمل إليها عداد غفيرة من الكتب الموجودة فى خزائن القصور الفاطمية (٣٩٧) وجعل فيها الحاكم ما يحتاج الناس إليه من الأقلام والورق والمحابر وأقيم لها أقوام وخدام وفراسون وغيرهم ، وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأبيح دخولها لسائر الناس فوفدوا عليها على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم (٣٩٨)

وكان داعى الدعاة هو رئيس بيت الحكمة ، ومن هنا كان لها صبغة عقيدية وإن كانت فى بدايتها جامعة حره سمح للشيعة والسنة معا بالالتحاق بها ، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلا فاضطهد علماء السنة وأصبحت دار الحكمة قصرا على علماء الشيعة (٣٩٩) وعين مشرفا عليها أول الأمر القاضى عبد العزيز ، وكذلك عهد بالإشراف عليها للوزير أبى القاسم على بن أحمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م ، وقد اهتم الوزير بالمكتبة ورممها وأجرى بها الاصلاحات اللازمة ، وأمر بأن يعمل لها فهرس عام وعهد بهذه المهمة إلى القاضى أبى عبد الله القضاعى وابن خلف الوراق (٤٠٠) ٠

وقد خصص منذ البدء قاعات للمحاضرات والمناظرات ، ذلك أن من أهم أغراض الدار البحث والمناقشة للوصول إلى بث الدعوة الفاطمية عن طريق التعليم والاقناع (٤٠١) وقد قسمت الدار عدة أقسام ومجالس خصصت للعلوم المختلفة ، فكان منها ما خصص لعلوم القرآن الكريم ، وعلوم الفقه واللغة ، ومنها ما خصص للعلوم التجريبية كالطب والفلك والرياضة (٤٠٢) ٠

ومن تلاميذ وعلماء دار الحكمة الفاطمية ، ناصر خسرو والحسن بن الصباح الذى تفقه فى الدعوة السرية الفاطمية مما يؤكد الصفة المذهبية لدار الحكمة وظلت دار الحكمة مركزا للعلم والفكر والثقافة حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، حيث عانت من الإهمال ، وتسربت إليها الفوضى التى كانت قد شملت كل مرافق الدولة فى مصر خلال عهد المنتصر وأيام القحط والمجاعة ، وانتهى الأمر بها إلى إغلاقها على يد أمير الجيوش الأفضل بن شاهنشاه ، سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م ، وكان السبب فى ذلك أن الأفضل اكتشف أن جماعة يفسدون عقول الناس يأوون إليها ويتخذون منها مكانا للدعاية لمذهبهم (٤٠٣) ولما توفى الأفضل أمر الخليفة الأمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى برعاية دار الحكمة وفتحها على الأوضاع الشرعية (٤٠٤) ، وقد ظلت دار الحكمة تؤدى عملها حتى دخل صلاح الدين الأيوبى مصر وألغى الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م فطرح جميع مكتبات القواطم للبيع بالمزاد العلنى وبنى مكانها مدرسة للشافعية (٤٠٥) بعد أن أهدى جملة كبيرة منها إلى القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهانى (٤٠٦) ٠

مكتبة قرطبة :

تعتبر مكتبة قرطبة ، مركزا حضاريا أسست فى القرن العاشر الميلادى ففى عهد عبد الرحمن الناصر ، أنشئت جامعة قرطبة ، التى وصفت بأنها معجزة الدنيا وزينتها فى ذلك العصر ، وكانت الجامعة تحتوى على مكتبة شهيرة ٠

وهى مكتبة قرطبة التى يذكر بأنها تحتوى على أربعمائة ألف كتاب (٤٠٧) وهذا يتفق مع ما ذكره ابن خلدون بأن هذه المكتبة احتوت على أربعمائة ألف مجلد وتحوى أربعين فهرسا ، فى كل فهرس ٢٠ ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين لا غير (٤٠٨) ٠

وبعد وفاة عبد الرحمن الناصر اهتم بالمكتبة ابنه الحاكم الثانى المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) وقد جلب المستنصر إليها الكتب من كل قطر ، كما أرسل إلى أبى الفرج الأصفهانى يطلب منه كتاب

الأغانى ، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، وفعلا بعث إليه أبو الفرج بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق (٤٠٩) ٠

وكان بالأندلس عدا مكتبة قرطبة زهاء سبعين مكتبة أخرى ، فى طليطلة وقرطبة واشبيلية ، حيث حفظ التراث اليونانى الذى ترجم إلى العربية وكانت أهم مراكز الترجمة فى طليطلة التى لعبت بمكتباتها دورا هاما فى حركة النقل من العربية، وقد رعى هذه الحركة الفونس السادس الذى استولى على طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م (٤١٠) ٠

مكتبة بنى عمار " مكتبة طرابلس الشام " :

أنشئت فى القرن الخامس الهجرى على يد بنى عمار الذين كانوا شيعه على الذهب الإسماعيلى ، واهتموا جميعا بهذه المكتبة وتغذيتها منذ نشأتها ، وكان لهم وكلاء أقطار الإسلام بحثا عن الكتب والمخطوطات النادرة وكان فيها النساخ يعملون بشكل مستمر ليلا ونهارا ، حيث كان عددهم أكثر من مائة وثمانين ناسخا يتناوبن العمل ليل نهار ، ويوجد بها عدد كبير من الكتب بخطوط أكثر مؤلفيها ، وقد حوت جميع أنواع فروع المعرفة الإنسانية من طب وفلك وتنجيم وفلسفة وأدب وتاريخ ، وقيل أن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد وذلك أبان عزها ومجدها ، منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم ، وثمانون ألف نسخة تفسير (٤١٢) ٠

مكتبة ابن سوار بالبصرة :

أسسها أحد رجال عضد الدولة ويدعى أبا على بن سوار الكاتب بالبصرة ويذكر عن هذه المكتبة أنها كانت تقوم بالتدريس إلى جانب تقديم الكتب لروادها، وكذلك يوجد بها النسخ أيضا ٠

مكتبة المدرسة النظامية ببغداد :

لقد تأسست المدرسة النظامية كما ذكرنا شرقى مدينة بغداد سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م نسبة إلى مؤسسها نظام الملك ، وقد ألحق بها نظام الملك مكتبة عظيمة نالت عناية خاصة حتى أصبحت أعظم مكتبات المدارس المعاصرة لها ، وقد حوت مكتبة المدرسة النظامية كل نفيس ومفيد من الكتب والمخطوطات (٤١٤) ، وقد ظلت هذه المدرسة موضع عناية الخلفاء وغيرهم ، ويذكر ابن الأثير أن الخليفة الناصر لدين الله أمر فى سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٢م بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفا لا يوجد مثلها (٤١٥) ٠

وكان كثير من العلماء يوقفون كتبهم على النظامية ، فقد أوقف محب الدين بن النجار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب النظامية ، وكان ذلك فى القرن السابع للهجرة (٤١٦) ٠

ويذكر ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فى كتابة صيد المخاطر أنه نظر فى ثبت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد ٠

وقد تولى أمانة هذه المكتبة عدد من الأدباء الأعلام ، وكان أول خازن لها أبو يوسف الأسفرانى وبموته سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م تولى بعده الإشراف على المكتبة محمد بن أحمد الأبيوردى الذى كانت له مصنفات كثيرة جدا كما يذكر ياقوت الحموى ٠

مصادر ومراجع الفصل الخامس

١. **سورة المؤمنون : آيه١٢**
٢. **تفسير ابن كثير** ، جـ٣ ، ص٣٨٧
٣. **الحجرات : آيه ١٣**
٤. **رواه البيهقي** في الترغيب والترهيب ، جـ٣ ، ص٦١٢، ٦١٣
٥. **رواه البخاري** :كتاب الحدود -باب كراهية الشفاعة في الحد
٦. **النساء** : آيه٤٠
٧. **الزلزلة** : آيه٧ ،٨
٨. **سورة ص** : الآية ٢٦
٩. **سورة النساء** : آيه١٣٥
١٠. **رواه أبو داود** : كتاب الأقضية باب القاضي
١١. **سورة التحريم : آيه٦**
١٢. **رواه البخاري** : كتاب الأدب - باب رحمة الناس
١٣. **البقرة : الآية ٢٨٦**
١٤. **حسن محمد جودة** : نظم الحضارة الإسلامية ، ص١٨٣
١٥. **النساء : آيه١**
١٦.
١٧. **النحل : آيه ٩٧**
١٨. **آل عمران : من الأيه١٩٥**
١٩. **الأحزاب : آيه ٣٥**
٢٠. **القلم ١ ، العلق آيات ٣-٥ ، فاطر الآية ٢٨**
٢١. **العلق** :**آيه١**
٢٢. **المجادلة : آيه١١**
٢٣. **الزمر: آيه ٩**
٢٤. **الإسراء: آيه ٨٥**
٢٥. **فاطر: آيه٢٨**
٢٦. **رواه ابن ماجه** -باب فضل العلماء ، جـ١، ص٨١
٢٧. **البلاذري** : فتوح البلدان ، ص٤٥٨
٢٨. **صحيح البخاري** ، جـ١ ، ص٣٨
٢٩. **إبراهيم القلا** : الدور الثقافي للمرأة خلال العصرين الأموي والعباسي ، "ندوة المرأة عبر العصور" ، جامعة القاهرة ٢٠٠٠
٣٠. **عبد الله الحبشي**: دراسات في التراث اليمني ، ص٧٨
٣١. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٢٣٣
٣٢. **ابن سيد الناس** : عيون الأثر ، ص٣٠١ ، **الطبري** : الرسل ، جـ١ ، ص٦٧
٣٣. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٢٣٥
٣٤. **الكندي** : ولاة مصر ، ص٧٢ ، **ياسين العمري** : الروضة الفيحائ ، ص٦٦-٦٨، **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٢٤٤-٢٤٩

٣٥. **الزركلي** : الأعلام ، جـ١ ، ص١٦ ، **رضوان الجناني** : القبائل العربية ، ص١٦١

٣٦. **ابن خلكان** : وفيات ، جـ٥ ، ص٥٦ ، **المقريزي** : الخطط ، جـ١ ، ص٤٤ ، الشعراني : الطبقات الكبرى جـ١ ، ص١٥٦ ، **هويدا رمضان** : المجتمع المصري ، ص٥٣ ، **ياسين العمري** : الرضة الفيحاء ، ص٢٦٠

٣٧. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٣٦٧

٣٨. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص١٧

٣٩. **ابن خلكان** : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣١٥

٤٠. **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٢٦٥ ، **المسعودي** : مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٣٨٦

٤١. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٢١٥ ، **وفاء محمد علي** : نفوذ النساء ، ص٣٤

٤٢. **ابن خلكان** : وفيات الأعيان ، جـ٢،ص٣١٧ ، **الذهبي** : سير أعلام ، جـ٩ ، ص٢٤

٤٣. **ابن العماد** : شذرات الذهب ، جـ٣ ، ص٨٨ ، **البغدادي** : تاريخ بغداد ، جـ٤ ، ص٤٤٢

٤٤. **اليافعي المكي** : مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص٢٦٠ ، **ابن العماد** : شذرات ، جـ٤ ، ص١٠٠

٤٥. عفيفى **إبراهيم** : الحضارة الإسلامية ، ص٢٧٩

٤٦. عفيفى **إبراهيم** : الحضارة الإسلامية ، ص٢٨٠

٤٧. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٣٥٢

٤٨. **الزركلي** : الأعلام ، جـ١ ، ص٢٨٨ ، **كحالة** : أعلام النساء ، جـ٣ ، ص١٥٢٠

٤٩. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٥٨،٥٧

٥٠. **الخربوطلي** : العرب والحضارة ، ص١٢٠

٥١. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص١٨٩

٥٢. **السيوطي** : تاريخ الحنفا ، ص١٩٠ ، **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٢٥ ، **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٣٢١

٥٣. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٤٧٥

٥٤. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص ٤٦٥

٥٥. **السيوطي**: تاريخ الخلفاء ، ص٢٦٨ ، **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٣٥٠

٥٦. **عبد الله الحبشي** : دراسات في التراث اليمني ، ص٧٥

٥٧. **عفيفي إبراهيم** : الحضارة الإسلامية ، ص٢٧٥

٥٨. **أمان الدين ابن الخطيب** : الإحاطة في أخبار غرناطة ، جـ١ ، ص٣١٦

٥٩. **ياقوت الحموي** : معجم الأدباء ، جـ٤ ، ص١١٩، ١٢٢ ، **عفيفي إبراهيم** : الحضارة ص٢٧٥ ، **أحمد شلبي** : موسوعة الحضارة ، جـ٥ ، ص٢٤٧ ، ٢٤٨

٦٠. وفي رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ سأله نساؤه عن الجهاد فقال نعم الجهاد الحج ، **رواه البخاري ص٢٨٧٥، ٢٨٧٦**

٦١. **ابن سعد** : الطبقات الكبرى ، جـ٨ ، ص٤١٤ ، **صبحي سليمان** : نساء حول الرسولﷺ ،ص٢٥٨-٢٦١

٦٢. **رواه البخاري ، ص٢٨٨٢**

٦٣. **مجدي شحاته محمد فايد** ، الجهاد ،بحوث ودراسات إسلاميه ،ص٦٤

٦٤. **صبحي سليمان**: نساء حول الرسولﷺ ، ص٢٥٤

٦٥. **ابن الأثير**: أسد الغابة ، جـ٥ ، ص٥٧٧ ، **كحالة** : أعلام النساء ، جـ١ ، ص٢٣٧

٦٦. **رواه البخاري ،ص٢٨٨٠ ،ومسلم ص ١٨١١**

٦٧. **رواه مسلم ، ص١٨٠٩**

٦٨. **زينب فواز** : الدر المنثور ،ص٥٣٧ ، **صبحي سليمان** : نساء حول الرسول ،ص٣١١

٦٩. **الأنفال** : آيه ، **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص ١١

٧٠. **مجدي شحاته** : الجهاد ، بحوث ودراسات إسلامه ، ص٦٣

٧١. **كحاله** : أعلام النساء ، جـ٣ ، ص١٥٥ ، **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٢٢٩

٧٢. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٩٩

٧٣. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص١٨٩ ، **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٤٨

٧٤. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٢٤٨، ٢٤٩

٧٥. **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٥٨،٥٧

٧٦. **اليافعي المكي** : مرآة الجنان ، ص١٨٨،١٨٧ ، **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٥١ ، **الخربوطلي** : العرب والحضارة ، ص١٢٢، ١٢٣

٧٧. **اليافعي المكي** : مرآة الجنان ، ص٣٨٤ ، **زينب فواز** : الدر المنثور ، ص٤٧٥

٧٨. **سيدة كاشف ، حسن محمود** : الطولونيين والإخشيديين ، ص٢٤ ، **ممدوح عبد الرحمن** : القبائل العربية في صعيد مصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ص٢٢٣

٧٩. **سورة النحل الآيتان ٥٨،٥٩**

٨٠. **سورة التكوير الآيتان٨،٩**

٨١. **سورة الإسراء : آيه٣١**

٨٢. **سورة الأنعام : آيه١٥١**

٨٣. **سورة النساء : آيه ٦**

٨٤. **رواه الترمذي ، ص١٩١٤**

٨٥. **رواه أبو داود في كتاب الأدب**

٨٦. **سورة النساء** : آيه١٨

٨٧. **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٦٣

٨٨. **الأصفهاني** : كتاب الأغني ، جـ٦ ، ص١٠٢

٨٩. **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء، ص٦٤

٩٠. **رواه أبو داود ، كتاب النكاح - باب الأستئمار**

٩١. **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٦٣،٦٢

٩٢. **النساء : آيه٢٠**

٩٣. **النساء : آيه١٩**

٩٤. **البقرة : آيه٢٢٨**

٩٥. **رواه أبو داود : كتاب النكاح - باب حق الزوجة على زوجها**

٩٦. **سورة البقرة : آيه٢٢٩**

٩٧. **رواه أبو داود : باب الطلاق ، ص٢١٧٨**

٩٨. **البقرة : آيه ٢٢٩**

٩٩. **البقرة : آيه٢٢٨**

١٠٠. **البقرة : آيه ٢٣٠**

١٠١. **النساء : آيه٣**

١٠٢. **النساء : آية ١٢٩**

١٠٣. **ياسين العمري** : الروضة الفيحاء ، ص٦٨

١٠٤. **الزبيدي** : تاج العروس ، دار احياء التراث العربي ١٩٨٩ ، جـ٥ ، ص٣

١٠٥. **أبو زيد شلبي** : في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٢٧٧ ، **الخربوطلي** : العرب والحضارة ، ص١١١

١٠٦. **حسن محمد جودة** : نظم الحضارة ، ص١٩٤

١٠٧. **أبو زيد شلبي** : الحضارة الإسلامية ، ص٢٧٧

١٠٨. **عبد العزيز عبد الدايم** : الرق في مصر ، ص٧-١٠

١٠٩. **المسعودي** :مروج الذهب ، جـ١ ، ص٢٨٢

١١٠. **ابن قتيبه** : المعارف ، ص١١٢

١١١. **الأصفهاني** : كتاب الأغاني، جـ١ ، ص٣٠ ، جـ٤ ، ص١٢٤

١١٢. **حسن إبراهيم حسن** : النظم الإسلامية ، ص٣٦٠

١١٣. **ريسلر**: الحضارة العربية ، ص٥٧

١١٤. **عبد العزيز عبد الدايم** : الرق في مصر ، ص١٢

١١٥. **رواه البخاري : كتاب العتق -باب كراهية التطاول على الرقيق**

١١٦. **سورة البلد**

١١٧. **رواه البخاري : كتاب العتق**

١١٨. **حسن محمد جوده** : نظم الحضارة ، ص١٩٨

١١٩. **البلاذري**: فتوح البلدان ، ص٣٦٥

١٢٠. **الطبري** : تاريخه ، جـ٥، ص٦٢

١٢١. **الخربوطلي** : العرب والحضارى ، ص١١٩

١٢٢. **أبو زيد شلبي** : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص٢٨٣

الفصل السادس

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

الحضارة الإسلامية كان لها أثر بالغ فى الحضارة الأوربية ، ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا لا تزال تضطرب فى ظلام العصور الوسطى ، كان المسلمون قد بسطوا نفوذهم على معظم بقاع العالم المتحضر القديم ، من حدود الصين إلى جبال البرانس ، وورثوا مع فتوحاتهم فلسفة اليونان من كتبها ، حتى أن عددا من كتب اليونان القديمة لا يوجد الآن إلا باللغة العربية أو مترجم عن العربية ، كما تأثروا وأفادوا من ثقافة الفرس التى أثرت فى الأدب العربي ، وبالثقافة الهندية عن طريق علوم الرياضة ، والطب وخاصة علم النجوم ، وقد أفسح العرب والمسلمين صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة واقبلوا ، وتولوها بالرعاية والعناية والبحث والدرس والتصحيح والتهذيب ، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها ، وتميزت عما عادلها من الحضارات السابقة.

والحضارة العربية الإسلامية لا ينقصها ولا يقلل من شأنها أنها نقلت وأفادت من الحضارات التى سبقتها ، فذلك شئ طبيعي ، حيث أن كل أمه ملزمة بأن تنقل عمن سبقها تجاربهم ، وكل أمه تختلف عن غيرها فى أنها تحدث أولا تحدث الجديد المبتكر ، وإذا نظرنا إلى الجديد المبتكر فى الحضارة الإسلامية لوجدنا الكثير .

ولولا الإفادة من الحضارات السابقة والتجديد والابتكار لكان لزاما أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى السابقة عليها ولا غلق باب التقدم والتطور الحضاري ، ولوجدنا أنفسنا اليوم في مستوى أقرب إلى ما كان عليه الإنسان الأول في العصر الحجري ولكن يكفى العرب والمسلمون فخرا أنهم لم يقنعوا بما تعلموا من غيرهم وإنما يحثوا واجتهدوا وابتكروا ، وأضافوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضارة إلى الأمام ، وأنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلافات عن الحضارات التى ظهرت فيها وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضاراتهم الجديدة .

وقد عبرت هذه الحضارة إلى أوربا من خلال معابر ثلاثة هي .

١- **عن طريق اتصال العرب والمسلمين ومجاورتهم لعلماء أوربا** أبان حكم الأمويين فى الأندلس ، حيث كانت الحضارة العربية والإسلامية فى أوج عظمتها مما كان يتمتع به علماء المسلمين من حرية الفكر وأقاموا هناك جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوربا ، فى مراكز متعددة مثل قرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وطليطلة ، ونشر هؤلاء الطلاب فى بلادهم ما تعلموه من العرب

، حيث كان غالبة سكان الأندلس ، وهم من المسيحيين قد تشبعوا بالحضارة العربية بحيث أنهم هجروا لغتهم ليتكلموا العربية ، واضطر الأسافعه من رجال الدين إلى أن يترجموا الإنجيل إلى العربية، كذلك قام اليهود وهم أقليه كبيرة استعربت منذ زمن مبكر فأخذوا لغة العرب وملابسهم ، واندرجوا فى غمارهم ، بدور هام فى نقل الحضارة الإسلامية عن طريق الترجمة ، ولما استرد الملوك الأسبان الأندلس استولوا على الكنوز العلمية التى خلفها علماء العرب والمسلمين وأخذوا بمظاهره

٢- **<u>عن طريق صقلية</u>** ، حيث كان العرب قد فتحوا صقلية على يد دولة الأغالبة خلال العصر العباسي الأول وذلك فى النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وظل العرب بها زهاء ١٣٠ سنة ، فأصبحت المركز الثاني لنشر الثقافة العربية والإسلامية فى أوربا ، حيث أصبحت بالرمو ومسينى ، وسرقوسه ، وبوره من أهم مراكز الحضارة الإسلامية اليانعة فى إيطاليا٠

كان الملوك المسيحيون بصقلية يشجعون علماء العرب على الإنتاج العلمي ، مثل روجر الثاني الذي شجع الإدريسى الجغرافي الشهير على العلم وأهدى الإدريسى له كتاب نزهة المشتاق ، وأيضا الملك ويليام الذى رحب بالعلماء المسلمين وكان يقرأ ويكتب العربية ٠

أدرك روجر وخلفاؤه أفضلية العرب فانتحلوا نظمهم وشمولهم برعايتهم وكان الملك فردريك الثاني من الذين شجعوا الترجمة لعلوم الإسلام إلى اللاتينية واليونانية أو حتى الإيطالية الدارجة التى كانت قد بدأت فى الظهور ، وكان فى بلاطه كثير من الفلاسفة العرب من الشام وبغداد ، وتوثقت صلاته وصداقته بالسلاطين الأيوبية فى مصر " الملك الكامل وتبادل معهم الهدايا ٠

ولما كان الملوك النورمانديون وخلفائهم على العرش الصقلي يحكمون إلى جانب صقلية جنوب إيطاليا أيضا فانهم كانوا بمثابة الجسر الذى نقلت عليه مختلف عناصر الثقافة العربية الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيطالية ووسط أوربا ولم يكد ينتصف القرن العاشر الميلادي حتى كانت آثار الحضارة العربية واضحة للعيان شمال جبال الألب٠

مكث العرب في جنوب إيطاليا ثلاثمائة سنة تقريبا ، فاستعرب أهل المناطق وأصبحوا يتكلمون العربية ويدينون بعادات العرب ما عدا العقيدة ، فقد احتفظ بها بعضهم ودفعوا الجزية ، وكان من نتائج هذا أن تسمى الكثيرون بأسماء عربية ، وأصبحت الأماكن والشوارع والقصور وأدوات الزينة والحرب ومتاع البيوت وغيرها لها أسماء عربية ومظاهر عربية٠

٣- **<u>طريق ثالث من خلاله انتقلت الحضارة العربية والإسلامية لأوربا هو الحروب الصليبية</u>** ، والحج إلى بيت المقدس واختلاط الأوربيين بالعرب ، حيث كان لبقاء الصليبيين مدة طويلة فى

الشرق الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري حتى القرن السابع الهجري أثره على اتصال تام بجميع مظاهر الحضارة الإسلامية المزدهرة التى أدهشتهم وعلى الرغم من أن الحروب كانت مستمرة بينهما وبين المسلمين ، فإن البعض منهم نقل الكثير من علوم العرب والمسلمين ومعارفهم وفنونهم وصناعتهم ، كما حصلوا على كثير من الكتب العربية ، فساعد ذلك على ظهور روح البحث ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم ٠

٤- **طريق التجارة فعن طريق التبادل التجاري بين الشرق والغرب عن طريق مصر** ، حيث أن المدن الإيطالية مثل جنوه والبندقية وبيزا ونابلى ، نشطت تجارتها مع مصر وهى المدن التى ظهرت فيها النهضة الأوربية الحديثة٠

مظاهرات الحضارة العربية على حضارة أوربا ٠

من خلال دراستنا للحياة الثقافية وجدنا أن العرب حققوا تفوقا كبيرا فى ميادين العلوم على اختلافها ، وتبين فضلهم وأثرهم فى هذه الميادين ، ومدى ما قدموه للعلم وللحضارة من معارف وابتكارات لم يسبقهم إليها أحد ٠

كما اتضح لنا كيف وصلت الحضارة عن طريق أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ونتيجة للعلاقات التجارية ، وأيضا دخول الفرنجة بلاد الشام ومصر وبقى لنا أن نعرف ما كان للحضارة العربية والإسلامية من أثر واضح فى الحضارة الأوربية ونوضح ذلك فى إيجاز ٠

- أنه خلال الفترة الذهبية فى تاريخ الإسلام أنشئت المدارس فى مختلف البلاد الإسلامية شرقا وغربا ، وكثرت المكتبات وامتلأت بالمؤلفات العربية الإسلامية، وكذلك المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية المترجمة وقد جزيت هذه المدارس والمكتبات الباحثين عن المعرفة من العالم المسيحي والإسلامي على السواء ، فقد أصبحت طليطلة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥م مركزا لانتشار الثقافة العربية إلى باقي نواحي أسبانيا وأوربا ، ويرجع الفضل فى إدخال النصوص العربية فى دوائر الدراسة الغربية إلى " دايموندو " أسقف طليطلة وكبير مستشاري ملوك قشتاله ، وكان لعمله هذا أكبر الأثر فى مصير أوربا٠

تولى الأسقف رعاية جماعة من المترجمين حيث أنشأ ديوانا لترجمة التراث وفى عهد ألفونسو الحليم (١٢٥٢-١٢٨٤م) كانت طليطلة مركز النور والعلم وانتقلت إلى أوربا خلال هذه الحركة مؤلفات الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالى والخوارزمي صاحب الجداول الرياضية ، وكان أشهر المترجمين من العربية "جيرار الكريمونى" حيث يذكر أنه ترجم أكثر من سبعة وثمانين كتابا فى مختلف العلوم٠

وعندما ذاعت هذه الترجمات للكتب العربية هرع الكثير من الأوربيين المتعطشين إلى مناهل العلوم الإغريقية والعربية قاصدين مدرسة طليطلة حيث يترجم لهم أحد المستقرين ما جاء فى الكتب العربية إلى الأسبانية الدارجة أو اللاتينية الركيكة.

ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوربا خمس قرون ، وظل تأثير العرب فى بعض العلوم التى تدرس فى أوربا حتى وقت قريب ففي مجال الطب نجد مثلا أن كتاب " الحاوي " للرازى المؤلف من عشرين مجلدا ، يجمع كل المعلومات الطبية التى كانت معروفة فى زمانه ، وظل المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وفى علم البصريات حقق المسلمون أعظم تقدم علمي ، ورسالة الكندي في العلم هي التي اعتمد عليها روجر بتكون فى دراسته لهذا الموضوع ، واستفاد روجر وفيتلبون من بصريات الحسن بن الهيثم ، كما أخذ ليوناردوا اليزى عن العرب علم الجبر ، وأخذ أرنالدو فيلانوفا الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوربي من كتب العرب وخاصة الزهراوى ، كما استوحى " كلير " كشفة لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب العالم المسلم " البطروجى".

وفى الرياضة يرجع الفضل للعرب في الطرق الحسابية المستعملة في الحياة اليومية في عصرنا الحاضر ، وهم الذين جعلوا من الجبر علما حقيقيا ، وتقدموا به تقدما كبيرا ، حتى اعتبروا أنهم هم الذين وصفوه ، كما أسسوا علم الهندسة التحليلية وحساب المثلثات الذي لم يكن معروفا عند اليونانيين ، وفى علم طبقات الأرض يعتبر ما كتبه الرئيس ابن سينا في كيفية تكوين الجبال والأحجار والمواد المعدنية وما إلى ذلك من أهم المراجع التي اعتمدت عليها أوربا في أبان نهضتها المدنية .

- **تركت الحضارة العربية والإسلامية فى اللغات الأوربية ألفاظا تدل على مقدار ما أفادته الحضارة** المدنية من تراث تنطق بصيغتها العربية والإسلامية مثل أن معظم أسماء النجوم فى اللغات الأوربية لا تزال تنطق بصيغتها العربية ، ومنها العقرب والجدي والطائر والذئب والقرفد ، ولا تزال المصطلحات الفلكية والرياضية حافظة لصيغتها العربية فى اللغات الأوربية ومنها السمت والنظير والجيب والجبرؤ والكيمياء والصفر ، وغيرها من الألفاظ العربية الأخرى) .

والغرب مدين للعرب أيضا بإدخال الكثير من الإصلاحات والآلات الموسيقية ، وقد تفوق المسلمون كثيرا فى الفن ، والنقش واشغال الذهب والفضة والآنية ، وعنهم أخذت أوربا.

كما تأثرت الفنون المعمارية الأوربية بعناصر الفن الإسلامي ، حيث اقتبست أوربا الفن المعروف بالأرابيسك Arabesque ، وهو فن معماري عربي يميل إلى التكوينات الهندسية ، بل نجد

مباني كثيرة في أوربا في العصور الوسطى ، مثل الجامعات القديمة في إنجلترا متأثرة بالفن العربي ٠

وفى التجارة كان المسلمون رواد العالم الحديث ، فقد انشئوا النقابات وعرفوا نظام طريق الشرق ، مثل الكافور ، والزعفران ، والمر ، والمسك والقطن ، والأرز ، والخرشوف ، والحنة ، والليمون ، وقصب السكر ، والموز ، والقهوة ، وطواحين الهواء ، والسواقي ٠

ومن أبرز المفكرين الذين تحدثوا عن أثر الحضارة الإسلامية في حضارة أوربا (جوستاف لوبون) الذي وضع كتابا قيما بعنوان (حضارة العرب) انصف فيه المسلمين وسلط الأضواء على الأسس العربية للحضارة الأوربية الحديثة ومن أراءه في هذا الصدد قوله : كان تأثير العرب على الغرب عظيما وإليهم يرجع الفضل في حضارة أوربا ، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلا إذ تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة الإسلامية ، وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعشر الميلادي ، في الفترة التي كانت فيها الحضارة العربية في أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون ٠

ويرى لوبون أيضا أن الحضارة العربية لم تدخل إلى أوربا نتيجة الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع ، بل دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا ٠

ويقارن لوبون بين أسبانيا العربية وسائر أرجاء أوربا فيقول تمتعت أسبانيا بحضارة سامية بفضل العرب بينما كانت باقية أوربا فى ظلام ، ولو سار الغرب تحت راية المسلمين لتسلمت منزلته ٠

واعترف المؤرخ " رينو " فى كتابة " تاريخ غزوات العرب " بفضل العرب على حضارات أوربا فقال : أن النهضة الحقيقية فى أوربا لم تبدأ إلا منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، حيث أفاق الفرنسيون والإنجليز والألمان من رقدتهم ، ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة الاشتراك فى الحضارة العربية ، فأخذ المسيحيون فى فرنسا وما جاورها يؤمون أسبانيا لترجمة الكتب العربية وأصبح العرب الأمثلة العليا للشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق ٠

وقال (سارتيو) فى كتابة (الحضارة) : أن ما أتت به الحضارة العربية فى باب العلم ولا سيما العلوم وتطبيقها أعظم بكثير مما أتت له فى هذا السبيل الدولة البيزنطية ، إذ أن الحضارة البيزنطية لم تأت بفكر جديد ٠

وأشار المفكران " لافيس " و " لامبو " فى كتابهما : التاريخ العام بالحضارة العربية وأثارها ، فقال : إذ وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل ، لا يسع المنصف أن يذكر

قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت إلى الشعوب المتأخرة فى أفريقيا وأسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأقصى وصناعاته واختراعاته ، بل احسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان ، ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى جلبت فتمازجت نماذج متجانسا أبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع مقترحاتهم وعقولهم ، وهى ذات وحدة خاصة وصفات قائمة.

وكانت مملكة بافاريا من أبرز الدول الأوربية اعتمادا على النظم العربية حيث اقتبس ملك بارفاريا خبرات المسلمين فى الأندلس ونظمهم ، وقامت فى مدينة (بال) الألمانية أول محكمة قانونية على الطراز العربي الإسلامي وقلدها في ذلك سائر مدن أوربا .

وفى مقاطعات فرنسا بدأ تأسيس دواوين الحكومات على الطريقة الإسلامية ، ثم انتقلت النظم العربية الإدارية إلى بقية البلدان الأوربية ، وقلد الأوربيون العرب فى إنشاء المجالس الشورية.

وأخيرا الاستكشافات الكبرى ، التى قامت فى العصر الحديث نجد أنها مبنية على ما قام به العرب . فكريستوفر كولمب اطلع على خرائط العرب التى شاعت فى أوربا فضلا عن شيوع استدارة الأرض عند الجغرافيين العرب ، التى هيأت هذه الاستكشافات.

د. محمد عكاشة

كلية الآثار

جامعة جنوب الوادى

قائمة المحتويات

المقدمه :-خصائص العماره المملوكيه البحريه..... ٥

الفصل الاول :- مدرسة السلطان الظاهر بيبرسالبندقدارى..... ٢٦

الفصل الثاني :- جامع السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى.....٣١

الفصل الثالث :-مجموعة المنصور قلاوون.....٣٨

الفصل الرابع :-خانقاه الامير علاء الدين ايدكين البندقدارى..... ٤٩

الفصل الخامس :-خانقاه السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير ٥٤

الفصل السادس :- مدرسة السلطان الناصر حسن.....٦٢

الفصل السابع :- جامع الناصر محمد بالقلعه ٧٩

ا لــمـقــدمــه

خصائص العمارة في العصر المملوكي البحري

تنوعت العمارة في العصر المملوكي البحري ما بين دينية ومدينة واجتماعية وخيرية أوجنائزية. وقد شمل التنوع كل أنواع المواد الخام مثل الحجر بأنواعه والرخام بأنواعه والأخشاب والجص والمعدن والزجاج. : ويمكن القول أن مهندس العصر البحري كان لديه مساحات كافية لتشيد منشأته المعمارية على اختلاف أغراضها الوظيفية مقارنة بالعصر الجركسي لاحقا فالمساجد التي بنيت عليها معظم المنشأت البحرية تدل على عدم وجود مشكلة أما المعمار البحري كما سنعرض له في سياق هذا الموضوع. ومن أهم خصائص العمائر البحرية

<u>التخطيط</u>

عرف العصر البحري أنواع وأنماط متعددة من التخطيط نوجزها فيما يلي:

١. نمط المسجد الجامع المكون من صحن و اربع ظلات والذي طبق فى جامعالظاهر بيبرس البندقداري ٦٦٥-٦٦٧هـ بالظاهر بالقاهرة ومسجد ألماس الحاجب ٧٣٠هـ بالحلمية الجديدة ومسجد الناصر محمد بالقلعة ٧٣٥هـ ومسجد الطنينا المارداني ٧٣٩-٧٦٠هـ بالتبانه. ٢. نمط المسجد المكون من ظلة واحدة هي ظلة القبلة المكونة من عدد من البلاطات در الصحن والذي طبق في منشآت ليست بالضرورة أن تكون مساجد ومنها: آدرسة الطيبرسية بالأزهر ٧٠٩هـ وخانقاه علاء الدين ايدكين البندقداريبالسيوفية٩٨٢هـ. ٣. نمط المدرسة المكونة من إيوانين رئيسيين وأخرين جانبيين صغيزين (سد لتان)مثل مدرسة المنصور قلاوون ٦٨٣ - ٦٨٤هـ ومدرسة مثقال بدرب قرمز ٠٧٦٣. ٤. نمط يتكون من إيوان رئيس وصحن يحيط به من الجانبين خوي الطلبة مثل المدارس الفرعية الأربعة الشافعية- الحيفنه - المالكية -الحنابلية)الملحقة بالزواياالأربعة بمدرسة السلطان حسن بميدانص لاح الدين ٧٥٧- ٧٦٤، والمدرسة البشرية ٠٧٦١. ٥. نمط يتكون من صحن أوسط مكشوف يحيط به اربع ايوانات مثل المدرسة الظاهرية بيبرس ٩٩٠-٩٩٢هـ بشارع المعز لديه الله وهي التي اندثرت بعدش ق شارع بيت القاضي في نهاية القرن ١٨م وهي أول مثل في مصر لمدرسة ذا تخطيط رباعي ومدرسة الناصر محمد بالنحاسين ٧٠٣هـ ومدرسة صرغتمس بجوار جامع أحمد بن طولون ٧٠٧هـ ومدرسة السلطان الناصر حسن ٧٠٧-٧٦٤هـ ومدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان بالتبانة ٧٧٠هـ ومدرسة أولجاي اليوسفي بسوق السلاح؛ ٧٧، كما أثر هذا التخطيط في عمارة الخانقاه مثلما حدث فيخانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية بشارع باب النصرة ٧٠م-٧٠٩هـ ٦. نمط عبارة عن صحنأوسط مكشوف تحيط به ٣ إيوانات كما هو الحال فيمدرسة تتر الحجازية بحبس الرحبة بالجمالية (٧٦هـ وهي نموذج فريد في العمارة المصرية الإسلامية.

مالهذا وقد أثر عمارة المسجد التقليدي علي المدرسة مثلما نراه في المدرسة الاقبغاوية الملحقة بالأزهرو ٧٥٠هـ والذي جاء عبارة عن دور قاعة وسطي مغطاة تحيط بها أربعة أروقة بواقع رواق بكل من المقدم و المؤخر والمجنبتين وتشرف هذه الأروقة الأربعة على الدرقاعة ببائكه ذات عقود أوسطها أوسعها.

أما عن تقرير أي درس من الدروس أو أي وظيفة من الوظائف في هذه المدارس السابق الإشارة إليها فكان يتوقف أولا وأخيرا علي رغبة الواقف وامكانياته فهو وحده الذي كان يقرر الدروس والوظائف في منشأته أيا كان

نوع التخطيط الذي صممت على أساسه من الأنواع . السابقة. وفي ضوء ذلك فإنه لا يصح مطلقا الربط بين عدد الإيوانات في المدرسة وبين عدد المذاهب التي كانت تدرس بها ويؤيد ذلك الحقائق التالية:

- لم يقتصر تدريس المذهب الواحد علي المدارس ذات الإيوان الواحد مثل المدرسةالبقرية بل درس أيضا في المدارس ذات الأربعة أيونات مثل مدرسة صرغتمشوفي مدارس صممت وفق التخطيط العربي غير التقليدي للمسجد (يقصد به اروقه دون الصحن)مثل المدرسة الطيبرسية بالأزهر.
- لم يقتصر تدريس المذهبين علي المدارس ذات الايوانين مثل مدرسة قتاني بي المحمدي (عصر جركسي)بل درس في مدارس ذات ثلاثة ايوانات مثل مدرسة تتر الحجازية ومدارس رباعية الايوان مثل مدرسة أم السلطان شعبان وأولجاي اليوسفي بل وفي مدارس صممت وفق التخطيط العربي التقليدي للمساجد الإسلامية (يقصد به صحن أو دور قاعة مغطي أو مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتان)مثل المدرسة الاقبغاوية بالأزهر.وعلى ذلك يمكن القول بأنه قد حدث خلال العصر المملوكي في مصر نوعا من التشابه و التقارب المعماري بين العمائر الدينية الثلاث الرئيسية (المساجد المدارس الخوانق)فلم يعد هناك ثمة فرق كبير بينهما في التخطيط المعماري أو في الوحدات والعناصر والملحقات. وهو الامر الذي كان له أثر الكبير في إيجاد ما يمكن أن يطلق عليه تجاوزا مصطلح التقارب الوظيفي فأصبح المبني الواحد بتخطيطه (سواء ذي الأيونات أو ذي الأروقة حول صحن أو دون الصحن)ملائما وصالحا للقيام بالوظيفة أو الوظائف التي نقرر فيه و التي كانت تتوقف أولا وأخيرا على رغبة الواقف وامكانياته هذا وقد بدأت تظهر فكرة ادماج الكتل المعمارية أو ما يسمى بفكرة المجمع الديني فتكون مجمع المنصور قلاوون من مدرسة ايوانية لدروس الفقه وقبه ضريحية علي مساحة كبيرة مضاف اليها بيمارستان وسبيل يعلوه كتاب وحوض لشرب الدواب استبدل في عصر الناصر محمد بسبيل المضاف على واجهة المدرسة. كذلك وجدنا خانقاه بيبرس الجاشنكير يلحق بها قبة ضريحية في مقدمتها لدفن السلطان بيبرس بها بعد وفاته بالإضافة إلى رباط الإيواء الجنود واذا نظرنا إلي مدرسة السلطان حسن فقد الحق بها أمام ايوان القبلة قبة ضريحية لم يدفن بها مؤسس المدرسة والتحق بها ايضا سبيل يعلوه كتابا بالإضافة الي المدارس الفرعية الأربعة الموزعة في زاوية الفناء بين الأيونات الأربعة.

وعن تخطيط القبة الضريحية فلم يخرج عن كونه مربعا والتطور الذي لحقه تمثل في صغر أو كبر مساحتها ومناطق انتقالها من الداخل والخارج وطريقة زخرفتها ووضعها بالنسبة للمنشأة مما سوف نعرض له عند الحديث عن القبة الضريحية.

ومن المعروف أن طراز المدرسة الايراني لم يولد في العصر المملوكي البحري فقد كان التخطيط الايواني معروفا في مصر منذ القرن الثاني الهجري فيما عرف باسم بيوت الفسطاط ثم عرف في العصر الفاطمي في القاعات الملحقة مثل قاعة الدار دير خلف الأزهر والقاعات المكون منها القصور الفاظمية. وفي العصر الأيوابي تبقي لنا مدرسة السادات الثعالبة ودار الحديث الكاملية المكونة من صحن وايوانيين لازال الإيوان الشمال الغربي المحتوي علي ملقف هوائي موجودا في حين بني حسن كتخدا شعراوي مسجده ١٤٩٩)، وقد أثبتت الحفائر الاثارية انه كان تتقدم الحجرات في الضلعين الجانبين للصحن رواق لكل جانبي (سقيفة) ثم في المدارس الصالحية من ايوانات وصحنيين ثم في القلعة حيث أبراج الملك الكامل محمد المضافة مثل برج المربع والصفه وكير كليان

والمكونة من دور قاعة وسطي واربع ايوانات وهناك عوامل اثرت بطبيعة الحال في التخطيط منها المساحة المتاحة والموقع والمتطلبات وعبقريةالمهندس.

المساحة المتاحة

لعبت المساحة دورا هاما في التخطيط ليصبح ذا مساحة صغيرة أو كبيرة فمنذ بداية العصور الإسلامية في مصر ويحتل المسجد الجامع مساحة كبيرة ويتمركز في وسط المدينة لأنه أساسها ورمز الدولة ولابد أن يستوعب اكبر عدد من سكانها وبه تقام خطبة الجمعة لذا جاءت المساجد الأولي كبيرة المساحة في وقت قل فيه سكان المدن ولعب العمران وتطوره دورا هاما وكبيرا في تحديد مساحة المسجد والمنشأة لذا جاءت جوامع الأزهر الحاكم ومن قبلة عمرو بن العاص و احمد ابن طولون ذا مساحة كبيرة اثرت علي تكوين هذا التخطيط وفى العصر المملوكي بسبب ازدياد العمران وتطوره وظهور احياء جديدة وحارات وخطط ولم تكن عمائر العصر المملوكي عمائر ابتداء كما كان الحال في عواصم الفسطاط والسكر والقطائع والقاهرة بل أحيانا يضطر المعمار إلي هدم مبني أو عقار قديم ويقام مقامة مبني جديد علي نفس المساحة عن طريق الشراء أو الاغتصاب كما راينا سابقا.

فقد بني جامع الظاهر بيبرس علي مساحة كبيرة جدا لانه خارج القاهرة وكان مكانه ميدان للعب بالصوالجه ويسمي الحي الذي به المسجد بالحسينية قديما واليوم بالظاهر نسبة الي مؤسس الجامع.أما مدرسة الظاهر بيبرس فقد كان مكان قاعات للخيم والسلاح الملحقة بالقصر الشرقي الكبير وكان يجاور المدرسة من الناحية الجنوبية الغربية قبة الصالح نجم الدين أبواب ٥٦٤٨.في حين مكان البيمارستان المنصوري قاعة ست الملك ابنة العزيز واخت الحاكم بأمر الله والتي آلت إلي قطب الدين بن العادل ثم للي ابنته مؤنسة خاتون القطبية اما المدرسة والقبة فقد بنيتا على باقي انقاض القصر الغربي الصغير.وكانت خانقاه ايدكين البندقداري مقامة في مكان بناء يسمي دويرة مسعود هدم وبنيت غلي انقاض دار الوزارة الفاطمية الكبرى وفيها نقل الشباك الحديدي المنقولة من بغداد على يد الوزير أبا الحسن البساسيري على عهد القائم العباس في بغداد الي القاهرة.

وبنيت مدرسة السلطان حسن مكان دار لكل من الأميرين الطنبغا المارداني ويلبغا اليحياوي كذلك بنيت مدرسة الناصر محمد التي بنيت بجوار مجموعة ابيه علي انقاض القصر الغربي الفاطمي الصغير و علي انقاض بيت الزكاة فيما بعد وبنيت مدرسة تتر الحجازية بحبس الرحبة على أنقاض القصر الشرقي الكبير هي ومدرسة متقال بدرب قرمز.

ولكن الملاحظ أن المساحة التي بنيت عليها منشأت العصر المملوكي على اختلافها سواء اكانت دينية أو مدنية يتمثل ذلك في قصر الأمير بشتات ٧٠٣هـ ووكالة قوصون بباب النصر كمنشأت تجارية يلاحظ انها لم تكن مساحات صغيرة اذا ما قورنت بمثيلاتها في العصر الاحخق الجركسي وهذا ما سبب التطور المعماري الذي سوف نراه في العصر اللاحق حيث لم يكن قد حدث بعد التكدث والازدحام العمراني للقاهرة وظوهارة.

وعلى أية حال يراعي دائما امرين عند بناء المنشأت الدينية وهما اتجاه القبلة وخط تنظيم الطريق. .

الموقع:

يتحدد شكل العمارة المملوكية أو العمائر وواجهاتها تبعا لموقعها من الشوارع والحارات أو الأزقة والعطف فالمنشأت التي بنيت في خلاء اختلفت بطبيعة الحال عن تلك التي بنيت علي ناصيتي طريق أو تلك التي بنيت. بواجهة واحدة المجاورتها لجيران.

وقد دلت الآثار المتبقية من العصر المملوكي علي حسن تصرف المعمار في ان على هذه المواقع المختلفة وأخرجا المهندسون نماذج رائعة مختلفة عن بعضها بسبب از داد الموقع فمثلا المنشأت التي بنيت على القصبة العظمى بالقاهرة لم يكن لها سوي واجهة واحد ركز عليها المعمار كل العناصر الأساسية في المبني مثل المئذنة والقبة الضريحية وواجية الايوان الرئيسي وكتلة المدخل ومن أمثلة ذلك مجمع المنصور قلاوون ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون وكلاهما بالشارع الأعظم جامع شيخو بالصليبة الطولونية ومدرسة السلطان حسن والذي نري فيها ابداع في توزيع العناصر المعمارية حيث تقف المئذنتان على جانبي واجهة القبة الضريحية وضمن الواجهة الشمالية الشرقية كتلة المدخل الرئيسي وواجهة المدارس الفرعية والأبواب في تلك الجهة وخلاوي الطلبة الملحقة بالمدارس الفرعية وقد أتيح للمدرسة ٣ واجهات تطل علي ميدان القلعة في الجهة الجنوبية الشرقية و على المظفر في الجهة الجنوبية الغربية و علي شارع محمد علي في الجهة الشمالية الشرقية اما الجهة الشمالية الغربية تشرف علي ملحقات المدرسة حيث الساقية ودورات المياه مما اظهر جميع الثلاث واجهات الرئيسية وكذلك الحال بالنسبة لعمارة المسجد حيث أتاح موقع جامع الظاهر في اظهار الأربع واجهات بمدخلها التذكارية البارزة وخندقها المحيط بها.

وقد اشتملت واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير التي فقدت رباطها اليوم علي واجهة رئيسية واحده فقط و القبة الضريحية من الخارج والمئذنة فوق المدخل في حين لم يوفق المعمار في اظهار باقي الواجهات وهذا ايضا سيبه الموقع والمساحة مجتمعين أما عن الموقع فقد جعل المعمار وضع القبة في الأمام والتي جعلت لدفن السلطان بيبرس في المقدمة حتى يستفيد من دعاء المارة يوميا والترحم عليه اما من حيث المساحة فقد بنيت قبل هذه المنشأة بست أعوام مدرسة قراسنقر المنصوري وذلك من الجهة الجنوبية الغربية ومن الجهة الشمالية الشرقية كان يوجد شارع مسلوك وقد حددت المساحة بهذا الشكل واثرت علي تخطيط الخانقاه.

وقد ضمت واجهة الجنوبية الشرقية لمدرسة خوند بركه (أم السلطان شعبان)واجهة الايوان الجنوبي الشرقي وواجهة القبة الضريحية و المئذنة وواجهة السبيل.

و اما واجهة مدرسة صرغتمش فقد جمعت القبة الضريحية يليها يسارا واجهة الايوان الشمالي الغربي ثم المئذنة ثم فتحت المدخل الرئيسي

واجهة تتر الحجازية و التي تطل على رحبة باب العيد فقد ض مت واحة القرة الضريحية و المدخل الرئيسي متشابهة في ذلك مع واجهة خانقاه بيبرس الي الجاشنكير ولكن المدرسة تتر الحجازية واجهة اخري جانبية هي الشمالية الغربية ويشترك بعضها ايضامع خانقاه ايدكين البندقداري حيث تتقدم القبة الضريحية الخاصة بالرجال امالمتطلباتاختلفت تخطيطات المنشأت المملوكية بحسب متطلبات المنشئين فمنهم من يود ان يكون تخطيط المنشاة ايرانية أو من صحن وظلات ومنهم من يود دمج قبة ضريحية لنفسة أو اطباق للصوفية أو سبيل بكتاب.

وبطبيعة الحال تحكمت المساحة والموقع في هذه المتطلبات فأحيانا تلبي وأحيانا تعجز فلو اخذنا عنصر طباقات للصوفية على اعتبار أنه العنصر الأكثر إلتصاقا بهذه المباني لوجدنا إختلاف بين مواقع هذه الطباقات في المباني المملوكية.

فمثلا وضعت طباقات أوخلاوي الصوفية في خانقاه بيبرس الجاشنكير علي جانبي الأيوانيين الجانبيين الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي في طابقين حيث كانت هناك مساحة كافية امام المهندس في حين غرف الطلبة الدارسين في مدرسة المنصور قلاوون توزعت بنفس الشكل على جانبي الايرانيين الصغيرين اما بمدرسة السلطان حسن فقد توزعت غرف الطلبة على جانبي الصحن علي حسب الطلبة الدارسين ولا شك أنه كان توجد غرف ملحقة بخانقاه ايدكين البندقداري ولكنها تهدمت في وقت سابق.

اما عنصر وضع القبة الضريحية فمن الملاحظ أن أصحاب المنشآت كانوا يحرصون أن تتضمن القبة الضريحية التي سوف تحوي رفاتهم يوما ما بالواجهة الرئيسية فوجدناها تتضمن الواجهة مجموعة المنصور قلاوون ومدرسة ابنه الناصر محمد بجوارها وكذلك في مدرسة ام السلطان شعبان ايضاً بالواجهة الرئيسية أو أن تتقدم المنشأة مثل خانقاه بيبرس الجاشنكير ومدرسة تتر الحجازية وخانقاه علاء الدين ايدكين البندقداري أو كما تسمي بزاوية الابار.

عبقرية المهندس

تنوع تخطيطات المباني في العصر المملوكي بسبب العبقريات المتفاوتة للمهندسين الذين صاغوا هذه الأعمال وبطبيعة الحال كان النصيب الأوفر من هذه العبقريات للمهندسين الذين عملوا في القصور السلطانية أو في خدمة الأمراء وبقدر صعوبة المكان من المساحة والموقع ومتطلبات المنشئ ظهرت هذه العبقريات ذلك أن المهندس في العصر المملوكي حاول أن يستفيد بأقصى درجة من المساحة وفي نفس الوقت حرص على أن يكون الداخل متعامد من الزوايا وقد تجلت تلك العبقريات ايضا في معالجة التخنات الناتجة عن تحرير القبلة وذلك بفتح نوافذ بها واستغلال هذه المساحات في أغراض اخري وتجلت في عملية الربط بين الكتل المعمارية للمنشأت عن طريق وسائل الحركة والاتصال سواء أكانت مداخل أو دهاليز وممرات مما يستفيد بها المرء في اثناء مروره وتنقله وتجلت ايضا في ضرورة تزويد المنشأة بعنصر مائي سواء سبيلا خارجية لسقي المارة أو العاملين بالمنشأة أوحوض في وسط المنشاة لتلطيف حرارة الجو مع ضرورة وجود ساقية تغذي المكان بالماء.

واذا حاولنا أن نلاحظ كل هذه المؤثرات مجتمع علي الاثار المملوكية لوجدنا أن كل منها عولج بطريقة مختلفة حقا هناك تشابه في أسلوب البناء ومادته أو وجود بعض العناصر واختفائها لكن عنصر المساحة والموقع والمتطلبات وإمكانية المنشئ كل ذلك ساعد على وجود امثلة متنوعة من المباني قلما تجتمع في مكان واحد سوي مدينة القاهرة.

الواجهات

اهتم المهندسون في العصر البحري ببناء وجهات العمائر ذات الشأن من مادة الحجر سواء الحجر الجيري الأبيض أو الحجر المشهر ذي اللونين وذلك لتوفير هذه المادة في المحاجر القريبة في جبل المقطم وحرص المعمار في هذه الواجهات علي مراعاة خط تنظيم الطريق من ناحية مع ايجاد مكان لباب الدخول الي المنشأة.

ونجح المعمار في إحداث توزان جميل بين مكونات الواجهات فوضع كرسي المنار الي يمين الواجهة في أغلب الأحيان وتوسط المدخل الواجهة بهيئته الفخمة وما يتقدمه من سلم بطرفين أو وجهين وما يتوجه من أنواع العقود بينما شغل السبيل والكتاب الشطر الاخر من الواجهة .

ففي واجهة مدرسة السلطان الناصر محمد وضع المعمار واجهة القبة جهة اليمين وفي الوسط المدخل بعلوه المئذنة بينما في واجهة المنصور قلاوون وضع المئذنة في اقصي اليمين ثم واجهة القبة الضريحية ثم يتوصل المدخل المجموعة وعن يساره واجهة الحيوان الرئيسي الجنوبي الشرقي في حين وضع أو أضاف السلطان الناصر محمد سبيلة علي واجهة المدرسة. اما واجهة مدرسة خونة بركة (ام السلطان شعبان)فقد شملت القبة من اليسار لليمين واجهة ايوان القبلة تم القبة الضريحية ثم المئذنة ثم المدخل الرئيسي.

اما واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير فضمنها المعمار واجهة القبة الضريحية والمدخل الرئيسي ويعلوه المئذنة. و اما واجهة خانقاه ايدكين البندقداري أو زاوية الابار فقد شملت واجهة القبة الضريحية فقط تشترك في ذلك مع مدرسة تتر الحجازيةنظرا لطول الواجهات قسمها المعمار الى تجاويف راسية متجاورة وذلك لتقوية البناء من ناحية وتجميل الواجهة من ناحية أخري و عمد المعمار الى شغل هذه التجاويف الرأسية من اسفلها الى اعلاها فنجد في الجزء الأسفل منها نوافذ ذات مصبعات تفتح على القاعات والأوأوين ويغلق عليها من الداخل مصابيح من الخشب المتطابق وفي الأجزاء العلوية من الوجهة الرأسية وضع المعمار نوافذ معقودة من الجص المعشق بالزجاج الملون أو نوافذ معقودة من الخشب المنجور

وبأعلى الحنايا الرأسية وضع المعمار صفوفة من المقرنصات أطلقت عليها الوثائق المملوكية اسم " صدر مقرنص مغرق بماء الذهب واللازورد "ويتوج الواجهات عادة اشكال زخرفية على هيئة مسننه أو أحيانا ورقة بنائية ثلاثية مادة الحجر يطلق عليها أهل الصنعة اسم "الشرافات" وتطلق عليها الوثائق المملوكية اسم " أخطرة البنيان" وذلك لأنها تحدد النهايات العليا الأسطح المباني وتدرأ الخطر عن الموجودين على هذه الاسطح.

ولم يترك المعمار هذه الوجهات غفلا بل زخرفها بشتي أنواع الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية غير ان اهم العناصر الزخرفية التي استخدمها تلك الزخرفة المعروفة بالجفت والميمة وهي عبارة عن شريطين بارزين يسيران متجاورين لتحديد العناصر المعمارية الموجودة على الواجهات مثل النوافذ والمداخل والابواب والعقود والأشرطة الكتابية بحيث تبدو الواجهة مجسمة ومقسمة إلى مناطق تدخل الحيوية على البناء كما زخرفت نواصي البناء بأعمدة مندمجة من الحجر، شغل بدنها بشتى أنواع الزخارف الهندسية والنباتية واحيانا تتوج هذه الاعمدة المندمجة بزوايا المباني على هيئة زخرفة معمارية أو خرطوش سلطاني أو أية قرآنية.هذا ونري في واجهة مجموعة المنصور قلاوون أن الحنايا أو التجاويف الراسية لم تتوج بصدور مقرنصة وانما انتهت بعقود مدببة كذلك انتهت التجاويف الرأسية في واجهة ضريح السلطان بيبرس الجاشنكير بصدور مقرنصة.

ايضا في واجهة جامع وخانقاه شيخو وفي واجهة مدرسة أم السلطان شعبان نرى ان الحنايا الركنية تنتهي بصدور مقرنصة مع مراعاة أنه يعلو مكان دخله المحراب في اعلى الواجهة قمريه مستديره أو قنديلة بسيطة كما هو الحال في واجهة ضريح المنصور قلاوون.

وقد رأينا الشريط الكتابي الذي يتضمن اسم السلطان بيبرس الجاشنكير دون لقد السلطان الذي أمر السلطان الناصر محمد بحذفه بعد خنقه للسلطان بيبرس بيديه. والنص الكتابي يسير بأعلى الواجهة مبتدئا بواجهة المدخل ثم واجهة الضريح.

المداخل

تنوعت المداخل في العصر المملوكي البحري ما بين محوريه أو تذكارية بارزة ، وقد رأينا المدخل الرئيسي لمرسة المدرسة الظاهرية بيبرس ٩٩٠-٩٢هـ والذي يعلوه طاقية مدببة ملات بصفوف من المقرينات ذات الدلايات وقد رأينا هذا المدخل بنفت التصميم من قبل في شرق العالم الإسلامي في حلب حيث مدرسة شاد بخت ٥٥٨٩عاما توج المدخل الرئيسي لمجموعة قلاوون بعقد مدبب محمول على عامودين من ا في حين نقل الناصر محمد مدخل ذات الطراز القوطي من عكا إلى مصر حيت

ابالنحاسين يتبع مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير طراز جديدا حيث تتقدمه سقيفة لها سقف خشبي وواجهة معقودة في حين جاء مدخل مدرسة السلطان حسن عبارة عن طاقيه ملئت بصفوف من المقرنصات من الملاحظ أن كتله المدخل في العصر المملوكي البحري البارزة التذكارية تكونت من خلال وجود حجر غائر محصور بين مكسلتين بصدر الحجر فتحه باب مستطيله يعلوها عتب مستقيم يعلوه نفيس ثم عقد عاتق يعلو ذلك نافذة مربعة أو مستطيله يغشيها مصبعات لإنارة ما خلف المدخل أو دهليز ولتوزيع الضغط الناتج من الأحمال التي تكون موجوده بباقي كتلة المدخل أعلى المكون الثلاثي الذي سبق ذكره. يلي ذلك باقي واجهة المدخل وسبق أن شاهدنا ذلك في امثله عديده متوجه بعقد مدائني مملوء بصفوف من المقرصات ذات الدلايات يتقدم حجر المدخل بسطه محاطه بدرابزين من الحجر أو الرخام محاط بسلم بطرفين ونجد هذا امام مدخل مجموعة المنصور قلاوون ولكنه غير موجود الأن وقد اثبتت الادلة ذلك.حيث وجدت درجة واحدة من الطرف الايمن للسلم .

وكان يزخرف المدخل الرئيسي في غالب الأحيان بحر عبارة عن شريط كتابي يتضمن اسم المنشئ وتاريخ الأنشاء كما هو الحال في العادة اليمني التي لا زالت متبقية من مدرسه الظاهر بيبرس بشارع المعز.

الصحن أو الدرقاعة

تتوسط المنشأت المملوكية مساحة كشف أطلق عليها اسم الصحن تتناسب مساحتها مع المساحة الكلية للمنشأة ولما كانت معظم منشأت العصر المملوكي البحري كبيرة كانصحنها أيضا كبير ومكشوف ويتوسط أرضيته نافورة لتلطيف درجة الحرارة في وقت الصيف.

ولم يخشي المعمار على لحامات الرخام في ارضيات الصحن بسبب شدة الحرارة لان الاشكال الهندسية كانت كبيرة وبالتالي فاللحامات اقل مثلما الحال في صحن مدرسة الامير صرغتمش.

ووضع المعمار في غالبية المنشات فوارة عبارة عن قبة محمولة على اعمده ولها رفرف وفي الوسط حوض مثمن مثال ذلك في خانقاه شيخو بالصليبية ومدرسة السلطان الناصر حسن.

وتفتح الأيونات على هذه الصحون بعقود ضخمة من الحجر ذي اللونين والذي اطلقت عليها الوثائق المملوكية اسم "الحجر المشهر" وحليت المناطق الخالية بين العقود "الكوشات" بزخارف هندسية وكتابية وشغلت زوايا هذه الصحون بأبواب متشابهة في اشكالها يؤدى من الداخل الى الخارج أو توصل لمدارس فرعية أو لكتيبيات لحفظ المصاحف والربع الشريفة أو الى خزانات لحفظ أدوات المكان من السجاد والحصير وغيرها.

ونري عقود الايونات تفتح على الصحن مثلما الحال في عقد الإيوان الرئيسى لخانقاة بيبرس الجاشنكير والايوان المقابل في حين يطل ايوان القبلة بمدرسة قلاوون بواجهة مزدوجة معقوده. ونري ضخامة فتحة الحيوان المطلة على الصحن بإيوان القبلة بمدرسة السلطان حسن. وتتجلي الأبواب الموزعة على الصحن في مدرسة السلطان حسن وعددها اربعه وتؤدي إلى المدارس الفرعية الملحقة.

وقد توسط صحن جامع الظاهر بيبرس البندقداري حوض ماء وقد سبق عنصر النافورة العصر العباسي حيث سبق رؤيته في العديد من المنشأت السابقة على العصر المملوكى.

الأسقف :

تنوعت الأسقف في العصر المملوكي ما بين أسقف خشبيه و اقبية وقباب وقد كانت منطقة الشام الغنية بالأخشاب تحت السيطرة المصرية سببا في التسقيف بالأخشابوقد رأينا التسقيف بالأخشاب في الفناء امام القبه الفرعية لخانقاه بيبرس الجاشنكيربسقف خشبي يتوسطه شخشيخة كذلك يسقف السقيفه أمام مدخل نفس الخانقاه بسقف خشبيوكذلكسقيفةظلاتجامعالظاهرالأربعةبأسقفخشبيهمجلده. وانتشرت التغطية بالأقبية في العصر البحري. فنرى ايوان القبلة في مدرسةقلاوون كان مغطي في البلاطة الوسطي بقبو مدبب في حين غطيت البلاطتين باقبية متقاطعة من الأجر المكسي بطبقة من الملاط اما الايوان المقابل فكان مغطى بسقف خشبي.وقد غطي إيوان القبلة بخانقاه بيبرس الجاشنكير والموسع من جهتيه بسدلتين كذلك غطيت خانقاه علاء الدين ايدكين البندقداري بقباب ضحلة محمولة على مثلثات كروية وقد غطيت الأواوين بمدرسة خوند بركه" أم السلطان شعبان " بأقبيه مدببة.وكل ايوان مغطي بقبو مديب.وقد غطي ايوان القبلة الرئيسي بمدرسة السلطان حسن بقبو مدبب ضخم.

هذا وقد غطيت الدركاوات خلف المدخل بأنواع مختلفة فتاره بقباب حجرية محمولة علي صفوف من المقرنصات ذات الدلايات مثل دركات مدخل مدرسة السلطان حسن وتاره بقبة ضحله مقامة على مثلثات كروية مثل دركاة مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير. وتاره يؤدي المدخل مباشره دون دركاة الي ممر مستطيل مغطي بسقف خشبي كما هو الحال في مجموعة المنصور قلاوون.

هذا وقد رأينا بسقف قبة المنصور قلاوون مناطق محصورة بين القبة والجدران مسقفه بأسقف خشبيه متنوعه ما بين البراطيم والقصع الخشبية المثمنة والذي كان أول ظهور لما كان في ضريح الإمام الشافعي بمسقف احدى الدخلات ٦٠٨ هـ .

أما الأسقف الخشبية التي كانت تتألف من براطيم خشبيه تحصر بينها أخاديد أو قنوات مزخرفه بطبالي ومربوعات وكان يصنع هذا النوع من الإسقف باستخدام براطيم من افلاق النخل تكسي جوانبها الثلاثة الظاهرة بألواح من الخشب الخفيف ويركب في الفراغ بين كل برطومين عوارض خشبيه فيتألف من ذلك أخاديد قليلة العمق مقسمة– كما سبق القول – الي مناطق يسمى المربع منها طبلية و المستطيل التمساح" وكانت هذه

الطبالي و التماسيح تزخرف بالرسوم البارزة "أويمة" ولم تكن هذه السقوف توضع مباشرة على الجدران بل يفصلها ازار مكون من عدة صفوف من المقرنصات وتعد أخشاب الاسقف للدهان بطريقتين:

الأولى : – يتم تغطية وجه الخشب بطبقة سميكة من الشحم وزيت النفط ،

والثانية:– تتم بدهان الخشب بمحلول خفيف من المستكة والنفط وتفيد هاتان الطريقتان في حفظ الاخشاب من رشح الرطوبة التي تسبب فساد الطلاء.

اما الألوان فكانت تذاب في وسيطين: –صفار بيض محلول في الغراء الحيواني أو صفار بيض محلول في منقوع العنب وأهم الألوان المستخدمة في تزيين الاسقف هي اللون الأزرق اللازوردي الذي تفرش به الارضية واللون الذهبي الذي تحدد به الزخارف.

المآذن

إذا ما استثنينا جامع بن طولون والتي طرأ عليها تجديدات صارت محل النقاشأن أقدم الماذن في مصرماذن جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي وقد بنيتا من الحجروتقع الاولى بالزاوية الغربية والثانية بالزاوية الشمالية شكلت واحدة بقاعدة مربعة والأخرى بقاعدة مربعة يعلوها بدن اسطوانى والاخرى بقاعدة مربعة وبدن مسنن مزخرفالبدنان بالعديد من الاشرطة الزخرفية الهندسية والكتابية.

وسلك مهندس رباط الجيوشي نفس طريقة البناء وإن اختلفت مادة البناء فاستعمل الطوب بدلا من الحجر وتوجت المأذنة بقمة على هيئة نصف قبة ملساء دون زخارف.

وتطورت الماذنة في العصر الأيوبي فتكونت من قاعدة مربعة معلقة على المدخل ثم بدن مثم يليه مثمن اصغر وتنتهى المئذنة بقمة معقودة بضلوع اطلق عليها المعماريون اسم طراز المبخرة وكانت الماذنة حتى هذه الفترة تبنى من الاجر المكسي بطبقة من الملاط باستثناء مئذنتي جامع الحاكم من احسن الامثلة السابقة مئذنة المدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة . وتنوعت اشكال الماذن في العصر المملوكى البحري ولاسيما في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون فمنها من تكون من ثلاثة طوابق (مربع – مربع – اسطواني) مثال ذلك مئذنة مجموعة المنصور قلاوون والتي جددت في عهد الناصر محمد اثر زلزال عام ٧٠٢هـ

والناصر محمد بن قلاون بمسجده بالقلعة ماذنتين مختلفتين من الحجر أولهمابدن اسطوني يستدق لاعلى وتنتهي بقمة مفصصة والأخرى بقاعدة مربعة وبدن اسطواني مزخرف بالدالات وفي عهد الناصر محمد قلاوون وجد طراز جديد للمئذنة والمعروف بطراز القلة التي تبدأ بقاعدة مربعة ثم بدن مثمن ثم مثمن أصغر ثم منطقة البابات وهي عبارة عن أعمدةتحملالجزءالعلويالمشكلعلىهيئةغطاءقلةللشرب. ومنالأمثلة المبكرة لهذا الطرازمئذنةمسجدالطنبغاالماردني٧٣٩هـ .وقد أصبحت كتلة المئذنة في العصر البحري والتي تبدأ بكرسي المنار وحدة منسجمة وجزء من التكوين المعماري و الواجهة وكانت تبني من الأجر أو الحجر.وقد عرف العصر البحري نوعان من نهايات أو قمم المأذن تمثل في عنصر المبخرة والذي كان يعلو مئذنة خانقاه بيبرس الجاشنكير والتي تشابه كثيرا مع مئذنة المدارس الصالحة. أما من مجموعة المنصور قلاوون والمجددة على عهد

أبنة الناصر محمد ٧٠٣هـ فكانت نهايتها عبارة عن قبيبة وهو تصغير لقبة. وقد رأينا نهايات مأذن الحاكم عبارة عن مبخرة وهو نفس طراز مئذنة خانقاه الجاشنكير لأنه قام بترميم مآذن جامع الحاكم.

اما عنصر القلة فنراه بوضوح بعد مئذنة الطينغا المارداني في منشأت البحري. هو الذي سوف يستمر أيضا طوال العصر الجركسي.

والتطور الذي لحق المئذنة في العصر البحري ليس فقط في نهايتها بل في صغر حجم المربع الذي كان لازال كبيرا حتي عصر السلطان بيبرس الجاشنكير ومن قبل عصر المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد بن قلاوون

ونري في مئذنة السلطان الناصر حسن الجنوبية انها اصلية من وقت الأنشاء ومن اهم خصائصها انها تبدأ بقاعدة مضلعة. ثم مثمن بينهما شرفتين وبابات تنتهي بقمة على هيئة القلة.وتتجلى الزخارف الجصية الرائعة في مئذنة مدرسة سنقر السعدي " حسن صدقة" بالسيوفيه .

السبيل والكتاب

السبيل منشأة خيرية القصد منها تسبيل وجود الماء للمارين على الطرق صدقه لوجه الله تعالي وهي تنقسم لأنواع منها السبيل ذي الشباك الواحد، السبيل ذي الشباكين، والسبيل ذي الثلاث شبابيك، والسبيل ذي الحجاب.

وعادة ما تكون الاسبلة من ٣ طوابق أولها. يبني في تخوم الأرض ويسمي الصهريج او المصنع وهو الجزء المخصص لخزن الماء الذي يستعمل في السبيل على مدار العام ويكون هذا الصهريج على هيئة حجرة مربعة أو مستطيلة وقد تكون من مستوي واحد أو مستويين وتغطي بقباب ضخله تسمي بعقود المقالي ويؤدي إليها مسلم يسمي الطرابلسي.

والطابق الثاني من السبيل هو غرفة التسبيل وتختلف هذه الغرفة بحسب نوع السر وموقعه وعدد النوافذ الموجودة فيه والعنصر الأساسي في هذه الغرفة هو لوح السلسبيل "الشاذروان وهو عبارة عن لوح من الرخام متعرج السطح يوضع بشكل مائل في صدر الغرفة التسبيل الماء عليه ويتعرض للهواء فيبرد ثم يجمع هذا الماء في احواض قريبه من النوافذ ليأخذها الناس بعد تزويدها بماء الزهر ويشغل الطابق الثالث من السبيل عادة بكتاب معد لتعليم الأيتام المسلمين القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وللكتاب سقيفه تسمي الرفرف وهو لوح خشبي مائل يحمي الأطفال اليتامى من الحرارة وسقوط الأمطار. وللكتاب واجهة أو أكثر عبارةعن بائكة معقودة محمولة على أعمدة ولها دربزين من الخشب يحمي من خلفهامن خطر السقوط وله سقف خشبي من براطيم خشبيه ومن اقدم الأسبلة ذات الشباكين السبيل المحقق بمدرسة الظاهر بيبرس البندقداري ٦٦٠ – ٦٦٢ هـ والذي كان يعتقد خطأ ان اقدم مثل من هذا النوع ذي الشباكين هو سبيل المنصور قلاوون بشارع تحت الربع الى أن اكتشف هذا السبيل ويجب الإشارة إلي السبيل الذي أضافه السلطان حسام الدنيا والدين لاجين ٦٦٩هـ بجامع احمد بن طولون. وكان يوجد سبيل ذو كتاب ملحق بمجموعة المنصور قلاوون وكذلك مدرسة السلطان حسن وللأمير شيخو سبيل بباب الوزير ٧٥٥ هـ .

ومن المعروف أن السلطان الناصر محمد قد اضاف سبيل على واجهة مدرسة والده وهو عبارة عن قبه غير موجودة الآن لها رقبه مثمنه لازالت البلاطات الخزفية الزرقاء تزخرف جزء منها وكذلك منطقة انتقالها لا زالت

موجودة بالإضافة إلي الكتابات النسخية المملوكية على رقبة القبة بالقاشاني وللسبيل واجهتين علي شارع المعز أحدهما عبارة عن بائكة من أربع عقود والأخرى قبة ورفرف.

القبة الضريحية

كانت عادة إنشاء القباب الضريحية الملحقة بالمساجد والمدار في مصر منذ أن الحقت شجر الدر لزوجها قبه ضريحية عام ٦٤٨هبالشارع الأعظم وهي سُنة سيئة ابتدأتها شجر الدر وتبعها من تلاها بعد ذلك بالقصبة العظمى.

فقد الحق الناصر محمد بن قلاوون بمدرسته قبه ضريحية كذلك بني المنصور قلاوون لنفسة قبة ضخمة فريدة في منطقة انتقالها من الداخل ويتقدمها فناء مغطي بأقبية يتوسطه مساحة مكشوفة كان بها فسقية وتخطيط القبة متأثر إلي حد بعيد بتخطيط قبة الصخرة بالقدس ٧٢ هـ

كذلك الحق بمدرسة أم السلطان شعبان قبة ضريحية ومدرسة سنقر السعدي بالسيوفية بالإضافة خانقاه بيبرس الجاشنكيز ومدرسة قراسنقر المنصوري ٧٠٠هـ، بجوارها بالإضافة إلى خانقاه ايدكين البندقداري والتي اشتملت على قبتين. احدهما للرجال و الثانية للنساء وكذلك خانقاه سلار وسنجر الجولي ومدرسة صرغتمش وخانقاه شيخو بالصليبة ومدرسة أولجاي اليوسفي ومدرسة السلطان الناصر حسن واختلف موضع القبة الضريحية تبعا لرغبة الواقف أو المنشئ والتي جاءت أغلبها مطله على الشارع الرئيسي بالواجهة الرئيسية أو خلف أبواب القبلة كما هو الحال في مدرسة السلطان حسن أو امام الخانقاه مثل خانقاه بيبرس الجاشنكير وايدكين البندقداري أو بالواجهة الرئيسية مثل مجموعة قلاوون ومدرسة أم السلطان شعبان ومدرسة صرغتمش.

وقد خضعت القباب الضريحية الملحقة بالعمارات الدينية لأساليب عصرها البنائية منذ البداية وشملت التطور مادة البناء الخام ومربع القبة ذاته ومنطقة الانتقال والخوذة التي تغطي حجرة الدفنوقد كانت مساحة القباب الفرعية في العصر المملوكي البحري كبيرة نسبيا ويتجلى ذلك في قبة المنصور قلاوون والتي جاءت نصف مساحة المدرسة كذلك فإن قبه السلطان بيبرس الجاشنكير وقراسنقر المنصوري ذاتا مساحة كبيرة أيضا.

وتطورت مناطق الانتقال فنراها في قبه السلطان بيبرس الجاشنكير عبارة عن عدد من حطات المقرنصات في اربع مستويات.

ومن المعروف أن مناطق الانتقال قد بدأت بحنية ركنية مفردة كما في ضريح السبع بنات ... ثم تطورت لتصبح مستويين كما في ضريحي الجعفري و عاتكة ٥١٤هـ – ٥١٩ هـ ثم في ضريح السيدة رقية رضي الله عنها ٥٢٧هـ بشارع الأشراف .

وتميز العصر البحري بوجود حاله فريدة في مناطق الانتقال وهي القبة المحمولة على ٨عقود من وجود ٤ دعامات و ٤ أعمدة كونوا مثمن يحمل ٨ عقود برقبة مثمنة تحمل قبة ملساء

من الخارج ذات دعامات أو سنادات لتتشابه مع ذلك في قبه الاشراف خليل بشارع الاشراف بالقرب من السيدة نفيسة حيث أن القبه الاصلية قد سقطت وقامت لجنة حفظ الآثار بترميمها مقارنه مع قبه الاشراف خليل لأنها الأقرب في التاريخ.

وجاءت القبة الضريحية لخانقاه بيبرس الجاشنكير من الخارج ملساء لتتشابه في ذلك مع قبه الصالح نجم الدين أيوب من الخارج في حين جاءت القبة الضريحية التي تعلو ض ريح قراسنقر المنصوري بشارع باب النصر مضلعة من الخارج في حين زخرفت قبتي الخانقاه ايدكين البندقداري من الخارج بالضلوع الرأسية. .

واذا كانت القباب الحجرية ذات الضلوع قد ظهرت في عصر الناصر حسن فيما يعرف باسم قباب تتكزبغا بجبانة القادرية بمنشية ناصر بالقاهرة.

ونري زخرفه الضلوع المائلة المسماة فص وجريدة مثل قبه الأمير أولجاي اليوسفي والمزخرفة بضلوع مائلة أعطت الخوذة شكلا متحركا و الملحقة بمدرسته بشارع سوقالسلاح

ومن المعروف أن الضريح المبني امام ايوان القبلة الرئيسي لمدرسة السلطان حسن كما بنطيه قبه من الخشب المجلد بالتذهيب و الألوان ولها سطح مغلف ببلاطات من الرصاص على – غار قبة الصخرة وقبة الامام الشافعي ولكنها سقطت عام ١٠٧١هـ وكانت تشبه القباب السمرقندية التي لها رقبة طويلة ثم خوذة على هيئة نصف دائرة وكانت اعلى من القبة الحالية. اما القبة الحالية فقد جددها إبراهيم باشا عام ١٠٨٢هـ وهي مبنية على غرار القباب المخولة المنبعجة يحيط بها من الخارج اكتاف اسطوانية وشكل هذه القبة مأخوذة من قبة الاشرف خليل بنقلاوون بشارع الخليفة او شارع الاشراف مثلما الحال في قبة المنصور قانوون بالنحاسين منقولة ايضا عن قبة الاشراف خليل

وقد زادت العناية بالقباب الضريحية من الداخل فكسيت ارضها بالرخام المتعدد اخوان مثلما الحال في ارضية قبة بيبرس الجاشنكير المزخرفة بسبع محاريب بيبرس الجاشنكير المزخرفة بسبع محاريب وزينت القباب بالمحاريب الرخامية وكراسي المصحف واحيانا بالمنبر مثل القبة الضريحة فيما عرف بدروس وقف الصالح عماد الدين إسماعيل كما غشيت القباب الض أواسط مناطق الانتقال وفي الرقاب الأسطوانية والمثمنة بالنوافذ الجصية المية الملون والشبابيك ذات المصبعات . كما حليت الجدران بأشرطة من الك والنصوص التأسيسية كما هو الحال في قبة الناصر حسن مسجل على شريط – الأنهاء من بناء القبة وهو ٧٦٤هـ وكذلك قبة النساء الملحقة بخانقاه البندقداري يقرأ.....(الستر الرفيع والحجاب المنيع.)

الفصل الاول : المدرسة الظاهرية بالنحاسين(٦٦٠- ٦٦٢هـ)

الموقع: تقع هذه المدرسة في شارع المعز ملاصقة لضريح الصالح نجم الدين أيوب ويذكر عنها المقريزي أنها كانت تشغل مكان قاعة الخيام وقاعة السلاح الملحقة بالقصر الفاطمي الشرقي، وقام السلطان الظاهر بانتزاع هذه الأماكن بعد أن استصدر فتأوي ش رعية بذلك من الأئمة الدينيين، وقام ببناء مدرسة على هذا المكان.

الوصف الاثرى للمدرسة :

على الرغم من أن المقريزي يذكر لنا أن هذه المدرسة قد نالها الخراب في عصره فإنه تبقي منها جزء كبير ظل قائما حتي عام ١٨٧٤م، وحينما شرعت مصلحة التنظيم في شق طريق موصل من أمام بيت القاضي حتى سوق النحاسين أمام قبة المنصور قلاوون فهدمت جزءا كبيرا من هذه المدرسة، وزادت النكبات عليها حينما سقطت مئذنتها عام ١٨٨٢م، ولهذا لم يعد باقية منها سوي الأجزاء التالية:

كتلة من المباني مساحتها ١١× ٥ م عبارة عن ايوان صغير مستطيل المساحة يتوسطة حنية محراب ليست من عصر الأنشاء، وجزء من العضادة اليمني من كتلة المدخل لا يزال عليها جزء من نص الأنشاء، وحجرة مستطيلة على يمين المدخل٣,٥ ×٣ متر لها شباكان يطل أحدهما على الجهة الشمالية الغربية والآخر يطل على الجهة الجنوبية الغربية يعلو هذا الشباك عتب مزخرف بالنقوش الهندسية، ويحيط به إطار ضيق من الزخارف النباتية الدقيقة، يعلو العتب عقد عاتق حفر عليه نقش لفهدين متقابلين يعلو ذلك عقد مقوس من صنجات معشقة زخرفت واجهاتها بالحفر البارز بمثلثات تحصر بداخلها تكوين زخرفي جميل من الزخارف النباتية.

تستمر الواجهة الجنوبية الغربية لمسافة ١١,٥ متر حتى تلتقي بواجهة ضريح الصالح نجم الدين أيوب الشمالية الغربي، وبهذا الجزء نافذة أخري تشبه السايق وصنجة واحدة منالعقد المقوس.

هذا هو كل المتبقي من المدرسة الظاهرية بيبرس إلا أن الدراسات الأثرية التي قام بها العالم كريزول أثبتت أن هذه المدرسة كانت من كبريات مدارس عصرها بل يمكننا القول أنها كانت مساوية في المساحة للمدرسة الصالحية المجاورة لها، وقد أعتمد العالم كريزول في دراسته لهذه المدرسة علي مصدرين أولهما هو ما ذكره المؤرخ المقريزي في خططه عن هذه المدرسة وثانيهما: ما رسمه الرحالة الذين زاروا هذه المدرسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي حيث نقلوا برسوماتهم واجهات هذه المدرسة وما تحويه من زخارف وتفاصيل، فنظرة إلى الصورة التي رسمها الرحالة روبرت ديفيد سنة ١٨٣٩م وكذلك صورة أخرى لفنان غير معروف حوالي سنة ١٨٥٠ تظهر لنا واجهات المدرسة على النحو التالي:

يتقدم المدرسة كتلة مدخل ضخمة متوجه من اعلاها بطاقية مقرنصة مملوءة بالدلايات، يعلو فتحه الباب مباشرة حامل خشبي كان مخصصا لحمل المشكاوات التي تضيء ظاهر المدرسة، وقد قسم الواجهة إلى تجاويف أو حنايا رأسية تنتهي من أعلاها بصدور مقرنصة في حين أحتلت الشبابيك المنطقة السفلية من الحنايا وهي متوجة معشقة مزخرفة بالحفر بالصورتين السابقتين بأعلى الواجهات شرفات (بلكونات) محمولة على كوابيل خشبية و على واجهاتها مشربيات من الخشب الخرط، كما يتضح من الرسم أن ارتفاع المدرسة الظاهرية كان ي مساوي

لارتفاع قبة المنصور قلاوون ويظهر في صورة للفنان دافيد رسم لأحد الأشخاص يهم في بتناول شيء من الشباك المطل على شارع المعز وهو في الغالب شباك سبيل كان مخصصا في الإرواء ، المارة على الطريق يعلو شباك السبيل شرفة كتاب كانت مخصصة لتعليم أبناءالمسلمين، وقبل ذلك سنة ١٧٩٩م قام الفنان كاساس برسم صورة للمدرسة الظاهرية من الجية ا الغربية، وكما هو واضح من هذه الصورة فإننا نجد الواجهة مقسمة إلى دخلات رأسية مترج من أعلاها بصدور مقرنصة بدلايات في حين جعل في أسفلها الشبابيك المطلة عل المدرسة، كما يظهر بهذه الصورة شبابيك خلاوي الطلبة المقيمين بالمدرسة، وله الصورة واحدة أخرى رسمها الفنان شاردان بهذه الجهة من المدرسة .

ويكمل لنا المؤرخ المقريزي الصورة الكاملة لتخطيط هذه المدرسة وقت ان أنها كانت من نوع المدارس ذات الأربعة إيوانات حيث كان يعقد فيها در الإيوان القبلي (الجنوبي الشرقي)

مخصصا لأصحاب المذهب الشافعي حيث كان يجلس فيه الشيخ تقي الدين الحموي وطلبته، في حين احتل الشيخ محي الدين الحلبي شيخ الحنفية وطلبته الإيوان البحري (الشمالي الغربي)

، أما الإيوان الغربي (الجنوبي الغربي) فكان مخصصا لأحد مدرسي القراءات السبع للقران الكريم وهو الشيخ كمال الدين المحلي، وهذا الإيوان هو الجزء المتبقي من المدرسة حيث فتح في جداره الجنوبي الشرقي حنيه محراب لكي يستخدم للصلاة الآن، والإيوان الرابع هو الإيوان الشرقي (الشمال الشرقي)وكان مخصصا لتفسير الحديث النبوي الشريف وكان يجلس فيه الشيخ أشرف الدين بن خلف الدمياطي.

قام العالم ميرن بنقل نص الأنشاء الخاص بهذه المدرسة قبل أن تتهدم حيث أورده في كتابة عن القرافات، وكان هذا النص مسجلا على العضاداتين التي تكتنف المدخل الرئيسي للمدرسة و التي لا يزال جزئها الأيمن باقيا وهذا النص بصيغة "أمر بإنشاء هذه المدرسة السعيدة السلطان الأعظم الظاهر أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين وذلك في شهور سنة ستينإلا أن المؤرخ المقريزي يعطينا تفاصيل تاريخية أكثر تحدد لنا تاريخ البداية لهذه المدرسية فيذكر:"افتتحت المدرسة رسمية في (صفر سنة اثنتين وستين وستمائة)أي أن مدة بناءها استغرقت عشرين شهرا".

وقد أمر السلطان بيبرس ناظره جمال الدين يغمور بألا يستعمل فيها أحد بغير أجر ولا ينقص من أجره شيئا، ويضيف المقريزي بأن السلطان الظاهر قد أوقف على هذه المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب الدينية وسائر العلوم، وبني بجانبها مكتب لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالي، كما اوقف عليها ربعا للسلطان كان خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة وباب الفرج، ويعرف هذا الخط باسم الربع فيقال خط تحت الربع.

التحليل المعماري :

على الرغم من اندثار جزء كبير من هذه المدرسة إلا أنها تحتوي على عدة عناصرمعمارية هامة ظهرت بها لأول مرة من ذلك.

١-المدرسة ذات الأيونات الأربعة:

حسبما وصفنا سابقا هذه المدرسة كانت تحتوي على أربعة إيوانات وهي تعد بذلك أفضل المحاولات لبناء المدرسة ذات الأربعة إيوانات في مصر وقد سبق أن شاهدنا المدرسة في العصر الأيوبي مشتملة على صحن وإيوانين فقط وأربعة إيوانات حول صحنين.

٢-المدخل ذي المقرنصات :

كان يتوسط الواجهة الشمالية الغربية مدخل تذكاري ينتهي من أعلى بطاقية مقرنصة ذات دلايات، ويعتبر هذا الشكل من المداخل أقدم الأمثلة لها في مصر، والحق أن هذا العنصر :كان معروفا في سوريا قبل ذلك بقرن من الزمان تقريبا حين ظهر بمدرسة ش ادبخت بحلب في والتي ترجع إلى سنة ٥٨٩هـ، ثم توالي ظهوره في سوريا في عدة مباني أخرى، وعلى الرغممن أن هذا العنصر قد ظهر في القرن السابع الهجري ١٣م إلا أنه سوف ينتشر بالفعل في القرن ٨/ ٤م وكان يغلق على المدخل السابق باب ضخم مصفح بالبرونز لكنه انتزع من مكانه على يد الكونت سانت موريس سنة ١٨٧٤م بعد أن هدمت معظم أجزاء المدرسة، ووضع هذا الباب في المفوضية الفرنسية بالجيزة، وهذا الباب مكتوب عليه بالأرقام تاريخ سنة ٦٦٠ هـ هذا التاريخ جعل العالم فان برشم يشك في أصليته لأن الكتابة بالأرقام لم تظهر سوي في العصر العثماني اللهم إلا في ضريح الأمير سنقر السعدي المؤرخ بسنة ٧١٠هـ، وبالكشفعلى هذا الباب تبين أنه أصيل، خاص بالمدرسة الظاهرية إلا أن أحد تجار العادات قام بحذف كلمات من نص إنشائها ووضع مكانها تاريخ إنشاء المدرسة وهو سنة ٦٦٠هـ لتزداد قيمة الباب ثلاث المادية والأثرية، ويحتفظ متحف فيكتوريا وألبرت بلندن بمجموعة من الحليات البرونزية كانت من متعلقات هذا الباب إلا أنها انتزعت منه وتسربت إلى هذا المتحف.

السبيل ذو الشباكين:

تدل الشواهد المعمارية على أن هذه المدرسة كان يوجد بزاويتها حجرة سبيل تحتوي على شباكين، ولا تزال هذه الحجرة قائمة على يمين بقايا المدخل، ويشاهد في الصورة التي رسمها الفنان دافيد أحد الرجال وهو يهم بأخذ المياه مث شباك السبيل، ويعد هذا السبيل أقدام الأمثلة الموجودة في مصر في هذا النوع من المباني، وكان المعروف تاريخيا أقدم الأسبلة القائمة في مصر هو سبيل المنصور قلاوون تبحث الربع إلا أن عثورنا على هذا السبيل يؤكد وجود ما هو أقدم من سبيل المنصور قلاوون وكما يوجد سبيل ملحق بجامع أحمد بن طولون أضاف السلطان حسام الدنيا والدين عام ٩٩٩هـ ربما يعتبر أقدم سبيل بعد سبيل المدرسة الظاهرية بين القصرين

الفصل الثاني :جامع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري

(٦٦٥ – ٦٦٧ هـ)

الموقع : يقع هذا الجامع يحي الظاهر الذي ينسب إلى منشئ، وكان في مكانه قديما ميدانا للعب بالصوالحة، فأمر السلطان الظاهر ببنائه فيه ووقف عليه بقية الميدان . منشئ الأثر :

هو السلطان القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحيى النجمي، اشتراه الصالح نجم الدين أيوب فعمل في خدمته فلما مات عمل في خدمة ان المعظم تور انشاء إلى أن قتل، فلم يزل يترفي إلى أن قتل الفارس اقطامى فيرى م ووق البحرية خارج مصر لمطاردة المعز أيبك لهم، وتنقل في الشام إلى القاهرة وخرج مع المظفر قطز لقتال التتر، وفي عودته قتلالمطاردة المعز أيبك لهم، وتنقل في الشام إلى أن قتل المعز فعاد إلىعودته قتل قطز وبايعه الأمراء بالسلطنة.

وهو الرابع من ملوك الترك مولده في حدود العشرين و ستمايه من الهجرة بصحراء القفجاق فاشتراه الأمير علاء الدين البندقداري، وبقي عنده إلى أن فانتقل إلى ملكيته، وكانت مدة حكمه لمصر تسعة عشر عاما وشهرين السلطنة في ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ وبعد عام واحد بايع السلطان الظاهر وأحضره إلى مصر وتسمي الخليفة باسم المنتصر بالله وذلك عام ٦٥٩ هـ وقد كان السلطان الظاهر بيبرس ملك شجاعة مقدامة مجاهد في سا سريع الحركة باشر الحروب بنفسه ويكفيه فخرا أنه صاحب النصر الأكبر عل معركة عين جالوت.

ويعجب الانسان من كثرة ما أنشأ هذا السلطان في فترة حكمه، فقد أورد لنا المقريزي ازوا مما قام به هذا السلطان العظيم من منشآت معمارية حربية ودينية ومدنية مما لا يدخل تحت حصر نوجز منها ما يلي:

في سنة ٦٥٩هـ عمر السلطان الظاهر بيبرس الحرم النبوي بالمدينة وارسل إليه المواد الخام والأصناف بصحبة الأمير علم الدين اليغموري. و كما جدد فيه الصخرة المشرفة وكانت قد ضعفتورسم للامير جمال الدين يغمور بعمارة قلعة الروضة فردم ما فسد منها ورتببها الجندارية وأعاد مرمتها وفرق أبراجها على الأمراء قلاوون و عز الدين أيدمرالحلي والأمير بيبرس وأمرهم أن تكون اصطبلاتهم وبيوتهم منها. وأمر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت لكثرة ما كان يشرق من الأراضيالزراعية في كل سنة. وأمر بعمارة أسوار الإسكندرية ورتب لذلك جملة من المال كل شهر . وبني بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر. وأمر بردم فم البحر بدمياط فاخرج إليه جماعة من الحجارين والقوافية القرابيص حاملي الأحجارحتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله . وحفر بحر اشمون و أزال منه ما تربي من الطين . وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام وهي قلعة دمشق وقلعة الصلت وقلعةعجلون وقلعة صرخد وقلعة بعلبك وقلعة شيزر وقلعة الصبيبة وقلعة شميش وقلعة حمص فنظفت خنادقها ووسعت أبراجها وشجنت بالعدد. وجرد إليهاالمماليك والاجناد وخزنت بها الغلال والازواد. و بني السلطان في عين جالوت مشهدا عرف بمشهد النصر، وهو ما يعرف فيالعصر الحديث كرمز للجندي المجهول". و رتب البريد في سائر الطرقات بحيث صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشقفي أربعة أيام. و نظم البحرية المصرية بعدما كانت أهملت منذ عصر الصالح نجم الدين أيوبواهتم بدار خاصة السفن.

وفي شعبان سنة ٦٦٠ هـ جهز السلطان الظاهر عناد و مواد وحصرون مذهبة وستور وسجاد ومباخر لفرش جامع القسطنطينية. : وفي سنة ٦٦١ء جدد دار العدل تحت قلعة الجبل. . وفي سنة ٦٦٢هـ حفر خليج الإسكندرية بعد ردمه. . وجدد المشهد الحسيني وبني عليه مسجدا. وفي نفس العام أيضا وقف السلطان الظاهر عدة قرى بالشام وألقدس الشريف الصرف ريعها في ثمن خبز ونعال لمن يقوم إلى القدس من المشاة، كما أنشأ

بهاخانا وفرنا وطاحونة. و أعاد الصلاة في الجامع الأزهر بعد أن أبطلها صلاح الدين الأيوبي و عمر الواهيمن جدرانه وبيضه وبلطه ورم سقفه وأستجد به مقصور وعمل فيه منبرا وحوله إلى مدرسة بها أربعة مذاهب إلى جانب تدريس الحديث النبوي الشريف وقراءة القرآن على يد الأمير أيدمر الحلي في عام ٦٦٥هـ

: وفي صفر سنة ٦٦٢هـ انتهي من بناء مدرسة بين القصرين وعين لها مشايخ المذاهبها وألحق بها خزانة الكتب وبجانبها مكتبة للسبيل. . وفي سنة ٦٦٥هـ. أنشأ السلطان الظاهر بيبرس قنطرة على أبي المنجا (بالقليوبيةالحالية)وأنشأ القصر الأبلق بدمشق. . واستولي على قلعة يافا وأخذ منها أخشاب ورخام مسجده الجامع . وكان له جامعة آخر يسمي جامع المنشية وهي منشأة المهراني وكان واقعا بشارع القصر العيني بقرب فم الخليج إلا أنه اندثر. وقد أنجب السلطان الظاهر من الأولاد الذكور ثلاثة هم الملك السعيد ناصر الدين من بركة خان وهو الذي تسلطن بعده والملك نجم الدين الذي مات في عهده، والملك بدر الدين سلموش، وله من البنات سبع. أما زوجاته فهن:أم الملك السعيد بنت بركة خان وبنت الأمير سيف الدين توكاي التتاري وبنت الأمير سيف الدين كراي التاري وبنت الأمير سيف الدين نوفاي التاري وشهر زوربة التي طلقها قبل سلطنته.

وقد توفي السلطان الظاهر بيبرس يوم الخميس ٢٩ محرم سنة٦٧٦ هـ ، بدمشق، دفن في ودعا له ابنه الملك السعيد باركة خان وكانت في أصلها دارا فجعل جزءا منها للدفن الباقي

مدرسة لمذهبين هما الحنفية والشافعية.

التوصيف المعماري:

يذكر المقريزي أن السلطان بيبرس أمر أن يرسم أمامه هيئة الجامع وأمر بأن يكون بابه مثل باب الظاهرية وأن يكون على محرابه قبة قدر قبة الشافعي، وقد بني الجامع حسبما أرادوكان عظيما فخمة إلا أنه مرت به محن قاسية أخرجته من قدسيته كمكان للصلاة، فقد ان كان في زمن الحملة الفرنسية على مصرسكنته طوائف الجند فكان ذلك سببا في خرابه، ثم تحول هذا الجامع إلى مصنع صابون زمن محمد على باشا ثم مخبزا ثم مذبحا لجنود لا تحل البريطاني وعلى رغم من ذلك فقد ظل شامخا تبدو من ملامحه مظاهر العظمة لاسيما في مداخلة التذكارية الاربعة وزخارفه الجميلة.

وهذا المسجد الجامع يتبع في تخطيطه طراز المساجد التقليدية أو الصحن ذي الأروقة من حيث اشتماله على صحن مكشوف يحيط به أربعة ظلات أكبرها ظله أكبرها ظلة القبة وله ثلاث مداخل محورية أحدهما رئيسي بالجهة الشمالية الغربية والآخران جانبيان، ويتكون الجامع من مساحة مربعة تزيد على المائة متر إلا أن أضلاعه غير متساوية، إذ يبلغ طول ضلعه بالجهة الشمالية الشرقية ١٠٩ متر والجهة الجنوبية الغربيةمتر والجهة الشمالية الغربية ١٠٣ متر والجهة الجنوبية الشرقية ١٠٢ متر ولهذا فهو ليس مربعا تربيعا حقيقيا، وجدران هذا الجامع مبنية بأحجار ضخمة يبلغ ارتفاعها ١١ متر تقريبا تعلوها شرفات مسننة ارتفاعها ١١ متر وله ثلاثة مداخل تذكارية بارزة ويحيط بالجامع الأن خندق منخفض عن سطح الأرض إلا انه كان مساويا لارتفاع أرضية الشارع وقت إنشائه، ويلاحظ أن المدخل الرئيسي موضوع في منتصف الواجهة الشمالية الغربية في حين وضع المدخلين الجانبين، في الثلث الأخير من الواجهتين الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية.

المدخل الرئيسي للجامع:

يتكون المدخل الرئيسي من كتلة ضخمة عرضها٨٣.١١متر تبرز عن سمك جدران الجامع بمقدار ٨,٨٦ متر، تتوسط كتلة المدخل فتحة باب اتساعها٩٥.٣متر يتوجها عقدمن صنجات مفصصه كان يرتكز على زوج من الأعمدة المندمجة مفقودان من زمن غير معلوم ويكتنف فتحة المدخل دخلتان تنتهيان بصدور مقرنصة بدلايات كما يوجد بأسفل هاتين الدخلتين حنيتان صغيرتان تشبهان المحاريب يتوج كل حتية عقد على هيئة نصف محارة، وحليت كوشة العقد الرئيسي بدخلتين أخريتين تنتهيان بعقدين منكسرين معين من مركزيهما. وواجهة الكتلةالعلوية مزخرفة بأشكال هندسية عبارة عن مربعين متقاطعين يحصران كتابة بالخط النسخي

عبارة عن لفظ الجلاله، أما الجوانب البارزة من كتلة المدخل فمزخرفة بثلاث دخلات تنتهي بعقود منكسرة يعلوها حليات هندسية عبارة عن دوائر ومعينات مملوءة بأطباق نجمية محفورة في الحجر، تؤدي فتحة المدخل إلى ممر على جانبيه دخلتان متوجتان بعقود نصف دائرية كانت محمولة على الأعمدة المدمجة ويسقف الممر السابق قبة ضحلة من الحجر محمولة على مثلثات كروية، وظهر كتلة المدخل من الدخل يتوسطها عقد مدبب يعلوه صف من العقود الجصية المفرغة.

بقايا المئذنة:

يوجد فوق المدخل السابق بقايا بناء كان قائما حتى عصر نابليون من المؤكد أنه كان قاعدة للمئذنة وهذه القاعدة مزخرفة بكل واجهة من واجهاتها بثلاثة حنايا معقودة.

المدخل الشمالي الشرقي:

هذا البوابة أصغر من البوابة الرئيسية حيث يبلغ عرضها٨,١٣ متر وتبرز عن سمت الجدران بمقدار ٤,٠ متر، يتوسط كتلة المدخل باب يعلوه عقد اتساعه٧٣.٣ متر حليت واجهته بشريطين من الزخارف الزجزاجية ملئت بزخارف نباتية أرابيسك، ويكتنف المدخل يمينا ويسارا دخلتان مستطيلتان يتوجهما من أعلى صدور مقرنصة في حين جعل أسفل الدخلتين حنيتان متوجتان بعقدين محاربين.ويؤدي الباب السابق إلى دهليز مستطيل مغطى بقبو متقاطع ويكتنف الدهليز دخلتان متوجتان بعقود على هيئة حدوة الفرس

المدخل الجنوبي الغربي: يتشابه هذه المدخل. في تكوينه مع المدخل الشمالي الشرقي وإن كان يكبره في المساحة قليلا وقد دعمت زوايا المسجد الخارجية بأربعة أبراج اثنان منهما مربعان يشغلان الزاوية الجنوبية والشرقية في حين جعل البرجان الشمالي والغربي مستطيلين. وكل الأبراج مسمطة فيما عدا البرج الغربي الذي يشغله درج يوصل إلى سطح الجامع، كما استخدم المعمار عدة أكتافلتدعيم الجدارين الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي من ظلة القبلة وكذلك الظلة الشماليةالغربية، وتقوم هذه الأكتاف بصد رقس عقود البوائف المكونة لهذه الظلات، كما حليتالمسافة العليا من الجدران باثنين وسبعين نافذة معقودة بواقع ثمانية عشر نافذة لكل واجهة وهذه النوافذ على

هيئة عقود محاطة بإطارات من الكتابات القرآنية بالخط الكوفي، بينما غشيت النوافذ ذاتها بالجص المفرغ على هيئة زخارف هندسية.

الداخل :-

و يتوسط الجامع صحن مكشوف سماوي مربع المساحة تقريبا، يحيط به أربعة ظلات أكبر ها طلة القبلة التي تتكون من ستة أروقة لها عقود محمولة على عمد ودعامات، يتوسط ظلة القبلة أمام المحراب مباشرة مقصورة مربعة يحيط بها ثمانية دعامات ضخمة بزواياها أعمدة مندمجة كان يتوج هذه المقصورة قبة ضخمة لم يعد لها وجود إلا أن المؤرخ المقريزي يذكر لنا أن هذه القبة كانت في ضخامة قبة الإمام الشافعي، ومن المؤكد أنها كانت من الخشب أيضا، يتصدر الضلع الجنوبي الشرقي من المقصورة المحراب الرئيسي للجامع إلا أنه من المؤكد أنه كان مكسيا بطبقة من الرخام الملون يعلو هذا المحراب لوح رخامي ابيض عليه نص تأسيسى في أربعة سطور ذكر فيها تاريخ القبة سنة ٦٦٦هـ.

ويلاحظ أن ظلة القبة مكونة من أروقة لها عقود محمولة على أعمدة رخامية في حملت العقود المطلة على الصحن على دعامات مبنية من الأجر المكسي بالملاط، كذلك بود مجاز قاطع مكون من ثلاث بلاطات تبدأ بائكاتها عمودية من الصحن على جدار المحراب.

الظلتان الجانبيتان:

تتكون الظلاتان الجانبيتان من ثلاثة أروقة تسير عقودها عمودية على جدار المحراب، وقد قطعت هذه الظلات أمام المدخلين الجانبين بمجازين تسير عقودهما موازية لجدارالمحراب .أما الظلة الشمالية الغربية فتتكون من رواقين فقط تسير عقودهما موازية لجدار القبلة في حين قطع هذين الرواقين في منتصفهما أمام المدخل بمجازين عموديان، ومن الملاحظ أن كل الدعامات الداخلية قد اختفت فيما عدا دعامات المقصورة.

الحجر المشهر

وأقدم امثلة هذا النوع من الزخرفة بجامع الزيتون بتونس الذي زخرفت المداليك الحاملة للقبة فيه باللونين الأبيض و الرمادي، ثم ظهر هذا العنصر في عصر المماليك البحرية في مصر في مسجد الظاهر بيبرس، ثم تتالي بعد ذلك في مدرسة المنصورة قلاوون.

الفصل الثالث :ضريح ومدرسة المنصور قلاوون

الموقع:

تقع هذه المجموعة البنائية بشارع المعز لدين الله بين القصرين – أمام المدرسية الصالحية– وكان في موضعها رقعة من ارض القصر الغربي الفاطمي.

منشئ الأثر:

المنصور قلاوون

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، وقيل : قلاوون الأقسنقرى الكاملي الصالحي النجمي لان الأمير آقسنقر اشتراه من تاجره بألف دينار، ثم مات آقسنقر فرجع هو وخشداشيته (ايزملائه) الى الصالح نجم الدين أيوب.

وقلاوون هو الملك السابع من الملك الترك بمصر ابتدأ حياته في دولة الصالح نجم الدين أيوب، ثم خرج مع من أخرجهم المعز أيبك من المماليك البحرية إلى الشام

وعندما توفي المعز ايبك عاد قلاوون الى مصر وتنقلت به الأحوال أصبح أتابك العساكر بديار مصر في سلطنة العادل سالمش بن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ثم انفرد بالسلطة، وتعين سلطانا على مصر عام ٠٩٧٨/ ٢٧٩ام (٢١رجب).

وللسلطان قلاوون شخصية محببة افرد لها المؤرخين صفحات كثيرة، فقال عنه ابن تغري بردي نقلا عن الحفاظ الذهبي: "كان قلاوون من أحسن الناس صورة في صباه واهيبهم في رجولته تام الشكل مستدير اللحية قد خطه الشيب –

، على وجهه هيبة الملوك وعلا

.

أكتافه حشمة السلاطين علية وقار وسكينة، كريم حليما شجاعة مقداما عادلا عفيفا عن سفك الدماء مائلا الى فعل الخير والأمر بالمعروف وعلى الرغم من فصاحته ومعرفته باللغة التركية إلا أنه كان أعجميا قليل المعرفة بالعربية وذلك لأنه أحضر إلى مصر من بلاد القفجاق (نهر الفولجا بروسيا) وهو كبير السن (جلب). . وللسلطان قلاوون يد بيضاء على الإسلام والمسلمين، فقد حارب الفرنج واستولي منهم على حصن المرقب بالشام عام ٦٨٣هـ. وأسر من فيه ورممه واستتاب فيه بعض أمرائه فكان هذا الحصن من أكبر حصون الدولة الصليبية التي استعصى فتحها على السلطان صلاح الدين.

وفي عام ٦٨٨هـ فتحت طرابلس على يده وكانت في يد الفرنج منذ ٥٠٣ هـ

وفي عام ٦٨٩هـ ساد الاستقرار صعيد مصر حين أرسل السلطان قلاوون نائبه حسام الدين طرنطاى لتأديب المفسدين به وتم له ذلك.

وفي مجال العسكري أبدل المنصور قلاوون زي الجيش المصري وأبدل كثير من أسلحته التقليدية، بلغت مماليك المنصور قلاوون اثنتا عشر ألفا كون من بينهم فرقة جديدة من الجراكسة بلغ عددها ٣٧٠٠ مملوك أسكنهم في طباق القلعة وسماهم البرجية خلافا للبحرية الذين يعتبر قلاوون واحد منهم.

ويمكن القول أن السلطان قلاوون وهو مبتدع ورائه العرش في الدولة المملوكية التي لم تكن تعترف بهذا النوع من الحكم إذ أن الأقوى ذو العزوة، ورغم ذلك فقد حكمت أسرة قلاوون أغلب عصر المماليك البحرية، فقلاوون نفسه امتد به العمر حتي السبعين وتسلطن من بعده ذريته، التي امتدت حتى آخر العصر البحري.

ويذكر المؤرخ أبو المحاسن بن تغري بردي في كتابه النجوم أن غالب سلاطين البحرية بعد وفاة المنصور قلاوون كانوا من ذريته أو من مماليك أولاده.

وقضي قلاوون فترة حكمه في اصلاح أمور البلاد والمجاهدة ضد الصليبين و التتار ، ويشغل الجزء العلوي من واجهة المدخل نصف دائرية يتوسطها ثلاثة

المدخل الرئيسي يتوسط المجموعه البنائيه حيث القبه الضريحيه على اليمين و المدرسه على اليسار وهو عباره عن كتله ضخمه تبدء بفتحت باب مستطيله يغلق عليها ضلفتا باب من الخشب المصفح بالنحاس يعلوها عتب مستقيم عليه لوحه رخاميه بها نص تاسيسي بتاريخ الابتداء والانتهاء من البناء ثم نفيس ثم عقد عاتق ثم يلي ذلك قمريه مستديره بها تكسيه من النحاس على هيئة عناقيد عنب ومحاولة القمريه منفذ بالنظام الابلق فالرخام يتوج كتلة المدخل عقد من النوع المستدير اقرب لحزوه الفرس وكان يتقدم مدخل سلم بطرفين بقى منه درجه سلم واحده من الحجر على يمين المدخل

الدهليز الكبير:

يؤدي المدخل السابق إلى دهليز ضخم يبلغ عرضه ٤ أمتار وطوله ٣٥ متر و ارتفاع ١٠متر، يكتنف هذا الدهليز عن يمين ويسار ستة أزواج من الحنايا الضحلة المعقودة، تفتح حنايا اليمين على شبابيك تطل على الضريح أما حنايا اليسار فتفتح شبابيكها على المدرسه وخلاوي الطلبة، وهذا الدهليز مسقف بحقاق او قصعه تحصر بداخلها مناطق غائرهمزخرفة بأشكال نجمية والسقف مجلد بالتذهيب والألوان ويوجد بهذا الدهليز خمس أبواب احدهما بالصدر يتوصل إلى البيمارستان واثنان إلى اليمين يؤديان إلى الضريح واثنان إلى اليسار يؤديان إلى المدرسة.

داخل الضريح:

يتكون الضريح من الداخل من مساحة شبه مربعه ٢١× ٢٢ متر يتوسطها أربعة دعامات بينها أربعة أعمدة تشكل في مجموعها تخطيط مثمن يرتكز عليه رقية القبة، والدعامات الموجودة مبنية من الأجر المكسي بالرخام أما الأعمدة فمن الجرانيت الوردي يبدو من مظهرها أنها مستجلبة من عمائر سابقة.

يبلغ ارتفاع هذه الأعمدة سبعة أمتار وقطرها ٩٠سم

تعلوها تيجان كورنثية تعلوها مخدات خشبية حتى تتوازى في ارتفاعها مع ارتفاع الدعامات المبنية.يعلو الدعامات والأعمدة ثمانية عقود ترتكز عليها رقبة القبة المثمنه كما يوجد ثمانية عقود أخرى عمودية على الجدران الداخلية من مربع القبة بواقع اثنان بكل جهه يربط بين الاعمدة والدعامات روابط خشبية، ويسقف المساحات المحصورةبين العقود العموديه اسقف خشبية مكونة من قطع مثمنة مجلدة بالتذهيب و الألوان، يبلغ ارتفاع السقف الذي يغطي مربع القبة حوالى ١٥ متر، تبرز من وسطه الرقبة الاصلية لهذا الضريح والتي ازالتها لجنة حفظ

الاثار عام ١٨٧٦لخطورتها على الطريق واقامت لجنة حفظ الاثار العربية بدلا منها واحده اخرى اخذت أصولها وشكلها من ضريح الاشرف خليل القريب العهد من القبة الأصلية، وتتكون حوائط الضريح الداخليه من مستويين السفلى منها مكون من حنايا معقودة بأعمدة مندمجة وبطبيعة الحال يتوسط المحراب الجهة الجنوبية الشرقية، وبالضلع الشمالي الغربي فتحة توصل الى فناءيتقدم الضريح

المحراب:

يبلغ ارتفاع المحراب سبعة أمتار ويتميز بضخامته وثراء زخارفه، فهو عبارة عن حنية نصف دائريهيكتنفها ثلاث أزواج من الأعمدة الضخمة عليها إطارات معقودة من نوع حدوة الفرس كوشات العقود بفسيفساء من الرخام والصدف، أما حنية المحراب نفسها

فمزخرفة بصفوف من المحاريب الصغيرة محمولة على عمد خزفية رشيقة.

التركيبة:

يتوسط أرضية الضريح تربة مغطاه بتركيبة خشبية عليها كتابات بالخط الكوفي والنسخي الا أن أجزاء من هذه التركيبة قد فقدت وتبقى من كتابتها بعض العبارات التأسيسية بصيغة

(الدنيا والدين قلاوون الصالحي سلطان الإسلام والمسلمين قدس الله روحه ونور ضريحه انتقل الى رحمة اللي تعالى....)

وقد دفن بهذه التربية المنصور قلاوون وابنه الناصرمحمد وحفيده عماد الدين إسماعيل، يحيط بالتركيبة مقصورة خشبية حليت بنقوش، وكتاباتترجع الى عهد عصر الناصر محمد بن قلاوون.

الزخارف يتميز داخل هذا الضريح بالعناية الزائدة بالزخارف التي تبدو روعتها حينما تنفذ اشعة الشمس من داخل القندليات لتسقط على الفسيفساء الرخامية والصدفية والكتابات الملونة والمذهبه، وتتكون الزخارف عموما في داخل هذا الضريح من وزرات رخامية عالية ارتفاعها ٤,١٨متر تغلف الجزء السلفي، أما الجزء العلوي من الضريح فمزخرف بشريطين عريضين احدهما من الزخارف النباتية في حين زخرف الشريط الاخر بخط النسخ الكبير بارز الحجم بالتذهيب والألوان ويوجد علي واجهة هذا الضريح الداخلية مشربية خشبية عرضها٩٥.٣ متر لها بابان ويعلو المشربية واجهة من الجص المفرغ فتح بهي ثلاث نوافذ يعلوها قندلية من الجص المفرغ محاطة بإطارات من الزخارف النباتية (الأرابيسك).

فناء الضريح

يتقدم الضريح فناء مستطيل به أربعة من أعمدة الجرانيت الملون أقيم عليها عقود حاملة لست قباب ضحلة مقامة علي مثلثاتكروية في حين سقف الجزء الشمالي الغربي من الفناء بقبو مدبب وترك الجزء الذي أمام الضريح مكشوف سماوي ويذكر لنا المقريزي انه كان يتوسطة فسقية ماء كما يوجد بالضلع الجنوبي الغربي من هذا الفناء ممر كان يتوصل منه الي الدهليز الكبير.

المئذنة:

تقع هذه المذنة علي الطرف الشرقي من واجهة الضريح المطلة على شارع المعز وهي تتكون من ثلاث طوابق الأول والثاني مربعان التخطيط أما الثالث فأسطواني البدن.

ويتوج المئذنة قمة ليست من عصر الأنشاء وقد قام السلطان الناصر محمد ابن قلاوون الجليد بناء هذه المئذنة بعد أن سقطت أثر زلزال حدث عام ٧٠٢هـ، وأقيمت واحدة اخري بدلا منها عام ٧٠٣ هوهذه المئذنة مزخرفة في الطابقين الأول والثاني بعقود علي هيئة حذوة الفرس وكرنيش مقرنص أما الطابق الثالث فمزخرف بعدد من العقود ذات الزخارف البارزة.

ثانيا : – المدرسة

تبرز واجهة هذه المدرسة عن الضريح بمقدار مقدار عشرة أمتار وتبلغ طول واجهتها ٢٣متر ومقسمة إلى خمس حنايا راسية بكل حنيه ثلاثة شبابيك فوق بعضها البعض كما يستمر طراز إلكتابه المستعرض المبتدئ من اعلى واجهة الضريح على هذا الجزء من واجهة هذه المدرسة أيضا انشاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون على هذه الواجهة سبيلا صغيرا لا يزال قائما كان لهقبهلاتزالرقبتهاالمغلفةببلاطاتالقاشانيقائمة.

الداخل:–

للوصول الي هذه المدرسة يجب المرور في الدهليز الكبير ثم يسارا من الممر الذي يفتح علي دخلة صغيرة لها سقف خشبي وعلي واجهتها عقد، وهذه المدرسة ذات أيوانين فقط وصحن مكشوف يحيط به خلاوي الطلبة..

الصحن:

يتكون الصحن من مساحة مستطيلة ١٧X٢٠,٥ متر مكشوف سماوي يوجد بالضلع الشمالي الشرقي منه ست حجرات صغيرة عبارة عن خلاوي الطلبة الدراسين، يعلو هذه الحجرات طابقان أخران يتوصل اليها عن طريق سلم بالزاوية الشمالية من هذا الصحن الا ان هذا السلم مردوم الآن بالأنقاض.

وقد سبق أن ذكرنا انه يوجد طابق علوي فوق الدهليز الكبير الذي يتقدم الخلاوي العلويه وينفذ اليه الضوء من نافذة المدخل الرئيسي العلوية أما الجانب الآخر من الصحن فمن الواضح انه لا زال مشغولا ايضا بخلاوي الطلبة الدارسين الا أن الوالى عبد الرحمن كتخدا هدم عدد من هذه الخلاوي لينشئ مكانها قاعة كبيرة لتلاوة القران الكريم علىواجهتها ثلاث عقود

الايوان الشمالي الغربي:

يوجد بالجهة الشمالية الغربية من الصحن إيوان ضخم اتساعه ٨,٢٠متر وعرضه ١٢,٤٠ متر لكنه فقد واجهته المعقودة وكذلك سقفه الأصلي، يوجد بهذه المنطقة ميضات المدرسه الحديثة وملحق بها عدد من دورات المياه وكان يوجد بهذه المنطقة ايضا السلم الاخر الموصلاليخلاويالطلبةالعلياباالجهةالجنوبيةالغربيةمنالصحن

الايوان الجنوبي الشرقي (إيوان القبلة):

يطل هذاالايوان الحيوان علي الصحن وهو ايوان ضخم متفرد في مظهرة، يتكون من مساحة مستطيلة تبلغ١٥,٥x١٧,٥ متر مقسمة الي ثلاث بلاطات تسير عقودها عمويه على جدار القبلة وهذه العقود محمولة على عمد من الجرانيت الوردي لها تيجان كورنثية يعلوها مخدات خشبية يرتكز عليها أرجل العقود ويربطها روابط خشبية ونلاحظ أن البلاطة الوسطى هي أوسع البلاطات حيث يبلغ اتساعها ٩ امتار في حين بلغت البلاطتين الأولى و الثالثة ثلاثة أمتار ونصف فقط تقريبا، وسقف هذا الايوان مسطح وليس من عصر الأنشاء إذا انه يعود للقرن التاسع عشر وقد قام العالم ماكس هرتس بعمل تصور معماري لهذا السقف وقت الانشاء وذلك على اساس أن المساحة الوسطي منه كانت مغطاة بسقف خشبي على حد قول وثيقة المدرسه في حين غطيت البلاطتين الجانبيتين بأقبية متقاطعة من الأجر المكسي بطبقة من الجص.

المحراب :

يتصدر الجدار الجنوبي الشرقي من المدرسة محراب صغيرا نسبيا بالقياس إلى محراب الضريح وهو عبارة عن حنية نصف دائرة يكتنفها عمودان فقط، في حين زخرفت حنية المحراب بصف من المحاريب الصغيرة كما يعلو المحراب قنديلات مركبة من الجص المعشق بالزجاج الملون.

التاريخ :-

يذكر المقريزي أن المدرسة المنصورية بخط بين القصرين بالقاهرة انشاها هي والقبة والبيمارستان الملك المنصور قلاوون الالفي الصالحي على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعي ورتب فيها دروسا لطوائف القضاء وبالقبة درس للحديث النبوي الشريف ودروسا التفسير القرآن.

وتدل الكتابات الأثرية التأسيسية التي عثر عليها بهذه المجموعة على أنها أنجزت في مده قياسيه لا يكاد يصدقها العقل لا سيما إذا قيست هذه المنشئات بأدوات البناء في العصور الوسطى مثلا استغرق تنظيف أنقاض المباني القديمة التي بنيت عليها المجموعة وكذلك بناء المدرسه والبيمارستا والقبه حوالي ١٣ شهر بدايتها كان ربيع اخر سنة ٦٨٣ هـ والفراغ كان في جماد الاخر ٦٨٤ هـ وبناء التربه وحدها استمر ٥ اشهر ثم بدا فالمدرسه بعد ذالك واستغرق بنائها ٤ اشهر فقطوتوجد هذا النصوص التأسيسية علي الأماكن التالية:

نص باعلي العتب الرئيسي لمدخل المجموعة :

مكتوب بالخط النسخي المملوكى بصيغه (أمر بأنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة و البيمارستا المبارك مولانا الأعظم المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي وكان ابتداء عمارة ذلك في ربيع الآخر سنه ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ من ذلك في جمادي الأول سنه اربع وثمانين وستمائة)

نص علي باب القبة الداخلي بصيغة:

(أمر بأنشاء هذه القبة الشريفة المعظمة مولانا وسيدنا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قسيم امير المؤمنين. أدام الله أيامه وحرس أنعامه ونشر في الخافقين الوية وأعلامه وكان ابتداء عمارتها في شوال سنه ثلاث وثمانين وستمائة و الفراغ منها في صفر اربعه وثمانين وستمائه.

نصوص تجديدها في عصر السلطان الناصر محمد ابن قلاون فيوجد على مربع الطابق الاول من الماذنه نص بصيغة (بسم الله الرحمن الرحيم الله جدد الرحمه والرضوان على روح الملك المنصور رحمة الله امر بتجديد هذه المئذنة في أيام مولانا السلطان الملك الناصرابو الفتح محمد وذلك عند ظهور الآيات المنزلة وسقوط اعاليها عند حدوث الزلزله في شهور سنة ثلاث وسبعمائةالهجرة النبوية علي صاحبها الصلاة و السلام)

العناصر المعمارية :

اكتملت في هذه المجموعة البنائية معظم الخصائص المعماريه لعصر المماليك البحريه حيث اشتملت على مدرسة لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة*وبيمارستان لتدريس*الطب وعلاج المرضي وقبر للمنشئ وأضاف السلطان الناصر محمد بن قلاوون سبيلا على واجهة المجموعه وعلى الرغم ان الاشارات التاريخية تقول أن هذه المدرسة كان يدرس فيه المذاهب الأربعة إلا أنها اشتمل على ايوانين فقط بينهما صحن مكشوف يحيط به خلاوي الطلبة الدارسين.

ويذكر المرحوم الاثري حسن عبد الوهاب أن قبه هذه المجموعة كانت مزودة بمكتبه ومتحف لحفظ ملابس من دفن فيها ويعد ثالث متحف من نوعه إذ كان المتحف الاول ملحق بمسجد عقبة بن نافع بالقيروان والثاني بقبة الصالح نجم الدين أيوب والذي اقامته زوجته شجر الدر له.....

تخطيط هذه القبة على هيئة مربع يتوسطه أربع دعامات تحصر بينها أربعة أعمدة تشكل مثمن وهذا التخطيط يعتبر جديد بالنسبهلطراز القباب في عصر المماليك البحرية وقد تأثر معمارا هذا البناء بتخطيط قبة الصخرة بالقدس الشريف التي تتكون في داخلها من ثمان دعامات تحصر بداخلها أعمدة تبلغ ٢٤ عمود تحمل عقودا تبلغ ٢٤ عقد ركبت عليها رقبه بها ١٦ نافذه كما أن مناطق الانتقال بضريح قلاوون تعتبر ايضا جديده على طراز عصرها تعتبر جديده عن طراز عصرها مقامة على عقود حامله وكانت مناطق الانتقال في العصر المملوكي تتكون من حنايا متعددة الحطات أو من مثلثات كروية.

وقد زخرفت واجهة المدرسة والقبه بعدد من الحنايا الرأسية المعقودة تحتوي بداخلها علي ثلاث شبابيك فوق بعضها البعض ويذكر العالم كريزول بأن هذه الواجهات متأثرهبالطراز الرومانسيكي بينما يري البعض الآخر أنها متأثر تأثيرا مباشرة بالعمارة الصليبية في الشامبينما العكس هو الصحيح فزخرفة الواجهات بالإطارات التي تعلو بعضها كان معروفا في الاسلام منذ العصر العباسي لا سيما في واجهة ساحة الشرف بقصر الاخيضر العباسي كذلك ظهرت هذه الطريقة الزخرفية في مئذنة جامع القيروان بتونس وهذه المئذنة بذاتها هي التي أثرت ببرجها وعقودهاوزخارفها في كل من العمارة القوطية والرومانسيكية.

ظهرت بوادر استخدام التكسيات الرخامية في محراب الصالح نجم الدين أيوب وقد تطورت هذه الطريقة في ضريح المنصور قلاوون حيث كسيت. كل الجدران السفلية بوزرات عاليه من الرخام بينها لوحات من الفسيفساء الرخامية والصدفية والتي تحتوي على زخارف هندسيه وكتابات كوفيه مربعه وقد عين الأشرف خليل ابن قلاون للقبه خمسين مقرئا مرتبون لقراءة القران الكريم وامام يصلي بالناس الصلوات الخمس في محراب القبه وسته من الخدام مقيمون بهاويضيف لنا المقريزي معلومة جديدة عن هذه القبه فيذكر أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل جعل بهذه القبة مدرسة للفقهاء على المذاهب الأربعة (تعرف بدروس وقف الصالح) ووقف على ذلك قرية دهمشة الحمام بالشرقية وذلك بدلا من مدرسة كان سينشئها، كما أوقف علي هذه القبه (المدرسة)سته أماكن بعكا وصور وجعل الناظر على الوقف الوزير شمس الدين بن السلعوس

الفصل الرابع : خانقاه ايديكين البندقداري

الموقع :تقعبشارع السيوفيه ويعود تاريخها الى عام ٦٨٣-٦٨٤ هـ وقد انشأها الأمير علاء الدين أيديكين البندقداري ومن اعماله وصفاته ما يلي :

- من ماليك الصالح نجم الدين أيوب، وصار من كبار المماليك البحرية.
- تقلد وظيفة البندقداري قبل أن يصبح بيبرس سلطانا فيما بعد، ومن الغرائب أن

يصبح العبد سلطانا علي سيده.

- له دور بارز في مساعدة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري في السيطرة علي

حلب ودمشق ضد الأمراء الثائرين علي بيبرس

- حارب الصليبين في صور وأسر منهم عددا كبيرا
- لما تحالف التتار مع الصلبين ضد المسلمين حاربهم ايديكين

- شارك الأمراء التأثرين في عزل الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس البندقداري
- عاش في فترة حكم المنصور قلاوون.

حكاية ايدكين مع شجر الدر:

لما قبض المعز ابيك – في بداية الوحشة مع شجرة الدر – علي المماليك البحرية اودعهم بسجن القلعة. ويذكر المقريزي في السلوك أن ايديكين لما وصل إلى القلعة مع رفاقه المسجونين علم بوجود شجر الدر فذهب إلي اسفل نافذتها وأشار براسة وقال بالتركي المملوك ايديكين بشمقدار والله ياخوند ما عملنا ذنبا يوجب مسكنا إلا انه يعني المعز ابيك– لماذهب يخطب بنت صاحب الموصل عاتبناه فتغير علينا وفعل ما ترين فأومت شجر الدر الية بالمنديل يعني سمعت كلامك فلما نزلوا الي الجب قال ايدكين ان كان حبسنا فقد قتلناه

مكونات المنشاة:

تحتوي على ضريحين انشاها الأمير علاء الدين ايديكين البندقداري الصالحي خصص احدهما للرجال و الأخر للنساء وبينهما مسجد وخانقاه للصوفية في سنة ٦٨٣ هـ وقد دفن في هذه الخنقاء وقبره يزار

يقع المدخل الرئيسي لهذه المجموعة الي يمين الواجهة الوحيدة المطلة على شارع السيوفية، وهو مدخل غير معاصر للبناء علي هيئة دخلة غير عميقة متوجة بعقد مدائني مجرد من المقرنصات يفضي هذا المدخل الي دهليز مكشوف سماوي إلي يمينه بداخله منزل من العصر الحديث والي اليسار مدخل قبه الرجال.

قبة الرجال:

تتصدر واجهة قبه الرجال المجموعة البنائية بواجهة رئيسية بالجهة الشمالية الغربية تطل على شارع السيوفية وملاصقة لقصر الأمير طاز بنيت من الحجر الجيري يخترقها من اعلاها نص تأسيس بخط الثلث المملوكي بالحفر البارز على الحجر بما نصه.

امر بأنشاء هذه المدرسة (الجزء السابق غير موجود) ..... المباركة الجناب العالي المولوي الكبيري الأسفهسلاري العضدي النصيري..... أجزاء مهدمة من النص ويتوسط النص السابق دائرة عبارة عن رنك البندقدار متمثلا في قوسين لضرب السهام، ويتوج الواجهة صف منالشرافات المسننة علي الطراز المملوكي

تتبع هذه القبه طراز قبه الحصواتي تتكون من مربع له نافذتان جهه الشمال الشرقي الشمال الغربي عليها مصبعات من البرونز، وقد نزعت مصبعات النافذة الشمالية الغربيه وسدت بالدقشوم، والمدخل يقع بالضلع الجنوبي الغربي ويفتح على دهليز المدخل الرئيسي للمجموعه والجهه الرابعة (اي الجنوبية الشرقية) بها حنية المحراب، وتطل منطقة انتقال هذه القبه والخوذه على هذه الجهة واستخدام المعمار مادة الأجر في بناء هذين العنصرين وتتكون منطقة الانتقاء من مربع ويعلوه مثمن تعلوه رقبة اسطوانية فتح بها المعمار نوافذ معقودة بهيئة عقد منكسر كانة مغشاه بالجص المفرغ باشكال نباتيه وهندسيه ويتوج منطقة الانتقال خوذه مدببه مشكله بطريقة

الضلوع القائمة وهي الطريقة التي عرفت في العصر الفاطمي في قبتي عاتكة والجعفري والسيدة رقيه وغيرها واختفت في العصر الأيوبي لتعود وتصبح سمة غالبة على قباب العصر البحري.

والمدخل إلى هذه القبة يقع بالضلع الجنوبي الغربي مطلا على دهليز المدخل الرئيسي للمجموعة كما سبق الذكر وتتكون حجرة القبة من مساحة مربعة ٦x٦ متر يصدرها حنية محراب نصف دائرية سنة الجنوبية الشرقية والمحراب له قمة علي هيئة عقد منكسر ملأ جوفة بالزخارف النباتية الهندسية، وعلي واجهته اطاران من الكتابات القرآنية بالخطين الكوفي والنسخي، وملأت كوشات عقد المحراب بزخارف نباتية أرابيسك وهذا الشكل من المحاريب يذكرنا بالمحاريب الايرانية التي صنعت من القاشاني الأزرق والخزف ذي البريق المعدني ويكتنف المحراب دخلتان يمينا ويسارا كانتا كتبيتين او دولابين حائطيين يستخدمان لحفظ المصاحف و الربعات الشريفة، وقد عثر علي مشكاة من الزجاج المموه بالميناء صنعت خصيصا لقبة الرجال محفوظة حاليا بمتحف المتربولتيان عليها رنك البندقدار ويتوسط أرض مربع القبة تركيبة من الخشب تعلو قبر الأمير أيدكين البندقداري عليها خمسة اسطر بالخط النسخ المملوكي بصيغة.

(كل نفس ذائقة الموت) وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور هذا قبر الفقير الي الله تعالي الراجي عفو الله الامير علاء الديني ايدكين البندرقداري الصالحي النجمي جعله الله محل عفرانة.

ويحيط بأعلى القبة شريط كتابي محفور على الخشب بالخط النسخي المملوكي بصيغة (بسم الله الرحمن الرحيم)ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلينأنشأ هذة القبة المقر الأشرف الصالحي الاميري الكبير المخدومي المنصوري البندقداري بتاريخ سنة ثلاثة وثمانية وستمائةوتتكون منطقة الانتقال من الداخل من صفين من الحنايا على هيئة عقد منكسر كل صفمن ثلاث حنايا و بين مناطق الانتقال توجد نوافذ عددها سته مغشاه بالجص المفرغ باشكال نباتيه يعلو ذلك رقبة بها نوافذ عددها ثمانيه على هيئة عقد منكسر للإضاءة والتهوية ويتوج ذلك الخوذة التيسبق ذكرها والمزخرفه بضلوع راسيه

الخانقاة:

تقع الخانقاه بين قبة الرجال وقبة النساء ولها مدخلان مباشران أحدهما بالجدار الشمالي الغربي ولا يقع علي محور المدخل بل الي يسارة ويقع المدخل الثاني بمنتصف الجدار الشمالي الشرقي وهذه المداخل عباره فتحات بسيطة وتبلغ مساحة الخانقاه ذات التخطيط المستطيل١١X١٢,٥٠ م قسمت الي ثلاث اقسام متساوية تقريبا القسم الأوسط يمثل المجاز وهو عبارة عن مساحة مستطيلة يتوسطها اكتاف حاملة لستة عقود تسير موازية لجدار القبلة وظلة جهة القبلة بصدرها حنية محراب خالي من الزخرفة وظله ثانية تقع بالجبهة الشمالية الغربية وسقف هذه الظلات بما فيها المجاز حديث يتكون من الواح خشبية خاليه من الزخرفة وتدل الشواهد المعمارية على أن السقف لم يكن مسطح كما هو الأن بل كان مغطي بقبات ضحلة مقامة علي مثلثات كروية ويؤكد ذلك وجود الأكتاف البارزة على جانبى المحراب والمدخل المقابل بالجهة الشمالية الغربية وكذلك الأكتاف الناتئة بالجدارين الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي وتصميم الخانقاه بهذاالشكل ينفي النظريات التي أوردها المستشرقون بأن تصميم الخانقاه يجب أن يكون ايواني وقد اثر تخطيط خانقاه أيديكن البنقداري بهذه على تخطيط المدرسه

الطيبرسيه الملحقه بالازهر الشريف على يمين الداخل ٧٠٦-٧٠٩ هـ و خانقاه ومصلى السلطان الاشرف برسباي بجبانة المماليك والعديد من المساجد العثمانية محليةالطراز

قبة النساء:

تقع هذه القبة من الخلف من المصلي او الخانقاه سالفة الذكروتبلغ مساحتها المربعة تقريبا (٢,٥X٢,٥م) ولها مدخل واحد يقع بالضلع الشمالي الشرقي ونافذة مصبعات وواجهه خشبيه منفذه بالخرط تطل على الخانقاه مزدانة بالزخارف النباتيه والهندسية والكتابات الكوفية والنسخية ويكتنف المحراب دخلتان عبارة عن كتبيتين لحفظ المصاحف والربعات الشريفة.

وعلى الرغم من صغر مساحة قبة النساء عن مساحة قبة الرجال، الا أن منطقة انتقالها اكثر تطورا عن الاخيره فهي اكثر ارتفاعا وتتكون من ثلاثة صفوف من الحنايا المقرنصة بكل صف ٥ حنايا معقودهبعقد منكسر ويعلو منطقة الانتقال شريطان كتابيين احدهما سفلى به آيات قرانيه بخط النسخ المملوكي والأخر علوي عبارة عن نص تأسيسي بألقاب من دفن فيه من النساء يقرأ منه (..... الستر الرفيع والحجاب المنيع) وهي ألقاب النساء في العصر المملوكى ومن المعروف ان ابنة الأمير علاء الدين أيديكن البندقداري قد دفنت أسفل هذه القبة ويتوج منطقة الانتقال خوذه من الأجر مكسية بطبقة من الملاط ومشكلة بطريقة الضلوع إلا أن محيط هذه القبة اصغر من محيط قبة الرجال و ارتفاعها أعلي من قبة الرجال.

الفصل الخامس : خانقاه وضريح السلطان بيبرس الجاشنكير

الموقع:

تقع هذه الخانقاه بشارع الجمالية او كما يطلق عليه شارع باب النصر، وكان هذا الشارع قديما يعرف باسم شارع باب رحبة العيد، أما الخانقاه فكان موضعها جزء من دار الوزارة الفاطمية ويعود تاريخها الى عام ٧٠٦-٧٠٩ هـ.

ترجمة المنشئ:

هو السلطان بيبرس الجاشنكير كان أول أمره مملوكا اشتراه المنصور قلاوون الصالحي ورقاه حتى صار أميرا ثم جعله جاشنكيرا، أي متذوقا لطعامه وشرابه خشية أن يكون مسموما، ثم عمل بيبرس هذا في خدمة ابنه الأشرف خليل بن قلاوون إلي أن قتل فثأر له بيبرس وعين استادارا في زمن الملك الناصر محمد ابن قلاوون أي المشرف على دار السلطان وقد حدثت منافسة شديدة بين هذا الأمير وأمير آخر يدعي سلار كان نائبا للسلطنه وكان من نتيجة هذا ا التنافس أن هرب السلطان محمد إلى الكرك فأقيم بيبرس سلطان مكانه وذلك في شوال ٧٠٨هـ إلا أن السلطان الناصر محمد استطاع أن يعود مرة أخري إلي مصر حيث قبض علي بيبرس وقتله خنقا بيديه بالقلعه، فدفن بتربة الفارس أقطاي اولا ثم نقل بعد ذلك إلى مقبرة أخري بسفح جبل المقطم ثم مرة ثالث حيث دفن بقبته الملاصقة للخانقاه، وكانت مدة سلطنته عشرة أشهر وأربع وعشرين يوماويذكر لنا المؤرخ المقريزي أن الملك ركن الدين بيبرس هذا قد ابتدأ عمارة هذهعليه وهو أمير قبل أن يتسلطن وذلك عام ست وسبعمائة من الهجرة فلما تسلطن أوقف كثيرة بدمشق والجيزة والصعيد والوجه البحريولما قتله الناصر محمد أغلق هذه الخانقاه

وصادر كل أوقافها ومحا أسمه من شريط الطراز اعلى الواجهه الرئيسيه الشماليه الغربيه ولم يأمر الناصر محمد بفتحها مرة أخري إلا بعد عشرين عاما، ورد إليها أوقافها بعد جهد كبير من ابنة بيبرس الجاشنكير.

وقد أورد لنا العالم مهرن نص الأنشاء الموجود على الواجهه الرئيسيه لهذه الخانقاه اعلى المستوى الاول من الشبابيك المستطيله ذات المصبعات المعدنيه بصيغة (بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاه واتاء الزكاه يخافون يوم تتقلب فيهالقلوبوالأبصارليجزيهماللهأحسن ما عملو ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب امر بانشاء هذه الخانقاه السعيدة وقفا مؤبدا علي جماعة الصوفية من فيض الله تعال وجزيل احسانه راجيا بذلك عفوه وغفرانه العبد الفقير إلى الله تعالى ركن الدين بيبرس المنصوري عبد الله الفقير إليه الراجي رحمته يوم القدوم عليه ضاعف الله ثوابه وزكى أعماله ويسر له أسباب ما بسط إليه من المعروف بمنه وكرمه وأفضاله)

التعريف بالبناء:

(الخانقاه أو الخانكاه)

كلمة فارسية بمعني البيت او الماوي ويذكر المقريزي أنها من المباني التي استحدثت في الإسلام حيث ظهرت في القرن الرابع الهجري وهي مكان يختلي فيهالصوفية المنقطعين لعبادة الله، ويذكر العالم فان برشم بان الدوافع التي حلت بأهل السنه إلي ابتكار طراز المدارس هي نفسها الدوافع التي حدت بهم لإنشاء هذه الدور الدينية وأن أقدمأمثلتها ظهرت في سوريا ثم نقلها صلاح الدين بعد ذلك إلى مصر.

التوصف المعماري والاثري:

كانت منشأة السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير عبارة عن مجموعة بنائية ضخمة الشتمل علي خانقاه سكن بها أربعمائة صوفي مقيم وبجانبها رباط عسكري سكن بهمائة جندي خصص لهم ما يكفيهم من طعام ولباس ثم بني فيه مدفن خصصه لنفسه، ويقدر المؤرخ المقريزي مساحة هذه المنشاة بمقدار فدان وثلث، وهي تشغل مساحة غير منتظمة لها واجهة عرضها ٣٠متر و عمقها إلى الداخل ٧٠ متر.

الواجهة الشمالية الغربية:

تتشابه مع واجهة المنصورقلاوون بشارع المعز حيث تنقسم واجهة خانقاه الجاشنكير الى قسمينيرتد احدهم عن الاخر بمقدار ٣,٥ متر وتشغل المساحه اليمنى من واجهة المجموعه كتله بنائيه تمثل المدخل الرئيسي للخانقاه في حين يشغل يساره واجهة الضريح وقد أثبتت الحفائر الأثرية بعد هدم جزء من المبني المجاور لكتلة المدخل انه من النوع التذكاري البارز حيث بلغ مقدار بروزه ٩,٥ م، والحق أن واجهة هذه الخانقاه كلها مقامه على أرض مغتصبة من الطريق العام الذي كان يسمي في ذلك العصر باسم باب العيد

كتلة المدخل:

مدخل هذه الخانقاه من طراز جديد حيث تتوسطه مساحه غائره عرضها ٥,٦٥ سنتي وعمقها ٢,٥ م و علي واجهتها عقد نصف دائري مفصص ذو مخدات متلاصقه، ويسقف المساحة الداخلية سقف خشبي مسطح، بصدر هذه المساحة دخله أخري يتوجها ربع قبة محمولة على مقرنصات ذات دلايات بينهما قمرية مستديرة مكونة من صنجات سوداء وبيضاء بالنظام الاملق وجوانب هذه الدات مغطاة بالرخام ومزخرفة بالأعمدة المندمجة، ويوجد على جانبي المدخل مكسلتان مستطيلتان علي هيئة المحاريب كانتا مخصصتان لجلوس البوابين الذين يحرسون هذه الخانقاه.

وبصدر كتلة المدخل فتحة عرضها١٣.٢ متر وارتفاعها ٤,٢١ متر يعلوها عتب من الرخام غشيت واجهته بالرخام الأبيض والأسود بالنظام الاملق علي شكل صنج معشقة، يغلق علي فتحت الباب مصراعين من الخشب المصفح البرونز مزخرفين بأشكال من الأطباق النجمية ومؤزرين من أعلاهما وأسفله بشرطين من الكتابات النسخية المكفتة.

و يوجد فوق الباب مباشرة نافذة مربعة يكسوها مصبعات من البرونز تستخدم لإضاءة دركات المدخل عند غلقالمصراعين، ويؤدي الباب السابق إلى دركاه مربعة تقريبا مغطاة بقبة ضحله مقامة على مثلثات كروية وبهذه الدركاه أربعة أبواب وشباك بصدرها يؤدي الباب على يمين الداخل إلي سلم موصل إلى السطح العالي، ويؤدي الباب الثاني على اليمين الى حجره على هيئة زاوية قائمة، أما الباب الأول إلى اليسار فيؤدي إلي ممر علي هيئه زاويه منكسره يغطيها قبو طولي، يصب هذا الممر في فناء المستطيل يتقدم الضريح، ويؤدي إلي ممر منكسر أيضا يصب في ممر الخانقاه وبهذا الممر الأخير باب يوصل الى الميضاهوشباك مطل على الضريح

الخانقاه:

تتكون هذه الخانقاه من صحن مكشوف يحيط به ٤ ايوانات اكبرها ايوان القبله و مجموعة من خلاوي الصوفية.

اولا الايوان الجنوبي الشرقي

مساحة هذا الايوان مستطيلة تلغ ١٢,١٣X٩,٨٧ متركما انه موسع من جانبيه عن طريق سدلتين اتساع كل واحده ٨,٢٠ متر وعمقها ٠٧.٣ متر بكل سدلة دخلة بها كتبيتان تستخدمان لحفظ المصاحف وكتب الحديث النبوي وتدل الشواهد المعمارية على أن هذه الدخلات يعلوها ملاقف هوائية لتلطيف جو الايوان الرئيسي الا أن أسقفها الخشبية مفقودة حاليا و يقع بمنتصف الضلع الجنوبي الشرقي من الإيوان محراب ضخم على هيئة حنيه نص دائريه خاليه الان من اي زخرفه الا انه من المؤكد أن هذا المحراب كان مكسيا بالرخام، وسقف هذا الايوان من الأجر المكسي بالملاط.

ثانيا: الإيوان الشمالي الغربي:

مساحة الإيوان مستطيلة تبلغ ١٠,٤٢X٩,٣٢ متر يسقفه قبو من الطوب الأجر وبصدره دخلة يعلوها ملقف هوائي كما يوجد علي يمينة ويسارة دخلتان تدعيم معقودين.

ثالثا: الصحن والإيوانان الجانبيان والخلاوي :

يتوسط الخانقاه صحن ضخم مكشوف سماوي مستطيل المساحة يبلغ ١٦,٤٢x١٩,٧٨ متريحيط بالصحن حوائط عالية ويوجد بمنتصف الضلع الجنوبي الغربي والشمالي الشرقي فتحة باب عالية بارتفاع طابقين من خلاوي الصوفية يؤدي كل باب إلى إيوان

صغير مستطيل مغطي بقبو مدبب به محراب عار من الزخارف ومجموعة من الكتبيات.

ويحيط بالصحن مجموعة من خلاوى الصوفية المقيمين وهذه الخلاوي متعددة الاشكال في الطابق السفلي منها له واجهة يعلوها عقد من صنجات معشقه به ثم عقد عاتق يعلوها عقد مقوس،اما الطابق الثالث نجد به نوعا آخر من الواجهات على هيئة عقود مدببة محموله على اعمدهمندمجة.

واجهة الضريح :

تتكون واجهة الضريح من ثلاثة تجاويف راسية مطلة علي شارع الجمالية بالاضافه الى تجوفين جانبيين أحدهما بالجهة الجنوبية الغربية يطل على المدخل والأخر بالجهه الشماليه الشرقية، تنتهي هذه التجاويف الرأسية من أعلاها بصدور مقرنصة ويحتوي كل تجويف على شباكين احدهما سفلي يعلوها عقد من صنجات معشقة ثم عقد عاتق يعلوها عقد مقوس والشبابيك العلوية حجمها أصغر وهي موضوعة فوق شريط الطراز الممتد بطول الواجهة ويتوج ال كلها صفوف من الشرفات المسننة.

الضريح :

يتكون الضريح من مساحة مربعة طول ضلعها ٢٥.١١ متر يتقدمها فناء مستطيل به خمس نوافذ سبق توصيفهم من الخارج يسقف هذا الفناء سقف خشبي يتوسطة شخشيخة من تجديدات لجنة حفظ الاثار العربية سنة ١٨٩٢م وعلي واجهة الضريح الداخلية مشربية خشبية يتوسطها عقد منكسر عليه نص انشائي بالخط النسخي المملوكي والضريح من الداخل قليل الإضاءة نظرا لعدم وجود شبابيك مباشرة علي الطريق وارضيته مكسية بطبقة من الرخام الأبيض والأسود بالنظام الابلق مشكلة علي هيئة سبع محاريب متجهه ناحية القبلة ويتوسط هذه الأرضيه تركيبة تعلو قبر المنشئ تكسو الجدران الداخلية للضريح وزرة من الرخام ارتفاعها ٣,٥٦م يعلوها افريزان خشبيان أحدهما كتابي والأخر زخرفي.

المحراب:

يوجد بالضلع الجنوبي الشرقي من الضريح، وهو عبارة عن حنيه لم ارتفاعها ٧١.٧مترروعرضها ١,٥٤ متر مزخرفة بطاقيتين معقودتين من الرخام يحيط بهما الأفريزان الخشبيان اللذان سبق ذكرهما، وقد ملأ داخل المحراب بزخارف زجزاجيه وصفوف من المحاريب الصغيرة المحمولة على أعمدة خزفية.

منطقة الانتقال:

أقيمت قبة الضريح على أربعة صفوف من الحنايا ذات الدلايات تحصل فيما بينها شبابيك ذات عشر فتحات(٤-٣-٢-١)وهذه النوافذ من الجص المعشق بالزجاج الملون ومعظمها من تجديدات لجنة حفظ الآثار

العربيةاما القبه فمبنيه من الطوب الأجر المكسي بطبقة من الملاط وقد فتحت في قاعدتها ثمانيةشبابيك صغيرة معقودة.

المئذنة:

تبدأ قاعدة هذه المئذنة فوق سطح المدخل مباشرة وهي ذات تخطيط مربع يبلغ ارتفاعه ١٠ أمتار، ويزخرفها ثلاث دخلات تنتهي بعقود منكسرة، ويتوج هذه القاعدة أربعة صفوف من المقرنصات الحاملة لشرفة الطابق الأول، يلي ذلك بدن أسطواني قطره. ٣,٤٠ متر ارتفاعه ٨,٤٠ متر يعلوه كورنيش مقرنص وتنتهي المئذنة بقمة علي هيئة المبخرة.

العناصر المعمارية:

يتبع تخطيط هذه الخانقاه نظام المدارس ذات الأربعة إيوانات إلا أننا نلحظ في هذا التخطيط عدم العناية بالإيوانين الجانبيين وتصغير حجمهما مع كبر حجم الصحن المكشوف.

أثبتت أبحاث العالم كريزول بهذا الأثر أن السلطان بيبرس الجاشنكير اغتصب جزءا من الشارع المسمى قديما بباب العيد(حاليا الجمالية)وأقام عليه ضريحة وكان نص الأنشاء مبتدأ من أعلى الواجهة الجنوبية الغربية ومستمرة علي الواجهة الشمالية الغربية ثم على جزء من الواجهة الشمالية الشرقية إلا أن الوكالة المسماه (حوش عطي)التي بنيت عام ١٨١٧م حجبت جزء من هذه الواجهة وسدت جزء من شباكها الشمالي الشرقي كما حجبت بقايا الشرفات المسننة.

تتشابه قبة هذا الضريح في شكلها الخارجي مع قبة الصالح نجم الدين ايوباما من الداخل فإن منطقة الانتقال قد تطورت لتصبح مكونه من أربعة حطات بعد أن كانت ثلاثه بقبة الصالح كما تعددت الحطات الأفقية .

تأثرت مئذنة هذه الخانقاه بمئذنة المدرسة الصالحية من حيث القاعدة المربعة المزخرفه بالحنايا المشعه ثم المقرنصات الحاملة للقمة التي علي هيئة المبخرة إلا أن مئذنة الخانقاه اكثر تأنقا من ناحية التكوين المعماري كما أن منطقة الانتقال من القاعدة المربعة إلى البدن الأسطواني تمت عن طريق مقرنصات متعددة الحطات في حين أنها كانت علي هيئة كوابيل خشبيه في مئذنة الصالحومن المعروف أن السلطان بيبرس الجاشنكير هذا قد قام بترميم مئذنتي جامع الحاكم على نفس تصميم قمة مئذنة الخانقاه مع اختلافات بسيطة.

وقد ظهر في هذه الخانقاه عنصر الملقف الهوائي مكررا في عدة أماكن بالإيوان الشرقيوالشمال الغربي، وقد سبق أن شاهدنا هذا العنصر مفردا بإيوان المدرسه الكاملية الشمالي الغربي الوحيد المتبقي

الأبواب المصفحة بالبرونز:

يغلق علي هذه الخانقاه مصراعان من الخشب المصفح بالبرونز ويعد هذا الباب رابع الأمثلة من حيث القدم في مصر وكانت الأولي بجامع الصالح طلائع بن رزيك والثانية بمدرسة الظاهر بيبرس البندقداري والموجود الأن بالمفوضية الفرنسية والثالث بمجموعة المنصورقلاوون.

شباك القبة الأوسط المطل على شارع الجمالية:

ذكر المؤرخ المقريزي أن علي واجهة هذه القبة شباك جليل القدر حيث يكاد يتبين من أبهة الخلافة وهذا القول غريب لاسيما وأنه صادر عن مؤرخ أصيل كالمقريزي في عصر كان للمساجد والمدارس قيمة فنية عالية ولا تزال بحالتها من الرونق و الجمال ويأتينا الجواب من المصادر التاريخية إذ تبين أن هذا الشباك كان موجودا في قصر الخلافة العباسية وحدث في عام ٤٤٧هـ أن وقع الخليفة العباسي القائم بأمر الله تحت سطوة أحد وزرائه المعروف باسم ابي الحارث ارسلان البساسيري الذي كان يميل الخليفه الفاطمي المستنصر بالله وقد ساعده على بص سلطانه على بغداد وقد قم بهدم قصر الخليفه العباسي وبعث بعمامته وشباك من الحديد كان مركب على احد نوافذ دار الخلافه وبالفعل وصل هذا الشباك اللى القاهره حيث اختار له الوزير الفاطمي الافضل ابن امير الجيوش مكان مناسبا في دار الوزاره الفاطميه فلما كان العصر الايوبي هدمت هذه الدار وظلت على حالها الى ان اشترى انقضها السلطان بيبرس الجاشنكير ووضع هذا لاشباك في ضريحه

الفصل السادس :مدرسة السلطان الناصر حسن

الموقع:

تقع هذه المدرسة حاليا بميدان صلاح الدين (ميدان القلعة) وتطل بواجهتها الشمالية الشرقية على شارع محمد علي عند تقابله مع شارع سوق السلاح وبواجهتها الجنوبية الغربية على شارع المظفر، أما الواجهة الرابعة وهي الشمالية الغربية فتطل حاليا على مخازن وزارة الآثار والسياحه و التي بنيت علي ملحقات خاصة بهذه المدرسة. ويذكر المؤرخ المقريزي آن موقع هذه المدرسة كانت في الماضي عبارة عن دارين للأمير يلبغا اليحياوي والأمير الطنبغا الماردانى فهدمهما السلطان حسن و أضاف إليهما عدة دور وشرع في بناء مدرستة تجاه قلعة الجبل وذلك سنة ثمان وخمسين سبعمائة، وأن العمارة فيه ظلت قائمة لمدة ثلاث سنين لم تعطل يوما واحدا، وأرصد مصروفها كل يوم عشرين ألف درهم ويعود تاريخها في بين عامين ٧٥٧-٧٦٤ هـ .

ترجمة عن صاحب الأثر:

هو السلطان الناصر بدر الدين وقيل ناصر الدين أبو المعالى حسن بن السلطان الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون.وهو ملك مصر التاسع عشر من جنس الترك بمصر والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ولد عام ٥٣٧ هوتوفيت أمه، بعد فترة وجيزة فكفلته خوند أم أنوك، ولقب وهو صغير باسم" قماري"تولي السلطنة مرتين كانت أولهما في رمضان سنة ٧٤٨هـ، وكان عمره آنذاك عشر أعوام ولهذا تسلط عليه أمراء عصره الأكابر منهم الأمير يلبغاروس نائب السلطنة (كان له قصر في موقع المدرسة) والأمير شيخو الناصري (له مسجد وخانقاه واقعة بشارع الصلبية)والأمير طاز نائبحلب (له قصر بشارع الصلبية)وشاد الشرابخانه، الأمير أرغون شاه الإسماعيلي (لهمسجد بسويقة السباعين)والأمير أولجاي اليوسفي الإستادار (له مدرسة بشارع سوق السلاح) والأمير صرغتمش (إله مدرسة عظيمة مجاورة لجامع أحمد بن طولون)

وحينما كبر السلطان حسن بدأ يعصف بإمرائه مما ولد ثورة مضادة له وجعل الأمراء يحقدون عليه ويعزلونه من السلطنة بل ويحجرون عليه ويعينون الملك الصالح أخيه بدلا منه وذلك عام ٧٥٢هـ فكانت مدة سلطنته الأولي

(١٤يوم و٩شهر ٣ سنة) يذكر المقريزي أن السلطان حسن كان ملكا حازما مهابا شجاع صاحب رأي وكلمة نافذة، لم يشرب الخمر ولم يأت الفاحشة واختلف عن كثير من ملوك وأمراء الترك فيما يتعلق بالشذوذ الجنسي، ويصفه أبن تغري بردي بأنه كان مفرط الذكاء عاقلا فيه رفق بالرعية ضابطا لما يدخل إليه وما يصرفه متدينا شهما ولو وجد ناصرا معينا لكان أجل الملوك.

واتفق المؤرخون علي أن السلطان حسن كان أشقر الشعر بوجهة نمش يميل جسمه إلي

الطولظل الناصر حسن محجورا عليه لمدة ثلاثة أعوام حتي عام ٧٥٥هـ حتى أعيد مرة أخري إلي السلطنة (في جمادي الآخرة ٧٥٥ هـ)فاستبد بالملك وبدأ يفتك بمن أساء إليه إلا أن قوة الأمراء غلبت عليه واستطاع الأمير يلبغا الخاصكي نائب السلطنة أن يعصف به، ويغتاله قرب المطرية القاهرية وقيل أنه رمي بجثته في بحر النيل ولهذا لم يعرف له قبر وقيل دفنه في مصطبة كانت أمام داره بحدرة الكبش وقيل أنه دفن بكيمان مصر والله أعلم، وكان عمره آنذاك بضع وثلاثين تخمينا ومدة ملك:السلطنة الثانية ٦ سنه ٧ شهر ٧ يوموكانذلكفيجماديالأولسنة ٧٦٢ هـ، أنجب خلالها ستة عشر أبنا وبنتن منهم عشرة ذكور وست أناث ومن أحسن مآثره أنه بدأ يقلل من اقتناء المماليك الجلب واتجه إلى تكوين مماليك جدد من أولاد الناس(اي الذين ولدو بالقاهره من اب وام من طائفة المماليك) اشتراهم ورباهم وخولهم في النعم ورقاهم إلي أعلي المناصب.

و

عمارة المدرسة:

تعتبر مدرسة السلطان حسن تتويجا للنظام الإيراني الذي بدأت أولي مراحله في المدرسة الأيوبية البسيطة التي كانت تتكون من صحن وإيوانين، فتصميم مدرسة السلطان حسن عبارة عن صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة إيوانات هذا بالإضافة إلي قبة ضريحية. ا

وتبلغ المساحة الإجمالية لهذه المدرسة٧٩٠٦م ٢، حيث أن طولها ١٥٠م، وعرضها ٦٨ متر إلا انها ليست كاملة الاستطالة بل أن أحد أضلاعها به (اعوجاج) اي انكسار بسيط، أما ارتفاع الواجهات فبلغ في أقصي جزء فيها إلى مسافة٧٠.٣٧ م عند كتلة المدخل الوحيد بالجهة الشمالية.

ولهذه المدارس أربع واجهات رئيسية أهمها بطبيعة الحال الواجهة الشمالية الشرقية التي بها المدخل الرئيسي وتقع علي شارع محمد علي (عند تقاطعه مع شارع سوق السلاح)، والواجهة الأخرى هي الواجهة الجنوبية الشرقية وتطل علي ميدان صلاح الدين (القلعة)وبها القبة الضريحية، أما الواجهة الثالثة في الجنوبية الغربية وتطل على شارع المظفر، بينما تطل الواجهة الرابعة الشمالية الغربية علي ملحقات كانت خاصة بالمدارس.

وقد بنيت هذه الوجهات كلها بالأحجار الضخمة المستجلبة من جبل المقطم القريب منها والذي كان يعرف في هذه الفترة باسم "جبل المقطب" وتتبع هذه الواجهات نظام البناء الذي ظهرت بواكيره في عصر الأيوبيين من حيث تقسيمها إلي تجاويف رأسية تشتمل علي نوافدسفليه من البرونز أو النحاس ذي المصبعات بينما تحتل القندليات – البسيطة أو المركبة – الجصية ذات الزجاج الملون الأجزاء العلوية من هذه الدخلات أو التجاويف، ويقع المدخل في زاوية البناء، وهو من النوع التذكاري ويؤدي إلى الداخل عبر دركاه الى دهليز منكسر يصب في

صحن المدرسه ويظهر بهذه المدرسة عنصر المدارس الفرعية التي لجأ إليها المعمار حين أصبحت الإيوانات الأساسية عاجزة عن احتواء الدراسين والمصلين، ومن ثم أهتم المعمار في هذه المدرسية ببناء تكوينات مدارس فرعية تتكون الواحده منها من إيوان واحد يتقدمه صحن ويحيط به خلاوى الصوفية أو الدارسين وكان عدد الخلاوي يتناسب مع عدد الطلبة زيادة أو نقصانا، وبهذا لم تعد الإيوانات الأساسية للتدريس بل أفردت للصلاة فقط في حين اختصت المدارس الفرعية بذلك.

وفي عصر الناصر حسن تغير نمط المئذنة التقليدية التي صاحب المنشأت الدينية منذ عصر الصالح نجم الدين أيوب فوجدت في هذا العصر المئذنة التي لها قمة على هيئة القلة بدلا من شكل المبخرة النمطي، أصبح هذا النموذج الجديد هو المميز الشكل المئذنة حتي نهاية عصر الجراكسة، فنراه واضحا على كل المنشآت التي من عصر الناصر حسن حتي نهاية عصر الجراكسة، ومن امثلة ذلك مأذنة مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبة ومدرسة السلطان حسن نفسه ومدرسة الأمير صرغتمش بجوار جامع احمد ابن طولون ومدرسة أولجاي اليوسفي" بشارع سوق السلاح.

المدخل الرئيسي:

يقع هذا المدخل بالزاوية الشمالية من البناء ويطل على شارع محمد على، وهو عبارة عن سلم بطرفين يلتقيان ببسطة، والمدخل من النوع التذكاري البارز على جانبيه مغسلتان يعلوهما حنيتان لجلوس بوابين الحراسة ويتوج المدخل عقد مدبب محمول عليمقرنصات ذات دلاياتولهذا المدخل واجهة ضخمة جدا قسمها المعمار إلى مناطق مستطيلة ومربعة كان المفروض أن تكسي بالرخام المتعدد الألوان إلا أن هذه الأعمال لم تتم حتي الأن. يغلق على هذا المدخل مصراعان ضخمان من الخشب المصفح بالبرونز ليسا الأصليين، إذ أن الباب الأصلي موجود حاليا بمدرسة المؤيد شيخ الذي نقله إلى مدرسته عام ٨١٨هـ.

أما الباب الموجود حاليا بالمدرسة فيعود إلى التجديدات التي أحدثت بالمدرسة في عصر السلطان برسباي سنة ٨٢٥هـ

درگاه المدخل:

يؤدي المدخل السابق إلى دركاه مربعة المساحة عبارة عن تكوين صدير المدرسة من ثلاثة إيوانات أما الضلع الرابع فهو باب الدخول إلى المكان، بصدر هذه الدركاه مصطبة عميقة مكسية بالرخام وإلى اليمين منها شباك يطل على الجهة الشمالية الغربية، وإلى اليسار فتحة باب توصل إلى دهليز منكسر يوصل إلى أحدي المدارس الفرعية وإلى صحن المدرسة، ولهذهالدركاه سقفعلى هيئة قبة من الحجر المشهر محمولة على صفوف من المقرنصات ذات الدلايات

الداخل:

أولا: الإيوان الجنوبي الشرقي

يعتبر هذا الإيوان من أكبر الإيوانات الموجودة في مصر على الإطلاق اذ ان عمقه حوالي ٣٢,٥ م وفتحه عقدة ٢٠.١٩ م له سقف على هيئة عقد مدبب من الحجر ، يذكر المقريزي أن القالب الذي بني عليه هذا القبو تكلف

مائة ألف درهم وبعد الانتهاء من بناء القبو وضع القالب على الكيمان، وقد اعتبر كثير من المؤرخين هذا القبو أعجوبة عصورهم حتى أن القلقشندي يذكر عن هذه المدرسة (أنه لم يسبق على مثلها ولا سمع في مصر من الأمصار بنظير) يقال أن إيوانها يزيد في المقدار على إيوان كسري بأذرع حددها المقريزي بأنها خمسةأذرع.

ولزيادة الفخامة تتدلي من عقد هذا الإيوان سلاسل نحاسية كانت معدة لحمل المشكاوات الزجاجية المموهة بالمينا لاضاءة المدرسة.

يتصدر المحراب الجهة الجنوبية الشرقية، وهو على هيئة حنية دائرية يكتنفها عامودان من الرخام المتعدد الألوان بينما زخرفت الطاقية بأشكال زجزاجية ويتوج واجهة المحراب طارتان من الصنجات المعشقة.

ويجاور المحراب إلى اليمين منبر من الرخام يعد في حد ذاته تحفه فنية رائعة له بابان من النحاس المفرغ وجوسق بقمة على هيئة القلة مزخرفة بالجفوت البارزة.

ويبدو أن كل جدران هذا الإيوان كانت مكسية بوزرات رخامية عالية فقد ما عدا جهة القبلة.

ويعلو الوزرات الرخامية أشرطة من الجص القالبى مزخرفة بآيات قرآنية بالخط الكوفي على أرضية من الزخارف النباتية.

وعلى حافة الإيوان مطلا على الصحن دكه للمبلغ من الرخام عبارة عن شرفه مستطيله محمولة على عمد من الرخام الأبيض.

القبة الضريحية:

يتوصل إلى القبة الضريحيةالملحقة بمدرسة السلطان حسن عن يمين ويسار المحراب الرئيسي بايوان القبله وهذان البابان من النحاس المكفت بالذهب عليهما اسم السلطان حسن .

والقبه مربعة المساحة يبلغ طول ضلعها ٢١ متر و ارتفاعها إلى قمة القبة ٤٨ م، يتوسط جدارها الجنوبي الشرقي حنية محراب من الرخام والجدران كلها مؤزرة بالرخام، ويعلو ذلك شريط خشبي عليه نصقراني بالنسخ المملوكي عبارة عن آية الكرسي ثم تاريخ الأنتهاء منالقبة عام ٧٦٤ هـ

منطقة الانتقال:

تتكون منطقة انتقال القبة من مثلث معكوس من المقرنصات قاعدتة لأعلى قمته لأسفل،وهذه المقرنصات من الخشب المجلد بالتذهيب و الألوانأما القية فكانت أيضا من الخشب المجلد بالتذهيب والألوان ولها سطح مغلف ببلاطات من الرصاصعلى غرار قبة الصخرة وقبة الإمام الشافعي إلا أن هذه القبة سقطت ١٠٧١ هـ/ ١٦٦١م، وكانت تشبه القباب السمرقندية التي لها رقبة طويلة ثم خوذة على هيئة نصف دائرة وكانت أعلى من القبة الحالية.

أما القبة الحالية فجددها إبراهيم باشا عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م وهي مبنية على غرار القباب المغولية المنبعجة يحيط بها من الخارج أكتاف اسطوانية، شكل هذه القبة مأخوذ من قبة الأشرف خليل ابن المنصور قلاوون بشارع الخليفة.

أرضية القبية:

يتوسط أرضية القبة تركيبة من الرخام تعلو القبر الموجود أسفل القبة، وقد تم إنشاء هذه بعد وفاة السلطان حسن بأربع سنوات، وقد سبق القول أن السلطان حسن نفسه لم يدفن في هذه القبه وانما اكملت بعد ذلك ليدفن فيها ابن السلطان المعروف بالشهابي احمد المتوفى في عام ٧٨٨ هـ وإسماعيل المتوفي في ٧٩٩ هـ

والملاحظ أن المعمار – طبقا لوصية السلطان – قد وضع القبة الضريحية و من إيوان القبلة الرئيسي حتى يستفيد المقبورون في هذا الضريح بصلاة املسلمين وكذا دعائهم لصاحبة، وقد استنت شجر الدر هذه السنة السيئة حين أضافت إلى مدرسة الصالح نجم الدين أيوب قبة ضريحية مجاورة في أهم شارع من شوارع القاهرة في العصر الأيوبي وهو شارع القصبة العظمى، وتبع هذا العمل الشائن كل سلاطين مصر الذين بنو في هذا الشارع القباب الضريحية لأنفسهم ملاصقة لمنشآتهم الدينية فبني المنصور قلاوون قبة ضريح لنفسه تكاد مساحتها تتوازي مع مساحة المدرسة المخصصة لمائتين من الطلبة الدارسين وشيوخهم وكذلك فعل أبنه الناصر محمد بن قلاوون وتبعه السلطان الظاهر برقوق حين انشئ قبة ضريحية في الخانقاه المجاورة لمدرسة الناصر محمد.

الإيوانات الجانبية:

يحيط بالصحن ثلاث إيوانات تكاد تتوازي في مساحتها المستطيلة، وهي مبنية بأقبية حجرية مدببة وتفتح بواجهاتها على الصحن بعقود مدببة من النوع المستطيل المعروف بالعقد المخموس، وكانت هذه الإيوانات مكسية بوزرة من الرخام المتعدد الألوان هذا الرخام مفقود من زمن بعيد

الصحن:

مساحة هذا الصحن مستطيلة٣٤,٦٠× ٣٢م يتوسطه فسقية مثمنة من الرخام يحيط بها ثمانية أعمدة تحمل قبة خشبية عليها كتابات قرآنية وتاريخ الانتهاء من بنائها ٧٦٦هـ، والصحن مكسي بطبقة من الرخام المتعدد الألوان، توخي فيها المعمار أن تكون بمسطحات كبيرة حلي يقلل من استخدام اللحامات حتى لا يفسد الرخام من تغيير درجات الحرارة.

المدارس الفرعية:

ويوجد بزوايا الصحن أربعة أبواب تؤدي الى المدارس الفرعيه الملحقه بالجامعتتكون

كل مدرسة من صحن وإيوان واحد لتدريس المذهب، وعلى جوانب صحن هذه توجد حجرات الطلبة الدراسين في طوابق متعددة، وأكبر هذه المدارس هي المدرسة الحنفيه التي تقع بالزاوية الجنوبية من البناء بينما تقع المدرسة الشافعية بالزاوية الشرقية والمدرسه المالكيه بالزاويه الشماليه اما اصغر المدارس هي مدرسة الحنابله التي تقع

بالزاويه الغربيه من البناء وتفتح نوافذ خلاوي الطلبه اما على الصحن او خارج البناء نراها في الواجهات الخارجيه من المدرسه بينما تتوسط الصحن نافوره لتلطيف حرارة الجو في ايام الصيف

جوانب صحن هذه المدرسة توجا هـ المدارس في المدرسة الحنفية التي تقع

شرقية والمدرسة المالكية ويوجد على المداخل الرئيسيه لهذه المدرسه ايات قرأنيه ثم اسم المذهب الذي تمثله هذه المدرسه وقد اتبعت المدارس الجركسيه هذه الطريقه في معالجة اماكن الدراسه مثل مدرسة السلطان برقوق بالنحاسين وخانقاه الناصر فرج بجبانة المماليك

الماذن:

كان مخططا لهذهالمدرسه أن تكون باربعة ماذن اثنان منهما بالزاويتين الجنوبيه الشرقيه والثالثه فوق المدخل الرئيسي اما الرابعه فكان محلها بالزاويه الغربيه من البناء ثم قام السلطان حسن بالفعل ببناء المئذنتين الجنوبيه والشرقيه وكذالك بنية الثالثه ولكنها سقطت في عام ٧٦١ هـ وادت الى مقتل ثلاثمئة او ثلاثون من ايتام المسلمين الذين كانو يدرسون في الكتاب الملحق بالمدرسه ولم ينجو منهم الى ٦ فقط هذا ما جعل السلطان حسن يتغاضى عن اكمال هذه المئذنه وظل المسجد مئذنتين فقط وهما الموجودتين الى الان الجنوبيه والشرقيه بالواجهه الجنوبيه الشرقيه بالمدرسه مطلتين على ميدان صلاح الدين والظاهره الملفته للنظر في هاتين المئذنتين انهما تبدان بقواعد من الارض ولهما قاعده مضلعه تبرز عن جدران المدرسه والمناره الجنوبيه هي المئذنه الاصليه التي تعود الى العصر المملوكي وهي مئذنه شاهقة الارتفاع يبلغ ارتفاعها من ارض القبه ٨١,٦ م لها كرسي مربع مشطوف من زواياه العلويه ثم بدن مثمن فتح به مشارفات بها مقرنصات ودورتين بجوانب من الحجر المفرغ ثم منطقة البابات ثم قمة على هيئة القله .

اما المئذنه الشرقيه فهي اقل شأنا من السابقه وهي ليست اصليه لانها سقط عام ١٦٥٩/١٠٧١ م فجددها ابراهيم باشا عام ١٠٨٢ هـ وهي تقليد صغير للمئذنه .

ومن المعروف تاريخيا ان سلالم هذه الماذن قد تعرضت للهدم اكثر من مره في العصر المملوكي الجركسي واعيد بناؤها عدة مرات .

ملحقات المدرسة:

تقع هذه الملحقات بالجهة الشمالية الغربية من المدرسة ويتوصل إليها عن طريق سلم هابط يوصل إلى مساحة مربعة ضخمة ٤١٢م٢ يتوسطها ميضأة من الرخام الأبيض و مجموعة من دورات المياه، وإلى الخلف من هذه المجموعة توجد ساقية ترفع المياه من بئر لا يزال موجودا حتى اليوم، لتوصيل المياه إلى المدرسة لاستعمال الصوفية. **مهندسو البناء:**

لا يزال اسم مهندس هذا العمل المعماري، وقد حاول هرتس باشا أن يرجع انشاء هذا الأثر الهام إلى مهندس بيزنطي وذلك استنادا إلى حلية مدخله الرئيسي، فسرها على أنها تشير إلى موطن هذا المهندس وفي هذا مبالغة لإنكار حق المسلمين في التشييد والمعمار.

واستطاع العالم الأثري المرحوم حسن عبد الوهاب أن يكتشف اسم الشاد علي العمائر بأعلى جدران مدرسة الحنفية بالزاوية الجنوبية من البناء وهو بصيغة:

(بسم الله الرحمن الرحيم)(ان المتقين في جنات وعيون)والنصر والفتح المبين ببقاء من أيدت به الإسلام والمسلمين ..... حسن بن السليمان ..... عنه ما وليته وخلده في ذريته كتبه تحمو دولته وشاد عمارته محمد بيلبيك المحسني.

ويذكر المرحوم حسن عبد الوهاب أنه على الرغم من عدم وجود لقب مهندس بجوار اسم محمد بن بيليك إلا أنه هو مهندس البناء الذي خططه وصممه.

إلا أن هذا الرأي لا يعتد به أيضا لأن الشاد على العمائر ليس هو المهندس الذي وضع التصميم، بل هو الملاحظ الذي أشرف على تنفيذ البناء.

أما المهندس فلا يزال اسمه غير معروف حتي الآن، وللدلالة على هذا نسوق مثالا واضحا في منشأة السلطان الظاهر برقوق بالنحاسين، فمهندس هذه الخانقاه هو شهاب الدينأحمد بن الطولوني، أما الشاد على العمائر فهو الأمير جهاركس الخليلي أمير آخور السلطان برقوق، وفي حين لم يظهر اسم المهندس على منشأة السلطان برقرق فاننا نجد الشاد علىالعمائر يفاخر باسمه إلى جوار اسم السلطان على النص التأسيسي الموجود على الواجهة الجنوبية الشرقية، أما المهندس فقد تعرفنا على اسمه من المصادر التاريخية فقط ويبدو ان هذا العمل الخارق الجبار لم يكن منصنع او تخطيط مهندس واحدبل كانوا مجموعه من المهندسين فيذكر لنا ابن تغري أن السلطان(حسن)لما شرع في عمارة المدرسة جعل عليها مشيدين ومهندسين واجتهد فيعملهاوأمامضروفهاوماجتمعبهامنالصناعفكثير جدا لا يدخل تحت حصر

اعمال البناء والتخريب في المدرسة:

كان موت السلطان حسن المفاجئ سببا في عدم اكمال الاعمال البنائيه التي تبرز شكل المدرسة في صورتها النهائية ولو تم ذلك لعدت من عجائب الدنيا في العصور الوسطى .

وتولى الأمير بشير أغا الجمدار استكمال بعض الأجراء الناقصه في هذه المنشئه الضخمة فقام بعمل التكسيات الرخامية الخاصة بأبواب المدرسه الفرعيه الموجودة على صحن المدرسه ،كما قام ببناء القبة الخشبية الأصلية التي تغطي الحجرة الضريحية كساها ببلاطات الرصاص كما بنى قبة النافورة الموجودة للان على الصحن و عمل الباب الرئيسي (الشمالي) الموجود حاليا بمدرسة السلطان المؤيد شيخ.

وقد مرت هذه المدرسة باطوار غريبة تراوحت بين الهدم والبناء طوال العصرين المملوكي البحري والجر كسي بل وحتي في العصر العثماني.

فقد أورد المؤرخون القدماء والمحدثون أن موقع مدرسة السلطان حسن قد لعب دورا خطيرا تجاه مقر الإدارة في مصر وتعني بذلك قلعة الجبل، فإذا حدثت ثورة أو فتنة بين الأمراء والسلطة الحاكمة تكون القلعة هي الشغل الشاغل للثوار ومن ثم كانت مدرسة السلطان حسن هي الطريق إلى تحقيق هذه الغاية، فيعتلى الثوار ظهر المدرسة وينصبوا مناجيقهم لضرب القلعة وهدمها على من فيها مثلما حدث في عصر السلطان برقوق عام

٧٩١هـ حين نصب الثوار المؤيدين لأسرة قلاوون المكحلة على ظهر مدرسة السلطان حسين وضربوا بها القلعة وادى ذلك إلى عزل السلطان برقوق من سلطته الأولى ولهذا بادر هذا السلطان عند عودته للسلطنه عام ٧٩٢هـ بهدم السلالم الموصلة إلى سطح المدرسة وسد الباب الرئيسي بالمباني وفتح بدلا منه احد الشبابيك المطلة على ميدان الرميلة (القلعة)ليكون بابا للدخول إلى المسجد.

وفي عصر السلطان المؤيد شيخ ٨١٥/٨٢٤هـ نكبت المدرسة حيث انتزع هذا السلطان مصراعي الباب الرئيسي ليضمها لمدرسته بتحت الربع سنة ٨١٨هـ كما أخذ منها أحد التنانير التي تستخدم للإضاءة وعلقها أمام المحراب بعد شرائهما بخمسمائة دينار .

وتزدهر المدرسة مرة أخرى في بداية حكم السلطان الأشرف برسباي عام ٨٢٥هـ حين أعاد ترميم سلالم مناراتها وسمح بالآذان من عليها وأصلح الباب الرئيسي وأعاد فتحه وركبتعليه مصاريع جديدة. وفي عام ٨٤٢هعاود الأمراء الثوار الهجوم على القلعة في سلطنة السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق فأمر هذا السلطان بهدم السلالم الموصلة إلى المآذن وإلى السطح العلوي.

وفي عام ٨٥٨هـ تألقت المدرسة مرة أخرى في عهد السلطان اينال حين أمر المهندسين بفحص منارتها القبلية (الجنوبية)لخوفه من تصدعها فوجدت بحالة جيدة إلا أن القبة الكبيرة نالها تخريب من جراء ضربها بالمنجنيق وأعوج هلالها فرفع منها وفي عام ٩٠٢هـ في سلطنة الناصر محمد ابن قايتباي حوصرت القلعة من مدرسة السلطان الناصر حسن وضرب من اعلاها بمكحلة اصابت باب السلسلة ومن ثم ردت القلعة على ذلك بضرب المدرسة بالمكحلة. إلا أن الأمير طومانباي الدوادار اصلحها عام ٩٠٣هوأعاد إليها الخطبة وفي عام ٩٠٦هحاول الاشراف جانبلاط هدم مدرسة السلطان حسن كلية إلا أنه لم يستطع أن ينقب إلا جزءا يسيرا منها خلف المحراب ومن ثم أوقف الهدم وحينما تولي السلطان العادل طومانباي الذي حكم مصر ٩٠٦هأمر بترميم ما فسد منها. وفي عام ١١٤٩هـ (١٧٦٥م) حدثت معركة في بيت محمد بك الدفتردار تسبب عنها قتل أحد عشر أميرا فأغلقت المدرسة وسد بابها الكبير وفتح بدلا منه شباك وظلت المدرسة متهدمة لمدة ٥١ عاما.

وفي عام ١٢٠٠هـ طلب سليم أغا مستحفظان من إبراهيم بك ومراد بك الإذن بإصلاح المدرسة وتخليه ما حولها من المباني المحدثة وإصلاح منارتها وتم له ذلك وبنى سلالم جديده وفتح الباب الرئيسي وهذه سلالم هي الموجودة الان

العاملون بالمدرسة وما يقومون به من أعمال وما يتقاضونه من رواتب طبقا للوثيقه

اورد لنا علي باشا مبارك في كتاب الخطط التوفيقيه بيانا هاما نقله عن حجت وقف السلطان الناصر حسن اوضح فيه نظام العمل بهذه المدرسه واقسامها والعاملون بها وتخصصاتهم مما يلقي ضوئا قويا على نظم الدراسه في العصور الوسطى وذلك عل النحو التالي من خلال وثيقة الوقف.

جعل لكل مثل من الأربعة مذاهب شيخا ومائة طالب من كل فرقة خمسة وعشرون طالباو وثلاث معيدون ورتب لكل شيخ ثلاثمائة درهم نقره في الشهر ولكل من المعيدين مائة درهم نقرة ولطلبة كل مذهب اربعة آلاف درهم ومائتين وخمسين درهما نقره تقريبا شهريا ويزداد واحد من كل فرقه مرتبه الشهري عشرون درهما برسم كونه نقيبا عليهم ويزداد الآخر عشرة دراهم برسم كونهي داعياللواقف عقب القراءة ورتب مدرسا لكتاب الله تعالي أي تفسيره

يصرف له فالشهر خمسمئة درهم ورتب معه ثلاثين طالبا يصرف لكل منهم عشرة دراهم نقرة وصرف لواحد منهم زياده عن معلومه عشرة دراهم برسم كاتب الغيبه ولاخر يصرف له عشرة دراهم ليكون داعيا ورتبه مدرسنا الحديث الشريف وثلاثون طالبا يحضرون كل يوم ويصرف للمقرء اربعون درهما كل شهر ولكل من الطلبه عشرة دراهم ولاحدهم عشرة دراهم ليكون نقيبا ولاخر عشره ليكون داعيا ورتب بالايوان القبلي من الجامع ميعادا ورتب له شيخا متصدرا عالما مفتيا مشهورا بالديانه ورتب معه مقرئا اهلا للقرائه على ان الشيخ والمقرء يحضران به اربعة ايام من كل اسبوع منها يوم الجمعه بعد صلاة الجمعه فيقرأ المقرئ ما تيسر من القران وما تيسر من الحديث النبوي الشريف والاذكار ويصرف للشيخ في كل شهر ثلاثمئة درهم نقره وللمقرئ اربعون درهما ورتب مادحا يمدح رسول الله صل الله عليه وسلم بالمسجد بعد الفراغ من القرائه ثم يدعو للسلطان حسن ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين وله فالشهر اربعون درهما

ورتب مقرئ حافظا لكتاب الله تعالي عالما بالقراءات السبع على أن يجلس يوميا بين صلاة الصبح والزوال بالإيوان القبلى وله في الشهر مائة وخمسون درهما ومقرئ حافظا لكتاب الله تعالى لتلقين القرآن العظيم بالإيوان القبلى و أيضا يلقن من يحضر عنده لتلقين القرآن وله في الشهر مائة وخمسون درهما، ورتب أمامة بالإيوان الكبير وله في الشهر مائة درهم و أربعة أئمة حافظين لكتاب الله تعالي بالمدارس الأربعة الفرعيه التي بالمسجد لكل منهم في الشهر ستون درهما نقرة وفي شهر رمضان يزاد لكل منهم أربعون درهما، ورتب مؤقتين عالمين بالمواقيت واثنينوثلاثين رجلا مؤذنين أصحاب أصوات حسنة مرتفعة ولكل ميقاتي خمسون درهما شهريا ولكل منهم في رمضان زيادة ستة عشر درهما وللمؤذنين في كل شهر ألف درهم لكل واحد منهم في رمضان عشرة دراهم ورتب ستين من القراء يتناوبون القراءة بالقبة ليلا ونهارا ولكل واحد من الذين يقرائون نهارا في كل شهر خمسة وثلاثون درهم، ومن الذين يقرءون ليلا خمسة وأربعون درهما وجعل عليهم لضبط غيبتهم نقيبا بالليل ونقيبا بالنهار لكل منهما في الشهر أربعون درهما، ورتب اثنين يقرآن القرآن بالمصحف في الإيوان القبلي ولكل منهما في الشهر خمسون درهما ورجلا يحمل المصحف الشريف من مكانه ويضعه على الكرسي للقراءة في كل يوم بعد صلاة الصبح وقبل صلاة الجمعة ويعيده إلى موضعه بعد فراغ القراءة وله في الشهر ثلاثون درهما وخازنا لكتب الوقف ويصرف له في كل شهر مائة درهم نقرة وعشرة لخدمة القبة وحفظها من أهل الفساد ولهم كل شهر ألف وخمسمائة درهم نقرة ورجلين لخدمة المزملة وحفظ أو انيها وتنظيفها وملء الكيزان وسقي من يرد إليهما ولهما في كل شهر مايتا درهم نقرة، وعشرين فراشا كل عشرة في يوم، اثنين للقبة وثلاثة للجامع ولكل مدرسة من الأربعة واحد والعاشر رئيس عليهم وجعل للرئيس في كل شهر خمسين درهما ولكل منهم أربعين ورتب ستة بوابين للحفظ وغلق الأبواب وفتحها وجعل لهم كل شهر مائتين وأربعين درهما نقرة وجعل فيه مكتبين بمؤدبين و عريفين ومائة يتيم يتعلمون القرآن والخط ولكل مؤدب ستون درهما شهريا ولكل عريف أربعون درهما وللأيتام في نفقتهم وكسوتهم ثلاثة آلاف درهم نقرة وإذا أتم اليتيم القرآن حفظا يعطي خمسين درهما نقرة ويعطي مؤدبه خمسين درهما أيضا ويشتري ما يلزمللأطفال من الحصري والألواح والمحابر والاقلام مع نقل ما يلزم من الماء لشربهم وغسل ألواحهم وشرط أن من بلغ من الايتام يستبدل بغيره ورتب حكيمين مسلمين أحدهما خبير بمعالجة الأبدان والآخر عرف بصناعة الكحل يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوي من يحتاج من ارباب الوظائف والطلبة وغيرهم ويصرف لهما في كل شهر مائة وعشرون درهم نقرة ورتب معهما جراحا له في الشهر أربعون درهما ويصرف

لناظر الوقف في كل شهر ألف درهم نقرة ولمن يتولى استيفاء حساب الأوقاف في الشهر اربعمائة درهم ولشاهدين يضبطان مايحضر من ريع الوقف ثلاثمائة درهم في الشهر ورتب عاملا برسم كتابة الحساب له كل شهر مائة وخمسون درهما نقرة ورتب شادا لتحصيل مصالحه و استخراج ما يحتاج استخراجهوله في الشهر مائتا درهم، ولأمين يتولى حفظ مصالح الوقف وتفرقته في كل شهر مئة درهم ورتب صيرفيا وجعل له في كل شهر مائة درهم بشرط أن يكون مسلما ديننا، ورتب سطوحيا لحفظ الاسطح وله في الشهر أربعمائة درهما، ورتب ثمانية لكنس المراحيض و الطرق والرحاب و الرش أمام الجامع وشخصين لكنس محل الطهارة وتنظيفه بنحو الغسيل ولكل واحد شهريا اربعون درهما ويصرف برسم سقاية المزملة والسبيل والمكتب ما يحتاج إليه أرباب الوظائف وبرسم نقل الماء العذب وغيره وما يحتاج إليه بحسب اللزوم، ويشتري اربعموكبيات من الشمع الأبيض المشغول على القطن المفتول كل موكبه عشرة أرطال مصرية اثنان لمحراب القبه اثنان لمحراب الإيمان الكبير القبلي توقد وقت صلاة العشاء والصبح وعند صلاة التراويح في رمضان وما يفضل يباع ويرد ثمنه للوقف ويصرف ما يحتاج إليه الجامع من لوازم الساقية وفرش المسجد بالحصر والبسط والقناديل والسلاسل والأسطح والمكانس والسفنج وزيت الوقود ونحوه ولوازم ليلة النصف من شعبان وختم رمضان وفي كل ليلة جمعة، ويصرف خمس قناطير بالمصري من اللحم الضأني وثمن عشرين قنطارا من الخبز والقرصة غير الأرز والعسل والحبوب و الرمان والادهان والحطب وأجرة من يتولى طبخ ذلكوغرفة ويعد الطبخ ويصرف نصف ذلك لأرباب الوظائف بجهات المسجد ونصفه ويفرق على الفقراء والمساكين.

وفي أول كل سنة يشتري ما يكفي من زيت الزيتون أو ما يقوم مقامه ويجعل في مخزنه تحت يد الأمين المرتب لذلك ويصرف أيضا كل سنة ثلاثة وعشرين قنطارا بالمصري وأربعة وستون رطلا سكرا ابيض نقيا يفرق في رمضان على أرباب الوظائف بالمسجد بحسب الموضح في الوقفية من التفاوت بينهم، وفي كل سنة في يوم عاشوراء يصرف برسم الصدقة و اربعين قنطارا من خبز البر وعشرة قناطر من لحم الضأن وأردبين من الحبوب التي تعمل في عاشوراء و عشرين رطلا من الشيرج والحطب وأجرة الطبخ وتفرقته ثم يفرق نصفه على ارباب الوظائف وطلبة العلم ونصفه على الفقراء والمساكين ويصرف كل سنة ما قيمته ألف قميص وألف طاقية و ألف مداس تفرق على الطلبة وأرباب الوظائف والفقراء وفي كل يوم من رمضان يصرف ثمن عشرة قناطير من لحم الضأن وأربعين قنطارا من خبز القرصة غير ثمن الارز وحب الرمان والعسل والحبوب وأجرة الطبخ ويقسم ذلك إلى قسمين أيضا، وفي عيد الاضحى يصرف قيمة رأسين من الأبل و عشرين رأسا من البقر وعشرة رؤوس من الضأن تذبح وتقسم نصفين على ما مر، إذا فضل من ريع الوقف شيء بعد المصاريف المعينة يبقيتحت يد الناظر في خزانة المال (كان يوجد المسجد أو المدرسة قبة لحفظ مال الوقف ثم تم نقلها إلي مسجد الطنبغا المارداني بالتبانة بالقاهرة) في المسجد إلى أن يجتمع مائة ألف درهم نقر ترصد ذخيرة على الدوام لمصالح الوقف، فإذا زاد الربح عن ذلك يشتري بالزائد ارض وضياع بالديار المصرية والشامية وتوقف على أنه إذا كان الوقف مستوفيا لجميع لوازمه غير محتاج لذلك الوقف الجديد من الأراضي والضياع فإن إيرادها يصرف في مصالح الوقف القديم فإذا استغني عنه صرف في وجوه البر من خلاص المسجونين ووفاء دين المدينين وفك أسري المأسورين وإعانة في تأدية فرض الحج وتجهيز فقراء أموات المسلمين ومداواة المرضي و إطعام الطعام وتسبيل الماء العذب والصدقة على الفقراء والمساكين وأرباب العاهات وذوي الحاجات من أرباب البيوت وأبناء

السبيل على ما يراه الناظر من صرفه نقدا أو كسوة أو طعاما أو غير ذلك(نص الوثيقة حسبما أوردها على مبارك في كتابة الخطط التوفيقية)

جزء ٤، ص ٨٤

– ٨٦، طبعة بولاق.

الفصل السابع:–جامع الناصر محمد بالقلعة

يقع في القسم الجنوبي الغربي من القلعة أمام مسجد محمد على، شيده السلطان الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنته الثالثة في سنه ٧١٨ هـ /١٣١٨م وأعاد بناء بعض أجزائه وتجديده في سنه ٧٣٠هر ١٣٣٠م فوق أطلال جامع قديم من تشييد السلطان الملك الكامل في العصر الأيوبي، اذ يروى المقريزى تحت عنوان الجامع بالقلعة ما نصه: "هذا الجامع أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ثمان عشرة وسبعمائة (١٣١٨م) وكان قبل ذلك هناك جامع دون هذا، فهدمة السلطان وهدم المطبخ والحوائجخانه، والفراشخانه وعمله جامعا ثم أخربه في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠م) وبناه هذا البناء فلما تم بناؤه جلس فيه وإستدعي مؤذني القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء، وعرضوا بين يديه، وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم فإختار منهم عشرون مؤذنا رتبهم، فيه وقرر فيه درس فقه، وقارئا يقرأ في المصحف، وجعل عليه أوقافا تكفيه وتفيض ، وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام إلى هذا الجامع ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ويجئ باقيهم من باب الجامع. فيصلي السلطان عن يمين المحراب في مقصورة خاصة به ويجلس عنده أكبر خاصته، ويصلي معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة عن يمنتها ويسرتها على مراتبهم فاذا إنقضت الصلاة دخل المقصورة ودور حرمه وتفرق كل أحد إلى مكانه" وأضاف أيضا أن "هذا الجامع متسع الأرجاء مرتفع البناء مفروش الأرض بالرخام مبطن السقوف بالذهب وبصدره قبة عالية يليها مقصورة مستورة هي والرواقات بشبابيك الحديد المحكمة الصنعة ويحف صحنه رواقات من جهاته".

ونجد نفس المعنى أيضا في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي الذي أشار أنه من أعظم الجوامع واحسنها وأبهجها نظرا وأكثرهم زخرفه، متسع الأرجاء مرتفع البناء مفروش الأرض بالرخام القائق، مبطن السقوف بالذهب، في وسطه قبه يليها مقصورة يصلى فيها السلطان الجمعة مستورة هي والرواقات المشتملة عليها بشبابيك من حديد محكمة الصنع، يحف بصحنه رواقات من جميع جهاته، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة ودور الحريم السلطانية".

ويحدثنا المؤرخ ابن أيبك الدوادار بدوره عن تجديد السلطان الناصر محمد لهذا الجامع انه في حوادث سنه ٧٣٠هـ /١٣٣٠ فيقول انه في هذه السنة "برزت المراسيم الشريفة

للسلطان عز نصره بالقلعة المحروسة وأن يجدد بناءه فهدم جميع ما كانمن داخله من الرواقات والقصور واعلى الرواقات إعلاء شاهقا ، وكذلك القبه اعلاه حتا عادت في ارتفاعه واحضر لهذا الجامع اعمده عظيمة كانت منسية بمدينة الأشمون من عهد الكهنة وان نقل هذه الاعمده من الاشياء التي حارت فيها العقول نقلها مولانا السلطان بأسهل ما يكون وذلك بان ندبا لهذا الامر الامير سيف الدين اروس بوغا الناصري مشدا بحمل هذه الأعمدة وسير في خدمته المهندسين والعتالين والحجارين وكتب للولاه بالوجه القبلى وهم والى أسيوط ومنفلوط ووالي الاشمونين ووالي البهناسويه بجمع الرجال من الاقاليم وقرر على كل وال عدة من هذه الاعمدة وجرها الى ساحل البحر الاعظم وندب لها المراكب الخشنه وحملت في اوائل جريان النيل المبارك ولما حضر الى ساحل مصر انتدب لجرها الولاه بمصر والقاهره الذين جمعو الافا من الناس ولكن لهم همة عظيمه حتى وصلت واقيمت في هذا الجامع السعيد واضاف ايضا عن وصفه لقبة الجامع (وعندما اعاد السلطان بناء القبه جعلها عاليه شاهقه بعد ان احضر الاعمده الجرانتيه الكبار من الاشمونين وجدد المقصوره التي على يمين المحراب الذي جدد بنائه ايضا)

وفي ايام السلطان الأشرف قايتباي تم تجديد جامع الناصر مرتين إذ يروي المؤرخ ابن اياس ان في صفر سنه ٨٧٦هـ يوليو ١٤٧١م رسم السلطان لابن الطولوني بان يجدد عمارة الميضا التي بجامع القلعة فوسعها، وترميم عمارة الجامع فأصرف على ذلك الف دينار"، كما ذكر ايضا انه "في رجب سنة ٨٩٣هـ ايونيو ١٤٨٨م كان انتهاء عمل القبة التي جددها السلطان بجامع القلعة عوضا عن التي سقطت فجددها وجدد المنبر وصارت من أحسن البانى "

ومع ذلك فقد ساءت حالة الجامع في العصر العثماني وهدمت قبته وفقد منبره وازداد تدهوره زمن الاحتلال البريطاني فقد استخدم كمخازن للجيش وسجنا للمتمردين في سنه ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م واقيمت حواجز خشبية بين الأعمدة وشيدت بداخله بعض الجدران حقيقة أنه تم ازالتها فيما بعد على يد احد مهندسى جيش الانجليزالا ان العنايه الحقيقيه بالجامع لم تبدا الا في سنة ١٣٣٦م/١٩٤٧هعندما قامت لجنه حفظ الآثار العربية بإعادة ما تهدم من جدار القبلة وكسته بوزارات رخامية، كما جددت أيضا المحراب الصغير على يسار المحراب الرئيسي الذي قامت بكسوته بوزارات رخامية، وفرشت كذلك أرضية الجامع بالحجر الجيري بدل من الرخام الذي كان يغطى الجامع بأكمله وقت تشييده، وقامت أيضا بترميم المدخل الشمالي للجامع واعادت اللوحة التأسيسية التي تحمل تاريخ البناء الأول في سنه ٧١٨هـ /١٣١٨م إلى أعلى المدخل الغربي وقامت كذلك بإعادة بناء القبة أمام المحراب وعملت منبرا خشبيا على طراز منبر جامع الطنبغا الماردانى، وجددت الستائر الجصية لنوافذ الجامع، كما جددت القماقم الحجرية التي تعلو اركان الصحن وإستبدلت الأعمدة التالفة بأعمدة اخرى وكست بعض أجزاء الجدران بالرخام من الداخل .

ويشغل الجامع مساحة مستطيلة يبلغ طولها ثلاثة وستون مترا وعرضها سبعة وخمسون مترا يحيط بها أربع واجهات حجرية يسودها البساطة وتخلو من الزخارف، الغربية منها تمثل الواجهة الرئيسية وهي تزدان بثمان عشرة نافذة مستطيلة معقودة، تسع في كل جانب يعلوها شرافات نصف دائرية تذكرنا بشرافات أسوار القاهرة الفاطمية، يتوسطها مدخل الجامع

الرئيسيوهوعلىمحورالمحرابويبرزعنسمتالواجههبحوالىمترونصفالمتر ،ويقعداخلتجويفيتوجهعقددائريذوثلاثةفصوصبصدرهسقيفةمنالمقرنصاتالحجرية،ويحفبهمنأسفلمكسلتانمنالحجر ،ويتوسطالتجويفبابمعقودبعقدمدبب، ويعلوه لوحة حجرية تضم نصا تذكاريا بخط النسخ المملوكى يشتمل على أربعة أسطر نصها: " بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذا الجامع المبارك السعيد لوجه الله تعالى سيدنا مولانا السلطان الملك الناصر الدنيا والدين محمدبن مولانا السلطان / الشهيد قلاوون الصالحي في شهور سنة ثمانية عشر وسبعمائة من الهجرة النبوية (١٣١٨م)"، ويعلو الجانب الأيسر من هذا المدخل احدى مئذنتي الجامع، وهي تتألف من ثلاثة طوابق حجرية تتمثل في قاعدة مربعة يتوجها أربعة مثلثات يعلوها طابق أسطواني يزينه زخارف بارزة من خطوط متعرجة رأسية، ينتهي من أعلى بصفوف مقرنصة، تحمل شرفة تلتف حول الطابق الثاني وهو بدن أسطواني أيضا مزين بدوره بزخارف متعرجة بارزة ولكنها نقشت في صفوف أفقية متوازية، يليها إلى أعلى مقرنصات تحمل شرفه ثانية أصغر حجما تدور حول الطابق الثالث وهو على شكل رقبة مضلعة يغطيها قبة مضلمة بصيلة الشكل كسيت بالقاشاني الأخضر وبشريط من كتابات نسخية قرآنية من آية الكرسي نقشت باللون الأبيض على أرضية زرقاء.

وتتسم الواجهة الشمالية أيضا بطابع البساطة، وتخلوا تماما من الزخارف باستثناء تسع عشر نافذه مستطيله معقودة، تسع على كل جانب فتحت في أعلاها، أسفل صف من الشراريف نصف الدائريه. وكتلة المدخل التي تتوسط هذه الواجهة الحجرية التي تبرز عن سمتها بحوالمتر ونصف المتر تقريبا يتوجها من أعلى صف من الشرافات المسننة ويتوسطها تجويف يعلوه عقد مدائنى مدبب ثلاثي الفصوص، فتح به باب معقود ايضا بعقد مدبب يعلوه لوحه تاسيسيه تضمكتاباتنسخيةلميتبقمنهاسوىسطرانفقطنصهما: " أمربإنشاءهذا الجامع المبارك السعيدسيدناومولاناالسلطانالأعظم ....

ويشغل الركن الشمالي الشرقي من هذه الواجهة برج يبرز عن سمتها استخدم كقاعدة لمئذنة الجامع الثانية، وهي تبدو أكثر ارتفاعا عن المئذنة الغربية وتشتمل بدورها على ثلاثة طوابق تتمثل في قاعدة مربعة يتوجها شرفه مربعة التخطيط ترتكز على ثلاثة صفوف من المقرنصات وتلتف حول الطابق الثاني الذي يشكل بدنا أسطوانيا غفل من الزخرفة ينتهي بدوره بشرفة مستديرة تقوم فوق صفين من المقرنصات وتلتف حول الطابق الثالث الذي يتالف من ثمانية دعامات معقودة ومفتوحة يعلوها رقبة بها قنوات طويلة مفتوحة يغطيها قبة بصلية مضلعة كسيت بدورها ببلاطات من القاشاني الأخضر وبشريط من الكتابات القرآنية نقشت بخط النسخ الملوكى بلون أبيض على أرضية زرقاء .

وتذكرنا زخارف قمة هاتين المئذنتين بزخارف قبة سبيل الناصر محمد الملحق بمدرسة أبيه المنصور قلاوون السابق الاشارة إليها كما تعكس لنا أحد الأساليب الزخرفية التي شاعت في مدينة تبريز بايران، ليس فقط من حيث إستخدام القاشاني في تنشية قمة تلك المنشات بل ايضا في الشكل البصلى لقمة هاتين المئذنتين وهذا يذكرنا بدوره براوية المقريزي بصدد قيام أحد البنائين الفرس من مدينة تبريز ببناء مئذنتى جامع الأمير قوصون فى سنه ٧٣٠هـ /١٣٣٠م اذ يقول"وكان قد حضر من بلاد توريز بناء فبنى مئذنتي هذا الجامع على مثال المئذنة التي عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبي سعيد في جامعه بمدينه توريز". الأمر الذي يجعلنا نرجح قيام نفس البناء ببناء مئذنتى جامع الناصر محمد أيضا

وتشتمل الواجهة الشمالية أيضا على دعامة ساندة لتقوية الجدران في طرفها الغربى لعلها أضيفت اثناء تجديدات عام٧٣٥هـ/١٣٣٥م لأن الأحجار المستخدمة في تشييدها لا تختلف عن أحجار الواجهة بل تتفق معها.

ولا تختلف الواجهة الجنوبية كثيرا عن الواجهتين الشمالية والغربية فهي مشيده ايضا من الحجر وتزدان في أعلاها بعشرين نافذة مستطيلة معقودة وان شذت عنهما بوجود أكثر من دعامه سانده حيث نجد ثلاث دعامات في الطرف الشرقي منها، ودعامة واحدة في الطرف الغربيوجدير بالذكر أن هذه الدعامه الخارجيه ليست لها علاقه بالعقود الداخليه بالجامع التي ترتكز على هذه الواجهات، وهي بالتالي لا تعبر بصدق عن الوضع الانشائي للبناء ويشير المقريزي بانه كان يوجد بهذه الواجهه مدخل ثالث للجامع يعرف بباب النحاسكان يجتازه السلطان وهو قادم من الدور السلطانيه وعند عودته، لا وجود له في الوقت الحالي .

وتخطيط الجامع من الداخل يتبع نظام المساجد ذات الأروقة إذ يتألف من صحن أوسط مستطيل يبلغ طوله ٣٥.٥ مترا وعرضه ٢٣،٥ مترا تؤكد المصادر خلوه من الفوارة"، يحيط به أربعة اروقه اكبرها رواق القبله الشرقي الذي يشتمل على أربع بلاطات موازية لجدار القبلة يفصلها أربع بائكات تشتمل كل منها على عشرة أعمدة من الرخام أو الجرانيت، تحمل فوقها أحد عشر عقدا مدببا باستثناء البائكتين الأولى والثانية التي حذف من كل منهما عمودين لإيجاد مساحة مربعة امام المحراب يغطيها قبة ضخمة تتألف من مربع حجري يرتكز على مجموعة من العقود، ثلاثة على كل جانبترتفع فوق عشرة أعمدة من الجرانيت، ويشغله إزار من الخشب المنقوش بكتابات نسخيه مذهبة، كانت تشتمل على تاريخ إعادة بناء الجامع في عهد الناصر محمد فى سنه ٧٣٥هـ/١٣٥٠ م، يقطعها مناطق مستديرة لعلها كانت تشتمل على الرنك الكتابي للسلطان نفسه نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا إركعوا وإسجدوا واعبدو ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون "

بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين صدق الله العظيم مما أمر بإنشائه مولانا السلطان الملك الناصر ابن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون تغمده الله برحمته وذلك في سنة خمس وثلثين وسبعمائة)" أما مناطق الانتقال فيشغلها مثلثات خشبية لكل منها خمسة صفوف من المقرنصات الملونهيفصلها في كل جانب ثلاث نوافذ متجاورة يعلوها عقود نصف دائرية ويغشيها ستائر جصية مشغولة بزخارف هندسية مفرغة، ويغطى الجميع قبة غفل من الزخرفة، كانت وقت إنشائها مكسية من الخارج ببلاطات من القاشاني الأخضر لذا عرفت عند مؤرخي العصر الملوكى بالقبة الخضراء، جددت عدة مرات آخرها في سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م على يد المجلس الأعلى للآثار، الذي اضاف إليها بلاطات غريبة الشكل لا تمت بصلة إلى الطراز الأصلي .

ويتصدر جدار القبلة محراب كبير مجوف مجدد حديثا يكتنفه محرابان صغيران، كسيت بزخارف هندسية من فيضاء رخامية دقيقة، خردة، مطعمة بالصدف كما كانت جميع

جدران القبلة مكسية بالرخام اللون إلى ارتفاع ما يقرب من خمسة أمتار ونصف المتر، وعلى يمينالمحراب الرئيسي يوجد منبر خشبي حديث من صنع لجنه حفظ الآثار العربيه١٣٦٩هـ/١٩٤٩ميتشابه إلى حد كبير مع منبر جامع الطنبغا الماردانى الذي شيده في عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م اذ تشتمل ريشتاه على حشوات هندسية مجمعة

طعمت بالعاج والصدف، تشكل عناصر متنوعة، أما باقي أروقة الجامع الشمالية والجنوبية والغربية، فيحتوى كل منها على بائكتين نجدها عاموديه على جدار القبلة بالنسبة للرواقين الشمال والجنوبي وبكل منها أربعة أعمدة يعلوها خمسة عقود مدببة، أما بالنسبة للرواق الغربي فبهي بلاطتين موازيتيني لجدار القبله بكل منهما عشرة أعمدة يعلوها أحد عشر عقدا مدببا . وجميع عقود الجامع مشيده بحجاره بيضاء وحمراء على التوالى أى مشهر، ويعلوها صفوف من فتحات معقودة كما هو الحال في الأموي بدمشق وذلك لزيادة الإضاءة والتهوية داخل الأروقة ولتخفيف الضغط الطارد على العقود والأعمدة .

وجميع أروقة الجامع مغطاة بأسقف خشبية يشغلها قصع أو أحقاق مثمنة الأضلاعتشبه نظائرها في قبة المنصورة قلاوون وكانت بدورها مطلية بالذهب والألوان، بيد أن اغلبها من تجديد الجنه حفظ الآثار العربية .

بقي أن نشير إلى أن جميع واجهات الأروقة المطلة على الصحن يعلوها شرافات مسننه ويحتل أركانها الأربعة قماقم حجرية مضلعة تنتهي بقواعد مقرنصة، كما نقش فوق أحد أعمدة الرواق الغربي المطلة على الصحن مزولة شمسية وهي من عمل أحمد بن بكتمر الساقي وهي تعد من أقدم الأمثلة القائمة بمساجد مصر الإسلامية بعد مزولة جامع احمد بن طولون التي أضيفت إليه أثناء تجديدات السلطان لاجين في سنه ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ولا نعلم من أمرها شيئا في الوقت الحالي .

الاشكال والمساقط واللوحات

اولا :- خصائص العماره الجركسيه

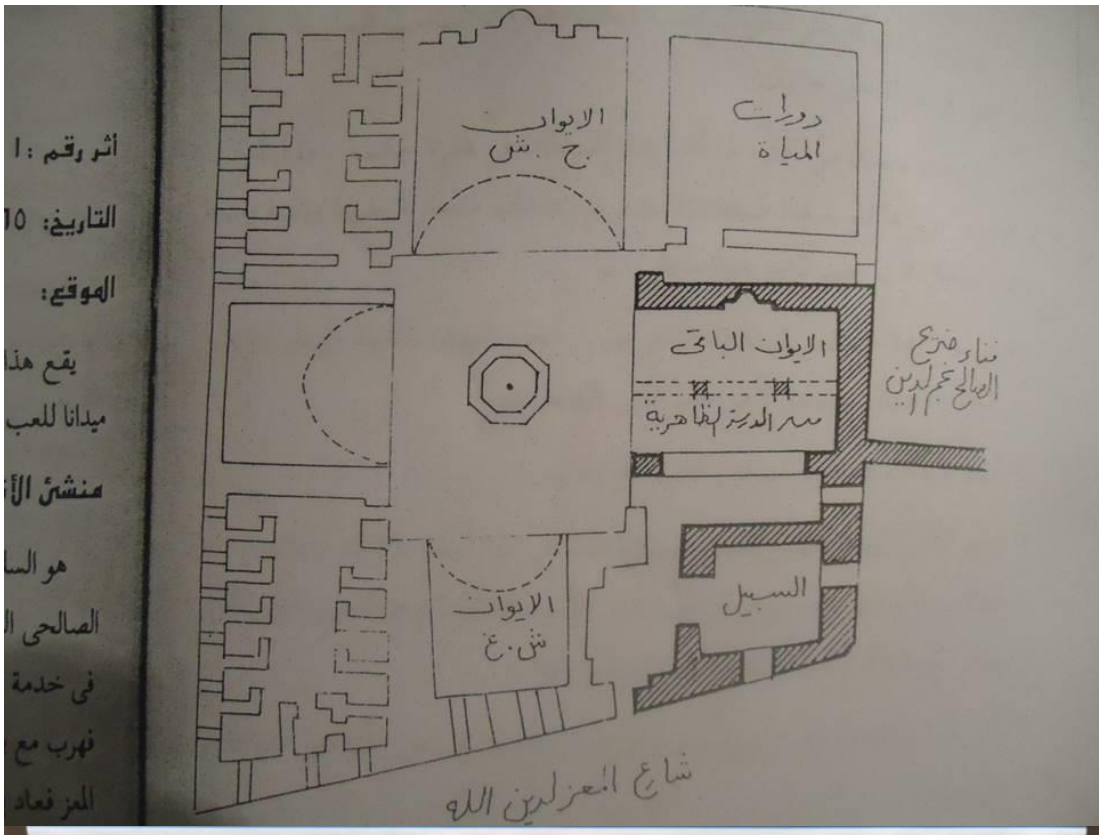
أثر رقم : ١
التاريخ: ١٥
الموقع:
يقع هذا
ميدانا للعب
منشئ الأ
هو السا
الصالحى ال
فى خدمة
فهرب مع
المعز فعاد
الايوان
ح. ش
دورات
المياة
الايوان البانى
سبيل الدرة الظاهرية
مناره ضريح
الصالح نجم الدين
السبيل
الايوان
ش. ع
شارع المعزلدين الله

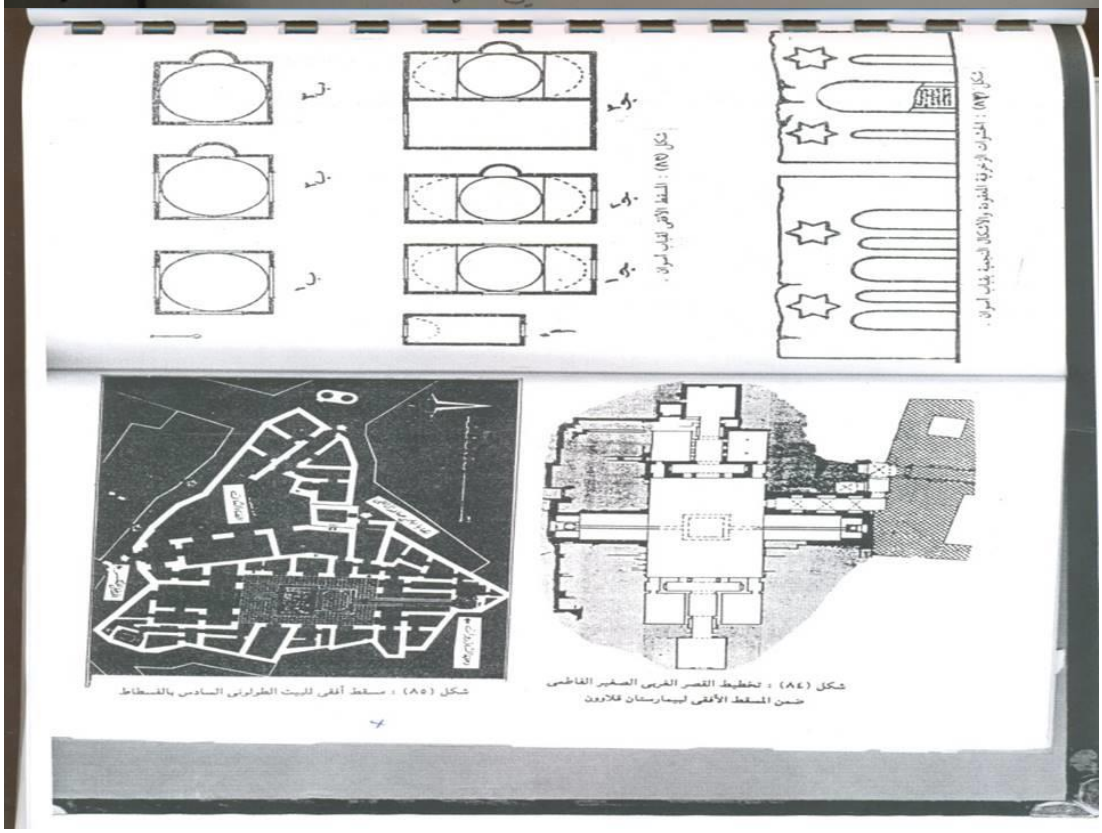
شكل (٨٤) : المقرنصات الإسفنجية المقببة والأشكال الهندسية بقباب أسوان.
شكل (٨٥) : المسقط الأفقى لقباب أسوان.
شكل (٨٥) : مسقط أفقى للبيت الطولونى السادس بالفسطاط
شكل (٨٤) : تخطيط القصر الغربى الصغير الفاطمى ضمن المسقط الأفقى لبيمارستان قلاوون

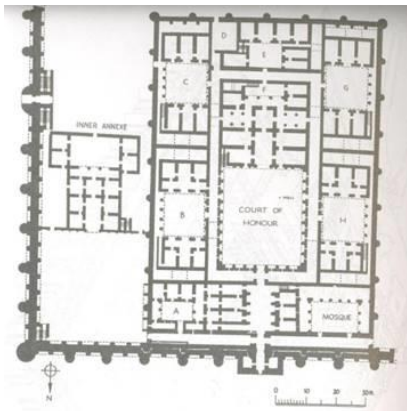

(شكل ٥١) مسقط أفقي لقصر الأخيضر (عن ، كريزول) .

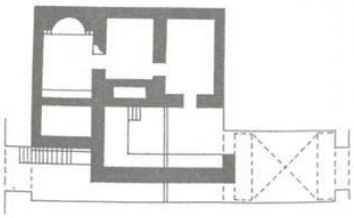

(شكل ٥١ مكرر) قصر الأخيضر ، مسقط أفقي للحمام . (عن ، كريزول) .

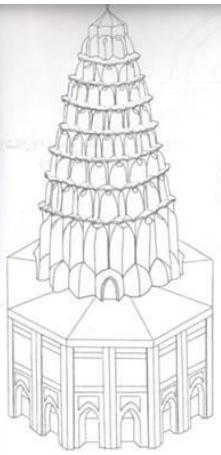

(شكل ٤٩) قبة زمرد خاتون المعروفة بضريح الست زبيدة بوسط مقبرة الشيخ معروف الكرخي في الجانب الغربي من بغداد . (عن ، هيلنبراند).

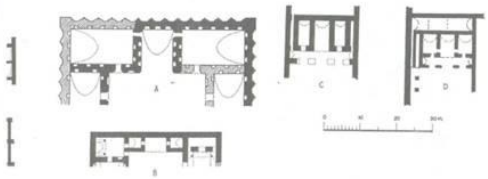

(شكل ٥٠) أنماط البيوت الفارسية ، A فيروز آباد، B سرفستان، C قصر شيرين، D قصر الأخيضر (عن كريزول) .

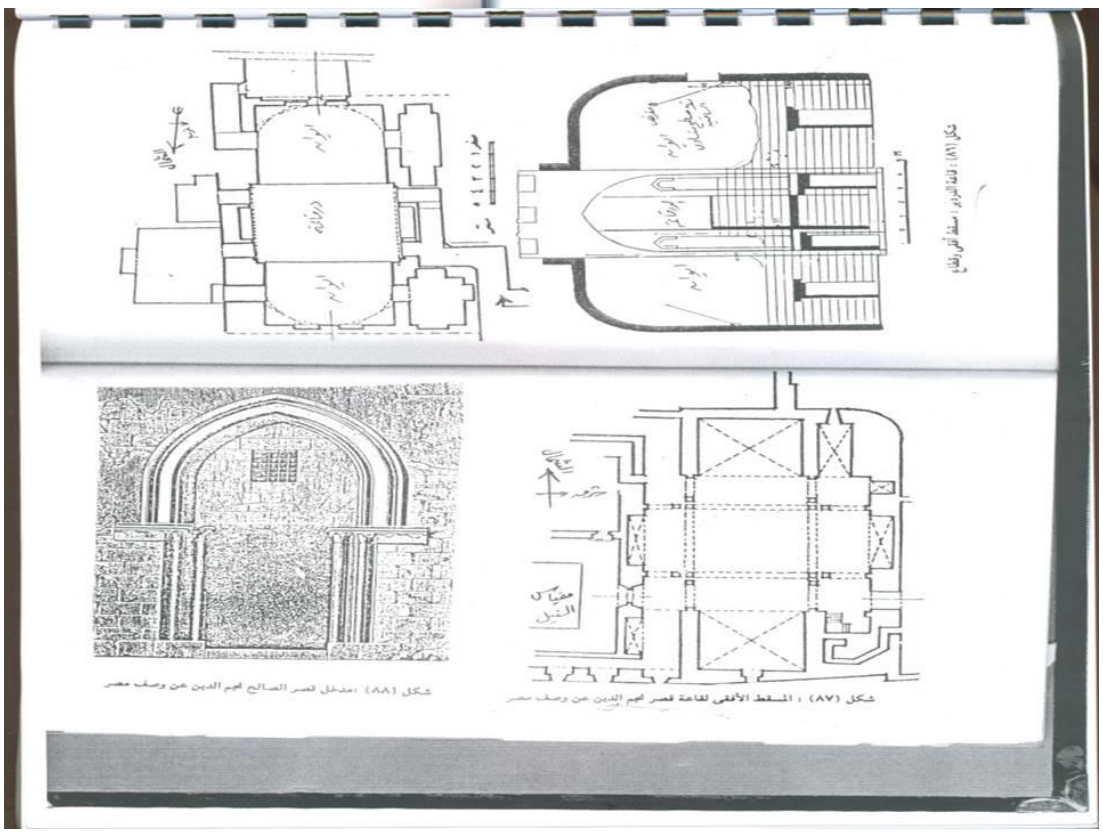

شكل (٨١) ، قلعة الجبل ، مسقط أفقي (قطاع)

شكل (٨٨) ، مدخل قصر الصالح نجم الدين عن وصف مصر

شكل (٨٧) ، المسقط الأفقي لقاعة قصر نجم الدين عن وصف مصر

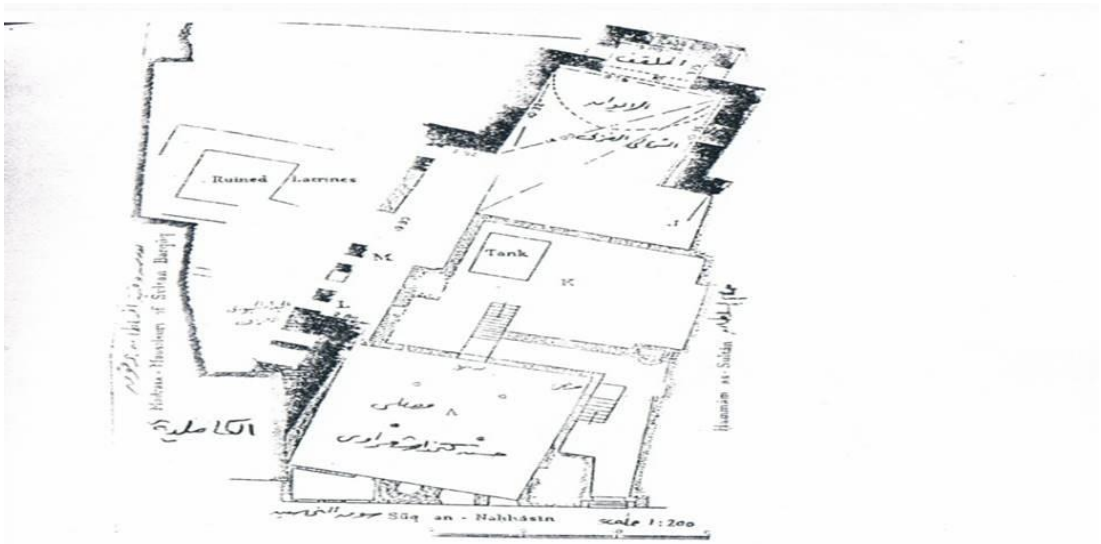

شكل (٥٣) : محاولة كريزويل لرسم تخطيط المدرسة الكاملية .

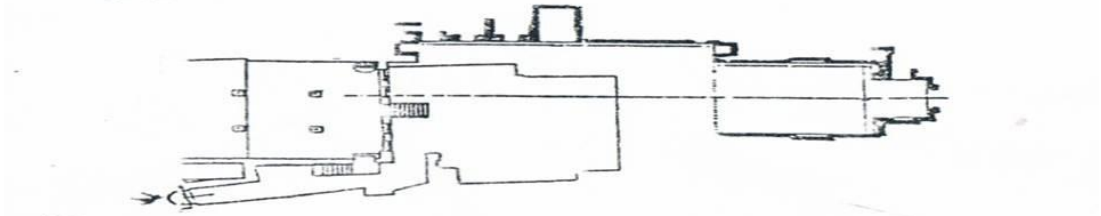

شكل (٥٤) : رسم تخطيط لأطلال المدرسة الكاملية

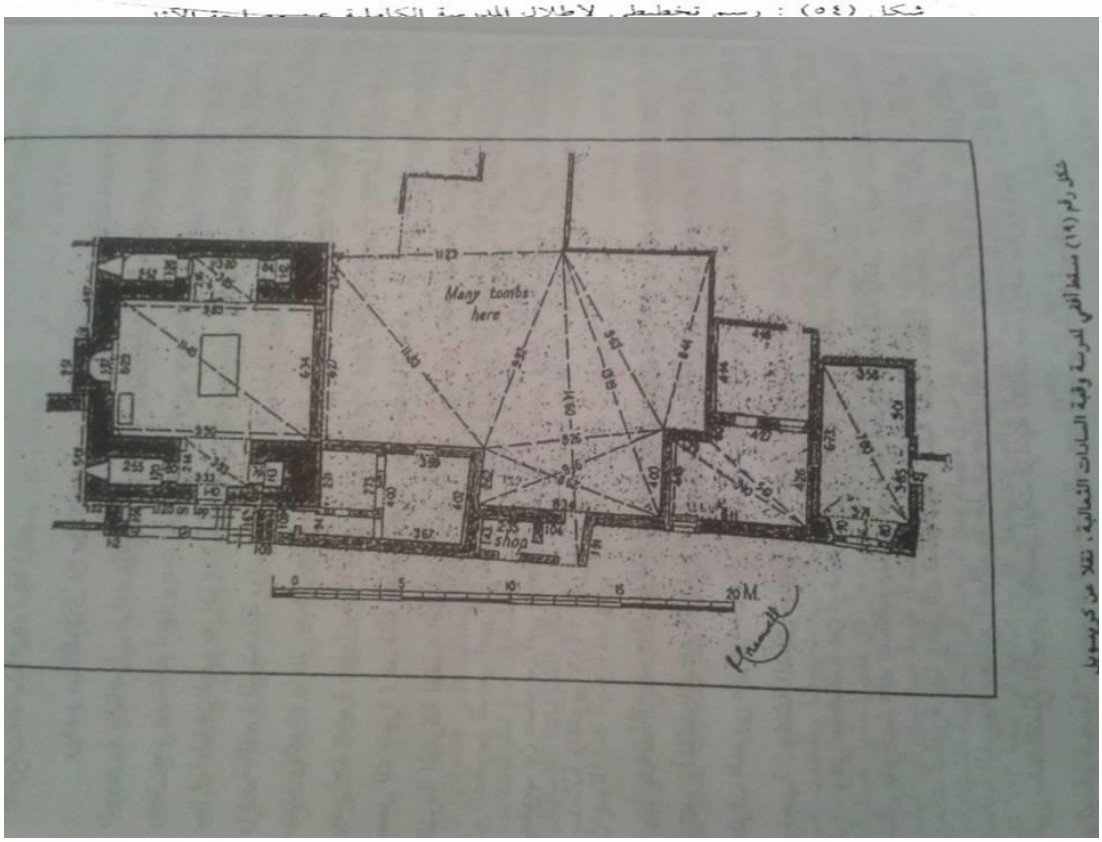

شكل رقم (١٩) مسقط أفقي لمدرسة وقبة السلمانية الشمالية ، نقلاً عن كريسويل

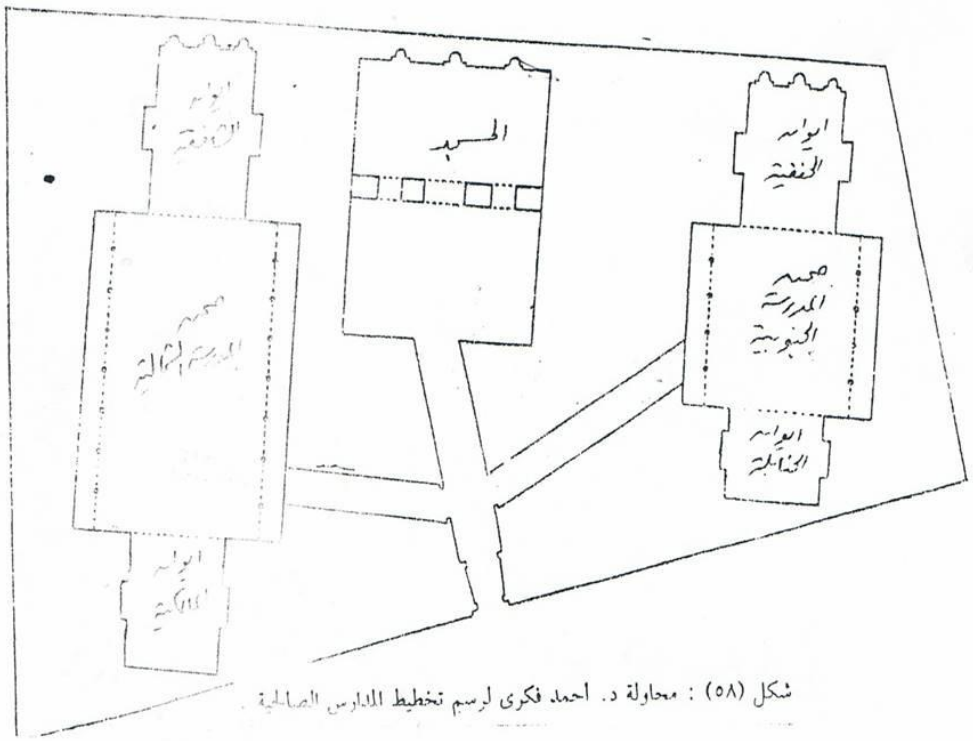

شكل (٥٨) : محاولة د. احمد فكرى لرسم تخطيط المدارس الصالحية .

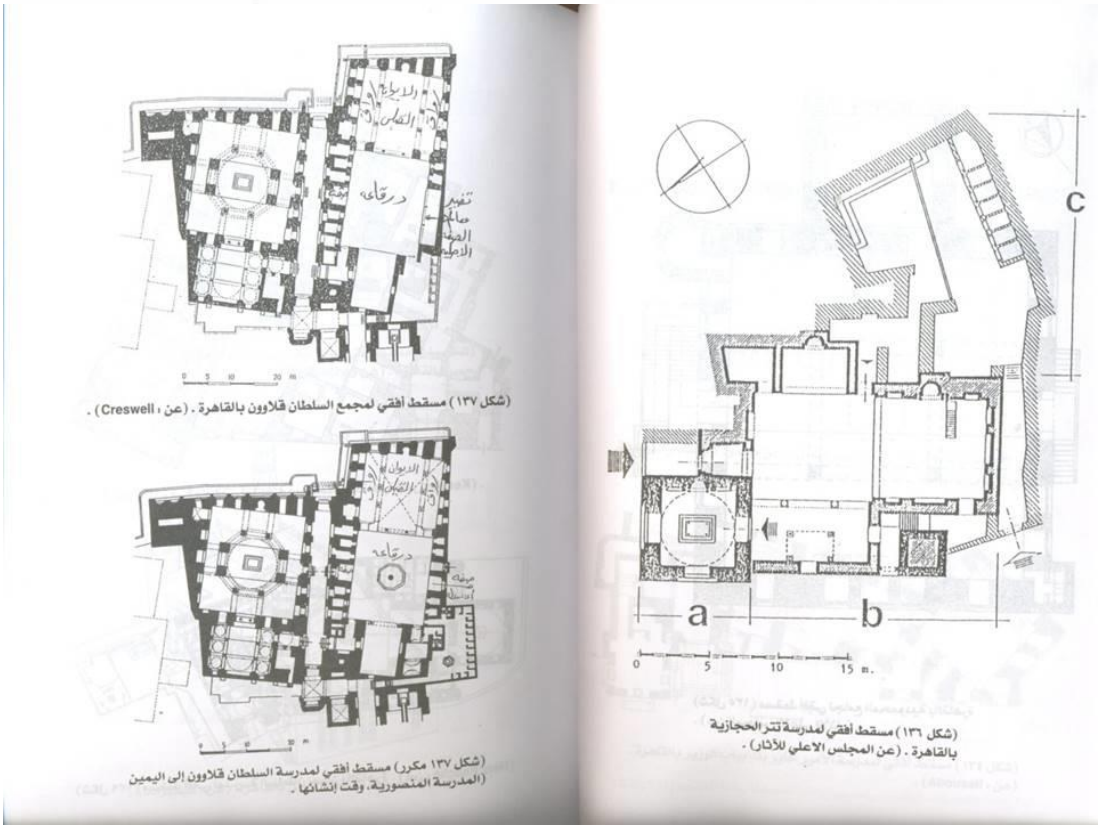

(شكل ١٣٦) مسقط أفقي لمدرسة تتر الحجازية بالقاهرة . (عن المجلس الاعلي للآثار) .

(شكل ١٣٧) مسقط أفقي لمجمع السلطان قلاوون بالقاهرة . (عن ، Creswell) .

(شكل ١٣٧ مكرر) مسقط أفقي لمدرسة السلطان قلاوون إلى اليمين (المدرسة المنصورية، وقت إنشائها .

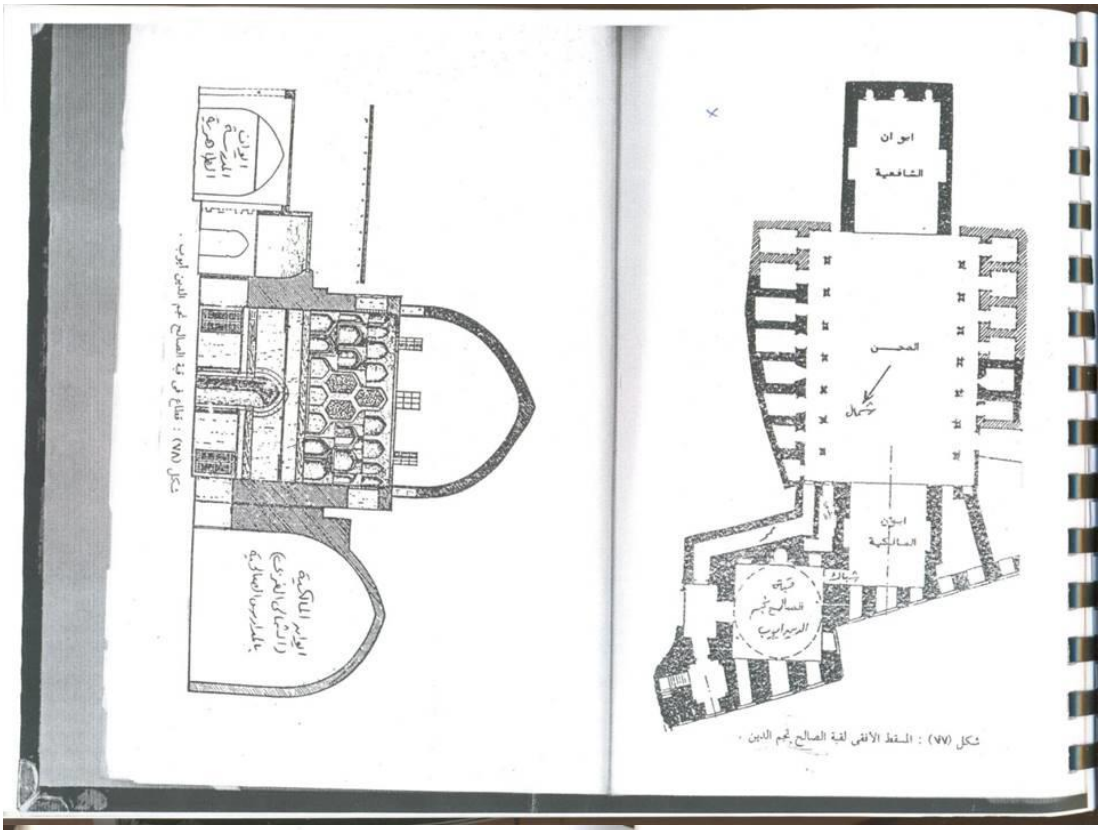

شكل (٧٧) : المسقط الأفقي لقبة الصالح نجم الدين .

شكل (٧٨) : قطاع في قبة الصالح نجم الدين أيوب .

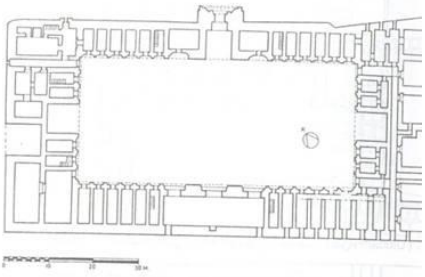

كل ٤٤ مكرر) المدرسة المستنصرية ببغداد ، مسقط أفقي للطابق الأول .

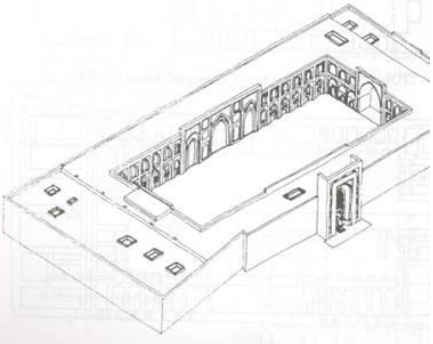

(شكل ٤٥) المدرسة المستنصرية ببغداد، (عن ، هيلنبراند) .

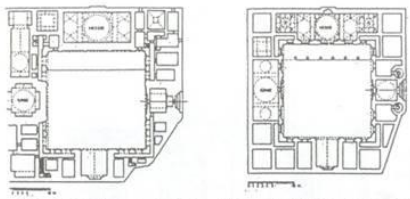

(شكل ٤٥ مكرر) مسقط أفقي للمدرسة المرجانية ببغداد - الطابق الارضي (الأيمن) والطابق الاول (الايسر) (عن ، Ulucam) .

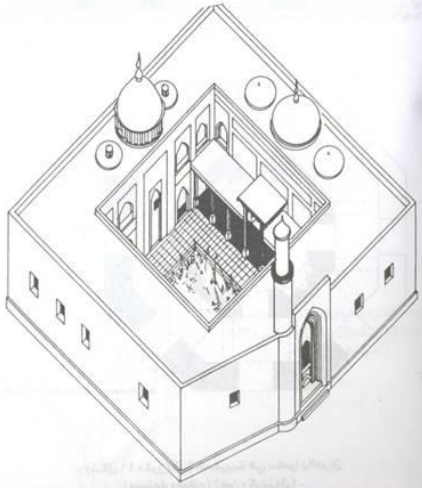

(شكل ٤٦) المدرسة المرجانية ببغداد (عن ، هيلنبراند) .

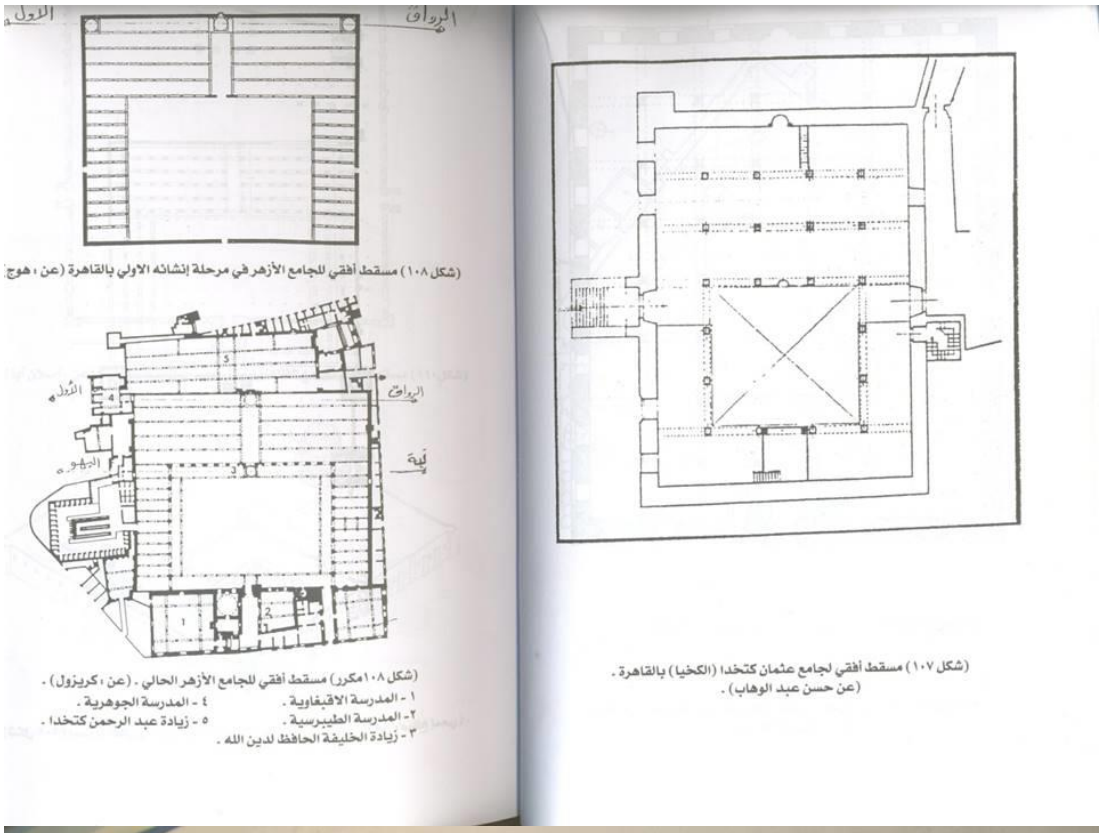

(شكل ١٠٨) مسقط أفقي للجامع الأزهر في مرحلة إنشائه الاولي بالقاهرة (عن ، هوج

(شكل ١٠٨مكرر) مسقط أفقي للجامع الأزهر الحالي . (عن ، كريزول) .
١ - المدرسة الاقبغاوية .
٢- المدرسة الطيبرسية .
٣ - زيادة الخليفة الحافظ لدين الله .
٤ - المدرسة الجوهرية .
٥ - زيادة عبد الرحمن كتخدا .

(شكل ١٠٧) مسقط أفقي لجامع عثمان كتخدا (الكخيا) بالقاهرة .
(عن حسن عبد الوهاب) .

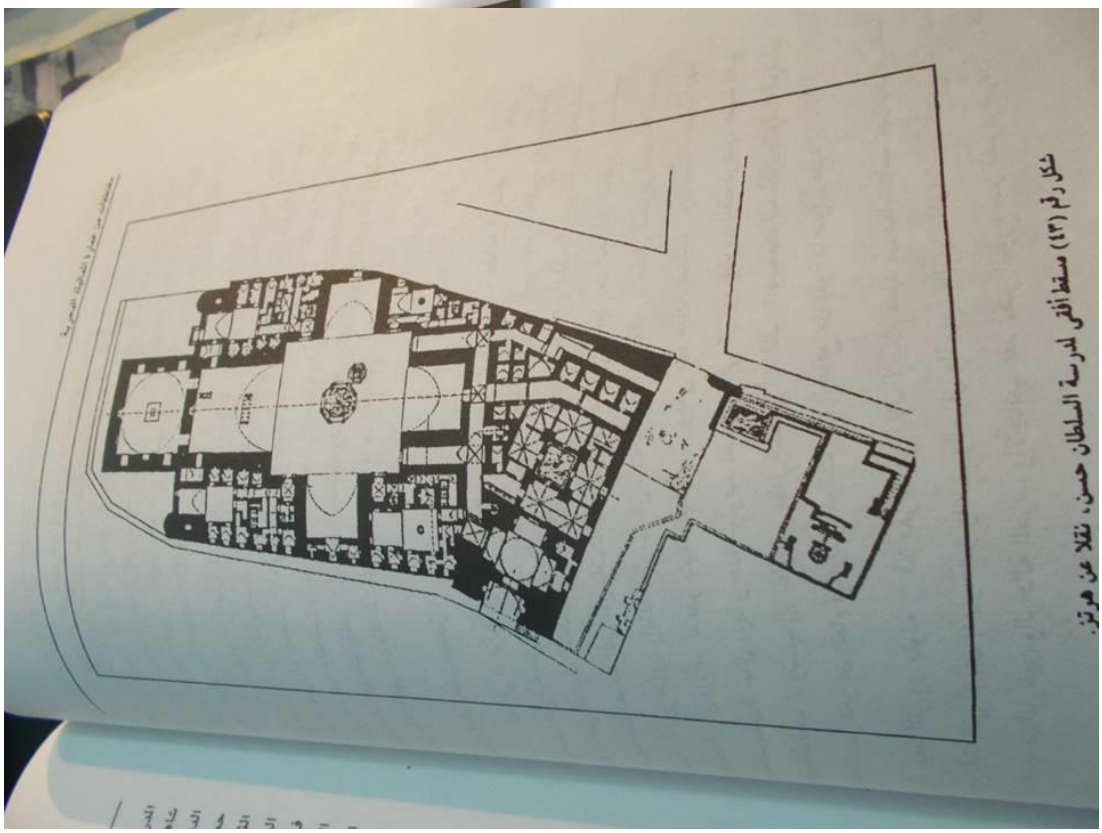

شكل رقم (٤٣) مسقط أفقى لمدرسة السلطان حسن ، نقلا عن هوتز

(شكل ١٤٠) مسقط أفقي للمدرسة المالكية الملحقة بمدرسة السلطان حسن بالقاهرة . (عن : Herz Pascha) .

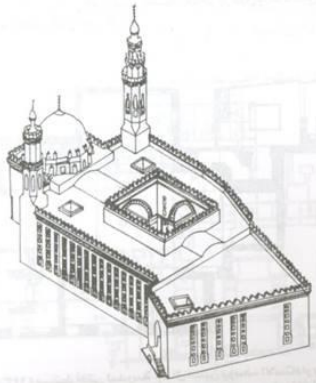

(شكل ١٤١) مدرسة السلطان حسن بالقاهرة. (عن : هيلتبراند) .

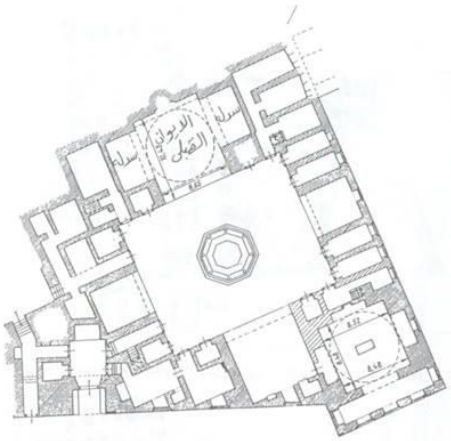

(شكل ١٣٨) مسقط أفقي لمدرسة صرغمتش بالقاهرة (عن Kessler) .

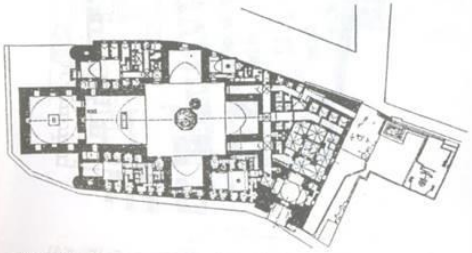

(شكل ١٣٩) مسقط أفقي لمدرسة السلطان حسن بالقاهرة . (عن : Herz Pascha) .

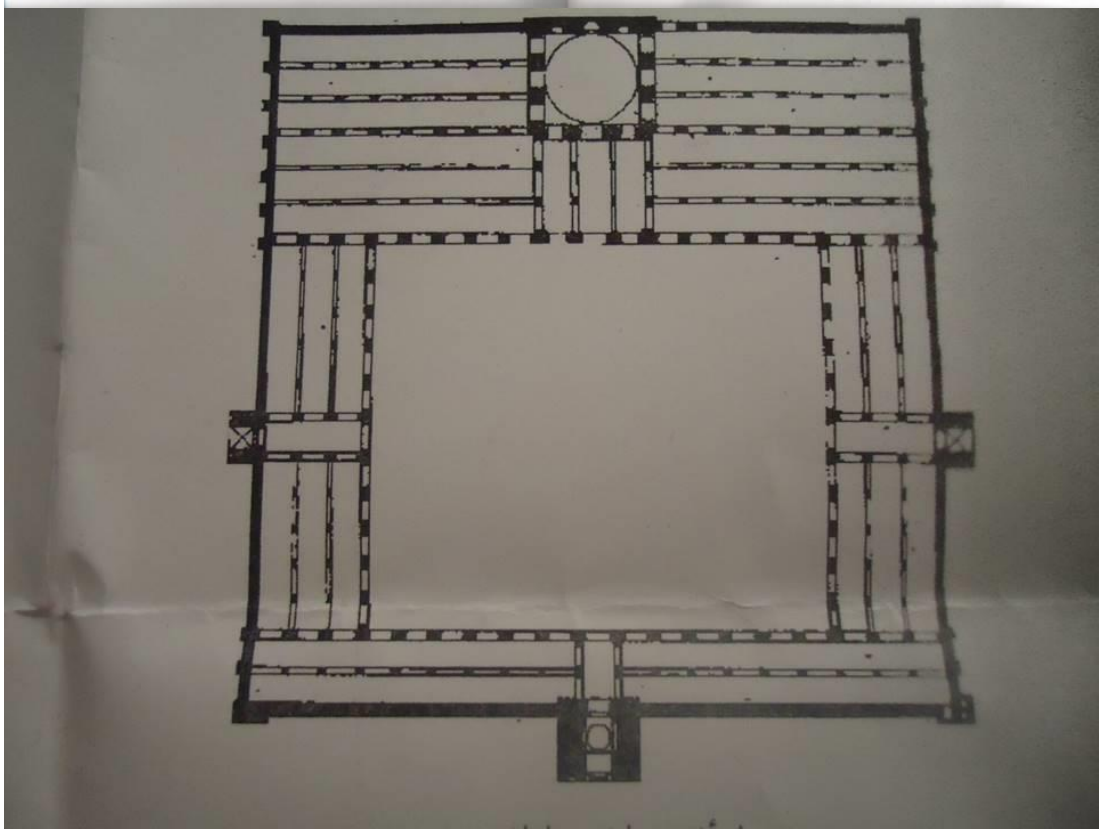

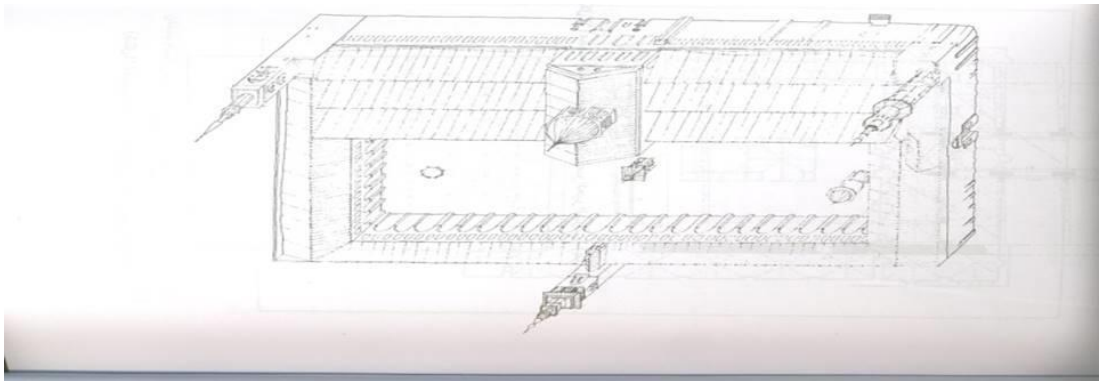

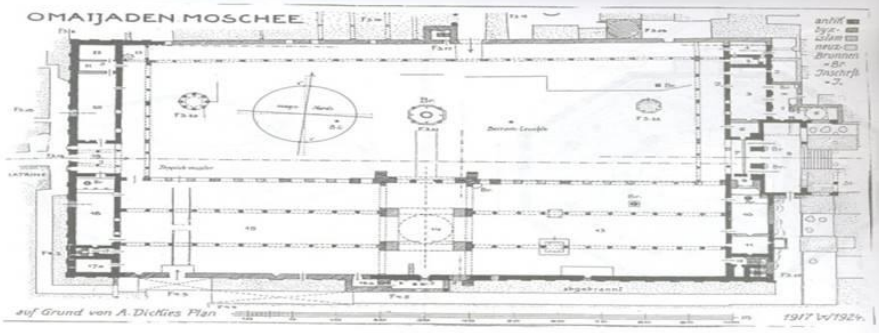

(شكل ٦١) مسقط افقي للجامع الأموي بدمشق . (عن : فلزنجروفتزنجر) .

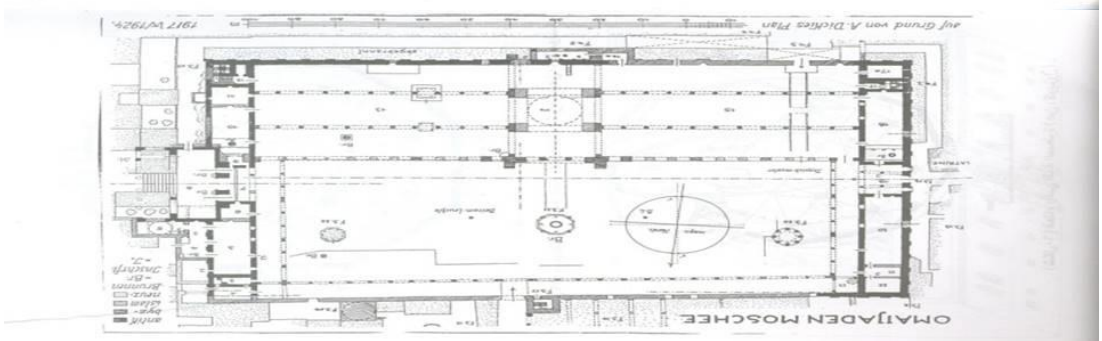

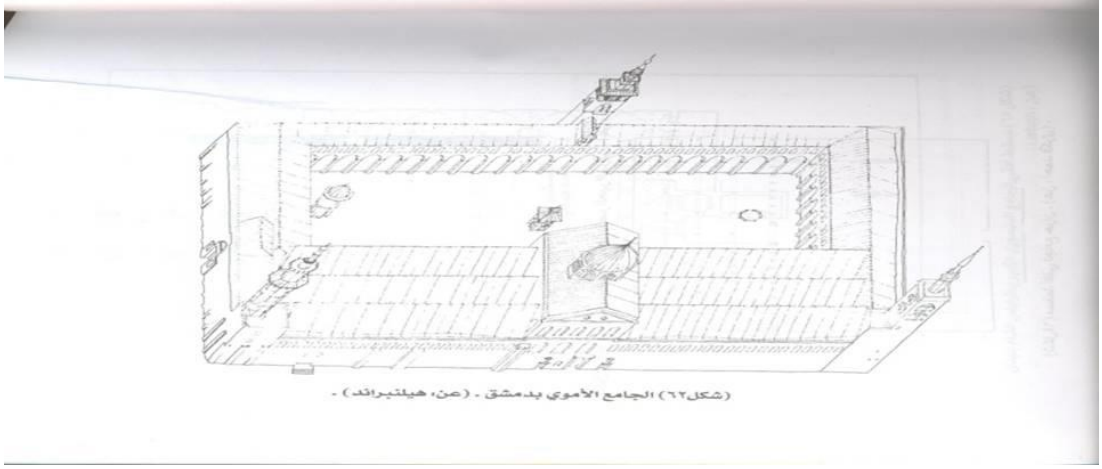

(شكل٦٢) الجامع الأموي بدمشق . (عن: هيلتبراند) .

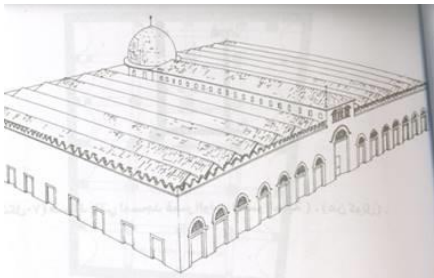

(شكل ٦٨) منظور للجامع الأقصي في عهد الخليفة العباسي المهدي. (عن ، هيل

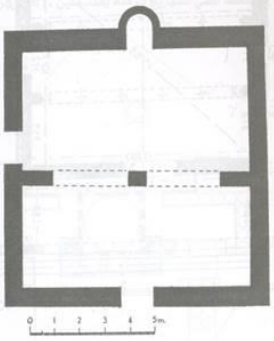

(شكل ٦٩) مسقط أفقي لمسجد قصر جبل سيس . (عن ، كريزول) .

(شكل ٦٦) مسقط أفقي للجامع الأقصي الحالي . (عن ، كريزول) .

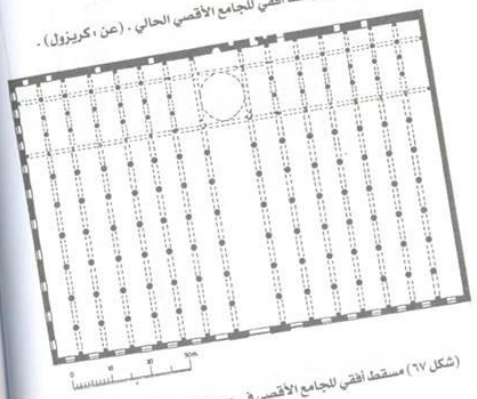

(شكل ٦٧) مسقط أفقي للجامع الأقصي في عهد الخليفة العباسي المهدي
(عن ، كريزول) .

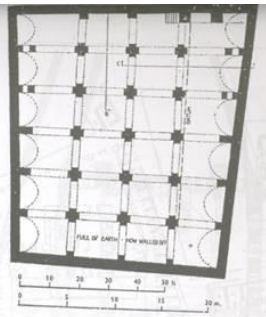

(شكل ٧٢) مسقط أفقي لصهريج الرملة بفلسطين . (عن ، كريزول) .

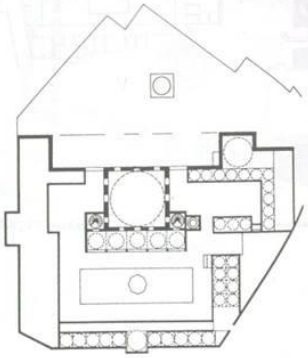

(شكل٧٣) مسقط أفقي لجامع خسروباشا ضمن مجمعه بحلب (عن ، جودوين) .

(شكل٧٠) مسقط أفقي لمسجد قصر الوليد (قصر المنية) . (عن كونل) .

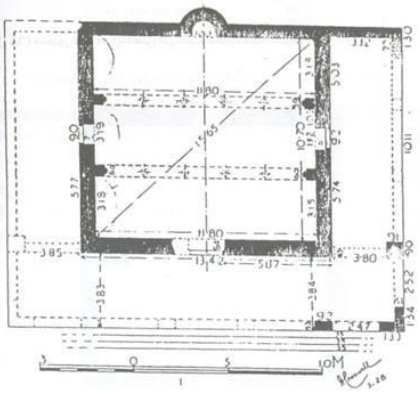

(شكل٧١) مسقط أفقي لمسجد قصر الحلابات . (عن ، كريزول) .

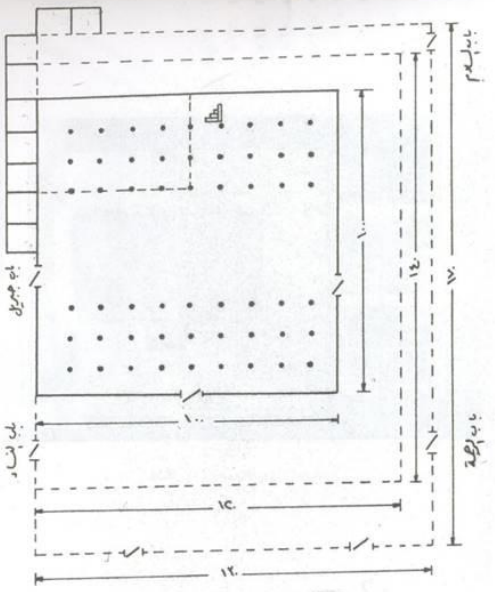

(شكل ١٨) تصور لتخطيط المسجد النبوي الشريف في عهد الرسول (صلي الله عليه وسلم) وزيادة الخليفتين عمرو عثمان (رضي الله عنهما) (عن ، الشهري) .

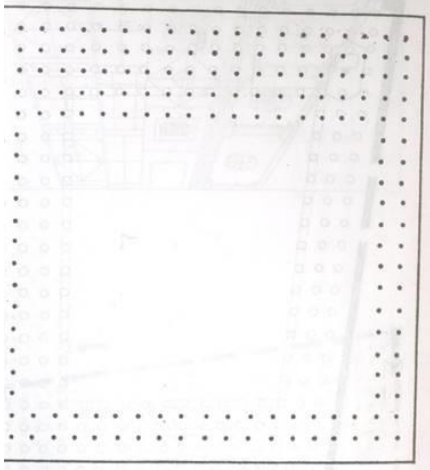

(شكل ١٩) تصور لتخطيط المسجد النبوي الشريف عقب زيادة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كما رجع فريد شافعي . (عن ، فريد شافعي) .

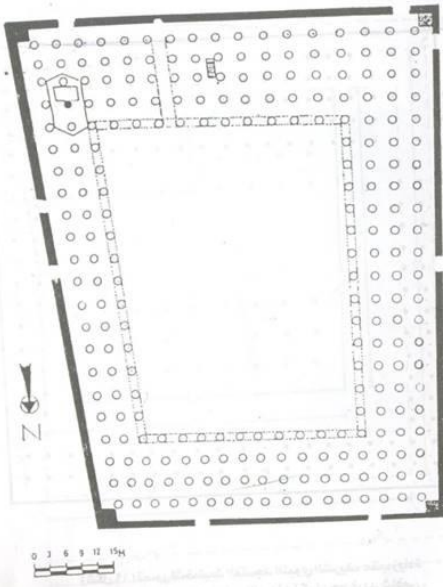

(٢٠) مسقط أفقي للمسجد النبوي الشريف عقب عمارة الوليد بن عبد الملك (عن، محمد حمزة الحداد) .

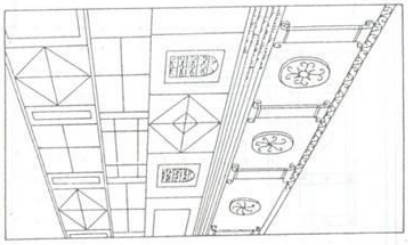

(شكل ٢٢) الكسوات الزخرفية لجدار القبلة كما تصورها سوفاجيه .

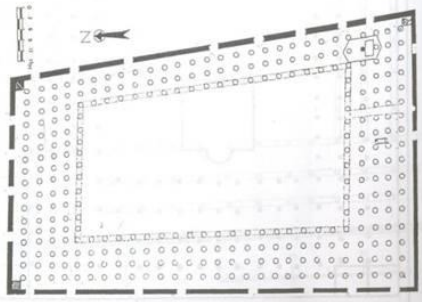

(شكل ٢١) مسقط أفقي للمسجد النبوي الشريف عقب عمارة المهدي العباسي (عن، محمد حمزة الحداد) .

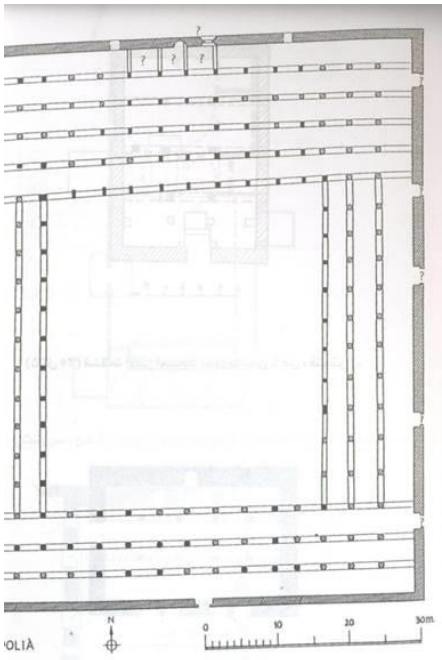

(شكل ٢٤) مسقط أفقي للجامع الكبير بصنعاء اليمن (عن ، كريزول) .

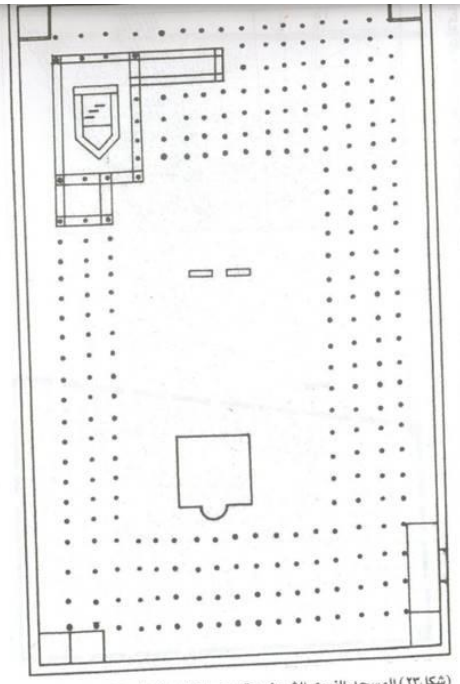

(شكل٢٣) المسجد النبوي الشريف عقب عمارة السلطان المملوكي الجركسي الأشرف قايتباي (العمارة الثانية) ومابه من حواصل لمؤلف مجهول لمخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (رقم ٦٥٦٥ غربي) . (عن سوفاجيه) .

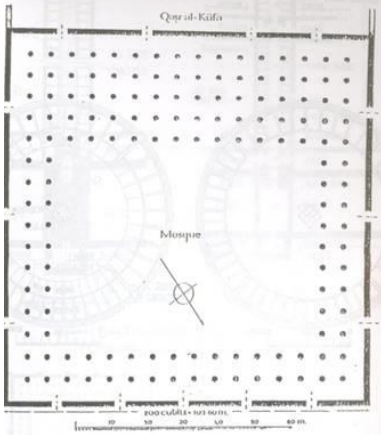

(شكل ٣١) مسقط أفقي لجامع الكوفة عقب عمارة زياد بن أبية (عن ، كريزول) .

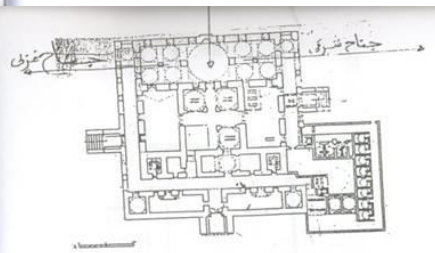

(شكل ٢٩) مسقط أفقي للمدرسة الاشرفية الكبري بتعز باليمن (عن هيئة الاثار اليمنية) .

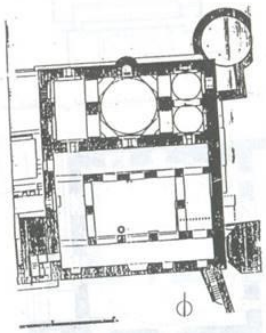

(شكل٣٠) مسقط أفقي للمدرسة السكندرية او الاسكندرية بزبيد في اليمن (عن هيئة الاثار اليمنية) .

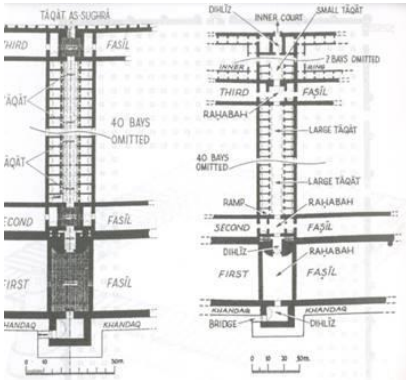

(شكل٣٣) مدينة بغداد ، الطاقات (الأيمن) تصور (Lassner) ، (والأيسر) تصور (Creswell) .

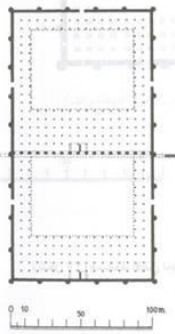

(شكل٣٤) مسقط أفقي للمسجد الجامع بمدينة بغداد (عن، كريزول) .

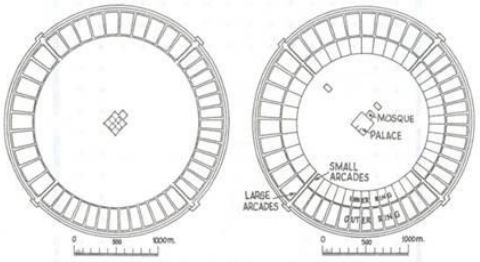

(شكل٣٢) بغداد مدينة المنصورة المدورة (الأيمن) تصور (Lassner) ، (والأيسر) تصور (Creswell) .

شكل (٣٨) : المسقط الأفقي للجامع الأزهر في العصر الفاطمي .

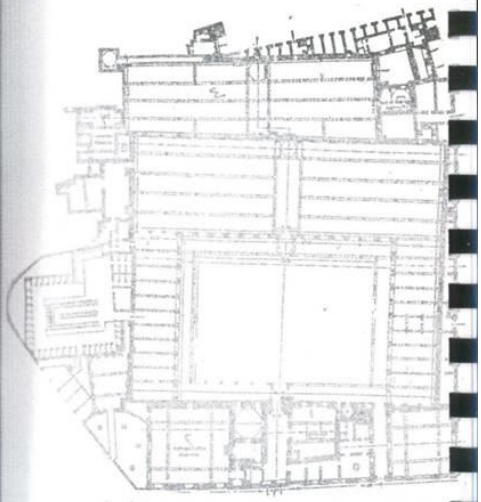

شكل (٣٧) : المسقط الأفقي للجامع الأزهر بعد الإضافات التي طرأت عليه .

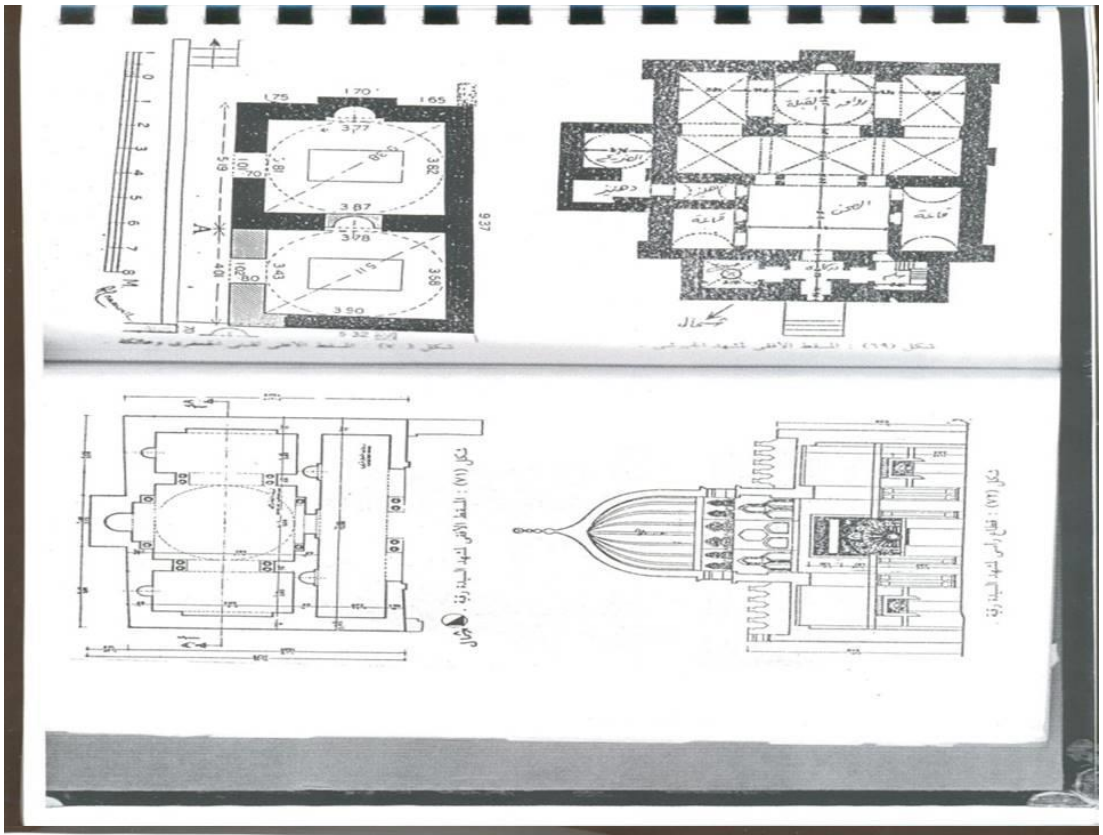

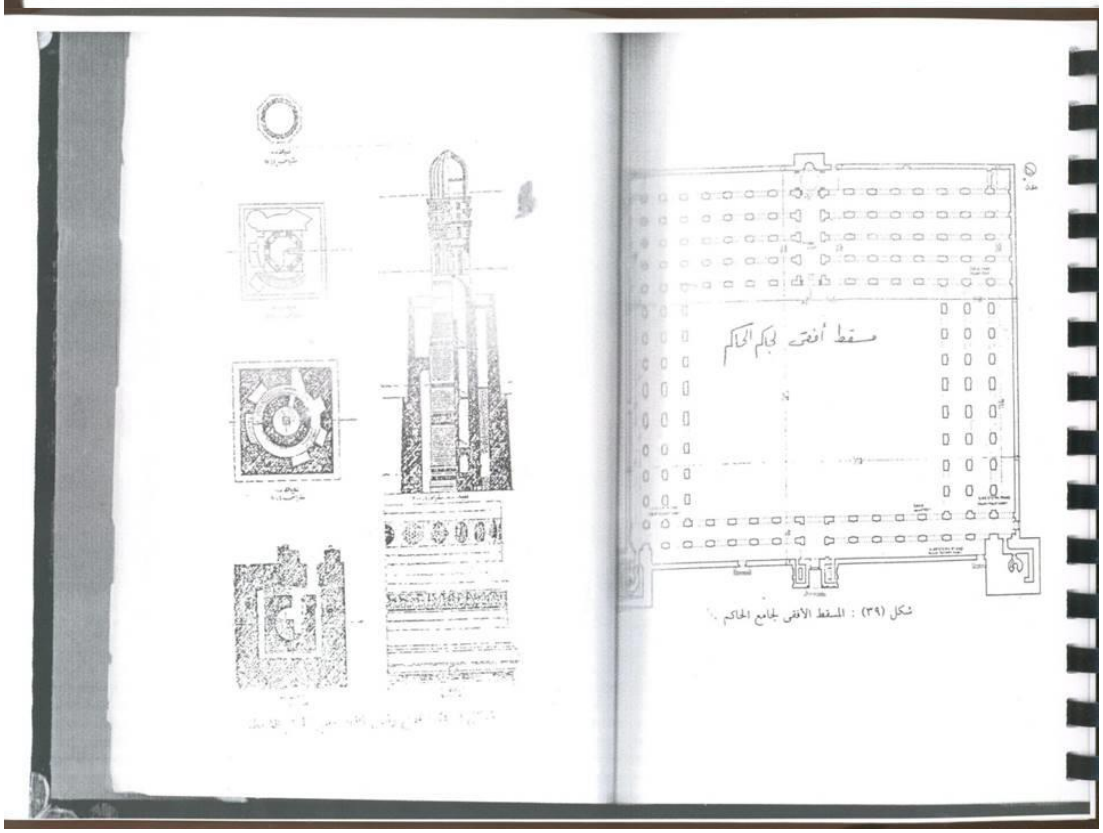

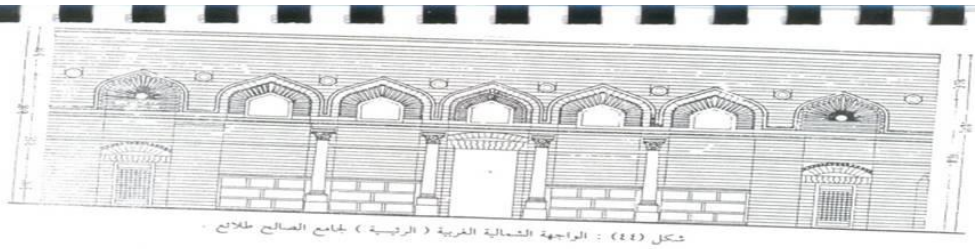

شكل (٤٤) : الواجهة الشمالية الغربية (الرئيسية) لجامع الصالح طلائع .

شكل (٤٥) : مسقط افقى لبيت ذى صحن وأربعة ايوانات متعامدة بالفسطاط .

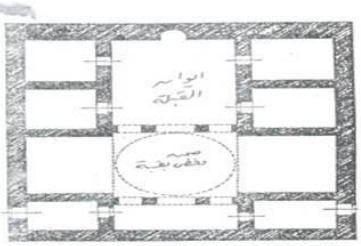

شكل (٤٦) : المسقط الافقى للدرسة كرمشكين فى بصرى الشام ٥٣٠ هـ .

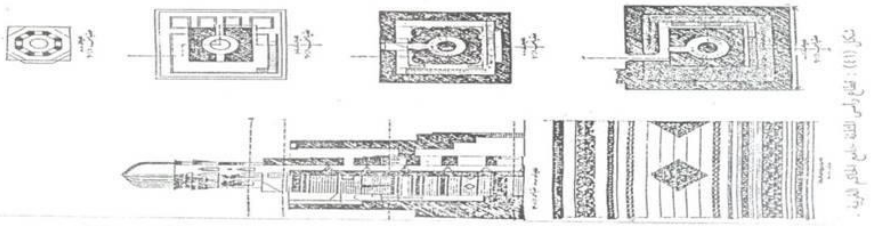

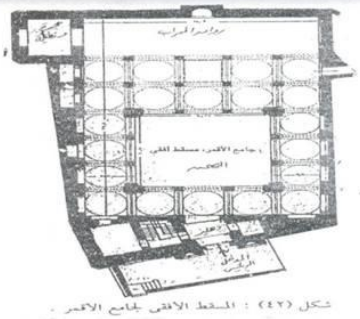

شكل (٤٢) : المسقط الافقى لجامع الاقمر .

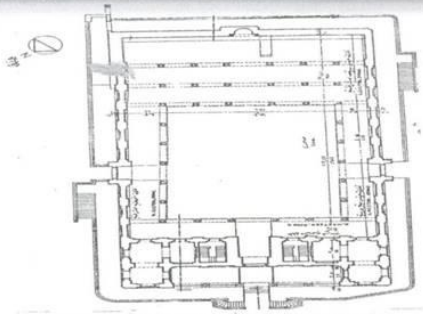

شكل (٣٤) : المسقط الافقى لجامع الصالح طلائع .

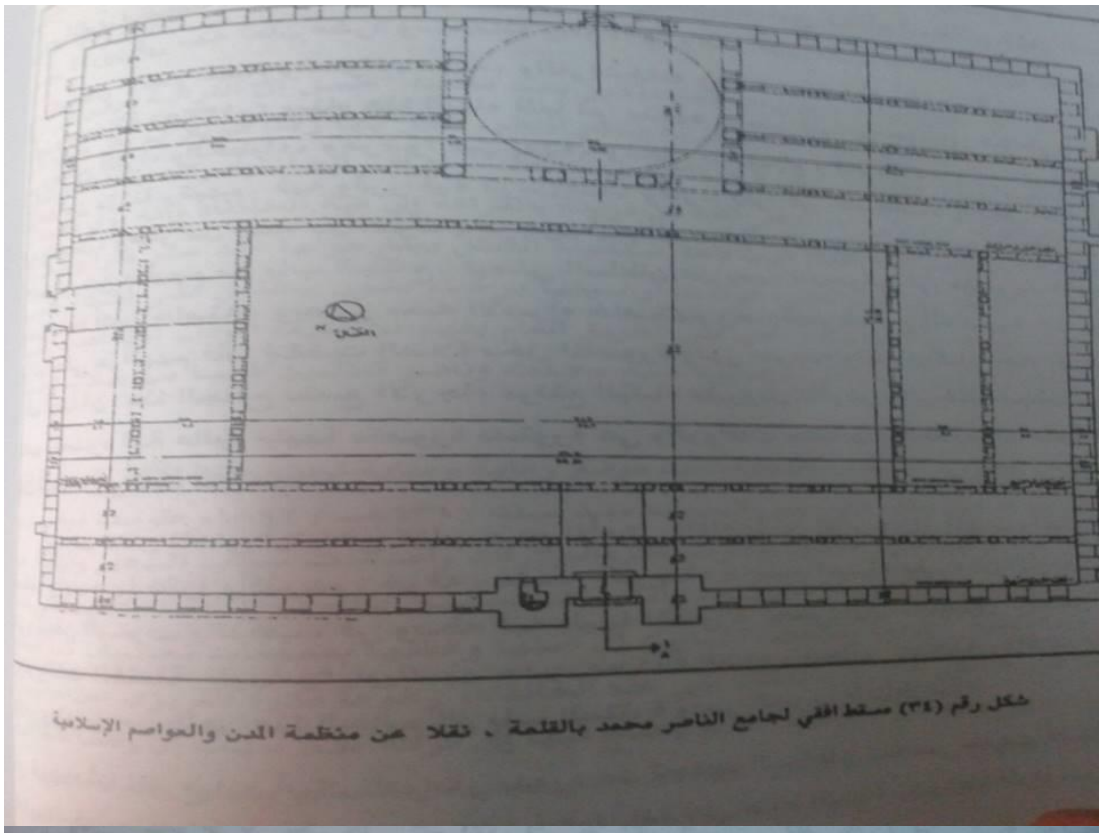

شكل رقم (٣٤) مسقط افقي لجامع الناصر محمد بالقلعة ، نقلا عن منظمة المدن والعواصم الإسلامية

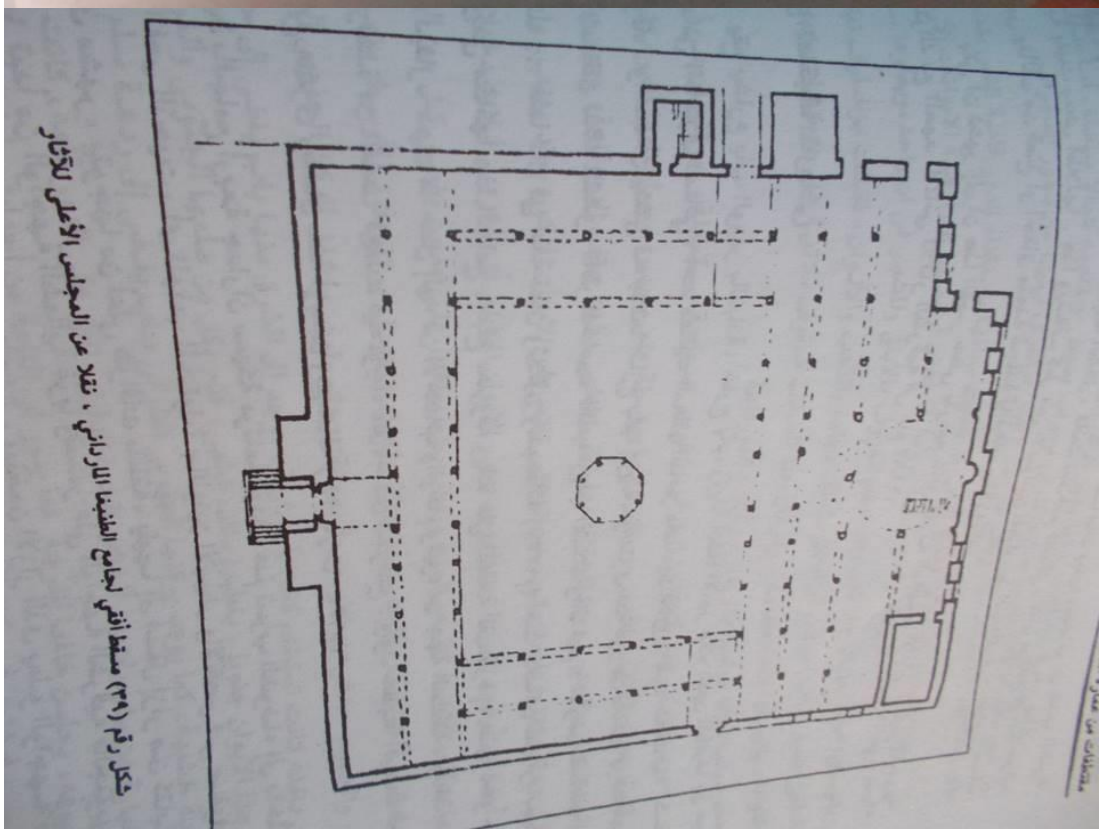

شكل رقم (٣٩) مسقط افقي لجامع الفنيدق الارباني ، نقلا عن المجلس الأعلى للآثار

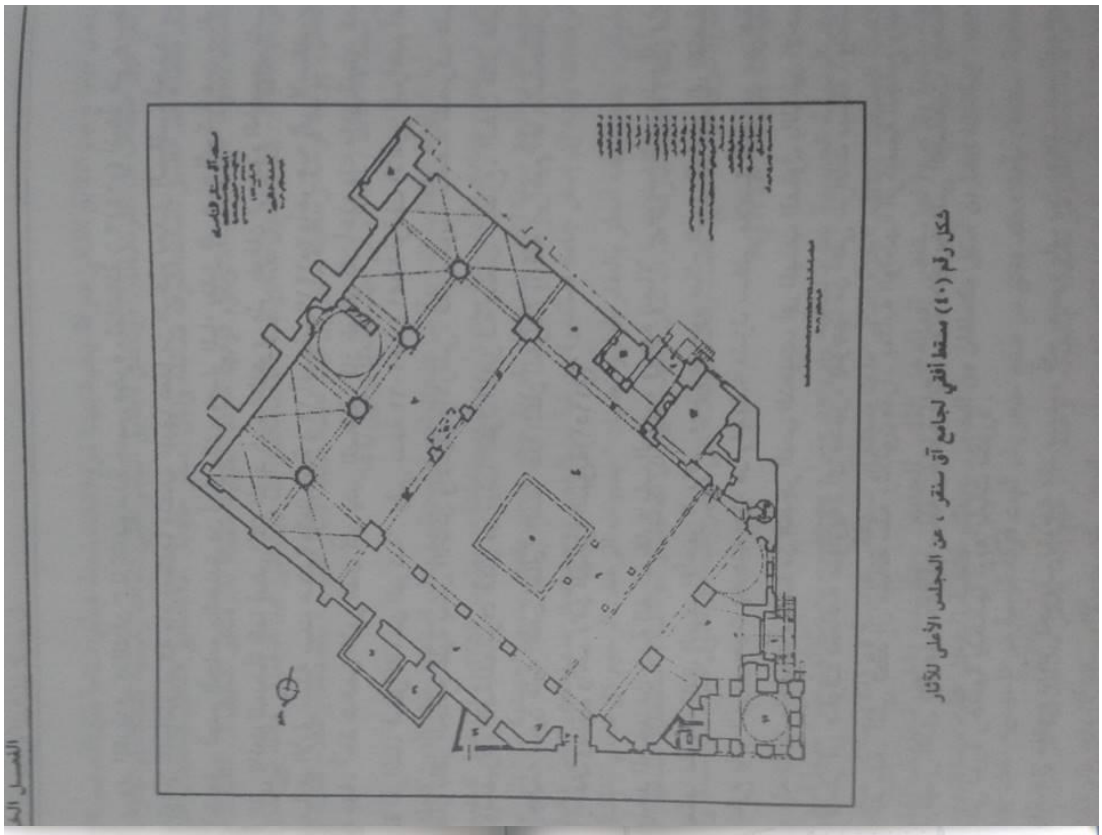

شكل رقم (٤٠) مسقط أفقي لجامع آق سنقر ، عن المجلس الأعلى للآثار

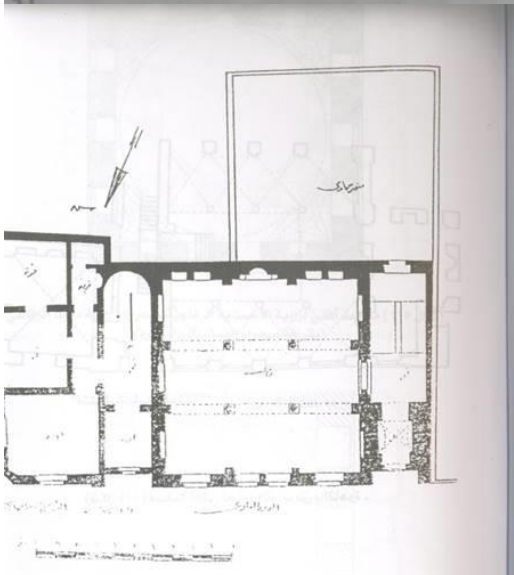

(شكل١١٣) مسقط أفقي لجامع مراد باشا بالقاهرة .

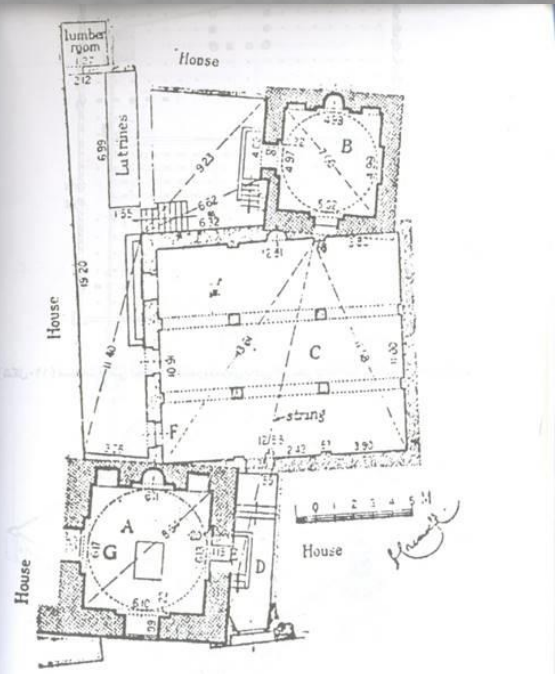

(شكل١١٢) مسقط أفقي للمدرسة البندقدارية بالقاهرة . (عن ، كريزول) .

انظر التقرير رقم ١٢٨ لوحة رقم ٩٢

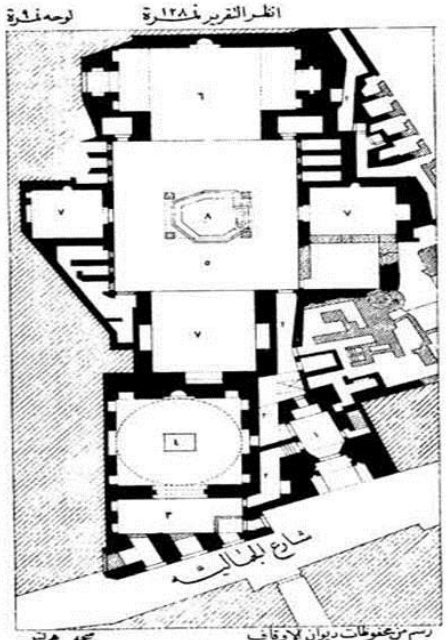

رسم من محفوظات ديوان الأوقاف

هرتس ٩٢

متر

خانقاه السلطان بيبرس
بشارع القلعة بالقاهرة

جدول

	بناء من تاريخ الأثر
	أجزاء تغيرت في الأثر
	بناء مستجد
	محلات سكن
١	مدخل
٢	الحارة
٣	دكة الضريح
٤	الضريح
٥	الصحن
٦	الليوان الشرقي (معقود)
٧	الوتة
٨	حنفية مستجدة ومستعملة الآن للوضوء
٩	سبيل

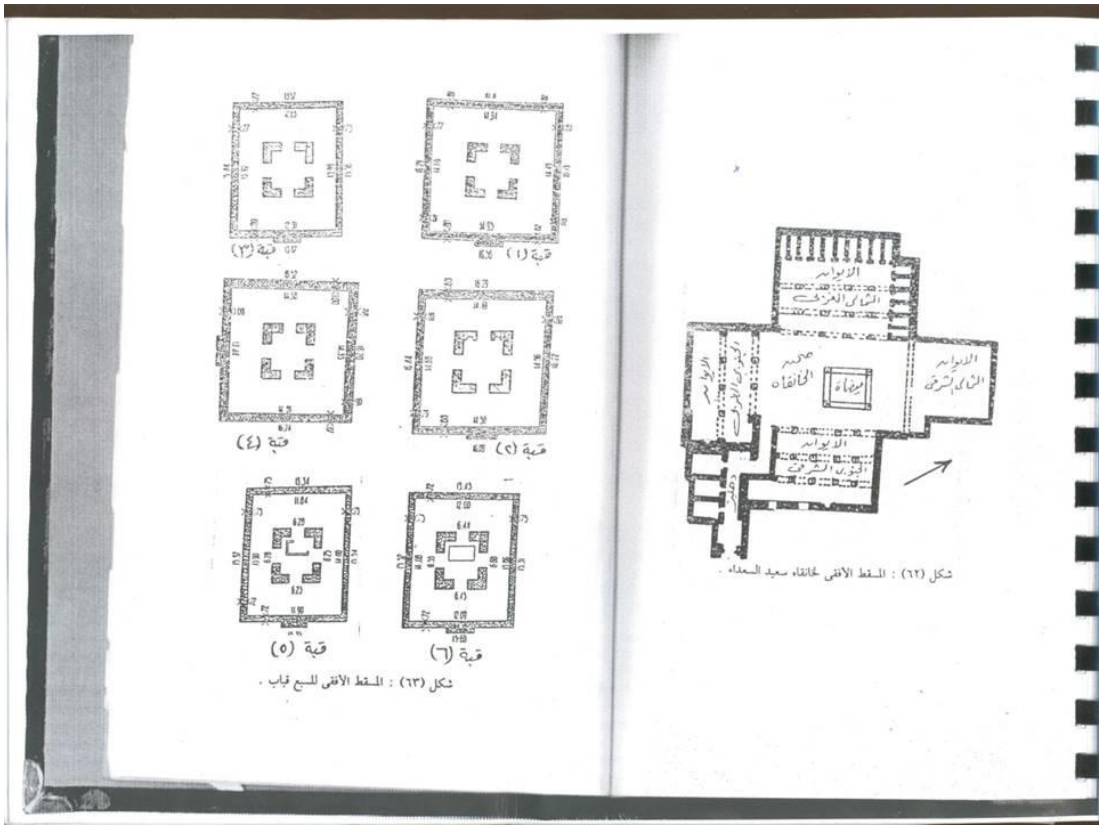

شكل (٦٢) : المسقط الأفقي لخانقاه سعيد السعداء .

شكل (٦٣) : المسقط الأفقي للسبع قباب .

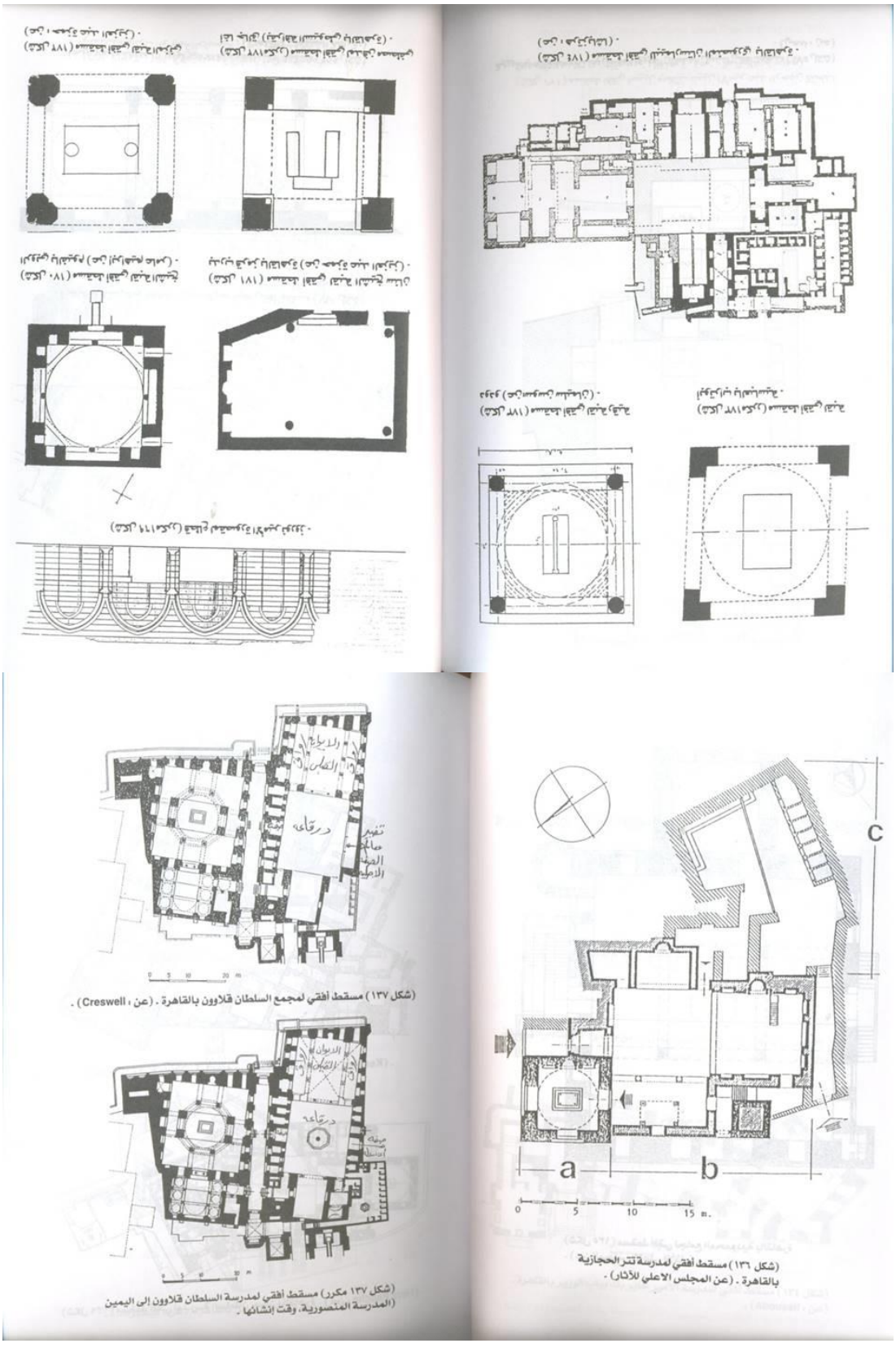

(شكل ١٣٦) مسقط أفقي لمدرسة تتر الحجازية بالقاهرة . (عن المجلس الاعلي للآثار) .

(شكل ١٣٧) مسقط أفقي لمجمع السلطان قلاوون بالقاهرة . (عن Creswell) .

(شكل ١٣٧ مكرر) مسقط أفقي لمدرسة السلطان قلاوون إلى اليمين (المدرسة المنصورية. وقت إنشائها .

قائمة المراجع والمصادر

مدرسه الامير صرغتمش Google Drive – pptx.

خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجماليه Google Drive – pptx.

مدرسه السلطان الناصر حسن Google Drive – pptx.

بوربوينت مجموعه المنصور قلاوون Google Drive – pptx.

جامع الظاهربيبرس البندقدارى Google Drive – pptx.

خصائص العماره المملوكيه البحريه Google Drive – pptx.

- حسن قاسم : جوله بين الاثار الاسلاميه، مكتبة الاسكندريه، ٨ اجزاء

- حسنى محمد نويصر: الاثار الاسلامية فى العصرين الايوبي والمملوكي

- سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحين، ج ٣، ٤.

-محمد حمزه الحداد: المجمل فى الحضاره الاسلاميه.

-حسن الباشا حسن: الاثار الاسلاميه.

- محمد محمد امين : الاوقاف والحياه الاجتماعيه.